المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
مكة المكرمه

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٨٧٦

الوحدة الإسلامية في النثر العربي الحديث

في الفترة [١٣٠٠ - ١٣٦٠هـ / ١٨٨٢ - ١٩٤٠ م]

رسالة لدرجة العالمية (الدكتوراه) في الأدب العربي الحديث

إعداد الطالب
حبيب حنش حمدان الزهراني

إشراف الأستاذ الدكتور
حسن أحمد الكبير

١٠٤٠٩٦

١٨٧٦

جامعة أم القرى مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

الجزء الأول

١٤١١هـ / ١٩٩١م

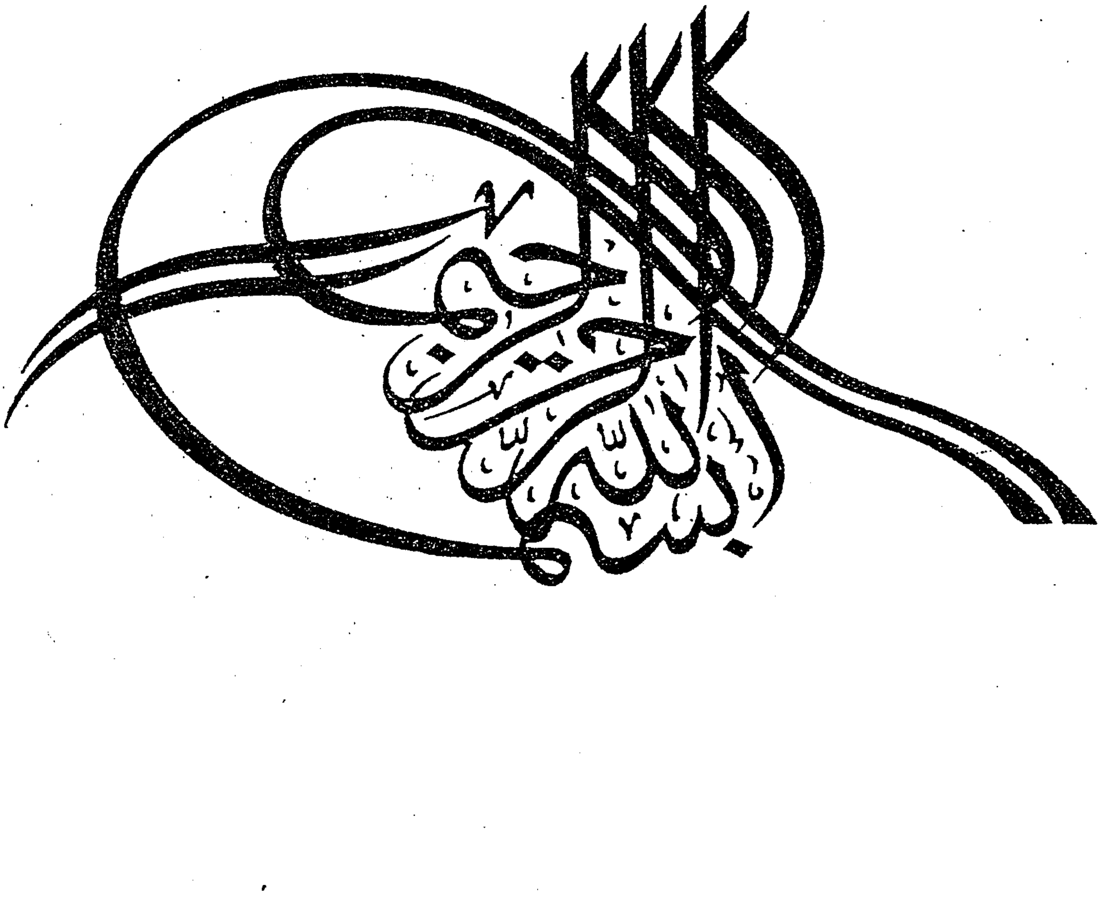
بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ
فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

سورة التوبة

المقدمة

إنّ الحمد لله ،نحمده تعالى ونستغفره ونستهديه،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ،من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ،صلى الله عليه وعلي آله وصحبه ومن اقتفى أثره واتبع شريعته إلى يوم الدين وسلّم تسليما كثيرا ..

أمّا بعد :

فلم تعد منزلة الأدب العالية ودوره فى حياة الأمم والشعوب خافية على الناس، إذ هو عامل قوي فى توجيه المجتمع وتلوين الحياة والسيطرة علي فكر الأمة ونزعاتها ، والسير بها إلى معارج الكمال والرفعة والمجد .

فهو بقدراته الخلّاقة ونبضاته الدافقة، وصوره البديعة، وتعابيره الرائعة الممتعة ،يتغلغل إلى أعمق تيارات الحياة وأخص بواطن النفوس، فيساعد على تجلية الغوامض وكشف الأسرار الحياتية والنفسية ومكنوناتها الدفينة ، ذلك إضافة إلى الإمتاع واللذة ،وتلك الروعة التي يشمل بها القارئ والسامع، والتأثير الذى يبعثه فيهما ، مما جعل الأمم والجماعات تُعنى بآدابها وروائعها وتحافظ عليها وتفخر بها ، وتعدها من كنوزها التى لاتنفد ، ولاتفرّط فيها بأيّ حال من الأحوال .

وحسب الأدب فى شرف منزلته أنه يرتفع بالنفوس إلى معالي الأمور وأنبل الخصال ،ويهفو إلى قيادة البشر نحو معارج الفضيلة وأرفع معاني الإنسانية ومُثُلها ، وهذا - لعمري - من أبرز أهداف رسالة الدين إلى الناس ، فهو إنّما جاء لإسعاد البشرية وتحقيق كرامتها وهدايتها فى استمتاعها بالحياة على كر العصور. فالدين و الأدب كلاهما ضرورى للإنسان ،وكلاهما يتوجه نحو الكمال والرفعة ، لكن لكل من الأدب والدين وسيلته التى يتخذها إلى تلك الغاية النبيلة ،ولئن اختلفت الوسيلة بين كل منهما ، فهو اختلاف الأسلوب فى إصابة الغاية وتباين الأداء مع ثبات الجوهر، مادام المجال واحدا فى محوره حول الإنسان والحياة .

والانسان روح وجسد ،وعقل وعاطفة ،والنفس السوية لابد لها من غذاء يلبّي هذه الجبلّة بلونيها المادي والمعنوي ، ولن يكون الإنسان إنسانا يملك المشاعر الرقيقة والعواطف النبيلة إلا عندما تأخذ الروح غذاءها وتنمي مواضع الانسانية منه ، وما أجدى الفن البديع لتحقيق هذا الغذاء ، وما الأدب بأشكاله المتعددة الا فن إنساني رفيع.

هذا هو الأدب كما تفهمه الأمم الواعية وكما يدركه أولو الألباب، نشاط إنساني وجهد إبداعي عظيم، يقصد إلى سعادة الانسان ورفعته، وإنّ من الغبن وسوء التقدير أنْ تُهدر هذه الطاقة الخلّاقة فى غايات هزيلة ومرامٍ قصيرة ضئيلة.

فالأدب رسالة عظيمة ، وله غاية خطيرة ذات أبعاد تربوية خلقية إقناعية ،يمضى إليها لتحقيق غاية الحياة ذاتها في الارتباط بمعايير الوجود الحق والخير والجمال ، وهو باقٍ مابقي الإنسان لأنه مرتبط بالمجتمع يقوده إلى الحق والخير والجمال ، ومادام الأدب كذلك فلا بد له من مضمون يحمله وفكر يعبر عنه حتى تتحقق رسالته ويؤتي أكله، وإلّا فإنّه خواء وفراغ .

يُقال هذا وقد وُجِد فى بعض الأمم والبيئات من قال : إن الأدب مطلوب لذاته ،ولا يريد منه صاحبه إلا الجمال الفني دون أن تكون ثمّة منفعة خاصه سوى متعة الجمال نفسها ، أى أنّه إنّما كتب للتسلية والإثارة والاستمتاع ،مما عُرِفَ بنظرية (الفن للفن) والتي يكفي عند أربابها لكي يكون العمل فنا أن يُحكم عليه من ظاهره وشكله الفني دون التقيّد بمضامين معيّنه، أو ربط بين الجمال والمنفعة، إذ الجمال شكلي ذاتي بعيد عن الغايات المتعددة ،ولكل أمة أن تنظر إلى الفن ورسالته من خلال وعيها وروحها واتجاهها،لأن مفاهيم الأمة وفكرها هو الذى يحدّد اتجاه الأدب وتوجه النقد فيها.

وأمّا أمتنا الإسلامية بمفاهيمها ومنهجية تفكيرها،وارتباط ذلك بعقيدتها مقياسا شاملا متوازنا،فلا تعترف بهذه النظرية ولاتؤمن بها ، وإن

وجد في بعض مجتمعاتنا من نادى بها وأراد إحياءها بعد ما دفنها أهلها وأعرضوا عنها .

حقا إنّ العمل الأدبي تعبير فني ، ولكي يظل العمل فنًا أدبيًا لاقيام له بدون شكل فنيّ ، ويظل العمل منسوبا إلى الفن ما دام محققا للتأثير والفاعلية والايحاء ، والشكل الفنى يجب المحافظة عليه ، والمضمون وحده لا يقوم بالعمل الفني ، فمهما تكن المعاني شريفة ، والفكرة إنسانية عميقة ، والغاية نبيلة سامية ، إلا أنها مهلهلة البناء سطحية الصور والأخيلة لاعمق فيها ولا جمال ، لاتعتبر فنًا كاملا ولا عملا أدبيا ناجحا ، ولاتوحي بشيء مالم يتلاحم المضمون بالشكل الفني ، وتُزَف المعاني بأشكال قشيبة الجمال ، من الصور والإيقاع والأساليب المميزة الأداء .

والأمة المؤمنة أمة رسالة ودعوة ، فليس بِدعا أن تكون أولى الأمم حفاوة بالأدب وأكرمها لاهله ، وخيرها فى الاستفادة منه ، ولذلك فإنها لاترضى له أن يتّجه إلى إثارة الغرائز أو الاستهانة بالقيم والعادات أو أن يعيش في حدود حياة صاحبه ومشاكله ، بل تدعو الأديب ليشعر بأمته ، ويكون له أفق أرحب ومجال أوسع وآمال إنسانية أشمل ، يسمو بها وتسمو بها أمته إلى عالم الخير والفضيلة والمُثُل العليا .

لذا أدركت الامة الاسلامية وغيرها من الأمم ان الأدب ليس لونا من الترف أو ضربا من العبث ، فالأدب ذو أثر عظيم على الناس والحياة ، وأثر كلمته وصداها لم يكن قويا فى القديم أو لدى العرب فحسب ، بل ذلك عند كل الأمم فى القديم والحديث ، ولو أردنا التدليل على تأثير الأدب في القديم والحديث وبيان مكانته وأثره لأعيانا الحصر ، وحسبنا أن نذكر أن العرب كانوا إذا نبغ فيهم الشاعر أقاموا الافراح ومدّوا الموائد اغتباطا بظهوره بينهم ، وإن نبيّنا عليه الصلاة والسلام كان له شعراؤه الذين يذبّون عن دعوته ، وقد أكرمهم وأعطاهم ودعا لهم ، وأن الخلفاء والأمراء كانوا يتبارون في إكرام الشعراء والاكثار منهم حولهم ، ويعطونهم المِنَح التى لايبلغ عطاؤهم للعلماء معشارها ، وأن الحركات الكبرى التي قامت في العصر الحديث فى الغرب قد سبقتها نهضات أدبية مهّدت لها وبشّرت

بها كالثورة الفرنسية والوحدة الايطالية وثورة روسيا البلشفية وغيرها .

هكذا نجد الأدب نعمة كبرى فإذا لطف وعطف كان برا ورحمة وأمنا وأمانا ، وكان نسمة عليلة تبعث الحياة وتشرح الصدور، وإذا ثار وغضب كان زلازلا وبراكينا تقذف شُواظا وحُمَما ، وريحا عاصفة تعصف بكل ما يصادفها ، فأحرى به أن يكون سلاحا للأمة تلجأ إليه فى أكثر أحوالها وتوجّهاتها .

على هدي من هذا الفهم لوظيفة الأدب وغايته في المجتمع والحياة اتجه هذا البحث إلى موضوعه (الوحدة الاسلامية فى النثر العربي الحديث) دارسا ومنقبا ، بيد أنّ هناك أمرا آخر قاد البحث وساعده في الاتجاه إلى هذه الوجهة كي تكون منطلقا له ، فالذى كان ينبىء به الأدب الحديث في مطلع هذا العصر هو ارتباطه الجليّ بالفكر في ميدان الشعر والنثر، فلقد ساعدت ظروف المجتمع العربي فى الفترة التى تناولها البحث (١٣٠٠-١٣٦٠) على تأكيد الوظيفة الاجتماعية للأدب، فقد كان الكفاح هو السمة السائدة فى البلاد العربية آنذاك ،كفاح ضد الساسة الظلمة الطامعين ،الذين يسعون إلى مصالحهم الذاتية على حساب شعوبهم ، وكفاح ضد الأجانب المستعمرين الذين تسلّطوا على شعوبهم ونَهَبوا خيرات البلاد ومنافعها .

لاغرابة أمام هذه الظروف الحرجة اوالمسئولية الملقاة على كواهل أرباب الفكر والبيان أنْ تتحول مهمّة الأديب من فنان يخلق الصور الجميلة والتراكيب الرائعة، ويجرى خلف حوك الألفاظ إلى مفكّر واع يسعى لرسم طريق النجاة لأبناء أمته.

وقد أكّد هذه الحقيقة كثير من مؤرخي هذا الأدب ودارسيه ، منهم جرجي زيدان في (تاريخ اداب اللغة العربية ٤/ ٢٠٥) وهاملتون جب في (دراسات فى حضارة الاسلام ٣١٨) الذى يقول عن طبيعة الادب العربي فى هذه الفترة : إنّه "إذا اعتبرت الأقطار العربية من هذه الزاوية وجدت أدبها الحديث معيارا صادقا للحركات الفكرية التى تعتلج فيها ، بل لعله

المعيار الوحيد الذى نستطيع به أن نميّز الطبيعي من المُصطنع على نحـــو واضح حاسم" .

كان من الأسباب الرئيسية التى وجهتني إلى اختيار هذا الموضـــوع والمضيّ به إلى غايته مايلي :

إن النثر وعاء لفكر الأمة ومشعل لها ،كما أنه ظرف عقائد هـــا وانفعالاتها ومقياس رقيّها واتقاد وعيها ،اذ هو يسجّل ماوصلت إليه الأمـــة من دقة فى التفكير وعمق في التقدير، ثم إن هذا النثر قد أصابه التجديـــد ومر به عصر النهضة فبعث فيه روحا قوية و حياة جديدة جعلته ينطلق فـــي صور بديعة وأساليب عربية قويمة، أعادت له روحه القوية الصافية وديباجتـــه المشرقة فما أحرى المرء أن يطّلع على ذلك ويقبس منه فوائد ودررا وقد ولـــج فى شتى المناسبات والالوان التى فتحها أمامه العصر الجديد .

ان النثر الفنى العربي متأثر فى روحه البلاغية بسحر البيان العربـــي الذى جاء القرآن الكريم بأعلي طرزه وأفضل أنماطه .

وإنّ سمو النثر من حيث اللفظ والمعنى والاداء والمنهج يرجع الـــي التأسي بالقرآن الكريم والتأثر ببديع أساليبه و تراكيبه العجيبة ؛ وإن روّاد النثر العربي فى ألمع صوره وأزهي عصوره إنما قبسوا ديباجاتهم من انبهارهم بجمال القرآن الأدبى وساروا على طرائقه وسبله، وبذلك تربّعوا على عـــرش البلاغة واحتلوا من الفصاحة أجمل مكان .

إن النثر العربي فى مطلع هذا العصر قد احتوى هموم الأمـــة الإسلامية والعربية وقضاياهما ، وأسدى أياد بيضاء فى حماية الثقافـــة والمحافظة على التراث، فضلا عن دفاعه عن كيان الأمة ومبادئها وقيمها ، وهـــو بذلك قاوم أعداء الأمة وفضح عملاء الاستعمار، والوقوف على هذا النثـــر بعد ذلك ليس كثيرا عليه أن تناله عناية البحث بل مما يسمو به ويزيده فضـــلا وشرفـــا .

الوحدة الإسلامية فكرة عظيمة وغاية سامية جليلة عرفت الأمة ثمرتها في كل

العصور، وحين تزعزعت فى عصرنا الحديث حاق بالأمة من الضعف والهوان والتخلف ما لاتزال تعاني منه إلي اليوم ، فلعل البحث فى هذه الوحدة العظيمة جهد في البيان و التبيّن عما تستحقه، ويجب التذكير به وعدم الغفلة عنه ، ذلك أن حال أمتنا اليوم بعد مايزيد عن نصف قرن من فترة هذه الدراسة لم يتغير فى حقيقته ، فالتاريخ كما يقال : يعيد نفسه، وتفكك الأمة المسلمة لم يشهد إلي اليوم مايعيد تماسكه وقوته بصدق ، فلعل هذا البحث المتواضع يكون مسهما بجانب من هذا التذكير والتنوير في معترك الحوالك التى تمر بها الأمة منذ مطلع عصرها الحديث إلى يومنا هذا .

إن فترة النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى - فترة زمن هذا البحث - فترة عصيبة فى تاريخ الأمة الاسلامية ، إذ سيطر الاستعمار فيها على العالم الاسلامي فكان له أكبر الأثر فى فرض الأفكار والمبادىء ، بل الزعامات والأشخاص التى تحطب في حبله وتسير فى ركابه ، فلا غرو أن يزرع كثيرا من مبادئه وأفكاره التى تخدم مصالحه وأهدافه ليجعلها مبادىء وأفكارا للأمة تؤمن بها وترضى عنها ، ويلبس أذنابه وعملائه ثياب الزعامة ووسام القيادة والعلم والإصلاح، ويجعلهم القدوة والأسوة وأن يُعشي الأبصار عن الزعامات الحقيقية التي لم تلن له أو تسالم فكره وثقافته وأدبه .

وفي هذا ما يجعلنا نعيد النظر كرّات ومرات فى كثير من الاراء والقضايا والمواقف والأسماء التى لمعت فى سماء الفكر والأدب فى ضوء هذه الحقيقة ، وقد مرت الأيام وبانت كثير من الحقائق التى كانت تتبهرج بادعاء الاصلاح والخير، ثم انجلت الأيام عنها فإذا بها هدم وحرب لكيان هذه الامة ومقوماتها وقيمها ، وما الميدان الأدبي الا واحد من هذه الميادين التى أرجو أن يكون هذا البحث مسهما بالكشف عن بعض الكتابات التى تدرّعت به لتنفذ إلى مآرب خطيرة ، فيها المكر والكيد والتضليل لأمة الإسلام ، في مبادئها وفكرها ووجهتها .

مضى هذا البحث إلى غايته ولم يكن له أن ينسى التذكير ببعض

الدراسات التى سبقته فيما يتصل بموضوعه ، فقد كان ثمة دراسات أنارت بعض سبيل هذا البحث وأفاد منها ، ويأتي فى طليعة ذلك كتابات الدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله ـ فى كتابه (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) فقد كانت القضايا الكبرى التى تناولها والفكر النيّر الذى أحاطها به مما أفدت منه فوائد كثيرة فى هذا البحث، ولاسيّما فيما يتعلق بمبحثي (الجامعة الاسلامية) و (الخلافة الاسلامية) ، فهووإن اعتمد على الشعر فىأكثر ما كتب إلّا أن منهج تتبعه الفكرة قد أفادني كثيرا في هذين الفصلين .

وكان ثمة العديد من الدراسات التى تناولت الأدب وقضية القومية في العصر الحديث مثل (الادب والقومية العربية) لاسحاق موسى الحسيني و (الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر) لعمر دقّاق ،إلّا أن هذه الكُتب فضلا عن ارتباطها بالشعر كانت تكتب بحماسة قومية تُذيب الوحدة الإسلامية في التيار القومي ، أو تجعلها من مقوماتها المتعددة على أحسن حال ، وذلك ماجعل أصحابها يبعدون عن روح الفكرة الاسلامية للوحدة ويحيدون عنها،فلم تكن الإفادة من دراساتهم ذات طائل أو جدوى تُذكر.

وفى مصر أعد الدكتورعبدالباسط احمد على حموده رسالة علمية (دكتوراه) في (النثرالفني المصرى فى العصر الحديث) من بداية القرن العشرين إلى قيام الحرب العالمية الثانية كنت أعتقد أنها ستحمل كثيرا مما يتطلع إليه البحث،الا أنني بعد الاطلاع عليها وجدتها تكاد تكون راصدة لتطور النثر فى هذه الفتره وما طرأ عليه من تغيّر، ثم تتجه إلى تصوير الوان الأساليب النثرية ، والتى ذكرت منها أسلوب أرباب البيان العربي المترسل ، وأسلوب أصحاب الاحتفاء باللفظ والمعنى ،وأهل الاتجاه إلى الأسلوب الفكري .

ولم تخل هذه الدراسة من الإشارة إلى بعض القضايا الفكرية التى عالجها الكتّاب في هذه الفترة ، إلا أن معالجتها لهذه القضايا كانت موجزة وفي لمحات مقتضبة جدا .

كما كتب الطاهر محمد على البشير رسالة أخرى وسمها بـ(الدعوة إلى الخلافة العثمانية وأثرها فى الادب العربي الحديث) ولاشك أن شمولية عنوانها للشعر والنثر جعلها تبتعد عن التركيز والاحاطة من جهة ، ومن جهة ثانية أنها جعلت انهيار الخلافة نهاية لها فلم تتطرق إلى ما طرأ بعدها ، كما أنها اكتفت بالاشارة الى معالم الدعوة إلى الخلافة العثمانية عند بضعة كتاب مما فوّت عليها التذكير ببعض الجوانب التى تتعلق بالدعوة إلى الخلافه مثل حوادث الغزو وحروب الدولة وغيرها ،غير أن مما يحمد لهذا البحث أنه كشف عن جوانب أدبية عند الحركات الدينية في مطلع هذا العصر من خلال موقفها من الخلافة و الدولة العثمانية .

وأخيرا كتب عبدالعزيز محمد الشبان رسالة علمية للحصول بها على درجة الدكتوراة من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية فى الرياض سماها (شعر الوحدة الاسلامية منذ عهد السلطان عبدالحميد حتى قيام جامعة الدول العربية) وقد سار الباحث في تتبع تاريخي لهذا الشعر فى هذه المرحلة عارضا لكثير من نماذجه وصوره الجميلة ومحللا لها ، لكن كما نلاحظ أنه أوقفها على الشعر بينما نتجه بها نحن الى النثر الأدبي . والذى يبدو أن الرسالة فى غمار تتبّعها التاريخي كادت تتجاهل التيارات الاخرى التى كانت تنازع هذه الوحدة ، حتى لانجد لها رصيدا فى الشعر العربى الحديث على الرغم من ظهورها وقوتها وآثارها .

وبالرغم من أننى لاأغمط هذا البحث حقه من الجدة والكشف عن جوانب كثيرة مما يتصل بالشعر، وبالرغم من أننا لانغمط تلك الدراسات حقها من العناية والجدية فى البحث، وأنها كشفت عن جوانب كثيرة مما يتصل بالشعر فان بعضا من الجوانب التى أغفلتها هذه الدراسات أفرد هذا البحث لها صفحاته، وناقشها وحاول أن يجلّي جوانبها ، مما يجعلنى أشعر أن هذا البحث اضاف لبنات أخرى الى جوار تلك اللبنات والجهود السابقة ولاسيّما فى مجال معارضة الوحدة الاسلامية وصدى اتجاهها الأدبى ، فضلا عن الميدان النثرى الواسع الذى كان له من الرحابة فى معالجة بعض قضايا هذه الوحدة مالم يتح للشعر فى قيوده الايقاعية والعاطفية والانفعال

المتسرع ، والتي يتحرر منها النثر في العادة ، وتهبه انطلاقا غير محدود .

مضى هذا البحث يتجاوز المصاعب التي واجهته ، والتي يقف على رأسها أن الكثير من نماذج أدب هذه الفترة حملته الدوريات والصحف ، ومنها الآن ما مر على صدوره قرابة قرن كامل ، وكثير منها تناثرت وتآكلت ، والحصول عليها أمر عسير ، والتعامل معها وقد غلب عليها فقدُ الفهارس التي تُيسّر التعامل مع بعضها يحتاج جهدا وزمنا كبيرين ، ودوريات كثير من البلاد العربية في هذه الفترة في حكم النادر العزيز ، مما جعل البحث يركز على الدوريات المصرية التي تفوق سائر الدوريات الأخرى في وجودها وإمكان الاطلاع عليها ، وإن كانت مصر فضلا عن ذلك تعتبر مركز العرب الثقافي والذي يكاد يصور أغلب مايقع في العالم العربي أو يدل على صدى ماحدث فيه من ثورات وحركات عسكرية وفكرية وسواها .

مضى هذا البحث يتجاوز المصاعب التي واجهته من قلة بعض النماذج وغيابها في مصادر لم يسعف الحال في الوصول إليها ، إمّا لأنّها في دوريات مفقودة ، أو آثار غير موجودة ، وتناول مسائلة الشائكة ومباحثه التي تبعث على التحفّز والزلق ، وخرج في صورته النهائية في عدد من المباحث المتعددة عمادها بابان سبقهما تمهيد وقفتهما خاتمة .

أما التمهيد فقد عرض البحث لمفهوم الوحدة الاسلامية ووسائلها وغاياتها ، ثم أبان عن حال هذه الوحدة قبل فترة البحث .

والباب الاول معالم الوحدة الاسلامية ، فقد خرج في أربعة فصول الاول منها في الجامعة الاسلامية وفيه قسمان ، الأول ويشتمل على عدد من المباحث ، الاول حول الجامعة الاسلامية و السلطان عبد الحميد وهذه الجامعة وارتباطها بالدولة العلية العثمانية ، والمبحث الثاني دار في اتجاهات الجامعة الاسلامية وصورها المتعددة ، والمبحث الثالث كان عن الجامعة الاسلامية وأوروبا .

والقسم الثاني فقد كان عن مظاهر التصور الأدبي للجامعة الاسلامية وفيه عدد من المباحث منها مدح السلطان العثماني ، والدعوة الى المحافظة

على الدولة العثمانية ، والحث على الوحدة ونبذ التفرّق ،والتحذير من الروابط المختلفة سوى الرابطة الدينية . وأخيرا وصف دار الخلافة .

والفصل الثاني كان عن الخلافةالإسلامية،وقد انقسم إلى قسمين ، عرض الأول منهما للخلافة الإسلامية والواقع التاريخي ، وعرض الثاني منهما للخلافة الاسلامية فى منظور الرؤية الادبية .

والفصل الثالث شمل حوادث العالم الاسلامي،وقد مهدت له ببيان عن ارتباط هذه الحوادث بالوحدة الاسلامية ، ثم عرضت لأهم تلك الحوادث فى العهد العثماني وبعده مبيّنا الصدى الأدبي الذى رافقها ونتج عنها .

والفصل الرابع خُصّ لأشهر كُتّاب الوحدة الإسلامية وجهودهم في هذا الاتجاه ، وقد وقف هذا الفصل بأناة عند بعض الكتاب كجمال الدين الأفغاني والأمير شكيب أرسلان وغيرهم ،بينما اكتفى بلمحات سريعة عن كتاب آخرين فى العالم العربي ممن احتفوا بهذه الوحدة وكتبوا مناضلين من أجلها ومحامين عنها .

والباب الثاني خصّه البحث للتيار المعارض والرافض للوحدة الإسلامية في النثر الحديث، وخرج فى أربعة فصول .

الفصل الاول عن بواعث هذا الاتجاه المعارض وقد جاءت فى ثلاثة مباحث : الاول الاستعمار ،والثاني سياسة رجال الاتحاد والترقى ،والثالث أهل الذمة ممن يقيمون فى ديار الإسلام .

والفصل الثانى تحدث عن مظاهر هذه المعارضة التى خرجت فيها، وقد انتظم فى عدد من المباحث : الاول القومية العربية ،والثاني عن الدعوة الى الوطنية والثالث: عن إحياء النعرات الاقليمية القديمة ،والرابع: الولاء لأوروبا والانبهار بحضارة الغرب، والخامس فى التعريض بالخلافة والسادس في هدم الرابطة الدينية وزعزعتها .

و الفصل الثالث تحدث عن مظاهر المعارضة للوحدة الاسلامية في

الفن القصصي والمسرحي ، فقد كان جليّا فى عدد من نتاجهما ، مما لايمكن الاغضاء عنه ولا تجاهله فى مثل هذه الدراسة الأدبية .

والفصل الرابع تعرّض لأبرز كتاب التيار المعارض وجهودهم فى هذا الاتجاه مكتفيا بما يتعلق عندهم بالمعارضة دون الخروج إلى ما سواها من أفكارهم وجهودهم الأخرى المتعددة .

وأخيرا أوردت الخاتمة ، وقد اشتملت على قسمين : تحدثت فى الأول عن اتجاه النثر وخصائصه الفنية فى فترة هذه الدراسة ، ثم خصائص القصص والمسرحيات التى تعرّض لها البحث ، أما القسم الثانى فقد كان أهم النتائج التى وصل اليها البحث وأضافها إلى الدراسات التى سبقته وبها ينتهى البحث .

أما منهج هذه الدراسة فقد كان منهجا تاريخيّا تحليليا ، يحاول أن يتتبع الأفكار والقضايا ويرصدها ، ويجمع الأقوال والآراء فيها ، ولا يعدم بعد ذلك مناقشتها أو تحليلها والتعليق عليها أو الموازنة بينها فى بعض الأحيان .

ولا غرو أن الفكر هو مدار هذا المنهج وإن أشرنا بلمحة موجزة الى الناحية الفنية بآخر البحث ، لكن الذى يجب ألّا يغيب عن قارئ هذه الدراسة أنّ كثرة المسائل والقضايا التى تتعلق بقضية كل فصل فيها كثرة كبيرة قد ألجأتنا فى مواطن عدة إلى الجنوح إلى العرض الذى تكتمل به القضية ، وجعلنا نترك التحليل والتعليق خشية الإطالة ، بل ربما اضطرنا ذلك إلى الاستشهاد ببعض النصوص الأدبية الأقل فنا وبيانا لأنها تُكمل الفكرة وتنمّيها ، مما قد لاتظفر به فى أقوال أخرى تفوقها روعة وجمالا وتعبيرا .

وفى ختام هذه المقدمة لايسعني إلّا أن أحمد الله حمدا كثيرا يكافيء نعمائه وآلائه ويليق بجلاله و عظمته على نعمة التى أولانيها واعاننى بها على إتمام هذا البحث حتى خرج إلى الوجود ، وهي نعم لاتُعدّ ولا تُحصى ، أحمده عليها حمد العبد الخاشع الذليل ، وأسأله المزيد من فضله وواسع بره وكرمه ورحمته .

١٨٧٦

قسم المخطوطات

ثم اقدم شكرى الوافر لجامعتى الغالية،جامعة أم القرى على ماتوليه طلاب العلم من عناية و حفاوة، وما تبذله فى سبيلهم من عون وأياد كريمة مشكورة، كما اشكر كليتي العزيزة، كلية اللغة العربية ممثلة فى عمادتها وقسم الدراسات العليا بها وأساتذتها، وأخصّ بوافر الشكر و التقدير أستاذى الجليل سعادة الأستاذ الدكتور حسن احمد الكبير على ما أولانيه من عنايته ودأبه، وما اسداه للبحث من جهد واخلاص .

وأسأل الله ان يجزى الجميع عنى خير الجزاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تمهيد

الوحدة الإسلامية

أ - مفهومها

ب - وسائلها

جـ - غاياتها

د - الوحدة الإسلامية قبل فترة البحث

(أ) مفهومهـــــا :

جبلت النفس البشرية السوية على العيش فى وسط طائفة من بـــني جنسها ، حيث تتعامل معها وتعاشرها وتتبادل معها كثيرا من شئونهـــا التى لاقِبل لها بها من دون هذه الجماعة التى تنتمى إليها .

والنفوس البشرية بهذه الفطرة الاجتماعية تنزع إلى تآلف وتكاتـــف تكوّن منه أشكالا مختلفة من التجمع البشرى ، قد يكون طوائف أو قبائـــل أو دولا أو غيرها ، وفى ضوء هذا الاجتماع تضع الأمم الأنظمة وتتخذ الشرائـــع وتحدّد القيادة ، كي يكون لهذا التجمع البشرى نظام تطّرد فيه الأمـــور وتستقيم شئون الأمه وتنجو من الشقاق والفوضى ، فيعرف كل فرد ماله ومـــا عليه ، فلا يبغى أحد على أحد ، ولا يتعدى إلى ماليس له ، فيعيش المجتمع فى وئام وسلام وفلاح ، ويتوجه المجتمع إلى العناية بشئون حياته المتعـــددة ويسعى لرقيها والعمل على ازدهارها والإفادة الكبرى منها .

والإسلام الذى هو دين الفطرة لم يتنكر لهذه الجبلّة الانسانيـــة ، وأكد أن الانسان مدني بطبعه كما قال ابن خلدون وهو يتحدث عن هـــذه النزعة الاجتماعية بين سائر البشر(١) ، ولهذا سعى الإسلام على أن يجعل منها خيرا وبركة وسعادة تعود على أفراد هذا التجمع البشرى ، فألّف بـــين الجموع التى تنضوى تحته إيلافا حقيقيا ينبع من القلوب ، وحبّب بعضهم الى بعض ، وكفل لهذا التجمع نظاما يقوم على حياته ، فينظّمها ويصلحها ويقودهـــا إلى كلّ خير ، ويصونها من الفتن والقلاقل والفوضى التى تقعد بها عن معـــارج التقدم والرقيّ ، بل وضع لهذا التجمع مايصونه عن التصدع والشقاق ، ومـــا يعود به إلى حالته القويمة مجتمعا صالحا مترابطا عندما تعصف به فـــتن الفرقة وعوادى التمزق والبغضاء !

والوحدة الاسلامية التى تحتشد لها هذه الدراسة ماهـــى إلا التجسيد الإنساني القويم لهذا الاجتماع البشرى ، لكنّه تجسيد حيّ ينبض

---

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ٣٧ .

بالخير والبر ويفيض بالحب والمودة والرحمة،ويؤمن إيمانا عظيما بكرامة النفس الإنسانية فى كل زمان ومكان،ويسعى جاهدا لإسعادها وإخراجها من دياجير الظلم والظلام إلى ظل العدالة الوارف ونور الإيمان الساطع المبين .

هذه الوحدة التى تعرض لها ربما اختلفت الآراء وتباينت العقول فى تحديد مفهومها أو المراد بها ، ورغم أن هذا التباين يعود إلى عدد من الأمور التى تتصل بهذه الوحدة أو ترتبط بها بوشائج قوية فاننا الآن نترك هذه الآراء المختلفة فى فهم هذه الوحدة ، ثم ندلف إلى الوقوف عليها من خلال نظره سريعة إلى أمرين يعينان على فهمها وتصور أبعادها .

أول هذين الأمرين يعرّفنا كيف نشأت وقامت الوحدة الاسلامية حتى باتت معروفة فى المجتمع الاسلامي ،وثانيهما هو موقف الشريعة الاسلامية من أمر هذه الوحدة . والذى لاريب فيه أن هذين الأمرين رغم إنارتهما لمفهوم هذه الوحدة وبعده،مما يلزم التنبيه إليه ،ويجدر بنا الوقوف مليّا عليه ، ولاغنى لمن يتصدى لبحث هذه الوحدة ودراستها من التذكير به ، فهذان الأمران أساس فى هذه الوحدة،وفي قيامها إن لم يكونا روحها وعلّة وجودها .

إنّ نشأة الوحدة الاسلامية تتجلي بايجاز في قيام المجتمع الإسلامي الذى كان خاتم الأنبياء والرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو مؤسسه وقائده والموجه له الى هذه الوحدة ،غرسها فى ذلك المجتمع وهو يُعَدّ بالأفراد ،ورعاها بجِدّ ومثابرة يوم أن أصبح للإسلام دولة ذات شعوب وطوائف متعددة من الناس،وتجلّت فيها ثمار هذا الغرس طيبة مباركة ، حلوة المذاق معسولة للعالمين .

لقد آخى ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ بين أفراد الطائفة القليلة التى آمنت به في مكة ،وكوّن منهم جماعة متعاونة متآلفة على اختلاف أنسابهم وطبقاتهم ،يأخذون بأمره ويلزمون طاعته ويحذرون مخالفته ، ينضوون تحت قيادة واحدة ،منها تُلقى التعاليم وتصدر التوجيهات،وإليها يُرجع فيما يَظهر من أحداث ويَستجد من أمور،وتأخذ القيادة نفسها

بمسئولية هذه الطائفة فتجعل منهم أسرة واحدة متعاطفة متآزرة، يعيشون على بصيرة من أمرهم ، ويعملون على نُصرة طائفتهم وإعزازها ، فى جهود متكاملة ، ووعي بدور كل عنصر أن يُوظّف فى الموضع اللائق ويُستثمر الاستثمار النافع ، شأن أعظم قيادة حكيمة واعية فى توزيع شئونها وترتيب أمورها واستغلال قدرات أبنائها وإمكاناتها .

وبعد الهجرة إلى المدينة النبوية تتّضح الرؤية ويتكامل البناء وتَخِفّ المعوقات ، فيتوافد المسلمون إلى المدينة على اختلاف بلادهم وقبائلهم ، ويجتمع بها شملهم ، ويحطون بها رحالهم ، بعد ما ذاقوا العنت وآذاهم المشركون في سبيل دينهم إيذاءا شديدا .

لقد هيأ الله لرسوله الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ آنئذ أن يضع قواعد دولة الإسلام ويشيد بنيانها الشامخ الذى ستقوم عليه ، وكان أعظم تلك القواعد توحيد هذه الجموع المتلاقية تحت عبوديتهم لله رب العالمين لا شريك له ، ثم توحيد آرائهم وكلمتهم وصفهم تحت قيادة واحدة لا يبرمون أمرا ذا شأن دون علمها ، ثم توحيد أساس أخوّتهم وتآلفهم ، وربطهم بأواصر الأخوة وأمتن الوشائج بأخوة الإسلام ، فكان ذلك الإخاء وتلك الرحمة بين أولئك القوم مما ذاع به الزمان ، وندر فى الأمم ، وصار مثار الدهشة لمطالعي التاريخ ودارسي حياة الأمم والشعوب .

إخاء بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج الذين لم تزل نار الحرب والشحناء مضطرمة بينهم قبل ذلك بيسير ، وبين المهاجرين الذين نأت بهم الديار وبعدت بينهم الأنساب حتى كانوا جميعا إخوة فوق كل تصور للاخاء فى دنيا الناس ، فذا يَقسم داره وماله لأخيه ، وذا يُشرك أخاه فى عمله وغلّته ، وذا يتنازل عن إحدى زوجتيه مواساة لمن لا زوج له ، إلى كثير من تلك الصور العظيمة التى غلبت على ذلك الإخاء التاريخي الفريد .

لقد كان ذلك المجتمع المدني مجتمعا واحدا فى عبوديته وآماله وأهدافه وتطلعاته ومشاعره ، موحّدا في مقابل أى مجتمع آخر سواه من حول المدينة أو خارجها ، له ميزاته وطابعه وحياته ، وله تكاتفه الذى فوّت على

خصومه تفرقته أو غرس بذور الشقاق بين أعضائه ،كما أن له الوقفة الشجاعة الموحدة ضد من يكيد له أو يحاول النيل منه من الخصوم الظاهرين أو المتسترين .

خرج هذا المجتمع - بعد ما أطمأنّ قائده إلى سلامته من التفرق وإلى عصمة وحدته التى يعسر النيل منها - يدعو من حوله من القبائل والأمم إلى دين الإسلام ،وبدأ الاسلام ينتشر بالدعوة والجهاد إلى أنْ أطبق الاسلام برايته على جزيرة العرب ودخل الناس فى دين الله أفواجا، وهنا نلحظ دور الاسلام حيال هذه القبائل المتعددة والفئام المتباينة من الناس وقد دخلوا فى هذا الدين .

لم يكن دخول هذه الجماعات فى الاسلام ليُحدِث اضطرابا وتمايزا من جراء كثرة هذه العناصر الجديدة ،والتى لكل منها مذهب وديدن فى الحياة ،ولاغرو أنّ التوفيق بين كلّ هذه الطوائف لكي تتعايش مع بعضها فى حياة طيبة لا نزاع فيها ولا خلاف أمر غير يسير، وتحقيقه يتطلب ضروبا عالية من القيادة البشرية والمعاملة الإنسانية وغيرها كثير من جسام الأمور حتى يتم ذلك تحت ظلال العقيدة الاسلامية .

كانت هذه القبائل وهي تدخل فى الاسلام تُعَلّم أصوله ومبادئه التى لا إسلام بدونها ،وتشعر أنها بعد ذلك صارت جزءا من أمة هذا الدين ، لها ما للمسلمين ،وعليها ماعليهم ، وأنّهم إخوة بأخوّة الإسلام، ولهم مع ذلك مايربطهم بقيادة الإسلام الكبرى ، في اتصال بها يتلقون منها ما تأمر به أو تنهى عنه ،غير ما تدفعه إليها من الخراج أو المدد الذى قد تطلبه القيادة منهم عند النوازل والنائبات .

لقد أبان قائد الأمة - صلى الله عليه وسلم - وحدة هذه الجماعات التى دانت بالاسلام في مجمع المسلمين العظيم ،فى حجة الوداع ، وأرشدها الى مافيه صلاحها وعزها ، وأبان لها ما يعصمها من التفرق والضلال ، وما يحميها من الشتات والمباعدة ، وكان مما قال :" وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وسنة رسوله. يا أيها الناس،اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّر عليكم عبدٌ حبشيّ

مجدّع ما أقام فيكم كتاب الله وسنة رسوله . . . ولا ترجعوا بعدى ضُلّالاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض" . (١)

أمّا اجتماعه بالمسلمين فى صعيد واحد على هيئة واحدة يؤدون نسكا موحدة ، فلا ريب أن ذلك أفهمَ تلك الحشود التى دخلت حديثة فى الإسلام معاني وأبعادا سامية وواسعة لوحدة المسلمين واتحادهم .

لم يلحق النبى - عليه وآله الصلاة والسلام - بربه إلاّ وقد أورث أمته فَهمَ هذه الوحدة الإسلامية وكان له من أتباعه مَن يحمل الراية ويشق الطريق على نفس الدّعوة والمبادئ ، وينهض بأمة الجزيرة المسلمة لبث نور الإيمان فى أرجاء الأرض .

وتأتي الخلافة الراشدة ، وينتشر دين الله فى الآفاق ، وتدخل في الإسلام شعوب وأمم مختلفة فى الأجناس واللغات والعادات ، فالفرس والروم والترك والأقباط والأحباش وخلافهم بلغتهم الدعوة وأسلموا لله رب العالمين .

أخذت هذه القيادة الراشدة بسنن قائدها الذى وحّد الجماعات القليلة في المدينة أول أمره ، ثم وحّد القبائل التى ملأت الجزيرة يوم دخلوا فى دين الله أفواجا ، جعلت تلك القيادة من كل هذه الشعوب والأمم أمّة واحدة ، لم يُضِرْها اختلاف الألوان والألسنة ، ولم تحزّبها العروق والأصول ، ولا جمحت بها القوميات والعنصرية المتوثّبة ، أسلست أمرها لقيادة واحدة ، ودانت كلُّ هذه الأمم بديانة واحدة ، واعتنقت أفكار هذه الملة التي أوحت لها بالاخوّة والألفة ، وربطت بين أفرادها بالمودة والرحمة ، كان مجتمعا كبيرا فى أفراده وشعوبه وأجناسه ومواطنه، وكبيرا جدا في كل ذلك وغيره ، لكنّه مع كل ذلك مجتمع واحد في كل ما يعني أى مجتمع ويقوم به أمره من عقائد ومبادئ وتصوّر وأهداف .

وبرغم ما عصف بالأمة الاسلامية من أحداث جِسام إبّان هذه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج عن جابر بن عبد الله ، صحيح مسلم بشرح النووى ٨ / ١٨٤ .

الخلافة الراشدة كحروب الردة ومقتل عثمان رضى الله عنه ووقعة الجمل وصفين وغيرها مما هو كفيل بأن يشق صفوف الأمة ويمزّق وحدتها ،إلّا أنّ تَمسّك القيادة بمبادىء الإسلام في هذه الوحدة أبقى للامة اجتماعها وحفظ لها وحدتها وائتلافها ، بل لقد كان من تغلغل جذور هذه الوحدة وعمقها فى نفوس الأمة الإسلامية أن حافظت على هذه الوحدة وكانت من أكبر عناصر قيامها وبقائها بعد ما آل أمر خلافة الأمة الإسلامية إلى الأمويين والعباسيين ، هذا بالرغم من اتساع رُقعة الدولة الاسلامية الشاسع في ذلك العهدين وكثرة الأمم التى دخلت فى الإسلام وخضعت لحكومته من غير نسيان للأحداث والفتن التى نشبت فى الحكومتين وفى الأخيرة منها على وجه الخصوص .

هكذا نشأت الوحدة الاسلامية في مجتمع المسلمين (١) ، وارتبط المسلمون بها ارتباطا شديدا فى قرون الأمة المُفَضّلين ، ولا يعني ذلك عدم اضطراب هذه الوحدة أو اختلالها في بعض الأزمان أو بعض البقاع من بلاد الاسلام نتيجة بعض الفتن أو الاحداث، لكن هذه وإن أحدثت فرقه في القلوب أو جفوة فى النفوس لم تمزّق الوحدة ، بل استمرت قائمة في المجتمع سرعان ما تظهر عندما تزول الفتن أو يَبغي على المسلمين عدوٌّ من غيرهم ،ينال منهم أو يحاول اغتصاب شيء من حقوقهم، فيكونوا أمامه قوة واحدة، كأن لم يكن بينها شيء مما قد حدث من فتنة أو شقاق .

أمّا موقف الشريعة من أمر هذه الوحدة فهو واضح مبين ، دعت إلى اتحاد ابنائها وحثت على وحدة شعوبها وأممها ، وأمرت بترابطها ووحدة صفها ، وحذرت من الفرقة والتحزّب أشياعا وشيعا ، وقطعت الطريق وسدت الأبواب على كلّ سبب يوصل إلى الفرقة أو يهيّجها أو يعين عليها .

إنّ نظرة إلى المصدرين الرئيسيين للشريعة الاسلامية تدلنا صراحة على ذلك ،وآيات الكتاب العزيز التى تدعو للوحدة تأخذ إحدى

---

(١) انظر الوحدة الاسلامية : محمد ابى زهرة ص ٣٤ ،وما بعدها

صورتين : امّا أن تدعو إلى ذلك مباشرة مثل قوله تعالى بعد ما ذكر جملة من أخبار أنبيائه " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" (١) ، أو يُفهم منها ذلك كما فى الآية : " إنّ الله يُحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" (٢) ، ولا ريب أنّ التعارف بين الناس والشعوب عامل كبير من عوامل الألفة والإخاء ، ومدعاة إلى التعاون والمساندة ، ومَعبر لتآلف القلوب ووحدة الأمم فى كثير من شئونهم ، ولذا نرى القرآن الكريم يجعل التعارف والألفة من وراء خلق الناس شعوبا وطوائف شتى " يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . ." (٣) أما إشارات القرآن إلى وحدة الأصل والمنشأ ، و إلى الوحدة الإنسانية وإلى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وإلى وحدة الدين من ربهم إلى سائر الأمم ، ووحدة المعبود الذى يَخضع له الوجود ، فقد حفلت بها كثير من آياته البينات(٤) ، وكل هذا له من الحوافز والدافع الى الوحدة والتوجه إليها مالا يخفى لمن تأمل فيه .

تلك هى الصورة الأولى من هذه الآيات أمّا الأخرى فهي التى تنهى عن التّفرّق وتحذر منه وتسدّ مايوصل إليه من منافذ ، ومن أوضح ذلك قوله تعالى :" واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بينَ قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفي حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم " (٥) ، وأمر الله عباده بلزوم صراطه القويم وترك ماعداه لأنها توصل الى الفرقة وكثرة السبل " وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه

---

(١) سورة الانبياء ٩٢ .

(٢) سورة الصف ٤ .

(٣) سورة الحجرات ١٣ .

(٤) انظر الايات : النساء ١ ، الاعراف ١٨٩ ، يونس ١٩ ، العنكبوت ٤٦ ، البلد ١٠ وغيرها .

(٥) آل عمران ١٠٣ ، ١٠٥ .

ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" [١] ، ذلك فضلا عن الآيات التي تنعى ،على أهل الكتاب والمشركين كثرة اختلافهم وتفرقهم شيعا وأحزابا فى أديانهم[٢] لئلا يكون المسلمون على حالهم المقيتة" أوزاعا وشيعا متنافرين .

والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام لم تخلُ من مثل ماسبق من هَدْي القرآن في الوحدة الاسلامية،وحسبنا من ذلك أن نشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام وقد شبّك بين أصابعه :" إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " [٣] ، وهذا معنى واضح للوحدة التى فيها الترابط والتماسك وشدّ كل جزء من البناء للآخر ووقوفه أو استناده عليه حتى لا يتصدع وينهار ذلك البناء الواحد الذى لا تُحصى عناصره وأجزاؤه الصغيرة التى تكوّن منها .

وإذا كانت الوحدة تعاونا وتكاملا ،وعطفا وتراحما ، وصلة وبرا ، فإن النبى صلي الله عليه وسلم يُشبّه وحدة المسلمين بوحدة الجسد ،وياله من تشبيه دقيق عظيم لوحدة هذه الأمة ، فكيف يُتَصور جسد واحد يمكن أن يكون مفرقا أو موزعا ، وكيف يكون جسد واحد نقص منه عضو أو أكثر من اجزائه، ذلك لا يكون إلا فى الأجسام العليلة،التى لا تنهض بتكاليف الحياة السوية واعبائها " ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ،اذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى " [٤] .

وذلك شأن وحدة المسلمين كوحدة الجسد الذى إذا أصيب عضو منه تأثرت لذلك واحست بهذا المصاب بقية الأعضاء الأخرى فتألَم كما يألم ،

---

(١) سورة الانعام ١٥٣ .

(٢) انظر: الانعام ١٥٩ ، الروم ٣٢ ، الشورى ١٣ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الصلاة عن أبى موسى ، فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/٥٦٥ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الأدب عن النعمان بن بشير. فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٠/٤٣٨ .

وتسهر كما يسهر حتى يذهب ذلك الداء ويعود هذا العضو سليما معافى يقوم بعمله في جسده مع أعضائه الأخرى .

أمّا الأحاديث الكثيرة التى فى ذكر الإخاء والبر والأدب والإحسان بل الإيمان أيضا، فإن ماتحويه للمتأمل من عواطف الأخوة ووشائج تقارب أفراد المجتمع الاسلامى وتراحمهم وتآزرهم، ما يوحى بالحفاوة الكبرى التى توليها الشريعة هذه الوحدة من خلال أحكامها وآدابها المتعددة، وتكون من مقاصدها وغاياتها الكبرى .

هذان الأمران اللذان فتحا الباب - مبدئيا - لفهم الوحدة الاسلامية يتجلى لنا من خلالهما - ولاسيما نشأة الوحدة - وجود قيادة كانت تقف على رأس هذه الوحدة، تقوم بأمرها وتتولى شئونها ، ولعل فى هذا مايسمح لنا باعطاء نبذه عن هذه القيادة ووظيفتها وخصائصها لارتباطها الجلى - كما هو واضح - بهذه الوحدة .

تعرف هذه القيادة في المجتمع الاسلامي بالخلافة أو الإمامة العظمى ، والحديث عن الخلافة في الاسلام بابه واسع ومباحثه جمة متعددة (١) ، إذ هي من لوازم هذه الوحدة فى إقامتها أولا ثم المحافظة عليها بعد ذلك ، إلّا أنّنا سنكتفي هنا بحديث مُجمل عن طبيعة الخلافة لأننا سنعرض لها فى فصل خاص بها - ان شاء الله - من هذا البحث.

تعتبر الخلافة الاسلامية هي المنهج الذى اختارته الأمة المسلمة وأجمعت عليه طريقة وأسلوبا للحكم تُنظّم من خلاله أمورها وترعى مصالحها وقد ارتبطت نشأة الخلافة بحاجة الأُمة لها واقتناعها بها ، ومن ثَم كان إسراع المسلمين فى اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتولى أمرهم ويسوس حكومتهم ، فالأمر " أنّ الله جلت قدرته ندب للأمه زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة ، وفوّض اليه السياسة ليصدر التدبير عن

---

(١) انظر: كتاب الإمارة فى صحيح البخارى وصحيح مسلم وغيرهما من كتب السنة ،ويراجع أيضا حقيقة الاسلام وأصول الحكم - الشيخ : محمد بخيت المطيعى ،الإمامة العظمى عند أهل السنه والجماعة عبد الله بن عمر الدميجي .

دين مشروع ،وتجتمع الكلمة على راى متبوع ، فكانت الإمامة أصلا استقرت عليه قواعد الملة وانتظمت به مصالح العامة حتى استتبت به الأمور العامة وصدرت عنه الولايات الخاصة" (١)

ويُجمع علماء المسلمين على أن الخلافة فرض أساسي من فروض الدين (٢) وواجباته ، بل هى الفرض الاول والأهم لانه يتوقف عليه تنفيذ سائر الفروض الاخرى، وتحقيق المصالح العامة للمسلمين ، فعليهم أن يسعوا لإقامتها ويحافظوا عليها ويتمسكوا بها حتى ولو اسموها بغير اسمها كالإمارة أو السلطنة أو غير ذلك ، فالمهم أن تُوجد القيادة التى تأخذ بنظام الأمة وتحقق أهدافها المقصودة .

لهذا فالشريعة الاسلامية تدلنا على أن على الأمة الاسلامية أن تعنى عناية كبرى بالشخص الذى سيتولى هذه المهمة الكبرى ،وتشترط فيه أمورا كثيرة ،كأن يكون مكلّفا أى بالغا وعاقلا ،على علم بأصول الإسلام ومقاصده ،عدلا أمينا فلا يحيد عن الحق ولو كان على نفسه، ولا يكون نَهِما ومتطلعا الى هذه القيادة أو حريصا عليها ، ولا يتّخذها ذريعة لخاصة منافعه وأهوائه ، ذلك فضلا عن الذكورة والكفاية التى تؤهله عن غيره لهذا الأمر مما يجعل هذا العمل لا يناط إلا بأفذاذ الرجال وخيار الأمة مما فيه صلاحها وتحقق مقاصدها .

ثم إنّ تعيين هذا الخليفة لا يكون لفئة محددة فى الأمة ،وإنما هو راجع لارباب الحَلّ والعَقْد فى المجتمع الإسلامى ، وهم خير من يرعى مصالح الأمة ويحرص على ما ينفعها، فلا يعقدون خلافة الأمة إلّا فيمن هو أهل لها فى نظرهم على قدر اجتهادهم فى البحث والتحرى الدقيق . وهذا الخليفة الذى تولى أمر القيادة بعد هذا - كما تقرّر شريعة الاسلام - لا يقطع أمرا دون الأمة وأخذ رأيها ، بل أمر المسلمين شورى بينهم ،ولا يستبدّ برأيه فى شئ أبدا،وانما يقوم على تنفيذ نظام الاسلام والإشراف عليه بأكبر

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردى ٣ .

(٢) انظر: السياسةالشرعية - ابن تيمية ١٦١ ، الاحكام السلطانية ٥ .

الجهد والطاقة المتاحة لديه . ثم هو بعد ذلك مسئول عند الأمة عن أدنى خروج عن روح هذا النظام كي تحاسبه وتُقوّم اعوجاجه وخطل رأيه، كما تسعى لمساعدته وإعانته، وتجب على الأمة طاعته متى ما التزم فيهم الجادة وبقي على الحق حاكما بشريعة الله ، فإن عصى فلا طاعة له على الأمة .

ونظام الحكم الاسلامي يفوق ويفضل في حقيقته توارث القيادة وحصرها كما وقع في تاريخ الاسلام ، ولا يعترف بجبروت الملك الذى يحيل خلافة الأمة ملكا عَضُوضًا ، فكل ذلك رغم حدوثه في مجتمع الاسلام إلّا أنه غريب عن حقيقة نظام الحكم في الاسلام وروحه العظيمة ، والتي تجعل منه خلافة راشدة ومسئولية عظيمة يتحاشى ولايتها الأخيار ويبتعد عنها عباد الله الصالحون ، الا عندما تُلْزِمُهم الأمة ذلك فيقومون به خدمة لها وأداء للواجب لاحبا وطمعا في جاه أو سلطان .

من خلال هذا تتجلى لنا خصائص هذه القيادة في المجتمع الاسلامي (١) ، وأن الأئمة المسلمين أصحاب كِتاب مُنَزّل وشريعة إلاهية ، لايُقنّنون ولا يُشَرّعون من عند أنفسهم ، ولايتخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، بل قد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ، وأنّهم لم يتولوا الحكم بغير تربية خُلُقية وتزكية نفس، بل قد مكثوا زمنا طويلا تحت إشراف دقيق وأخذوا بحظ وافر من الزهد والوَرَع والعفاف والامانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للولاية أو الحرص عليها ، فإذا وَلُوا الأمر لم يعدّوه مغنما ومطمعا ، بل عدوه أمانة في أعناقهم وامتحانا من الله لهم، وأنهم مسئولون أمام ربهم عن الدقيق والجليل ، ولم يخطر ببالهم أنهم لم يُخلقوا إلّا ليكونوا حكاما ، ولم تُخْلَق الأمة إلا لتكون محكومة لهم ، ولا انتصبوا ليقيموا لأمتهم ملكا يباهون به الأمم، أو ليستعيدوا ملك الآباء والأجداد .

وهكذا لم تَعْرف أمم الأرض قيادة أكمل وأرشد وأثمر من القيادة الإسلامية الصحيحة ، ودور الخلافة الراشدة في العالم مثل المدنية الصالحة

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٢٢، ١١٣ .

" فقد تعاونت فيه قوة الروح والاخلاق والدين والعلم والادوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل ، وفي ظهور المدنية الصالحة ، كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المُثُل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم ،وتزدهر فيها الاخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ،ويساير الرقى الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقلّ الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها رغم دواعيها وأسبابها ،وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كمالي لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهي منه " (١) .

هذه هي القيادة الاسلامية الصحيحة كما رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته، وكما أقامها على أثره الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، قبل أن تدخلها شهوة الملك وأطماع النفوس والأهواء ،وقبل أن يفهمها الناس من خلال تاريخها القديم والحديث في هيئة مشوهة من أطماع وصراع وتنافس إلا عند قلة من الخلفاء والسلاطين ،وهذا نظام الحكم في الاسلام كما أمر الله،وكما يجب أن يكون ،وهكذا يجب أن تُفهم حقيقته ، فإذا ما حاد المسلمون عنه أو أدخلوا عليه ماليس منه في عصور حكمهم فلا يعني ذلك قصور هذا النظام وتأخره وعدم وفاته بحق القيادة ، كلا . . . وإنما العيب عيب الذين خرجوا به عن حقيقته أو قصّروا في تطبيقه أوأخذوا بعض جوانب منه وتركوا أخرى .

هذه القيادة لم تكن إلا بسيرة الرجال الذين قاموا بها على وجهها القويم، يُنفذون خطتها في الحكم والسياسة العامة بروح من عقيدتهم وتربيتهم الصالحة ، فكان لها الأثرُ الحميد في حياة الأمة الاسلامية خاصة ، والنفع العام للبشرية كافة بعد ذلك .

هذه القيادة التي تقف على رأس وحدة الأمة وتضامنها،والمسئولة

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١١٧ .

عنها سواء كانت قيادة واحدة للأمة الاسلامية على نحو ما كانت عليه فى عصر الراشدين تحت خليفة واحد ، أم كانت تحت عدد من القيادات فى شكل دول أو إمارات وغيرها كما هو حال المسلمين فى الدويلات التى قامت فى عصر الضعف من خلافة بنى العباس،أو على شاكلة ما عليه المسلمون اليوم ، القيادة على أى صورة كانت ،وعلى أى رُقعة من الأرض وعلى أيّ عدد من المسلمين يجب عليها أن تكون على نفس الصورة التى عرفناها الآن عن القيادة الإسلامية ، أمانة ونزاهة وديانة ،ومسئولية ونظاما وحكما وسياسة ، والأئمة والولاة أصحاب دين وأرباب أخلاق عاليه ، أمناء خاشعين متواضعين .

هذه القيادة الأصيلة هى التى سرعان ما تتحقق بها وحدة الأمة وإخائها ،وبدونها تضمحل وتذوب وتتلاشى ، وحين تنبذ الأمة أساليب هذه القيادة الراشدة تُشرف أمم الاسلام على الفناء ،وقد كان ذلك ،إذ عندما قامت فى البلاد الاسلامية دول فرقت المسلمين ونبذت أساليب السياسة الاسلامية الراشده لتحافظ على سلطانها وسيطرتها ، آنئذ قام على المسلمين الحكام المستبدون والولاة الجائرون والرجال الظلمة والجُند الأجراء ، ولم يُبالِ أحد بالشورى ولا الرجوع الى أهل الحَلّ والعَقْد ولا تطبيق الأحكام الإسلامية فى الميدان السياسى فضلا عن ظلم الرعية فكانت العاقبة " نسيان الأحكام السياسية الكفيلة بسعادة الدولة فى نظامها ومالها ثم زالت الدول ، أمّا الرعية فقد بدت بينهم أمارات الضعف لما ابتُلوا به من الذلّ والقهر ،ولم تَبْقَ فيهم حياة فكرية ، وعداوة الحكام للرعية جعلت الرعية أذلاء عاجزين على يأس من الآمال" (١) .

على هذا نفهم أن نكبات الأمة الاسلامية إنما تَعود لإغفال المسلمين قواعد سياستهم الإسلامية ، وأن العيب فى الأمة والرجال الذين قاموا على أمرها،ولم يكن أبدا فى أساس النظام القيادى ، وهذا النظام لا يُضفي على القائد أو الوالي قداسة خاصة ،ولا يُحل له أن يكون مستبدا بأمر الأمة وشئونها ،ولا هو مطلق اليد فى أموالها يتصرف فيها

---

(١) اتحاد المسلمين ـ جلال نورى ٥٢ .

على مايراه ، ولا حق له فى الأبّهة والعظمة دون الأمة . لو اتبعت الحكومات المسلمة قواعد السياسة الاسلامية لاشترك المسلمون فى الحكومة وأحسوا إحساسا عميقا بأنها حكومتهم التى عليهم أن يُحافظوا عليها ويرعوها ،ولنتج من هذا (١) رجال نابغون يعرفون كيف يسوسون العالم الإسلامي ويدافعون عنه ،لكن لما حيل بينهم وبين هذه القواعد وجاء الظالمون ورجال الاستبداد أرادوا ان يُسَيِّروا الأمور بأهوائهم وجبروتهم ، فلم يُرضهم أن يشاركهم أحد فى السلطان ،فأصبحت الدول أمورا خاصة بهم وبأسرهم ، فلما زالوا فنيت بزوالهم ، ولم تلق الأمة الكُفء لقيادتها فتضطر الى التجربة بكل مافيها من نقص وأخطار وعيوب ، لكنها تجربة فى أخطر أمورها وأعظم شئونها فمتى تفوز فيها بالفلاح والتوفيق ! .

هذه القيادة الحاكمة فى الاسلام،بعد ما عرفنا الحال التى تكون عندما تأخذ الأمة بقواعد السياسة الاسلامية وتُطبّقها ، والحال عندما تنحرف عنها أو تتجاهلها أو تأخذ ببعضها دون بعض،كيف تكون القيادة فى الحالين ؟ .

هذه القيادة التى وقفنا عندها - على عجل - إنما لنَعِيَ المكانة الكبرى التى تملكها وتستطيع الأخذ بها لتحقيق الوحدة الاسلامية بين المسلمين ، فهى لاشك مكانة عظيمة وخطيرة فاذا اتجهت - كما تُملي عليها قواعد السياسة الاسلامية - إلى بعث هذه الوحدة وإيجادها عند ضعفها أو استتارها كانت لها اليد الطولى وآتت ثمرتها جَنيّة فى سرعة وسهولة ، تفوق بذلك شتى الوسائل التى تَرمي إلى تحقيقها .

فإذا ماوصلنا إلى هذا فلنعد الان إلى مفهومُ الوحدة الذى وعدنا به ، خاصة وأن هذه العُجالة عن الخلافة أو القيادة الاسلامية قد فتحت الأذهان كي يخامرها تصوّر لهذه الوحدة فيمكننا أن نقول : قد يُتبادر إلى الفهم أن معنى الوحدة الاسلامية أن يخضع المسلمون لقيادة إسلامية واحدة تحكمهم سواء سموها خلافة أو إمامة أو غيرهما .

---

(١) انظر : اتحاد المسلمين ٥٨ .

وهذا المفهوم أول ما يكاد يُفهم عن الوحدة الاسلامية ، وكأنها بذلك وحدة حكم وقيادة ، أو ما يمكن أن يُسمى بوحدة سياسية ، ولا ريب أن نشأة الوحدة الاسلامية في قرونها الاولى - كما أشرنا اليها - تؤكد هذا المفهوم وتعزّزه ، فقد دان المسلمون فى ديارهم المترامية من الهند الى المغرب الأقصى تحت سلطان الخلافة الاسلامية وتحت قيادة إسلامية واحدة سواء كانت فى المدينة أم فى دمشق أم فى بغداد .

وهذا المفهوم للوحدة هو أيضا ما كان يحرص عليه كثير من المسلمين ويدعون إلى الجامعة الاسلامية فى العصر الحديث - كما سنرى عند الحديث عنها - يوحي من هذا التصور لها ، ويريدونها تحت ظل الخلافة العثمانية ، فهل هذا المفهوم هو المراد بالوحدة الاسلامية ؟

وقبل أن نجيب عن هذا يجدر بنا أن نعلم الدافع الكبير وراء هذا المفهوم للوحدة ، فلا شك أنه لم يأتِ من فراغ ، فالواقع الذى عاشه المسلمون منذ قيام دولتهم الأولى فى المدينة النبوية إلى العصر الحديث كان على ارتباط كبير بالخلافة على مر القرون ، بل إن الخلافة بذلك حققت لهم وحدة شاملة عظيمة نَعِموا بها ، واكتسبت فى أذهانهم هالة من الشرعية والإجلال بالأمجاد التى حققتها للبشرية ولهم ، وكان نظامها يقوم على أمور دينهم ودنياهم ، وقد رضي بهذا النظام وألفه وأحبه العرب المسلمون فى جزيرتهم ، وظفِر بالولاء العميق بين المسلمين فى خارجها ، وهكذا نجد أنّ نظام الخلافة حقق للأمة وحدة شاملة طويلة الزمن عميقة الآثار ، وغدا قيام الدولة الإسلامية فى الأذهان مرتبطا بهذه الخلافة ، بل أصبح جزءا من إيمانهم وركنا من عقيدتهم ، فلم يستطع المسلمون أن يتصوروا قيام دولة لهم بدون خلافة ، ولم ينقطع ولاؤهم للخلفاء حتى عندما استولى على نفوذهم بعض الأمراء والولاة فى عصور الضعف السياسى ، بل كانوا يدعون له على المنابر ، ويضربون العملة باسمه ، كل هذا إضافة الى اصطباغ هذا النظام بروح الإسلام فى أغلب مظاهره مما أسبغ على الخلافة أنها هي وحدة الأمة ومركزها ، وكأنه لا وحدة للمسلمين بدونها .

فاذا ما أردنا الاجابة عن مفهوم الوحدة وهل هو الخلافة

الواحدة التي يخضع المسلمون لها ؟ فاننا لا نقدر أن نقول: إن هذه هي وحدة المسلمين رغم أهميتها الكبرى وتعلّق الأمة بها، ورغم أمجادها التي أقامتها على مر العصور.

والمانع من ذلك أننا لو جعلنا الخلافة هي الوحدة الاسلامية فاننا بذلك نلغي هذه الوحدة حين تذهب الخلافة في بعض الفترات كما حدث لها وكما هو حالنا اليوم، ولو رُبِطت الوحدة بالخلافة لكانت وحدة معرضة للزوال والنفاد، اذ كيف تكون الوحدة آنئذ؟ ولو كان ذلك صحيحا فما معنى وحدة المسلمين اليوم ؟ لكأنه قد قُضي عليها وذهبت من الوجود، ولكن هذا ليس بصحيح !

ثم ماذا تكون الوحدة حين تتعدد الخلافة، ويظهر في المسلمين عدد من الخلفاء لكل منهم دولة وسلطان، فأين تكون الوحدة ومع من من الخلفاء يُحْمَل لواؤها، وماذا يعمل المسلمون حيال هذه القيادات المتعددة ؟ كل هذا قد حدث في تاريخ الخلافة فهل نغمض عنه العين أو ننكر أثره على وحدة المسلمين ؟ .

مادام أن ذلك كله قد وقع فلا أظن أننا نستطيع أن نقول إن الخلافة هي الوحدة الاسلامية كاملة، وقصارى مانقول: إن نظام الخلافة من أهم أركان الوحدة، بل هو مظهرها السياسي، ونظام الحكم الذي يجسدها، ومادام أنه عرضة للزوال والقلاقل فلننظر الوحدة في غيره وننظر مانجد بعد هذا الانتقال ؟

مادامت الخلافة لا تمثل هذه الوحدة كاملة فلنتجه إلى الدين الذي هو أصل الخلافة وعلة الوحدة، وهو الإسلام الذي وضع قواعد الوحدة وشيّد بناءها، فهل عندما يدين بهذا الدين جماعات من البشر وفئام من الناس يمكن أن نجد أمامنا وحدة حية نابضة تدل على تضامن وتُوحي باخاء وترابط وألفه ؟

إنّ هذا يدفعنا إلى ذكر أساس هذه الوحدة والذي بدونه لا قيام لها ولا وجود، إذ عليه تُبنى هذه الوحدة ولا بد من وجوده لمن يريد

الدخول في مجتمعها ويصبح فردا من أفرادها ، ذلك الأساس هو الدخول في دين الاسلام ،والإيمان بالله ورسوله مع القيام بما في هذا الدين من أوامر والبعد عما نهى عنه كما هو معلوم من شريعته ، ثم الأخوة الإسلامية بين أفراد هذا المجتمع وفق حقوق الأخوة ومستلزماتها، والقيام بها والمحافظة عليها داخل الجماعة الاسلامية ، وهكذا قام مجتمع الأمة المسلمة " على ركيزتي الايمان والأخوة .

الايمان بالله كي يتوحد تصوّرها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به في كل ما يعرض لها في الحياة ،وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ، وتتجه بولائها كله الى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض والأخوة في الله كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار ، الايثار المنطلق في يسر ، المندفع في حرارة المطمئن الواثق المرتاح" (١) .

حقا إن من يدين بهذا الدين في صدق وإخلاص وعلى بصيرة قد هيأ نفسه لاعتناق هذه الوحدة وقبول كل ماتنطوي عليه ، فهل نَعُدّ من دخل في هذا الدين وأقام شعائر عبادته قد حقق الوحدة ؟ وهل هذه الوحدة هي وحدة دينية ؟ .

إنّنا نجد آلافا بل ملايين من الناس قد دخلوا في الاسلام ودانوا بعقيدته، ويقيمون شعائر عبادته،لكننا قد لانجد بينهم مايدل على روح الوحدة بل قد يكونون في بعض البلدان والأزمان متنافرين متخاصمين وأعداء متحاربين ،فماذا يعني هذا ؟ أيعني أن الوحدة الدينية لم تحقق بينهم إخاء ورحمة حتى وصلوا الى ماوصلوا اليه من العداوة والبغضاء ،أم أنّ هناك أمرا آخر قد يكون وراء هذا العداء والعدوان ؟ .

من هنا يمكن القول : إنّ الذين يفهمون الوحدة الاسلامية على

---

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ١/ ٤٤٥ .

أنها وحدة عبادة وشعائر بين الانسان وبين ربه فقط لا تخرج الى ما وراء ذلك فانهم لا يكادون يختلفون كثيرا عن غيرهم من الأمم الذين يجعلون هذه الوحدة وحدة دينية ينضافون بها إلى فئام من الناس قد سبقتهم إلى اعتناق دين من الأديان ،أى تكون على شاكلة الرابطة المسيحية التى يلتقى حولها النصارى ولم تمنعهم أن يكونوا أحزابا ومذاهب شتى متناحرة وقس على ذلك البوذية والمجوسية وغيرها .

وعلى هذا فهل الوحدة الاسلامية التى أساسها الدين تكون على شاكلة هذه الوحدة ؟ والجواب كلا ، فالوحدة الاسلامية وإن قامت على الدين فانها ليست مثل روابط الاديان والنحل الاخرى ،اذ أنّ دين الإسلام يختلف اختلافا كبيرا عن كل ماعداه من ملل ونحل ،فهو رسالة الله الخاتمة للناس أجمعين فى كل زمان ومكان ،ورسوله رحمة الله للعالمين ،فلا غرو أن تكون الوحدة التى يقيمها ويدعو اليها مخالفة لاتحادات الأمم وتضامنها. إنّها بايجاز وحدة من نوع خاص،وتجمع بشري على طراز فريد .

إن هذهالوحدة التى تنبع من طبيعة دين الاسلام العالمىوحدة عالمية إنسانية ، فهي ليست وحدة دين فقط ، او وحدة حكموسياسة ، بل هي اضافة على هاتين الوحدتينوحدة ثقافية وفكرية ،ووحدة أحاسيس ومشاعر وآمالوتصوّر، وهي أيضا وحدة حضارة بما تحمله من أصول عظيمة وبما تتميز به من مرونه لأن تقوم في مختلف الأزمنة والأحوال ،وما كل هذه المعاني لهذه الوحدة إلّا لأن الاسلام الذى هو أساسها لم يكن مجرد مجموعة من الطقوس الدينية ، شأن الاديان البشرية أو المحرفة ولكنه" كان حضارة كاملة يحملها الاسلام حيثما ذهب، لها لغتها التى لايصح التعبد بغيرها ، ولها قيمها وقوانينها التى تمتد وتتغلغل لتشمل سائر أحتياجات الأفراد والجماعات فى سلوكهم ،وفى معاملاتهم وفى نشاطهم الفكري والفني والعاطفي على السواء .

ولم يمض على ظهور الإسلام قرن حتى كانت النظم الاسلامية حضارة كاملة ، يحملها الاسلام معه حيثما ذهب،ليس فيها ثغرة أو فجوة ، وقد كان هذا هو السبب فى وحدة الحضارة الاسلامية ، وفى قوة الرابطة التى

تجمع أفرادها على هذه الحضارة ، والتى تذيب مابينهم من فوارق الجنس واللغة والمكان ، بل يذيب الفوارق الناشئة عن اختلاف الزمان ، لتضم هذه الأمة فى وحدة كونية ، ترد آخرها الى أولها ، وتجمع حاضرها وماضيها ، بسبب ثبات القيم الاسلامية ، وقدرتها على الاستجابة لحاجات الحياة فى تقلباتها وتطوراتها ، وبسبب ثبات لغة هذا الدين ومرونتها" (١) .

وكل هذا لا يكفي لكي نفهم الوحدة الاسلامية ونعي مراميها ونحيط بأقطابها ، اذ هناك أمور أخرى لم نتطرق إليها وهى متصلة بها ، يجب ألّا نغفل عنها حتى نقف على فهم قويم - قدر الطاقة - لها ، من غير تحيّز ولا محاباة ولا مبالغة ، ولعل فى المقارنة بينها وبين عدد من التجمّعات البشرية مايعين على ذلك ، ولنرى خصائص ومميزات هذه الوحدة من خلالها .

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية - محمد محمد حسين ٤٢ .

أهم خصائص الوحدة الاسلامية ومميزاتها

(١) الوحدة الاسلامية ليست بدعا عن الوحدات البشرية في موافقتها ومسايرتها للاجتماع البشرى والتآلف الإنساني والتعاون المعيشى بين فئام من الناس، فهى لا تتنكر لهذا الاجتماع الفطرى الذى جُبِل الانسان عليه،بل تؤمن به وتؤكد على أهميته وفائدته الكبرى ، وتُهَيّئ له من الوسائل مايُسَهّل قيامه ووجوده ، ثم تضع له من الضوابط والمعايير ما يحفظ له بقاءه ويكفل له الاستمرار والنجاح حتى يحقق أطيب العوائد وأبرك الثمار.

لكنّ هذه الوحدة مع موافقتها لروح هذه الفطرة السوية تختلف عن سائر التجمّعات البشرية والتكتلات الأممية والتضامنات الدولية ،إذ هي تقيم مجتمعا على أسس مختلفة عن أسس المجتمعات البشرية الأخرى ، ولها وسائلها التى تحقق بها هذا الاجتماع ، كما أن لها غايات مختلفة عن غايات سائر التجمعات والتكتّلات البشرية .

هذه الوحدة تتخذ روابط تضم من ينضوون تحتها أسمى من كل روابط البشر المتعددة ، وهي تسعى جاهدة بوعي من الفطرة السوية إلى إقامة المجتمع الإنسانى المثالى ، ولتكون هذه الوحدة هي ذلك العالم الإنسانى الرفيع الذى لايدانيه أو يلحقه عالم آخر أو يمكن ان يَفْضُله مجتمع سواه .

المجتمع الإنسانى الذى يتمتع فيه البشر بحقوقهم كاملة غير منقوصه ،ويعاملون فيه بالمساواة على درجة واحدة ، ويَنعمون فيه بالأمن والسلام والحرية والاطمئنان ،ويأخذون حقوقهم بالعدل والقسطاس ، هذا المجتمع ، هو مجتمع الوحدة الاسلامية الذى تقيمة فى دنيا الناس،والإسلام هو الذى وضع معالم هذا المجتمع الإنساني الفريد وأسسه الفكريه والعملية، فهل نجد لدى المجتمعات البشرية فى القديم وفى العصر الحديث نظرية كاملة تقيم على أساسها هذا المجتمع الإنساني ؟

نظرة سريعة توضح لنا ذلك ، فى التاريخ القديم نجد مثلا أنّ

الامبراطورية الرومانية كانت أشهر من أقام تجمع بشرى تحت سيادة دولة كبرى ، وقد احتوت على أجناس متعددة من الأمم ، ولغات متعددة وأوطان واسعة كثيرة ، لكن هذا المجتمع - كما هو معروف عنه - كان يقوم على نظام الطبقات(١) ، طبقة الملوك والأمراء ، وطبقة الأشراف والسادة ، ثم طبقة العبيد التى تكاد تشكّل غالبية المجتمع ، ويكفي فى تصوير هذا المجتع أن يكون سوادُه عبيداً ، حيث يعانون الظلم والجور ، ويسومهم أسيادهم الخسف والإهانة والاحتقار ، فضلا عن صبغ الجنس الروماني بالسيادة على سائر الاجناس ، وعبودية الأجناس الاخرى لأسيادهم الرومان ! فأيّ إنسانية فى هذاالمجتمع ، وكيف يكون مثاليا وسعيدا ؟

والمسيحية رغم رغبتها فى السلام ، من قديم فَصَلَتْ بين الدين والحياة ، وجعلت لقيصرها الدولة والحكم يُصَرِّفها كما يشاء فناقضت الفطرة السوية التى تجعل الإنسان مخلوقا من المادة والروح ، وماهي عليه فى العصر الحديث كما فى امريكا (٢) ، حيث المسيحيون من السود والبيض يعيشون بديانه واحدة ، لكنّهم لا يستطيعون الاجتماع داخل كنيسة واحدة ولا يجلسون على مقاعد واحدة متجاورين فى مركب أو مطعم أو غيرها ، واذا انتقلت أسرة زنجية الى حيّ البيض لاقت حَتْفَها ، وأولاد السود لا يتعلمون مع أولاد البيض ، هذا في امريكا التى بلغت قمة الرقى والمدنية المادية ، فما هو الحال فى غيرها كجنوب افريقيا ؟

إنّه التفريق العنصرى ، لكنه بصورة أكبر وأشد وأنكى !

فهل مثل هذا الدين يُمكن أن يُعد صالحا لإقامة مجتمع إنساني رفيع ؟ !

واذا أتينا إلى العصر الحديث حيث التجمعات البشرية المتعددة ، لأنها لم تأخذ بنظام مثالي يوائم الفطرةَ الانسانيةَ ، فتضطر للانتقال من نظام إلى آخر ، فان البشرية تضع أنظمة لمجتمعاتها ، يرسمها لها العلماء والمختصون فى علم الاجتماع والمدنية ، فتُقيم النظريات وتشرح الهيئات والفلسفات التى يقوم عليها المجتمع ، ولا تكتفى بذلك بل تُؤَلِّف الكتب وتذيع النشرات فى بيان حسناتها ومميزاتها ، وتقف للدفاع عنها .

---

(١) انظر : الاسلام على مفترق الطرق - محمد أسد ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) انظر : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام - محمد الغزالى .

فهناك القومية والوطنية ، والشيوعية ، وعُصْبَة الأمم ، والأمم المتحدة والكومنولث البريطاني ، والاتحاد الافريقي ، وحلف وارسو ، وحلف الاطلنطي وغيرها كثير.

لنتأمل في بعض هذه المجتمعات والتجمعات ، فالقومية التى ظهرت فى اوروبا وسيطرت على أممها فى القرن التاسع عشر الميلادى، واشتهرت من بينها القومية الألمانية والقومية الإيطالية ، هذه القوميات منها من اعتمد اللغة والثقافة أساسا له كالألمانية ،ومنها من اعتمد على الجنس والدم والتاريخ كالإيطالية ، ومنها من اعتمد على إرادة الأمة ومشيئتها والآمال التى تطمح الشعوب وتتطلع اليها كالقومية الفرنسية (١) .

وكل هذه الأسس التى قامت عليها القوميات ليس لها فى الحقيقة مايجعلها تعتبر نفسها أفضل وأقوم من أىّ قومية أخرى ، فاللغة والجنس واللون والمصالح المشتركة والمصير، كلها أواصر يشترك فيها كل انسان، ويشترك الحيوان فيها أيضا مع الانسان وان لم تكن على ماهي عليه عنده، فكل أمة سوف تنافس غيرها بهذه الأسس ،وقد كان ذلك ما أدت اليه القومية فى أوروبا ، لقد كان القرن التاسع عشر ورَدْح من القرن العشرين مجال صراع وحروب بين القوم ،وما الحربين العالميتين الأولى والثانية بنجوة من روح هذه النزعة ، فضلا عن القوميات الصغيرة التى كانت تبتلعها القوميات القوية الكبرى، فى خضم الصراع والمنافسة القومية ،وحين سرت هذه القومية إلى ديار الإسلام وكانت سبيل قُوّة لأمم الغرب، فانها كانت فى العالم الاسلامي سبيل فُرقة وانقسام وتطاحن ، فخرجت القومية الطورانية والقومية العربية وبجوارهما القومية الإيرانية الفارسية، وبدا التنافس بين هذه القوميات ولم يحقق لأممها إلا النكبات والبوار ولو اكتفينا بالقومية العربية التى بلغت شأنا فى البلاد العربية من العقد الرابع من القرن العشرين إلى اليوم لأدركنا أى مجتمع أقامته

---

(١) انظر: دراسة مقارنة للحركات القومية فى المانيا - ايطاليا - امريكا - تركيا دكتور: صلاح العقاد ، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام . ٣-٣٧ .

وأى انسانية صنعها دعاتها (١) وانها حققت عكس ماتريده أو مازعمت أنها تطمع فى تحقيقه من وحدة العرب الكبرى .

هذه هى القومية فى بضع عقود من ظهورها وانتفاشها فى الغرب ثم فى الشرق ،كيف قلبت العالم إلى أمم متصارعه وجعلت الدنيا جحيما وقلاقل ، وكانت لعنة على البشرية عانت منها أمرّ العواقب وأحلك الأزمان؟

هل هذه النظرية الاجتماعية بعد هذا يُؤَمّل منها أن تُقيم مجتمعا إنسانيا تحلم البشرية فيه بالسعادة والأمان والكرامة ؟ ! .

الأمر واضح فهى بعيدة جدا عن ذلك مهما قال أدعياؤها وسطر منظّروها وفلاسفتها فى بيان عظمتها وصلاحها ، فالتجربة قد جعلت العالم يقول : قطعت جهيزةُ قولَ كلّ خطيب .

وآخر ما يتعلق بهذه القومية أننا لو أردنا مناقشتها فى أصولها التى استندت اليها فى إقامة المجتمعات لرأينا العجب فى هذه النظريات، بل إننا سنقع على التناقض وما يكاد يكون مُحَيّرا من ادعاءات أربابها وفلاسفتها ، ثم بعد ذلك قصور هذه النظريات أن تُطَبّق فى مجتمعات ثانية أو فى أزمان أخرى (٢)، مما يؤكد ضيقها وصغر حدودها وأقطارها عن أن ترقى إلى إقامة مجتمع انساني عالمي !

لننظر إلى الوطنية ،والتى تجعل الإقليم الجغرافي المحدود أُساس

---

(١) يكفى أن نعلم أن جمال عبد الناصر الذى حمل رِكبَر هذه الدعوة في العقد الخامس والسادس من القرن العشرين هو الذى أرهق العالم العربى بسياساته القومية وفرقهم واشعل الفتن بينهم، مما مكن اسرائيل من توسيع رقعتها، فضلا عن تجافيه للعالم الاسلامي وضرب روح الاسلام فى الامة المصرية ،وفى أيامنا هذه انكشف الحق عن القوميين العرب فى أكبر أحزابهم، في العراق، فنكبوا العرب بنكسة جديدة فى أزمة الكويت مما لايدع مجالا للظنون فى انسانية القومية والقوميين رغم توالى الاحداث !
انظر : الشعوبية الجديدة ـ محمد مصطفى رمضان

(٢) انظر : الرسالة الخالدة ـ عبد الرحمن عزام ٢٠٥، فكرة القومية العربية على ضوء الاسلام ٢٤٠- ٢٤٧ .

التجمع البشرى ، فكل من سكن هذا الوطن وعاش فيه انتمى إلى مجتمعه ولزمه أن يحرص على علاقته بأبنائه، ويكون ولاؤه وعنايته الكبرى هذه الرقعة الأرضية التى ينعم بخيراتها ، فينبري للمحافظة عليها والمفاخرة بها ،ولا يعنيه ماورائها من آلاف الأوطان إلّا مافيه مصلحتها ورقيها .

ظهرت هذه النزعة فى الغرب الاوروبي مع النزعة القومية ، وربما كان المزج بينهما فى كثير من الأحيان لتكمّل كل واحدة عيوب الأخرى أمام الملأ ، وشقى بها القوم ـ لاسيما الاوطان الصغيرة ـ هناك ، ثم وصلت هذه البضاعة المزجاة إلى ديار الاسلام فما كان من بركاتها ؟

لقد وجهت العقول والأنظار التى كانت تتطلع الى العالم كلّه لتدعوه إلى نور الإيمان إلى وضع الحدود والحواجز الحقيقية والوهمية، وانصرف المسلمون إلى العناية بهذه الحدود ودرسوها وانشغلوا بها فترة من الزمن استغلها أعداؤهم ،وهذه أول البركات، ثم جاءت الثمرة المرة مباشرة وهى نتاج طبيعى للوطنية ـ حيث الخلاف فى هذه الحدود والمشاكل العويصة حولها ، ثم التنافس فى إزاحتها وتوسيع الأوطان التى أصبحت جامعة القوم وأكبر ما يحفلون به فى حياتهم ، وهكذا نظرة واحدة فى عالمنا العربى فى ضوء الحدود الجديدة لوطنياته منذ نصبها أعداؤنا ـ مع الأسف المرير ـ ورضينا بها بين أمتنا الواحدة وإلى يومنا هذا، نجد المغرب فى صراع وخلاف مع الجزائر فى حدود الصحراء الكبرى ،والحدود بين مصر وليبيا مثار خلافات ومنازعات ،أما سوريا ولبنان والعراق حيث تصاقب البلدان وتداخل المصالح وجريان الأنهار فحدّث عن الخلافات ولا حرج ، وجزيرة العرب فى جنوبها كلّ يتوجس شرا من الآخر ، أمّا منطقة الخليج فمع خروج النفط فيها بغزارة فقد لفتت الأنظار وقامت فيها حروب الحدود بين العراق وإيران ثمان سنوات (١٤٠٣-١٤٠٩) ما سبب كل هذا ؟

إنّها الوطنية التى ازعجت عالمنا الإسلامي ومكنت اعداءنا منا ، كي يفترسوا كل إقليم وظهرهم آمن أنّ الاوطان والاقاليم الاخرى لن تهبّ لنجدته وإغاثته، فليسرحوا فى هذه الاوطان كما يشاءون !

وهكذا يتجلى لنا بُعد الوطنية الكبير - في إيجاز - عن أن تقيم - دعائم قويمة لمجتمع إنساني سعيد .

وقامت الشيوعية لتنشئ تجمعا من نوع آخر ، وأرادت به أن تتخطى حواجز الجنس والقوم والوطن وسواها ، فأقامته على النظام الطبقي ، أعني طبقة العمال الكادحين الفقراء ، أما ما عدا هذه الطبقة فانها لا تنظر إليها إلا بعين الحقد والكراهية ، ماذا كان أمر هذا التجمع الذى جعل الفرد كالترس فى الالة الكبيرة المتحركة؟، حسبنا أنّ عامنا هذا (١٩٨٩/١٤١٠) هو عام إعلان سقوط الشيوعية وانهيارها ، ونقول إعلان السقوط لأنه اتخذ الصورة الرسمية والعلنية وتصريحات الزعامات الشيوعية بذلك ، والا فالحقيقة أن الشيوعية سقطت قبل ذلك بكثير ، ولولا قوة الحديد والنار التى فرضتها الأحزاب الشيوعية الحاكمة للفظت أنفاسها قبل هذا العام بعشرات الأعوام ، هذا والشيوعية لم يتجاوز عمرها بضعة عقود ، ضربت على نفسها الحواجز حتى لا يعلم أحد الواقع المرير الذى تُعانيه ، أو يَخرُج من داخلها من يدل على عوارها ويكشف زيفها للعالمين .

وأخيرا هيئة الأمم المتحدة التى تزعم أنها تريد لأمم العالم الأمن والحرية والعدل والسلام ، وتكاد تضم جميع دول العالم اليوم ، وقراراتها التى تصدرها تكاد تكتسب الإجماع الدولى والرضى العالمى ، هذا الاتحاد العظيم فى هيئته وهياكله ، لو تذكرنا بعض أسسه ومواقفه لأدركنا - بسرعة كبيرة - بُعْدَه عن النزاهة والعدل ، فمن أين تأتيه النزعة الإنسانية المثالية العالمية ؟

فمن أسس هذه الهيئة أن هناك خمس دول فيها تمتلك دون غيرها من دول العالم حق النقض (الفيتو) لأي قرار تتخذه الهيئة ، فكأنما هي هيئة الدول الخمس لا الأمم المتحدة ! ثم إن بعض القرارات التى اتخذتها هذه الهيئة وحسبنا منها ما يعني عالمنا الاسلامى ، نراها موسومة بالظلم والتواطؤ مع الجور و الطغيان ، وما موقفها من قضية فلسطين وقضايا المسلمين فى القارة الهندية إلّا خيرُ شاهد لانحيازها إلى البغي وتجافيها عن الحق وأهله .

وهكذا وهكذا سائر المجتمعات والتجمعات البشرية الحديثه ، لو استطردنا في تَتَبُّعها لخرجنا بما وجدناه في أحوال التجمعات المشار اليها حيث الاختلال والنقص ، وحيث البُعد عن النزعة الانسانية في هذه التكتلات البشرية ، مما يجعل البشرية لاتثق فيها ولا تطمئن بها ، وتظل متعطشة إلى المجتمع المثالي الذي يحقق لها انسانيتها ، ثم آمالها الاخرى بعد ذلك .

الوحدة الاسلامية هي وحدها التي تحقق المجتمع الإنساني وتقيمه ، وتضع للبشرية المجتمع الفاضل بصورة أجمل وأكمل مما يتصور المفكرون والفلاسفة الذين يكتبون عن المدينة الفاضلة تحقق ذلك بعد ما عجزت المجتمعات البشرية أن تضع نظرية صحيحة تُقيم على أساسها هذا العالم الإنساني فضلا عن أنها تجعله حقيقة ماثلة في دنيا الواقع المعاش .

جاء الاسلام ولم يكن دينا وجدانيا بين العبد وربه فحسب ، ولكنه دين ونظام وحكومة ، وقد تضمنت مصادره القواعد والنظم التي تكفل له قيام مجتمعه ذي المعالم المتميزة ، وتضمنت له بعد ذلك بقاءه وحفظه من التصدع والشقاق ، وكل ذلك بواسطة دعائمه المتينة المحكمة التي إذا حافظ عليها المسلمون فقد ضمنوا لهم مجتمعا صالحا كريما .

وقد علمنا أن الأساس الذي يقوم عليه هذا المجتمع هو العقيدة الإسلامية ، فمن اعتقدها صادقا مخلصا ، مؤمنا بربه مستمسكا بإخاء الايمان ، فقد دخل في هذا المجتمع وصار فردا من أفراده ، والإسلام الذي جاء لتكريم الإنسان ، إنما أراد له ذلك باظهار خصائصه التي تميزه عن غيره من الخلق ، إذ بها يظهر التكريم ويتجلى الفارق وتبرز إنسانية الانسان ، والعقيدة هي أعلى خصائص الانسان ، فهي كما يقول الشهيد سيد قطب(١) رحمه الله " التي تفسر للانسان وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله تفسيرا كليا ، كما تفسر له منشأ وجوده ووجود الكون من حوله ، ومصيره ومصير الكون من حوله ، وترده إلى كائن أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٥٦١ ، ١٥٦٢ .

فهى أمر آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق ، والذى ينفرد به عن سائر الخلائق ،والذى يقرر (إنسانيته) فى أعلى مراتبها ، حيث يخلف وراءه سائر الخلائق ،ثم إن هذه الآصره ـ آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنبع ـ هى آصرة حُرّة يملك الانسان اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأمّا أواصر القطيع (أى النسب واللغة والارض والجنس واللون والمصالح وغيرها) تلك فهى مفروضة عليه فرضا لم يخترها ولا حيلة له فيها . . . كلها مسائل عسيرة التغيير ، ومجال (الإرادة الحرة) فيها محدود ، ومن أجل هذا كله لايجعلها الإسلام هى آصرة التجمع الانساني ، فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج فهى مفتوحة دائما للاختيار الإنساني ، ويملك فى كل لحظة أن يُعلن فيها اختياره ،وأن يُقرر التجمع الذى يريد أن ينتمى إليه بكامل حريته ، فلا يُقيّده فى هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه ، أو الارض التى وُلِد فيها ، أو المصالح المادية التى تتحول بتحول التجمع الذى يريده . . . . وهنا كرامة الانسان فى التصور الإسلامي . " .

إنّ العقيدة الإسلامية وضعت لتكون رابطة أخوة أسمى من كل رابطة وفوق الأمم والعصبيات والأجناس كلها ، فلا تكاد تَقْرِن العصبيات الخاصة بها حتى تفقد كل قيمة لها .

وقد يخال لبعض الناس أن المجتمع الاسلامي لم يَعْدُ أن استبدل بعصبية اللغة والوطن وغيرها عصبية دينية مما يقيم التنافس بين الأمم ،لكن حين نتأمل فى أساس المجتمع الاسلامي (العقيدة) نجده يجعل أساس العلاقات على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية ، والناس أشد مايكونون انفعالا للشر حينما يكون الخلاف حول المادة والبدن ، لكنه لايكون على خلاف ديني أو مذهبى الا فى النادر[1] فهو بلا ريب أقل شرا من سابقه بكثير .

كان من نتيجة هذا المنهج الذى اتخذه الاسلام لإقامة المجتمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها أن أصبح المجتمع الاسلامي مجتمعا

---

(١) انظر : الرسالة الخالدة ٢٠٦ .

مفتوحا لكل الاجناس والأقوام واللغات، بلا عائق من الأواصر النفعية المتعددة، فاجتمع في هذا المجتمع العربي والهندي والفارسي والرومي والأسود والابيض ومن كل الألوان والأجناس، واجتمعوا كلهم على آصرة العقيدة، إخوة مؤمنين متحابين، فانصهروا في بوتقة واحدة، وكوّنوا مجتمعا فائقا متجانسا ومتناسقا، ساهم فيه كلّ منهم بأقصى كفاياتهم وخبراتهم، وصبوا فيه خلاصة تجاربهم، فأقاموا حضارة حوت خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة، ولم يكن اختلاف اللغات والأجناس والاوطان ليميّز أحدا عن آخر، في هذا المجتمع الذي ينتسبون اليه جميعا على قدم المساواة، وهذا مالم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ [١] !

إنّ المجتمع الإسلامي لا تفريق عنده بين الأجناس والشعوب، كلهم عبيد الله، وخيرهم من آمن بالله " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم .. " [٢] .

والإسلام لا يعرف وثنية العنصر ولا الوطن، فوطن المسلم يمتد مع امتداد عقيدته، في وطن معنوى شاسع، لا يرتكس في رقعة تضيق بنفسه او تخالف طمأنينة قلبه " ياعبادى إنّ أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون" [٣] فيستخفّ بالوطنية التى تُضَيّق على بني آدم أرض الله الواسعة، وتدعوهم الى الوقوف والخنوع .

ومما يؤكد إنسانية هذا المجتمع أنه ليس حربا على من لم يعتقدوا بعقيدته من بنى البشر، كلا فهو بريء من ذلك كما سنرى .

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٥٦٢ .

(٢) سورة الحجرات ١٢ .

(٣) سورة العنكبوت ٥٦ .

(٢) ميزة أخرى من مزايا هذا التجمع الاسلامي ،وهي سماحته الدينية ، فهذا المجتمع رغم قيامه على أساس العقيدة ـ كما علمنا ـ إلا أنّ ذلك لا يجعله يرفض من لم يأخذوا بعقيدته من البشر، ولا يُجبرهم على الخروج من أرضه ،وهو بذلك لا يُريد لهم ولسائر المجتمعات إلا خيرا ،ويسمح لأرباب النحل والاديان أن يعيشوا بين أبنائه محفوظي الحقوق وموفوري الكرامات ، وبذا يجب أن يُعلم أنّ تجمع المسلمين وتوحّدهم ليس غولا أو شبحا مخيفا يهدد سلام العالم ويذره بشر مستطير، وإنما غاية هذا المجتمع ـ كما سنرى ـ سلام ورحمة للعالمين ،بل إن هذا المجتمع ليجعل لغير أهله ممن يقيمون داخله حقوقا يجب اداؤها والتزامات ومواثيق لا محيد من الوفاء بها وإنفاذها ، مما لا تكاد تحظى به الأقليات فى أكثر المجتمعات الأخرى ،ولا أدل على هذه الحقيقة الناصعة أن مُدوّنات الإسلام الكبرى وكتب الأحكام والامهات تعقد المباحث المتعددة والضافية للمسائل المتعلقة بغير المسلمين ، تحت مسميات أهل الذمة أو أهل الكتاب أو المستأمنين ونحوها [١] ، وتقرر فيها مالهم وماعليهم ، وما يجب على المسلمين من القيام به من حقوقهم والبرّ بهم .

وبيان ذلك أن الاسلام يقرر أن الأديان السماوية كلها إنّما جاءت بالإسلام واستقت من معين واحد" شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم وموسي وعيسى أن أقيموا الدين ولا تَتفرقوا فيه" [٢] ولذا يؤمن المسلمون بسائر الأنبياء والمرسلين ويذكرونهم بالفضل والإجلال ،ولا يعيبون على من اتبعهم وسار على ما جاءوا به من الحق ، بل يجلّونهم ويرضون عنهم .

ثم إنّ الاسلام وهو يدعو أهل الأرض إلى الإيمان بالله تحت عقيدته لا يُكْرِهُ أحدا ولا يُقْصِر الناس بالقوة والقسوة على الدخول فيه ،بل يترك للناس الحرية المطلقة ،من شاء أن يدخل فيه ومن شاء أن يعتنق سواه ، كل

---

(١) انظر على سبيل المثال : أحكام أهل الذمة ـ ابن قيم الجوزيه ، وأحكام الذميين والمستأمنين فى الاسلام ـ الدكتور : عبد الكريم زيدان .

(٢) سورة الشورى ١٣ .

ذلك فى صراحة أعلنها القرآن الكريم " لا إكراه فى الدين [١] " ويخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الامر " أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " [٢] ، بل إن سماحة الاسلام عند ما يقوم القتال والحرب بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل كأهل الكتاب، فإن الاسلام يأمر أتباعه بعدم هدم معابد القوم وكنائسهم وميادين عباداتهم، فهم لم يخرجوا أصلا لذلك، وإنما خرجوا ليزيلوا الطواغيت والسلطات التى تحول بين الناس وبين حريتهم فى أن يدينوا بما يشاءون .

أما حين تقيم فئام من غير المسلمين داخل المجتمع الاسلامي ، ويرضون البقاء تحت حكم دولته فالإسلام يوجب البر بهم والإحسان إليهم " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتُقسطوا إليهم . . [٣] " ويفرض لهم حسن المعاملة ورقة الجانب وحسن الجوار ، بل ويبيح طعام أهل الكتاب ومصاهرتهم " اليوم أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . [٤] " وبذا تختلط الأُسر وتمتزج الدماء وتقوى وشائج القربى ، ثم إن دولة الاسلام يجب عليها أن تحمي أماكن عباداتهم ولا تتدخل فى عقائدهم ، بل يتركوهم وطقوسهم التى تفرّغوا لها ،ولا يجوز الجور عليهم ، بل يُساوون مع المسلمين فى الحقوق والواجبات العامة [٥] ، وأن تُصان لهم كرامتهم وإنسانيتهم .

غير أن الجزية التى يفرضها الإسلام على أهل الذمة ربما كانت مظنة الظلم والطعن على هذا المجتمع الذى يفرضها على غير ابنائه ، لكن الذين يثيرون هذه القضية لو تأملوا بعين الحق فى احكامها فى شريعة الاسلام، ما مقدارها ، وعلى من تجب، وماذا يسقطها ، وما الواجب فى معاملة أهلها لأخذها؟ الى غير ذلك [٦] ، حيث ان الجزية التى تُؤخذ

---

(١) سورة اللبقرة ٢٥٦ .
(٢) سورة يونس ٩٩ .
(٣) سورة الممتحنة ٨ .
(٤) سورة المائدة ٤ .
(٥) انظر: احكام الذميين والمستأمنين فى دار الاسلام . ٧ ، ٨٦ ومابعدهما
(٦) المرجع السابق

من غير المسلمين أقل بكثير من الزكاة التي يؤديها المسلمون ، وأنها لا تجب إلا على القوي القادر المكتسب، ويُعفى منها الضعفاء والأطفال والشيوخ ، وأنها تسقط لو لم يجدوا ما يُخرجون أو حين يعجز المسلمون عن الدفاع عن أنفسهم وعن أهل ذمتهم ، وأنه يجب على الجُبَاة والخارصين عدم التشدّد على أهل الذمة في الجزية ، والا يُؤخذ منهم ما لا يطيقون أداءه ، كل ذلك وغيره لو تأمله من يظنون - جهلا وعصبية - أنّ الإسلام يظلم بالجزية أهل ذمته ، لوجدوا ما يقطع حجتهم ويسكتهم .

هكذا قام المجتمع الاسلامي بوعى من روح التسامح الديني فعاش داخل مجتمعه كثير من الملل والطوائف ، ولم يكونوا يشعرون بظلم ولا اضطهاد ولا جور ، بل كانت أموالهم وأعراضهم محفوظة ومرعية ، ولو ذهبنا نتلمس آثار هذا التسامح الذى لقيه أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، حيث جاورت الكنائس المساجد ، وترقى كثير من أهل الذمة فى كثير من الوظائف فى الدولة الاسلامية ، وكان من أُسَرهم من يعاشرون الخلفاء ويعملون لهم وما كانوا يقيمونه فى أعيادهم وحفلاتهم من مراسم البهجة والسرور وسط مجتمع المسلمين وملئهم (١) ، لعلمنا من كل ذلك سماحة الاسلام ومقدار الفضل الذى نعم به القوم فى جواره .

أمّا لو أردنا بالمقابل أن ننظر مالقيه المسلمون فى ظل النصرانية وخزايا أهلها فى التعصب الديني ضد المسلمين فى الحروب الصليبية ، وما قاموا به من فضائع وفضائح فى مسلمي الاندلس ومحاكم التفتيش وما اتسموا به فى استعمارهم لديار الإسلام فى العصر الحديث من قسوة ووحشية وهمجية، بقصد إزالة دين الاسلام ، وصد المسلمين عن دينهم ، فضلا عن الصراعات والحروب التى قامت بين نحلها، مثلما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت وصراعات البابوية ضد مخالفيها فى العصور الوسطى ، إضافة الى ماتلقاه سائر الأقليات فى مختلف البلدان فى العصر الحديث من حيف وضغوط من أرباب الأديان الحاكمة والمتسلطة ، لو تأملنا كل ذلك - وهو غيض من فيض - من صراع المجتمعات ، وما كان للدين من أثر

---

(١) انظر : من روائع حضارتنا - مصطفى السباعى ٨٤-٩٠ .

كبير في ذلك الصراع ، لادركنا عندئذ كم هو الاسلام بعيد وبعيد عن تعصب (١) الأديان ، وكم هو رحب الصدر في التسامح الديني، لم يكن عدوا للاديان ولا محاربا لها ، وحسبه أنه عاش في مجتمعه منذ القرن الأول الي اليوم آلاف البشر من شتى الملل والاديان ، رغم ما كان يلحقه من جراء هذه السجية الكريمة العاليه من أضرار أودت في بعض الاحيان بزوال دولته وذهاب سلطانه من بعض بقاع كبيرة وعظيمة على وجه الارض .

إن هذا التسامح الديني الذى بَذّ الاسلام فيه سائر الأديان فضلا عما سبق، لهو ماشهد به الاعداء قبل الاصدقاء (٢) ، ولعل ذلك أعظم الحق وأصدق الشهادة على عظمة هذا الدين وروعته وإنسانيته .

(٣) المجتمع الاسلامي في تضامنه وصدق إخائه وترابطه يُشكّل وحدة قوية متماسكة لا تصل إلى قوة ترابطها سائر المجتمعات الأخرى ، وهي بذلك تُخَوِّل مجتمعها صلابة ومنعة تجعله يستعصى على عوادي الزمان التى تبيد الأمم وتفني الجماعات والمجتمعات .

وما مصدر هذه القوة في الحقيقة إلّا من روح دين الاسلام ، إذ أنّ عقيدته وشريعته ومنهجه الذى يشمل شتى جوانب الحياة تحمل من عناصر القوة والروعة والخلود والافضلية مايجعلها تفوق سائر المناهج التى تتخذها المجتمعات البشرية لحياطتها وحفظها .

ولاغرو أن يكون هذا الاساس الديني وراء تلك الدول الاسلامية العظيمة التى أطبقت على المشرق والمغرب ، إذ أنّ الدولة" العامة الاستيلاء العظيمة الملك ، أصلها الدين ، إما من نبوة أو دعوة حق ، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتّغلّب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق القلوب ، وتأليفها انما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه ، قال تعالى : (لو انفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وسره أنّ القلوب

---

(١) انظر لمزيد من الايضاح : التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام - محمد الغزالي .

(٢) انظر مثلا : من روائع حضارتنا ٩٤ ، مايقال عن الاسلام - عباس العقاد ١٨١ .

اذا تداعت الى أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، واذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدوله (١)".

ثم إن المجتمع الإسلامي الذى جعل العقيدة أساس وحدة بنية وتجمعهم، قد جعلهم تحت مظلته إخوانا بأكبر معاني الأخوة وحقوقها، ونظرة إلى التماسك الاجتماعى فى الإسلام تجعلنا نقف على قوة هذا الإخاء، فهو إخاء يقتضى تبعات وحقوقا، فيجب على كل أخ أن يهتم بأمر أخيه والعناية بشأنه والدفاع عنه والعمل على مافيه خيره وسعادته " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض" (٢) ويقول صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (٣)

ومن مظاهر هذا الإخاء ألا يدع المسلم أخاه للمحن والارزاء تنال منه دون أن يشاركه محنته، ويبذل له من ذات نفسه وذات يده مايدفع به مانزل به من المصائب أو الشرور، فالمسلم كما قال صلى الله عليه وسلم " أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر ان يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه " (٤).

أمّا مظاهر التكافل الاجتماعى التى جاء بها الإسلام فحسبنا أن نعلم أنّ الزكاة الركن الثالث من أركان الاسلام التى لا إسلام لمن ترك واحدا منها، هذا فضلا عن أنّ روح الشريعة فى العبادات والمعاملات تؤكد روح الإخاء والترابط والتكافل وحفظ الحقوق، وحسب مجتمع هذا شأنه أن يظل قويا عزيزا.

واذا تذكرنا أيضا أن وحدة هذا المجتمع ليست فقط فى الدين

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٩.
(٢) سورة التوبة ٧١.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) رواه مسلم فى كتاب البر

والحكم - كما سبق - بل هى وحدة ثقافة و فكر ولغة لأدركنا جيدا قوة هذه الوحدة الحقيقية واستعصاءها على الزوال والاضمحلال ، إنّ وحدة الأمة والمجتمع فى العالم الاسلامي لم تكن نتيجة الوحدة السياسية ولا مرتبطة بها ، فكثيرا ما تعددت الدول وتصارعت فى المناطق من غير أن يُؤثِّر ذلك على الوحدة العقدية والاجتماعية والفكرية للأمة الإسلامية .

ولا شك أن وحدة الأمة أساس صالح للوحدة السياسية حيث تجعلها سهلة وممكنه ، لكن الوحدة السياسية للأمة لم تكن شرطا لوجود وحدة الأمة عقيديا واجتماعيا وفكريا فى الماضى، ولن تكون شرطا لها فى المستقل ،" إنّ الوحدة السياسية لاى دولة أسرع انهيارا من وحدة الأمة لأنها تتأثر بعوامل خارجية وداخلية ذات طابع عسكرى أو سياسي لا تؤثر حتما فى كيان الامة الاجتماعى والعقيدى .

ان الوحدة العقيدية لامتنا تتمتع بحصانة أقوى وأكبر ضد الغزو الفكرى الخارجى وضد عوامل التفرقة الداخلية . إنها يمكن ان تبقى أجيالا ولا تنمو رغم فقد الوحدة السياسية . لذلك فان كثيرين يخطئون عندما يظنون أن الامة الاسلامية فقدت وحدتها وشخصيتها المستقلة منذ أن فقدت الدولة أو الدول الاسلامية استقلالها أووحدتها السياسية . ان شخصية هذه الامة باقية مابقى الاسلام الذى تتمثل فيه وحدة المنطقة وخصائصها من الناحيتين الفكرية والاجتماعية " (١) .

ان من الخطأ الفاحش أن يظن أنّ الشعوب الاسلامية بعد زوال وحدتها السياسية أصبحت لا تكون أمة واحدة ،أو أنها أصبحت لذلك ميدانا للتنافس بين القوى السياسية فى الشرق أو الغرب، فهذه الشعوب مازالت تحتفظ بوحدة امتها وعقيدتها وشخصيتها ومقوماتها الثقافية والاجتماعية والفكرية .

ولعل هذا يؤكد لنا السبب فى انحراف ميدان الصراع بين امتنا

---

(١) جريدة المسلمون - عدد ٢٠٧ - ١٣ جمادى الثانية ١٤٠٩ - مقال : اسلحة الحداثة والمسخ والتغريب للدكتور : توفيق محمد الشاوى . +

وأعدائها فى العقود الاخيرة من القرن العشرين وان لم يغفلوا عنه قبل ذلك ، حيث أصبحت الثقافة والفكر والأدب والفن وبعض ضروب من العلم هي مجال التنافس ومضمار السباق ، فقد ركن أعداؤنا إلى هذه الميادين وأرادوا تنفيذ مآربهم فى سلخ هوية هذه الأمة من خلالها ، واتخذوا لهم من بعض أبناء الأمة الشواذ أو الضالين عملاء يتعاونون معهم لبث أفكارهم ونشر سمومهم فى تلك الميادين ، ويريدون أن يزرعوا بها فكرهم وأيدلوجيتهم ليصرفوا بها أمتنا عن مراكز وحدتها ، وعن القواعد والأصول الفكرية التى تُكوّن الأمة وعقيدتها ، وتكسبها أصالتها واستقلالها وشخصيتها الإسلامية المتميزة .

وقديُهاجم أولئك العملاء والمستغربون أصالة الأمة ويحاربون دعاة الأصالة والمدافعين عنها ويريدون أن تنسى الأمة بما يبثون من سمومهم أصولها ومقوماتها ، ويستدرجونها كي تنحرف عن طريق وحدتها لتنتمي إلى مذاهب وعقائد وأفكار شرقية أو غربية ، من صالح أهلها أن تنال الرواج بين المسلمين ، يعملون ذلك تحت ستار كثيف من الشعارات المُضَلِّلَة باسم العلم أو التطور أو الحداثة أو المعاصرة .

إن هذا الصراع الذى لايزال ضاريا بشراسة إلى اليوم هو أكبر ماهُدِّدَتْ به أمتنا ووحدتها قديما وحديثا ، وكما حاول الاستعمار فى مطلع هذا العصر أثناء سيطرته على أكثر بلاد الإسلام أن يمحو عقيدة الأمة ودينها ، ثم قاومته الأمة - على ضعفها - حتى استردّت حريتها وسياستها وأوطانها ، فكذلك يجب عليها أن تثور للحفاظ على أصولها وثقافتها وعقيدتها التى يراد هدمُها حتى تعود لها وحدة أمتها وشخصيتها المتفردة الأصيلة وألّا تغدو ظلا شائها لايدلوجيات شرقية ولاغربية .

إن دعائم وحدة المسلمين تمنح مجتمعهم ترابطا قويا لانظير له فى أى مجتمع آخر ، ولذا فاتحاد المسلمين قائم رغم ذل المسلمين السياسي وتخبط قياداتهم ذات اليمين و الشمال ، إذ أن سر هذا الاتحاد أنه وشيجة نفسية وآصرة لاتعمل فيها مدافع ولاسواها ، وأنّ هذه الروابط

لا تُحل بأي قوة مادية أبدا [1] ، وكل ظلم وعسف على الإسلام وأهله يزيد هذه الرابطة قوة وتماسكا ، إذْ هى قوة نفسيه ، والآمال القومية والعواطف الدينية لا تُتَغلّب بقوة المدافع والبنادق أبدا ، فهى قوى روحية لا تَعمل فيها قوى المادة شيئا ، وحسب هذه الوحدة بهذه القوة التى تمتلكها وتمتاز بها أنّها تتعالى على وحدات المجتمعات الأخرى ، وتغالب حوادث الدهر فى صمود وشمم وكبرياء .

(٤) الأصل الصحيح والقويم فى الوحدة الإسلامية أن تكون للمسلمين حكومة واحدة مهما كثر العدد وتعددت الأوطان ، وهذا ما أرشدهم إليه نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وكثير من خلفاء المسلمين بعدهم .

والعجب العجاب أن يَظل المسلمون تحت هذه الوحدة بضع عشر قرنا حتى أُزيلت الخلافة الإسلامية فى العصر الحديث ، ثم تتعالى الأصوات ويكثر الضجيج بعدم صلاح الخلافة لحكم الأمة وتظهر ـ كما سنرى ـ الطعون والانتقادات عليها ، هذا وهي مُثبِتة قدرتها لقيادة الأمة وتفوقها على الأمم الاخرى ، بل هى التى صدّت عن المسلمين اعتداءات شتى الأمم عليها من الشرق والغرب ، على الرغم من تباعد الديار ونأي الاوطان وبدائية الوسائل التى تعين على الاتصال على امتداد تلك العصور ، ثم نجد من يدّعي عدم صلاحها لحكم المسلمين فى العصر الحديث . . ! [1]

المجتمع المسلم له حكومة اسلامية واحدة لا تقبل التجزوء ، هذا مايدعو اليه الاسلام ، وما يفهم من طبيعته وروحه وعصمته .

وعلماء الإسلام الذين بحثوا هذه القضية فيما سمّوه " تعدد الائمة" بمعنى هل يلزم المسلمين جميعا أن يكونوا حكومة واحدة لها إمام واحد ، أم يجوز لهم ان يتخذوا أكثر من دولة باكثرمن حاكم ؟

---

(١) انظر : اتحاد المسلمين ٧٥ .

حين يناقشون هذه المسألة نجدهم يذكرون فيها رأيين . (١)

الأول : لا يُجيز تعدّد الأئمة .

والثاني : يجيز هذا التعدد .

لكن الذى يظهر من رأى العلماء المحققين أن التعدد جائز للضرورة فحسب، كتباعد الديار أو فصل الكفار قطعة من أرض المسلمين وراءهم عن الإمام، والرأى الاول هو الراجح لما يعضده من نصوص القرآن والسنة والإجماع التى لا تُقاس بها أدلة مُجيزى التعدّد ، ثم إن مجيزى التعدد إنما أباحوه على سبيل الاستثناء المحض، والضرورة هى التى اجازته وهم يقرّون أن وحدة الإمامة هى الأصل فى الاسلام ، والضرورة تُقدّر بقدرها ، فاذا زالت زال حكمها وبقى الأصل .

لندع هذا على أهميته ولننظر فى الأمر الواقع حيث المسلمون دولا وحكومات متعددة ، فهل يعنى هذا أن الوحدة الاسلامية قد ذهبت ريحها وانقطع دابرها من بينهم؟

الحق أن هذه الوحدة تمتلك قوة عجيبة ـ كما رأينا ـ تستعصي على الحوادث والأزمان ، والحكومات والدول الاسلامية رغم تفرقها لو صدقت فى ولائها الإسلامي وإخلاصها لعقيدتها لما ضرها كثيرا تعددُ حكوماتها ودولها ، إذ أن مايجب على كل حاكم مسلم من تحكيم شريعة الله والاعتصام بالكتاب والسنة وحفظ حقوق أمته الاسلامية أفرادا وحكومات، وكل ذلك يجعل كل حكومة مع الحكومات الاخرى كالأخ مع اخوته ، يهمه ما أهمهم، ويؤذيه ما يصيبهم، وحياته بحياتهم ومصالحه هى مصالحهم ، لو أنصفت القيادات و الحكومات الاسلامية المتعددة حقا و التزمت بدينها قولا وعملا لما نزل بها مانزل من الهوان والخذلان وتسلط الاعداء وسلب المقدسات !

إنّ المطامع والشهوات والاستئثار بالملك والميل إلى الدنيا واتباع الاهواء هى التى نكبت وحدة المسلمين وأكثرت قياداتهم ، والاهواء أدّت

---

(١) لخّصت هذه المسألة بايجاز عن : الإمامة عند أهل السنه والجماعة ٥٥٢ - ٥٦٣ ، وانظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ٢٣٢ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١ / ٢٧٣ .

الى التفرق ، وأينما حل التفرق فهناك الشقاء والشقاق .

لم تُبْقِ الحكومات الظالمة فى المجتمع الإسلامي على الأخُوّة الإسلاميه ، " وكثرة الأمراء أدّت الى زيادة الفِرَقِ ، ونماؤها فى حرية أدى إلى النزاع وظهور المذاهب الضالة المختلفة بين المسلمين فلم تبق بينهم مودة، وزوال الألفة لم يلبث أن أزال الحكومة الإسلامية ، كما محى كل حكومة وفرّق كل جماعة " (١) والأمثلة لدينا عديده ، وما حل بالأندلس حتى خرجت من حوزة الإسلام الا مطامع الأمراء - طلاب الدنيا - الذين لم يتعاونوا مع إخوانهم ، بل استعانوا عليهم بأعدائهم - حرصا على سلطانهم فالتهمهم عدوهم واحدا تلو واحد حتى لم يُبقِ منهم أحدا !

لو كانت حكومات المسلمين المتعددة تستشعر واجب الأخوة الإسلامية لكانوا قوى عديدة تنهال من كل دولة وحكومة إسلامية على أى عدوّ ينزل بأى حكومة من حكوماتهم ، ولربما يذهب الخيال بالمرء إذا ملكت هذه الحكومات بعضا من أسباب القوة، أنّها ستفرض رأيها ومكانتها على المجتمع الدولي بكل اعتزاز واقتدار .

وإذا تذكّرنا العالم الاسلامي وقد قامت عليه عدد من الحكومات قبل العصر الحديث فإن الأخوة الاسلامية كانت حيّة قائمة ، والعالم الإسلامي رغم تلك الدول يرى أنه عالم واحد ، وكل مسلم يدين بالولاء والطاعة لاى حكومة يعيش تحتها أنّى وُجدت ، ويشعر بمسئوليته في المحافظة عليها والمشاركة فى الدفاع عنها ، وتلك الدول كان لها أن تستفيد من الطاقات البشرية المتواجدة فى كل مكان من العالم الإسلامي ، وكان ثمرة ذلك أنّ الرجل كان يذهب من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، يدخل أيّ بلاد يشاء دون عقبات ولا حواجز ، يمكث مايمكث ويطلب العلم أو يتّجر أو يطلب الرزق ، أو يبحث عن عمل متنقلا من بلد الى آخر ، فيجده دون صعوبة على نحو ما قصه ابن بطوطة الطنجى (٢) (٧٠٣-٧٧٩) الذى

---

(١) اتحاد المسلمين ٥٨ .

(٢) انظر ذلك فى رحلته (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وكانت قد استغرقت سبعة وعشرين عاما .

طوّف بلاد الإسلام من المغرب إلى الهند واتصل بسلطانها ، فقلده منصب قاض القضاة وبعثه سفيرا له إلى حكومة الصين ، كما نتج عن ذلك أنّ المسلم لم يكن يحس بغربة ولا جفوة ولا غضاضة وهو يدخل تحت حكومة بعد ما نقلته ظروفه تحت حكومة سواها .

إن تعدّد القيادات أو الحكومات الطامعة فى الشهوات والزعامة جعل الغايات متباعدة والاغراض متباينة ، وشَغَلَ العامة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وفرّقت الأمة والعدو على الأبواب ، كانت الغاية لهذه القيادات ألقاب الإمارة وفخفخة السلطان حتى ولو على بلدة صغيرة فتسمى بالإمارة أو الحكومة السلطنة ، وهي فى ميزان الدول لا تساوى شيئا أبدا ، فحولوا أوجه المسلمين فى كل اتجاه ، وخرج كل أمير على ملكه أو خليفته ، فتناكرت الوجوه وتبدّد شمل الأمة وذهب شأنها وقعدت عن التقدم والرقي فى معارج العلوم الحديثه حيث سبقتها الأقوام .

أمّا عندما نسمع من يقول : إن وحدة المسلمين قد عفت عليها الحوادث وغبرت عليها السنون ، فما معنى هذه الوحدة وقد أضحى المسلمون فِرَقا وأحزابا ، ودولا متفرقة وشعوبا ، وحكومات متنافرة وربما متحاربة أزمانا ، كما يُغني واقعهم اليوم عن بيان لشتاتهم وتمزقهم ؟ فحسبنا أن نُذَكّرهم ، أنّ واقع المسلمين المزري لا يُعفي المسلمين أمام ربهم وأمام مسئوليتهم عن المطالبة والسعي لتحقيق وحدتهم وإعادة جماعتهم ، بل لقد طولبوا بالاتحاد وهم أمة واحدة مبالغة فى التحفظ والصون عن الفرقة ، ولا يعني ذلك " أنْ تُعاد الخلافة الإسلامية كما ابتدأت وارفة على الجماعة الاسلامية وان كان يجب أن يكون غرضا مقصودا وهدفا منشودا .

وإنّما نكتفى بالحد الأدنى من الوحدة ونبني عليه ما بعده من ادوارها حتى يصل المسلمون إلى أعلى مدارجها ، فى أمر جامع لهم ، تحت أي شكل من الأشكال " (١)

وإذا تعاظم المسلمون تحقيق هذه الوحدة فكيف ينسون قيام

---

(١) الوحدة الاسلامية ٩ .

شعوبا عديده تجمع مئات الملايين من البشر ربما فاقوا المسلمين عددا تحت حكومة واحدة ، مع وجود اختلاف اللغات والأجناس والأوطان على مثل ما عليه كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية الصين .

تحققت هذه الحكومات الكبيرة لشعوب عديدة وما تنطوي عليه شعوب المسلمين من عوامل الوحدة والاتحاد يفوق ما يماثلها عند تلك الشعوب فكيف تؤمن بهذه ونكفر بتلك ؟

(٥) الوحدة الإسلامية بعد ماسبق تمتاز بواقعيتها وسهولة قيامها وتحقيقها ، فالحق الذى ينبغي ألّا نُخطئه عن هذه الوحدة ، إنّ الوحدات التى قامت فى شتى المجتمعات والتجمعات قديما وحديثا لم يصل رصيدها الحقيقي فى واقع المجتمعات ولا يمكن أن يرقى إلى ماهو عليه فى مجتمع المسلمين أو يصل إليه ، وأصدق ماندل به على هذا الإخاء الحقيقي الذى يوجبه الإسلام على أهله تلك المؤاخاة التى تمت بين المهاجرين والأنصار فى صدر هذه الأمة ، فقد وحّد بينهم الإسلام على المواساة العظيمة فكان الأنصار يتسابقون فى مؤاخاة المهاجرين ، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع، ثم بعد ذلك نرى الانصار - رضى الله عنهم - يُحَكّمون إخوانهم المهاجرين فى دورهم وآثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم ، ويؤثرونهم على أنفسهم، حتى بلغ الأمر بالقوم أن يقول الانصاري لأخيه المهاجر : انظر شطر مالى فخذه ، ولى امرأتان فانظر أيّهما أعجب اليك حتى أُطَلِّقها وتتزوجها . هذه هى روح هذه الوحدة أو ما يجب أن تكون عليه ، حتى لا تخدعنا انحرافات المسلمين القليلة والكثيرة عنها بعد ذلك فيتجاهلها اقوام ويتنكّر لها آخرون .

هذا أمر وهناك أمر آخر يضاف إليه ، إذ أن هذه الوحدة وهى تُلبي فطرة الناس وحاجتهم إلى الاجتماع ، تغاير كثيرا من نظريات الاجتماع وتفضلها ، إذ نجد هذه النظريات تضع أصولها وترسم مناهجها وفلسفتها وغاياتها ، ولكنها عندما تأخذ بها فى الحياة وتطبّقها حقا تقع فى التناقض والتخبط والاضطراب، وتمنى بالفشل الذريع فى إقامة المجتمع

على تلك النظريات ، ولذا تَظَلّ أكثر هذه النظريات الاجتماعية خيالا لا حقيقة له،ولوائح لا تطبيق لها،ونظريات محجوزة بين الصفحات والأوراق لا تتعداها، ولعل ما ذكرنا من حال القومية والوطنية والشيوعية وغيرها من النظريات والتجمعات تدل على حقيقة ذلك ،إذ أنّ قصور تلك النظريات عن حاجات المجتمع الإنساني قد أدّى إلى سرعة زوالها في بضعة عقود ، بينما الوحدة الإسلامية تتمتع بعمر ينيف على أربعة عشر قرنا ولا تزال محتفظة بما يكفل لها الحياة والاستمرار رغم الضربات العنيفة التى منيت بها في العصور الاخيرة. ولعل في هذا أكبر دليل على واقعية هذه الوحدة وتلبيتها الصحيحة للاجتماع الانساني،وإلا لما كان لها أن تظل تلك الاحقاب محافظة على نفسها وحية مزدهرة في مجتمعها ، فهي ليست خيالا ولا ظنونا وأوهاما ، ولا نظرية تدور في العقول وتكتب في السطور والصفحات ثم لا نجد لها واقعا حيا يمثلها ويَصْدُق عليها .

أمّا سهولة تحقيقها التى قد يَظُنّها اليوم خرافةً كثيرٌ من الكُتّاب والزعماء السياسيين-بسبب بعدهم عن فهم حقيقتها وروحها - فلا يُضيرنا التأكيد عليها رغم الوضع المزري لأمتنا اليوم فيما يتصل بهذه الوحدة،وجفوتهم لها وبعدهم عن الأخذ باسبابها،فالحق الذى يجب أن يُقال من غير تأثّر بحال أمتنا اليوم : إن هذه الوحدة على درجة كبيرة من السهولة واليسر عند ما يُراد تحقيقها وإقامتها ، ولا أظنّ ذلك يصبح غريبا علينا بعد أنْ عرفنا بعض خصائص هذه الوحدة وأسسها .

فهي باتخاذها العقيدة أساسا لها ومرتكزا لإخاء مجتمعها نراها بهذا الأساس قد نَجَت من كثير من العوائق التى اتخذتها المجتمعات البشرية أساسا لاتحادها ، وأراحت المجتمع الاسلامي من كثير من أسباب الشقاق والتنافر والتصدع ، فالأمم التى اتخذت الجنس أو العنصر والدم ركيزة لمجتمعها تواجهها مشكلة عويصة تكاد تعصف بهذا الأساس،إذ مَنْ من الأمم يستطيع أن يَدّعي نقاء أمته وصفاء عنصرها وعدم اختلاط دمائها بالأمم من حولها ؟ إنّ ذلك مستحيل قطعا ،والأمم البشرية على مدار تاريخها معرضة لاختلاط الأجناس وتنقل الناس وهجرات الشعوب والأُسَر. وكل ذلك يجعلها تضطرب عند ما تريد تحديد شعوبها وأجناسها،مَنْ

تأخذُ ومَنْ تدَع، ومن تُدْخِل ومن تُخْرِج ،ولعل فى اضطراب القومية الطورانية التركية فى العصر الحديث[1]، بين أن تكون مكتفية بالأتراك العثمانيين وسائر من ساكنهم واختلط بهم فى غربي آسيا وجنوبى اوروبا ليشكّلوا أمة قائمة بذاتها ، وبين من يرون أنّ الترك أمة قديمة وأنّهم هم والجنس المغولي يعودون لأصل واحد فيلزمهم أن يعودوا أمة واحدة ، لعل فى هذا الاضطراب خير دليل على ضخامة العقبة التى تواجه أساس هذا الاجتماع .

وهكذا لو أردنا أن نمضى مع أسس المجتمعات الأخرى ـ كما مر بنا ـ فالقومية التى تعتمد اللغة كيف لها ان تنجح وتقوم فى بعض المجتمعات التى تتكلم عددا من اللغات كدول وسط أوروبا كالنمسا وسويسرا فضلا عن وجود اللهجات داخل كل لغة ، والوطنية تقابلها ظروف البيئة التى تجعل الناس يتزاحمون على مواطن الخصب والزراعة ورخاء العيش، إضافة الى المواقع الاستيراتيجية، مما يجعل البلدان التى تتمتع بها عرضة للصراعات والمنافسات الدولية والأممية ، والناس ليسوا كالقطيع فى انضمامهم، فهم آمال وطموح وروح إنسانية ، عندما لا تجد المقام الذى يرضيها ويريحها فلا تكترث لان تدعه إلى سواه .

يبقى بعد هذا أن يُقال: هناك مجتمعات اتخذت الدين أساسا لها كاليهودية أو النصرانية فحال دون سرعة اتحاد أممها ، فلماذا نَزْعم ذلك للإسلام ؟

قد سبق أن علمنا أنّ اتحاد المسلمين الذى قام على دين الاسلام يتميز بروح التسامح الدينى الكبرى ، فهو ليس خصما لمن لم يدينوا به ، بل يسمح باقامتهم ويعطيهم حريتهم وكرامتهم داخله كي يعيشوا سعداء آمنين، وهذا الأمر يجعل هذه الوحدة سهلة لانضمام من لم يدينوا بالإسلام تحت وحدة سلطانه ومظلته ،وليس غريبا إذن يكون أهله أعظم ألفة واخاء وترابطا خاصة وأن إخاء أفراده ومجتمعه ـ كما علمنا ـ قد شُدّ بكل وسائل التضامن التى تجعله يغالب كل اسباب الفرقة والخلاف والاختلال .

هكذا يتجلي لنا أن الوحدة الاسلامية تجاوزت الأسس الوطنية

---

(1) انظر : حاضر العالم الاسلامي ١/١٥٧-١٦٠.

واللغوية والجنسية والنفعية لمجتمعها ونجت من عراقيلها وأحابيلها ، ولم تَضق ذرعا بمن لم يعتنقوا دينها أن يستظلوا بدوحة مجتمعها الوارفة فى عافية وأمان ، فكيف لنا بعد هذا ان نستنكر سهولة تحقيقتها ؟

قد تعود لأذهاننا حالة الانقسام والفرقة التى مُنيت بها أمتنا اليوم، فكيف يزعم امروء سهولة الوحدة والحال ما نرى ؟

هنا نتذكر ما رأيناه آنفا من قوة هذه الوحدة ، وأنها وحدة أمة وعقيدة وفكر ، وأنها لا تسقط ولا تذهب بزوال الوحدة السياسية ، بل إن الوحدة السياسية ليست شرطا لازما لوجودها ولكنها تعين حقا على حفظ وحدة الأمة عقديا وفكريا ودوليا ، ولا شك أننا حين ندّعي للوحدة الإسلامية الواقعية وسهولة التحقيق ، لا ندّعى أنها بذلك لا تجد عقبات أمامها عندما تأخذ سبيلها فى ميدان الحياة العملي ، كلا - فقد تواجهها بعض العقبات التى تقف أمام بعض المجتمعات القائمة على الوطنية أو اللغة أو غيرها ، لكن ما يجب أن نعيه أنها تمتلك من المقومات والمقدرات فى تجاوز هذه العقبات ما لا تملكه غيرها من الوحدات الاجتماعية ، فتصل إلى إقامة مجتمعها وإنشاء وحدتها من أيسر السبل وأفضلها، وتلك ميزة لا يستهين أحد بها ، خاصة وأنه قد أكدها مفهوم هذه الوحدة من خلال دينها ومن خلال مسيرتها التى ظهرت فيها أيام نشأتها الاولى ، ومهما كان حال الوحدة الاسلامية وما اعتراها من عقبات زلزلتها فى بعض العصور أو أفقدها وحدتها السياسية كما وقع فى العصر الحديث فإنّ طبيعتها وروحها الصحيحة تجعلنا - بلا تأثر ولا ميل - نصدع بالحق الصراح أنها أصدق وحدة بشرية واقعية وأيسرها من الإيجاد والمنال . .

(ب) وســائلهـــــا :

لا يخفى أن المجتمعات الانسانية إنما تقوم عندما يتآلف الأفــراد ويتوادون ويتعاونون ، وإنما يقوى هذا التآلف والتواد بقدر ماتقوى بـــين أفراد المجتمع أسباب التعارف والترابط وتكثر وشائج التراحم والتواصــل والتعاون ،والتى انما تنبعث عن تقارب الأمزجة وتشابه الافكار والأنظار إلى المعانى والاشياء، واتحاد المشاعر والاحاسيس والأراء ، مما يجعل الأمـــة الكثيرة كالأسرة الواحدة ،والإرادات العديدة كالإرادة الواحدة ، وفى ذلك مايدل على وجود المجتمع الإنساني حقيقة ،حيث التماسك والتعاون والإخاء .

وإذا كان كل تجمع بشري يتخذ له أُسسا يُقيم عليها مجتمعه لأنـها أهم بواعث التآلف وأعظم أسبابه التى يعتقدها ، و رأينا الأمم تتفاوت فـى هذه الأسس ، فلا غرو أن مما يُعلم من حال الأمم والمجتمعات أن هنـاك أساس كبيرمن أُسس التجمع البشري يكاد يكون أعظم باعث لأســـباب التآلف والتواد والتقارب في الأحاسيس والمشاعر والافكار، ذلك هو الديـن فى سائر المجتمعات وفي أغلب الأحوال . فالأديان بطبيعتها يكون لهـــا تأثير كبير فى تحديد معالم المجتمعات وخصائصها ، وهى التي تكاد تحدد للأمة عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وأمزجتها ولغتها وعلاقة أفراد الأمـــة ببعضهم وصلات الأمة بغيرها من الأمم أو الشعوب الأخرى .

يقال هذا بصفة عامة على الأديان ، أما إذا نظرنا إلى دين الإسلام فى ضوء ذلك فإننا نجده ينطبق عليه انطباقاً عظيماً ، بل إنه لا يفوقه فــى ذلك دين آخر أبداً ،إذ الإسلام لم يكن شعائر وطقوس محدودة ، ولكنــه نظام شامل كامل لكل جوانب الحياة ومناحيها المتشعبة ، فهو الذى يحدد للأمة شعائر عباداتها ويحدد وجهتها ورسالتها وآمالها فى الحيـــاة، وهو الذى ترسم مصادره للمجتمع نظامه فى شتى ألوان المعاملات والقضاء والعلاقات الأسرية والاجتماعية والعادات والأخلاق ، وتحدد لأفراده مـــا يجب عليهم وما يجب لهم داخل مجتمعهم ومع قياداتهم وعلاقتهم بالأمـم الأخرى .

من هذا يتجلى لنا - ونحن نبحث عن وسائل الوحدة في الإسلام - أن رأس هذه الوسائل وعمودها الذى تقوم عليه سائر الوسائل ولا غنى للعُمد الأخرى عنه هو تحقيق هذا الدين فى مجتمعه واقامته حيًا فاعلا بين أهله وهيمنته على نظمهم واحكامهم العامة والخاصة .

ودين الاسلام الذى أمر بهذه الوحدة قد هيأ لها كثيراً من الوسائل لتقيمها وتظهرها ، منها وسائل تسعى لإيجادها عندما تكون معدومة أو مفقودة ،ومنها وسائل تعمل على المحافظة عليها بعد قيامها وترمي إلى تقويتها و مدّ نفوذها ، وصدّ كل ما من شأنه أن يضعفها أو يهددها حتى تكشفه وتقضى عليه .

ولا غرو أن توجيهات الإسلام هي التى نبهت إلى تلك الوسائل وشرعت الأخذ بها ، وهي لاشك وسائل كثيرة ، لكن مايعنينا فى هذا التمهيد أننا نكتفى باللمحة السريعة والنظرة العجلى إلى ما أراه أهم هذه الوسائل المتعددة .

رأس هذه الوسائل - كما قلنا - هو وجواد دين الإسلام فى مجتمعه نظامًا كاملاً فاعلًا فى مختلف الشئون ،فإذا ما تحقق ذلك تحققاً قويماً ونظرنا بعد ذلك فى نظام هذا الدين وأحكامه لوجدناه يهدي إلى هذه الوحدة ويرمي إليها ، فالمسلمون في كل زمان ومكان يعبدون إلهًا واحداً لاشريك له ، يتعبدون له بعبادات محددة ومعلومة لا مجال للابتداع أو الزيادة أو النقص منها ، وأحكام معاملاتهم وقضائهم ونظامهم الأسري وما يتصل بشئونهم الاجتماعية كلها مستمدة من شريعتهم ليس لهم قانون سواها .

وما جاء به الاسلام من نظرة وتصور للوجود والحياة ،وما أوحى به من اعتقاد المغيبات وما وراء الحياة ، كل ذلك مما يستلهمه المسلمون من عقيدتهم ،فهم يَغْدُون بذلك ولهم نظرة واحدة الى الوجود والأكوان والأحداث، كما أن لهم فهمهم الخاص فى علة مجيء الإنسان إلى هذه الحياة ، من أين جاء ، ولماذا ،وأين يسير،وماهي وظيفته فى الارض؟

كل هذه التصورات والمفاهيم واحدة فى معتقد كل مسلم ومسلمة .

أما عبادات الإسلام وشعائره الكبرى ، فكم فيها من معان كبيرة للوحدة ، فالشهادتان تنطق وتلهج بها شفة كل مسلم ،والصلاة يجتمع لها المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة إضافةإلى اجتماعهم الاكبر في الجمعة والعيدين ، الأعمال واحدة والاتجاه إلى قبلة واحدة . والزكاة حافلة بمعاني التعاطف والرحمة والألفة ،يتفقد بها المسلمون بعضهم ، ويسدّون بها خُلّة معوزيهم ونوائب جماعتهم ،ومتى وُجِد التعاطف والبر والتراحم داخل أي مجتمع فلا شك في حياة وحدته وتقارب أهله . والصوم فيه من وحدة الزمان و المشاعر فوق مايدفع إليه من الرحمة والإحسان بين الأمة ما يحمل روح الوحدة ويَدُل عليها . أمّا الحج فما أكثر معاني الوحدة الإسلامية فيه وأعظمها ،إذّ هي واضحة جداً لمن أمعن البصر والتبصر فيها .

من كل هذه المعالم يمكننا القول : " إن الاسلام هو أكمل تصوّر لحقيقة الوحدة ـ وهي أضخم الحقائق على الإطلاق ـ وحدة الخالق الذى ليس كمثله شيء . ووحدة الإرادة التى يصدر عنها الوجود كله بكلمة (كن) ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة. ووحدة الناموس الذى يحكم هذا الوجود ، . . . ووحدة البشرية من آدم ـ عليه السلام ـ إلى آخر أبنائه في الأرض، ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة ووحدة الرسل المبلغة لهذه الدعوة . ووحدة الأمة المؤمنه التى لَبّت هذه الدعوة. ووحدة النشاط البشري المتجه إلى الله وإعطائه كل اسم (العبادة) ووحدة الدنيا والآخرة داري العمل والجزاء . ووحدة المنهج الذى شرعه الله للناس فلا يُقبَل منهم سواه ، ووحدة المصدر الذى يتلقون عنه تصوراتهم كلها ومنهجهم في الحياة . . ." (١)

هكذا تجد سائر أصول الاسلام ومبادئه إذا نُظِر اليها وبُحِثَ فيها بروّية نجد مبدأ التوحيد والإتحاد مرمى كلّ عمل وأساس كل قاعدة ، وفي ذلك مايؤكد اهتمام الإسلام العظيم بهذه الوحدة وحرصه عليها ، بيد أن هذه الوسيلة الكبرى التى تجعل الإسلام حياة أمة قائمة به ومتمثله له في كل مناحي حياتها ، تعني التبعات الكبرى والمسئوليات الصعبة

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٣ .

والأمانة العظمى على أتباع هذا الدين ، وتلك رسالة أنبياء الله إلى الأمم كافة ، حيث يتحملون نشر هذا الدين وإقامة الدعوة إليه وتعليمه الناس وتطبيقه فى الأرض، وتلك مسئولية عامة تقع على جميع الامة، وهم مطالبون بها ولا عذر لهم فى التخلي عنها ، وعلى ولاة الأمور والعلماء يقع القسط الأكبر من هذه المسئولية التى هى رسالة هذه الامة فى الحياة، وهذا لاشك يحتاج الى جهود ضخمة ومتتابعة لاتوقفها سبل البيان والتطبيق فى الداخل عن الدّعوة بشتى الإمكانات والوسائل إلى الإسلام في خارج دياره وحوزته.

ما يأتى بعد وسيلة إقامة الدين منهج حياة ودستور أمة من وسائل أخرى إنما ترجع في الحقيقة إلى هذه الوسيلة وتستند إليها ، لكن مع ذلك لا مندوحة من الإشارة إلى بعضها والتذكير بها لأهميتها الكبرى فى بلوغ وحدتنا هذه .

أول هذه الوسائل إشاعة روح الوحدة فى مجتمع المسلمين بحيث يعتبرون أنفسهم مهما تناءت بهم الديار واختلفت بهم اللغات أمة واحدة وأخوة متحدين تربطهم ببعضهم أكبر رابطة تفوق رابطة النسب والقرابة، ويشعرون أنهم مرتبطون بروابط وثيقة تمتد إلى أعماق نفوسهم، وأن تكون الوحدة حية في ضمائرهم غايةلهم ،وأن من خالف ذلك فقد خالف روح الإسلام " ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولى ونُصله جهنّم وساءت مصيرا " (١) وان تكون روح هذا الإخاء حاجزة للمسلمين ألاتقوم بين فئتين أو إقليمين حرب أو بغي ونزاع.

ثم يأتي بعد ذلك أمر عظيم يتصل بهذه الوحدة وهو إحياء الولاء والبراء الإسلامي في جماعة المسلمين ، فولايتهم وحبهم الكامل وثقتهم الغالية إنما ينزلونها بإخوانهم المؤمنين وعباد الله الصالحين، ويحققون البراءة من الشرك وأهله فلا يركنون إليهم أو يطمئنون إلى عدلهم وتزلّفهم(٢) ، وآية ذلك ألّا يُقال عن حاكم مسلم أو طائفة مسلمة أنه يَنْزِع مَنْزَعًا شرقيًا أو غربيًا ، أو يوالي سياسة أوروبا أو يتبع نهج روسيا ، أويكون

---

(١) سورة النساء ١١٥.

(٢) انظر: الولاء والبراء فى الاسلام - محمد سعيد القحطانى .

تابعاً لهم وأسيراً لسياستهم ، كلا ، لكن يجب أن يكون المَنْزَع إسلامياً والاتجاه إسلاميًا والقضايا والمواقف اسلامية لا يتقدم عليها شيء أبداً ، ولا يمنع ذلك - أبدا - من إقامة علاقات مصالح مع القيادات والحكومات الأجنبية ، والإستفادة منها في كثير من جوانب المادة والمصالح المتنوعة الأخرى .

إن الولاء والبراء أكبر برهان على صدق الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم " (أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله) (١) وحين تُوهَن رابطة الولاء تصبح رابطة الأمة هشة شاحبة ، وتتوزع الأمة اتجاهات شتى ، ويفتح الباب لأعداء الأمة كي يَصلوا إلى تمزيقها ، لأن الولاء كان يعصمها من ذلك ، وما الآيات القرآنية التي تُذكّر بذلك إلا أسطع حجة على حاجة الأمة إليه ، وصَدَق الله " إنّما وليّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإنّ حزبَ الله هم الغالبون ، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفارَ أولياءَ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين " (٢)

إن عقيدة الولاء والبراء في الاسلام تفرض على المجتمعات الإسلامية التآزر والتكتل فيما بينها حتى لا ترتبط بذيل تكتلات الأمم الأخرى ، فثقة المسلمين إنما تكون في إخوتهم ، وقوتهم إنما هي لأمتهم ، ولعل في ذلك مايدعو المسلمين إلى اتخاذ نهجاً واحداً لهم في سياستهم الخارجية وألا يَدْخُل أي بلد أو حكومة اسلامية في أي اتفاق سياسي أو دولي منفرداً عن حكومات الأمة الأخرى ، فإن ذلك يقود إلى اختلاف المسلمين في اتفاقاتهم وسياساتهم فيوالي هذا دولة يعاديها آخر ، ويصادق آخر دولة تفتك بالمسلمين في أحد الأوطان ، وهكذا تُفتَح أبواب الفرقة حين تفتح أبواب الإتفاقات الحرة للحكومات المسلمة ، حيث يبدأ كل يوالي حليفه ويدافع عن سياسته ، بينما هو عدو مبين لطائفة من شعوب الإسلام التي تندد به وتريد الإنتقام منه ، فيقع المسلمون أسرى الخلاف والفوضى وتدب

---

(١) رواه الطبراني وذكره السيوطي في الجامع الصغير ١ / ٦٩ وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢ / ٣٤٣ حديث حسن .

(٢) سورة المائدة ٥٥-٥٧ .

بينهم الفرقة والشقاق ، لذا يجب كي تقوم الوحدة الاسلامية أن يُوَحّد المسلمون سياستهم الخارجية حتى يكونوا مجتمعين قوة دولية موحدة ولا يشذ أحد منهم عنها .

إن هذا لا يعني أن يغفل المسلمون عن التكتلات الدولية والتحزبات الأممية من حولهم ، ولكنه يريد أن تكون لهم مكانتهم الكبرى وسط هذه التكتلات، فلا يطمع عدو فيهم ولا يبغى عليهم أحد ،ولا عليهم بعد ذلك أن يُشاركوا فى المحالفات الإنسانية النبيلة ، التى تسعى إلى الحق والعدل وكرامة الإنسان ،وأن يربأوا عن تحالفات الظلم والبغي والعدوان .

ومن أعظم وسائل الوحدة الاسلامية وحدة الثقافة والفكر ، فلا ريب أنها من أنفذ الاسباب لتآلف العقول وتلاقي الأنفس،ومن حسن حظ المسلمين أن أصل هذه الوحدة يرتكز على أساس ثابت من دينهم وشريعتهم بيد أن بُعْدَ المسلمين التدريجي عن هذا الأساس مع تعاقب الازمان، ثم دخول الثقافات والأفكار العديدة إلى ديار الاسلام وخاصة فى العصر الحديث حيث نجد أعدادا من الثقافات بأفكارها وفلسفاتها قد زاحمت الفكر والثقافة الإسلامية ، وكلّ ذلك أودى بالمسلمين إلى الابتعاد عن المنهل العذب الذى يستقون منه ثقافتهم ، فخرجوا بذلك إلى فرق متعددة وطوائف متخالفه، ومذاهب متباينة، كل حزب بما لديهم فرحون .

فالمسلمون بين سُنّة وشيعة وباطنية متشعبه الفرق ، وبين مذاهب فقهية مشهورة وغير مشهورة ،وبين محافظين على القديم ودعاة الحداثة والتجديد الذين يروّجون لكل فكر عرفوه عن أمم الشرق والغرب،وكل ذلك إضافة الى التمزقات الاقليمية التى مُني بها المسلمون فى العصر الحديث قد خلقت فجوة فى الفكر والثقافة وتبايناً فى التصوّر والمسلك ، واختلافا في المناهج والتعليم والتربية ، فأني للمسلمين بوحدة بعد هذا الشتات ؟

إن مجتمعات المسلمين لو صدقت العزيمة وأخلصت النيّة فى ذلك لاهتدت إلى وحدة فى الثقافة والفكر ، فما دام الأصل ثابت لا مجال للريب فيه،فنواة هذه الوحدة لا تزال حية ،وإنّما يبقى العمل الجديّ إليها ، ولعل

من معالم ذلك أن يعود المسلمون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم في اجتلاء الحقائق فيما يختلفون فيه من مسائل عقيدتهم وشريعتهم بين فرقهم ومذاهبهم المتعددة، رائدهم قوله تعالى " وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا " (١) .

حين يتم للأمة الإسلامية الوقوف على أساس متين من عقيدتهم وارتباط جلي بشريعتهم في ميدان الثقافة والفكر، فما وراء ذلك من ألوان المعرفة البناءة والحضارة النافعة لا يغدو معارضا لوحدتهم ولا مُهَدِّداً لها، لكن يجب على المسلمين ألّا يَنسوا وهم يتطلعون إلى ثقافات الأمم الأخرى أن الفاعل الأكبر والسبب الرئيسي الذى قعد بهم عن التقدم المادى والازدهار العلمى وجعل عدوهم يتسلط عليهم، ليس من ضعف في ثقافتهم ولا تدنٍّ في فلسفتهم أو قصور في مجالات فكرهم، كلا، فالمسلمون إنّما غُلِبوا لتاخرهم في مجال العلوم المادية البحته وإهمالهم لها في حين احتفى بها سواهم، فامتلكوا مقدراتها وقواتها وجنوا ثمراتها والمسلمون مملقون منها، فتسلحوا بها في الحروب الحديثة قوة عاتية ليس بأيدي المسلمين شيء منها، فقهروهم وساموهم سوء العذاب.

يبقى في سبيل الوحدة الفكرية والثقافية أمر لا مندوحة من التذكير به، إنّه اعطاء اللغة العربية الميدان الرحب في مجتمعات المسلمين حتى تُيسِّر وتُقرِّبَ هذه الوحدة، فالذى أعان على فرقة المسلمين الثقافية والعلمية هو إماته العربية في أقاليم الإسلام واحياء اللغات الإقليمية عوضا عنها، والتعارف بين المسلمين لا يتم إلا إذا وُجدت لغة جامعة بينهم، بحيث يتفاهم بها المسلمون حين يتنقلون بين بلدانهم التى لها لغات شتى، أليس من المخجل أن يلتقي المسلمان في أكثر أنحاء الأرض فلا يتعارفان الا بالانجليزية أو الفرنسية أو غيرهما ؟ .

إن إحياء العربية في مجتمعات المسلمين أمر تقتضيه المصلحة، وتنبئ بمكانته الادلّة، فهى " لغة القرآن أولا، ولغة الاجتماع

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

الإسلامي ثانيا ،ووعاء العلم الإسلامي ثالثا ، فلا بد أن نُعِدَّ هذا الوعاء للمسلمين أجمعين " (١)

إن ذلك لا يعني إماتة اللغات الاقليمية وإلغائها، ولكن لتكن العربية لغة الثقافة الدولية بين المسلمين ،ولا يعني ذلك تعصب للعرب أبدا ، لكن إذا أردنا للأمة المسلمه لغة تجمعها فماذا نختار؟ إن العربية بداهة هي أجدر لغة لتوحيد المسلمين ، فهي فضلا عن تسللها إلى كثير من لغات المسلمين ألفاظا وكتابة حروف، لغة القرآن ولغة السنة النبوية ولغة العبادة في الاسلام ولغة أعظم مدونات التراث الاسلامي بمذاهبه واتجاهاته المتعددة،

ان وحدة الثقافة والفكر في ديار الاسلام هي التي تعصم الأمة من التأثر بالأفكار الغربية والمنحرفة التي تريد التسلل إلى عقول المسلمين لتصرفهم عن دينهم ، وتقف حاجزا منيعا بين الأمة وبين شبهات المنحرفين وتشكيكات المنافقين وأباطيل الحاقدين ،ممن يسعون لحَلِّ عُرى هذه الامة وتوهينها .

يبقى من الوسائل الفعالة التي يجب التنبه لها الوحدة الإقتصادية بين المسلمين ، والاقتصاد في عصرنا الحديث تقوم عليه قوى الأمم وتنافساتها ، إن لم يكن مبعث الحروب بينها ومُحرّك أطماعها وشهواتها .

والعالم الاسلامي كما هو معلوم من موقعه وكنوز أرضه وخيرات بلاده يملك ثروات هائلة وغلات وفيرة وكنوزا ضخمة في ظاهر الارض وفي داخلها .

وليس من وكد هذه العجالة - بالطبع - رسم صورة لهذه الوحدة الاقتصادية ،أو بناء منهج لتكاملها أو القول بتوحيد العملة النقدية أو إقامة البنوك الاسلامية أو سواها رغم أهميتها ،ولنجعل أهل الخبرة والاختصاص أجدر بذلك وأقوم قيلا فيه، ولا غنى عن رأيهم في هذا الميدان .

لكن من جانبنا يمكننا أن نقول : إنّ المسلمين بهذه الخيرات التي وهبهم الله إياها في بلادهم يستطيعون أن يُشَكِّلوا كتلة اقتصادية كبرى

---

(١) الوحدة الاسلامية ٢٩٤ .

يحققون بها اهدافا كبيرهم لأمتهم ، فبها يستطيعون أن يستغنوا عن سائر الأمم الأخرى التى تريد أن تملى إراداتها على شعوب الإسلام حين يمدون يد الحاجة إليها ، كما أنها تُمكّنهم من تشكيل تكامل اقتصادى بين أمتهم، حيث يأخذ كل إقليم ما ينقصه من الأقاليم الأخرى أو من أحدها ، ولا شك أن هذا التعامل يبعث على التعارف والاحتكاك والتآلف بين أبناء المسلمين ثم إنّ الأمة الاسلامية بهذه القوة الاقتصادية الكبرى التى تمتلكها تستطيع أن تفرض إرادتها على أمم العالم مهما كانت، مما يدفعها ألّا تقدم على اى عدوان على أى أرض من أرض الاسلام . ولو ضربنا مثلا توضيحيا بالبترول الذى تقوم عجلة الحياة الحديثة عليه فى كل شئ ، وتذكرنا أن للمسلمين نصيب الأسد من ملك البترول العالمى ،لوكانت لهم كلمة وسياسة واحدة فى استغلال هذا المورد فى خدمة قضاياهم لكان لهم من ذلك صوت مسموع وجانب مرهوب وإن كان الامر - من أسف شديد - على خلاف ذلك .

إن غاية الوحدة الاقتصادية إنّما هى " ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الاسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى نفض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية .وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجذ أوروبة ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ،وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقُطر الحديد والجمارك ،والعقود التى مادامت خارجة من أيدى العالم الاسلامي فهو يظل عالة على الغرب " (١)

الوحدة الاقتصادية وحدة عملية كبيرة فى ديار الاسلام ،تدعو المسلمين الى تعاون وتكاتف فى مضمار التجارة والصناعة والزراعة والسلاح وهي اليوم من أعظم أسباب القوة التى يطالب المسلمون بالاخذ بها " وأعدوا لهم ما ستطعتم من قوة . ." (٢) ، وهي دون شك ستبعث فى العالم الاسلامي حركة ويقظة و ازدهارا ماديا ،وستجعل المسلمين

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ١ / ٣٢٨ .
(٢) سورة الانفال : ٦٠

يتبادلون الخبرات ويأخذوا بأسباب العلم الحديث، فإذا ما لاح ذلك في الأمة أتى بأطيب الثمار وأعظم النتائج ، وحطّم أكثر الحواجز والقيود المصطنعة بين المؤمنين ،وفتح الأبواب الواسعة للاستثمار الاسلامي الحر بعيدا عن أن يستغله أو يربح من ورائه غير المسلمين حين يقيمه المسلمون في ديارهم ،وفوق كل ذلك أن المسلمين وهم ينعمون بثمرات هذه الوحدة يشعرون بحياة وعطاء وقوة أمتهم ومجتمعهم فلا يتطلعون إلى غيرهم ، وإن ذلك سيبعث حتما على روح التعاون والتكامل الاجتماعي الذى يريده الإسلام ، فالمسلمون وهم يتعاورون الخبرات ويتبادلون السلع لن يعدموا روح العطف والاحسان إلى إخوانهم المحتاجين ، فهم لن يعاملوهم بمقدار الدرهم والدينار،وإنما سيكيلون لهم بالكيل الاوفى ويزيدون،وحسب ذلك فضلا لهذه الوحدة المباركة .

هذه بعض أهم وسائل الوحدة الاسلامية التى رأيت الإشارة إليها ولا غرو أنّ هناك ما قد يلحق بها ، كالوقوف على أسباب الفرقه المتعددة سواءً كانت بين ولاة المسلمين أم بين فرقهم ومذاهبهم أو حول مصالحهم وثرواتهم وقطع دابرها . أو حسم النزاع الناجم بين طائفتين من الأمة والاصلاح بينهما على هدى من أمر المولى سبحانه " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحب المقسطين " (١)، وكفى بهذه الوسائل أن تكون مُقيمَة لوحدة الأمة ومحققة لها سواء كانت لها بضع قيادات أو كثيرمن الحكومات.

---

(١) سورة الحجرات ٩ .

(ج) غايـــاتهـــا :

تحفل الوحدة الاسلامية بأهداف عظيمة وغايات نبيلة جليلة ، تتجلى فى تلك الأهداف حقيقة دين الإسلام وتبرز عظمته ،ويُرى من خلالها صلاح مبادئه وسلامة أنظمته كي يعيش المجتمع البشرى عليها ، ويهتدى بنورها فى غسق الضلالات وعند اضطراب التشريعات البشرية وقصور قوانينها ، كما تتأكد بها حيويته ومرونته التي تواكب تجدد حوادث الحياة وتقلبها في شتى البقاع ومختلف الأزمان ، وأنه شريعة من هو أعلم بما تستقيم به الحياة ويصلح به الاحياء (ألا يَعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (١)

الوحدة الاسلامية التى تقوم على الإسلام دينا والاخوّة عمادا والتآلف والرحمة شعارا ومنهجا تطلب فى مقدمة أهدافها ، بل رأس غاياتها تحقيق خلافة الله فى الارض وهيمنة حكمه عليها وقيادة سلطانه لأهلها ، وهذه الغاية إنما جاء الإسلام لأجلها ، وحمل خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم لواءها وكلّفه ربه بأدائها " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " (٢) وهذه الغاية هى عبادة الله التى من أجلها خلق عباده ، وأمرهم بطاعة رسله فيها وأنّ " من يطع الرسول فقد اطاع الله . ." (٣) .

وإنما كان هذا الامر أكبر غاية لوحدة المسلمين لأن منهج الله هو الهُدى الذي فيه هداية البشرية وراحتها من عمى المناهج المتعدده المتباينة ، وفيه برٌّ بها وإحسان إليها ، كما أنّه رحمة ولطف بها ، وأنه فوق ذلك الحقيقة التى تبطل معها أديان الأرض المتعددة ، والتى تستنكف عن الحق ولا تقوم به أو تتجه إليه، وتبغي فى الأرض ولا ترجع إليه . وإنما تنبع هذه الحقيقة الكبرى عند أمة الاسلام والمنصفين من غيرهم من اعتقاد راسخ لا يتزلزل ، وإيمان لا يشوبه الشك أنّ شريعة

---

(١) سورة الملك ١٤ .
(٢) سورة الصف ٩ .
(٣) سورة النساء ٨٠ .

الاسلام أفضل مذهب ومنهج لحياة إنسانية كريمة ، ولا يُقاس به أى مذهب ولا أية ملة فى سلامة أحكامه وسمو غاياته ونُبل مقاصده وعدله بين يحتكمون إليه .

وإذا كنا قد علمنا أنّ الإسلام نظام حياة شامل كامل ومنهج أمة، فمن البدهي أنّ ذلك لاغنى له عن مجتمع يقوم به، بل إنه إنّما جاء لإقامة هذا المجتمع، وليس خيالات ولا لوائح لا رصيد لها فى الواقع العملى ، وهذا المجتمع الإسلامي يكون أمة متحدة لها قيادة أو قيادات متحدة ، وعليه وعلى قياداته كثير من الواجبات التى تُطالَب الأمةُ بها لأنها من رسالتها ، ومنها إقامة دين الاسلام وإظهاره للناس(١)، وذلك بنشره والدعوة إليه باللسان والسنان وأنواع الجهاد المختلفة ، ومنها حماية البيضة وتحصين الثغور من الأعداء المتربصين ، ودفع الشبه والريب والبدع والأباطيل التى تثار لفتنة المسلمين وتفريقهم ، وإنّ من إقامة الإسلام إقامة شرائعه وتنفيذ أحكامه وحدوده ، كما أن سياسة الدنيا بقوانين الشريعة الاسلامية التى تنشر العدل وترفع الظلم وتهيّء الناس للقيام بعمارة الأرض واستخراج خيراتها من أعظم إقامة للإسلام .

ولا شك أنّه بدون أن يكون للمسلمين مجتمع ولا قيادة تتعاون على إقامة الإسلام فى الأرض وتدعو إلى إظهاره على سائر الأديان فإنّه سيظل منزويا ومنعزلا عن الحياة إن لم يكن ناقصا فى بعض صوره التى لا غنى لها عن جماعة وقوة تسندها .

ليس غريبا أن تَهدف الوحدة الاسلامية الى ما تنشده سائر المجتمعات والتجمعات البشرية من امتلاك قوة ومنعة، وإيجاد شوكة وعصبة وسلطة قاهرة ، لكن إذا وجدت هذه القوة والشوكة فما الغرض منها ؟

إنّ هذه القوة التى تتحقق باتحاد شعوب الإسلام وتضامنها تختلف اختلافا كبيرا فى غايتها عن غايات سائر القوى التى تشكّلها التجمعات البشرية المتعددة ، فأهداف التجمعات الدولية وتضامناتها

---

(١) انظر: الإمامة عند أهل السنة والجماعة ٧٩ ومابعدها .

لا تتعدى التنافس البهيمي على الشهوات، فهي تسعي إمّا إلى الاستيلاء على أرض وأوطان لتمتص ثرواتها وتنعم بخيراتها على حساب أهلها الذين تستضعفهم لذلك وتأخذ أموالهم وممتلكاتهم ، وإمّا قد تكون لاستعباد شعب واخضاعه لارادتها كي يُنَفّذ أوامرها وسياستها ، وقد تكون غرورا وحمقا باظهار القوة والاختيال على الأمم التى تنافسها حتى تخشى بأسها إلى غير ذلك .

وكل ذلك - كما نرى - لا يعدوا لنزوات الحيوانية و الشهوات المادية الأرضية الوضيعة ، مما يقلب الحياة جحيما وصراعا وتنافسا بين المجتمعات ، ولا أصدق على ذلك من أن العالم فى العصر الحديث حين ملك اسباب القوة وكثُرت مجتمعاته وكُتَل قواه أصلى العالم بأسره فى حوالى ربع قرن- من القرن العشرين- حربين عالميتين ، أذاقت العالم كله عذابا وجحيما وجعلته يئن و يضطرب، ويعمّه القلق والخوف من جراء ذلك التصادم المادي الشهواني الدنيء . لكن القوة التى تحققها وحدة المسلمين تتعالى عن ذلك علوّا كبيرا . . .

إنّ هذه الوحدة أول ماتسعى إليه إقامة مجتمع يحكم بشريعة الله فى الأرض - كما سبق - وحتى يقوم هذا المجتمع لابد له من قوة تحفظه من داخله و خارجه ، فمن الداخل بإقامة نظام الاسلام فى المجتمع يهيمن على جنبات حياته ويفيّئها ، ومن الخارج لحماية هذا المجتمع من شرور اعدائه الكثيرين المتربصين به ، فمن حقه أن يدافع عن نفسه وكيانه من كل عدوان ثم يدعو الناس إلى هذا الدين .

إنّ طبيعة هذه القوة تنبع من طبيعة دين الإسلام فهو - كما نعلم - إنما جاء ليخرج الناس من ظلم الأديان الى عدل الاسلام ، ومن عبادة العباد إلى عباد الله وحده ، وهو فى سبيل دعوته هذه لابد أنْ يكون له قوّة تمكنه من أداء رسالته ، هذه القوة ليست لفرض الإسلام على الأمم الأخرى كما يدّعى ذلك على الإسلام من لاعلم له (١) ، وإنما هى لازالة

---

(١) انظر: الجهاد - ابو الأعلى المودودى ، فى ظلال القرآن ٣ / ١٤٣٢ ومابعدها .

تلك القوى والسلطات التى تحول بين الأمم والشعوب وبين حريّاتها ، فإذا زالت فالحرية الكاملة لتلك الشعوب لمن يريد الدخول فى الاسلام ولمن لا يريده ، ولو تسامحت تلك المنظمات والحكومات مع شعوبها وأعطتها حرية الاعتقاد والدين، ومكّنت المسلمين لان يُبيّنوا لهم الإسلام ويدعوهم إليه، لو تحقق ذلك لما حرص المسلمون على الحرب، ولربما لما عرف فى تاريخهم ذلك الصراع الذى قام بينهم وبين من وقفوا لصدهم عن نشر نور الله فى الارض !

إن القوة التى يشكلها اتحاد المسلمين لم تكن لتحقيق الشهوات والمطامع، وحسبنا أن كثيرا من الشعوب دخلت الاسلام بدون تلك القوة، وإنّ تلك القوة التى كانت تُزالُ بها السلطات التى تحول بين الناس وبين حرياتهم ورؤية نور الإسلام ، لم يكن المسلمون بعد غلبهم لها ليسيطرون أو يستعمرون أو يسومون الناس خسفا واستعبادا ، وإنما تبقى لهم حرياتهم وكراماتهم، وإن دخلوا فى الإسلام لم يبق للمسلمين الفاتحين أوالغالبين ميزة عليهم ،إذ قد أصبحوا إخوانهم فلهم مالهم وعليهم ما عليهم، فأين شيء من هذا نجده عند دول الاستعمار فى العصر الحديث؟ !

ثم لو تذكّرنا حال العالم عندما كانت للمسلمين فيه قوة مرهوبة وكيف كانت الصراعات فيه، ثم قارنّاها بالصراعات التى أعقبت ضعف قوة المسلمين وتخلّفهم فى ميدان القوى عن الأمم الأخرى ،عندئذ نعرف كم خسر العالم من جراء ذهاب هذه القوة التى كانت تحفظ له نصيبا كبيرا من التوازن والأمن و السلام !

إنّ حقيقة هذه القوة إنّما هى حقيقة الإسلام الذى جاء رحمة للعالمين ، فلا غرو أنها رحمة وليست لخراب أو دمار، إنها نظام لرد الحق المنهوب ونصر للكرامة الإنسانية المنتهكة ودفع للظلم عن المظلومين ، ونشر للحرية المطوية وتعميم للأمن والرخاء ، وكل ذلك ماتلهج به آيات القتال (١) فى الكتاب العزيز .

---

(١) انظر: سورة البقرة ١٩٠ ،سورة النساء ٧٥ ، ٧٦ ، سورة التوبة ١٣ .

إنّ اقامة المجتمع الإنساني المثالي الذى تسعى إليه الوحـــدة الإسلامية فوق كونه مطلب إنساني نبيل فإن وجوده وإقامته ضروري للأمـــة المسلمة كي تؤدى رسالتها المكلّفة بها ، إذ حين يقوم ذلك المجتمع تكـون قد أقامت للبشرية منارا يُضيء لها وتهتدى به بين سائر المجتمعات البشرية ومن خلال هذا المجتمع تلتمس الأمم النور والخير الذى تتوق إليه ، ومن خلال أخلاقيات هذا المجتمع تدعو الأمة الاسلامية إلى مبادئها التى تؤمن بهـا ، وقد كانت هذه الأخلاق والإنسانية العالية للمجتمع المسلم وراء انتشـار الإسلام في كثير من الأقطار التى لم يبلغها المسلمون داعين مجاهدين كما في جنوب شرق آسيا واجزاء من قارة افريقيا وغيرها .

ثم إن إقامة هذا المجتمع إنّما هى ليتزعم قيادة العالم إلى الحياة الكريمة، وليعزل الأمم المزيّفة من زعامة الانسانية (١) التى استغلتهـــا وأساءت إليها ليسير بها سيرا حثيثا متزنا عادلا بعد أن توفّرت الصفات التى تؤهل هذا المجتمع لقيادة الأمم ، كما أن ذلك يؤكد واقعيـة هذا المجتمع للبشر حتى لا يظن أحد أنّه من الادعاءات والخيالات التى تدّعيها أكثر الامم وليس لها فى الواقع حظ ولا نصيب .

ومن مقاصد الوحدة الاسلامية أنها تخلق الوجدان المشترك بـين أبنائها ، فجميعهم ينتمي إلى الجنسية الإسلامية الواحدة ، وأفضـل الجنسيات ما يكون سببا لتأسيس هذا الوجدان المشترك بين افراد المجتمع، وبهذا يحصل الاتحاد الحقيقي الذى هو اتحاد فكرى - كما سبق - وعلـى ذلك تَتّحد الغايات والمواقف فى مختلف الشئون والأحوال ، ولا غـرو أن يكون ذلك الوجدان أمنا عظيما للامة من الشقاق ، ويجعل الأمة آمنـة من الفتن معافاة من القلاقل والمحن ، متعاضدة بعيدة عن التمـزّق والاضطراب ، مما يجلب الأمن وينشر الطمأنينة ويحفظ للأمة كيانها ومقدراتها، ويوفر لها القدرات والإمكانات فى ميادين العمل والانتاج ، ويمكّنها مـن الأخذ بأسباب التقدم وعمارة الأرض ، كما يسمح لها بالابتكار والابـداع والاستفادة مما سُخّر لها فى البر والبحر .

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٢٣ .

وحتى لو تركنا الفوائد التى يحققها اتحاد المسلمين للإنسانية لانه أسمى أمل مدني يَرفق بالناس ويحميهم من طمع المستعمرين وجشع الغالبين ، لو تركنا هذه المثالية وحصرنا فائدة هذا الاتحاد فى أهله وهم يكادون يبلغون خمس العالم اليوم ، وقلنا إنه انقاذ لهم من الخلافات الداخلية وإصلاح لهم من الجهالة والفساد، وحصانة لهم من أطماع المتربصين بهم ، لو لم يكن لهذا الاتحاد إلّا هذه الغاية التى لا أظنّ أحد يماري فى سموّها لكفى بها أن تجعله مُعْتبرا عند أولي الأبصار من العالمين .

والمجتمع المسلم له تميزه الخاص عن سائر المجتمعات ، وإنّ المصلحة الكبرى التى يمكن أن يحقّقها قيام تعاون واتحاد فعّال بين مجموعة شعوب الإسلام ترمي إلى إيجاد مناعة تحفظ العالم الاسلامى وتبقيه كيانا متميزا وسط أمواج الغزو الفكرى التى تدور حوله وتنضح فى داخله ، وبذلك يبقى العالم الاسلامى منيعا أمام الغزو الاجنبي .

إن العالم اليوم مقسم إلى تكتلات مذهبية (ايديولوجية) وإن مصالح الدول كثيرا ما تتكيف تبعا للتقسيمات العقائدية ، فالزمن زمن التكتّلات الفكرية ، وهى تكتلات زاحفة، وغايتها صبغ العالم بلونها سلما أو حربا ، ولاعاصم للمسلمين من هذا الصراع الفكرى الدائر حولهم أمة متميزة ذات شخصية مستقلة وطابع خاص، وليس مجرد مُسْتَعْمَرة لهذا الفريق أو ذاك ، لاسبيل لها إلى ذلك إلّا بالعودة إلى فكرة عميقة الأصول فى تاريخ الأمة الإسلامية يقوم عليها البناء الاجتماعى وتصبح رابطة تجمع الشعوب الاسلامية (١) .

إنّنا لو نظرنا إلى اتحاد المسلمين - علاوة على ماسبق - فى ضوء مبررات وأسباب أخرى تتشبث بها بعض المجتمعات أو التجمعات البشرية لالتمسنا لقيام هذا الاتحاد غايات أخرى لها ما يُسَوِّغها ولاسيما فى عصرنا الحديث .

من ذلك (٢) أنّنا نجد منظمات واتحادات تقوم على التكتل

---

(١) انظر : الطريق الى وحدة الأمة الاسلامية - ابو الأعلى المودودى ص ٥

(٢) انظر : الطريق الى وحدة الامة الاسلامية ٢٨ ومابعدها .

والتضامن لاجل أهداف وأغراض بسيطة، هى فى جملتها أقل بكثير مما يطمح إلى تحقيقه اتحاد المسلمين من أهداف متعددة ، وتلك الاتحادات والمنظمات مع ذلك لايكاد يجمعها الا رابطة أو رابطتين ، فدول الكومنولث البريطاني مثلا ، لايجمعها الا الخضوع للاستعمار الانجليزي الذى سبق لها أن رزحت له ، ومنظّمة الشعوب الافريقية لاتجمعها الا القارة السوداء والدفاع عن مصالح السود ضد البيض، وحلف (وارسو) لاتجتمع فيه إلّا الدول الاشتراكية ، والاتحاد الاسلامي - كما مر بنا - يتفوّق تفوّقا كبيرا فى مثل هذه الاسباب التى تدعوه للترابط والالتفاف .

ثم ان الشعوب الاسلامية ليست رابطة الدين هى التى توثّق بينها، بل إنّ لها من تاريخها وحضارتها ما يكاد يجعلها كالشعب الواحد فى عاداته وطبائعه ومشاعره، فالمسلم حين يتنقل بين هذه الشعوب على اختلاف أوطانها ولغاتها وأجناسها لايجد فرقا كبيرا بين أحوال هذه الشعوب ولايحسّ بالفجوة الكبيرة التى يجدها لو ذهب إلى شعب آخر ليس من شعوب الإسلام .

أليس من حق هذه الشعوب بعد ذلك ومن مصلحتها أن تُقَوّي هذه الوشائج وأن تكوّن اتحادا يضمها ويزيدها قوة إلى قوتها ؟ .

والموقع الجغرافى الذى تتربع عليه الأقطار الإسلامية يُعَدّ أهم المواقع الاستيراتيجية فى الكرة الأرضية، ذلك فضلا عن خصوبة أقطارة وكثرة خيراته وثمراته - كما سبق - وكل ذلك بلا ريب يجعل هذه الأقطار عُرضة للغارات والغزوات، والدخول فى صراعات الدول الكبرى ، ولو تذكّرنا أسباب الاستعمار فى مطلع هذا العصر الحديث وتنافس دوله على مناطق الثراء والنفوذ ، لأدركنا تلك الأهمية وخطورتها ، فمن الواجب أن تكون المحافظة علي هذه المواقع والأوطان والاستفادة منها فى ميدان الصراع الدولي من غايات اتحاد المسلمين لما لذلك من عظيم الفوائد والثمار.

ثم إن هناك أخيرا التعصب الديني الذى نجده دفع أمم الغرب الصليبية منذ القرون الوسطي وحتى عصرنا الحاضر - رغم تنكّرهم لذلك كما

سنرى فيما بعد - إلى حرب المسلمين واضطهادهم والاعتداء عليهم واستعمارهم وامتصاص خيرات بلادهم، أمَا يَجِبُ على الأمة المسلمة والحال ما ذُكِر أن يهبُّوا ويَتّحدوا ليدفعوا عن أنفسهم عدوان ذلك التعصب وشروره وأذاه؟ لماذا لا يتّحد الضعفاء المُضطهدون المغلوب على أمرهم، وقد اتحد الأقوياء والظلمة والمعتدون على الهجوم عليهم واذلالهم واقتلاع شأفتهم لو استطاعوا؟

أيهما أقبح تضامن المعتدين على الظلم والعدوان أم تضامن المظلومين المُعْتَدى عليهم لصد البغي والعدوان ؟ .

هكذا من كل هذه الأحوال والأهداف والمبررات لا يبقى لمن زعم - بحق أو باطل - وجود شكوك أو معوّقات توقف وحدة المسلمين أو تحول دونها، بعد كل هذه الغايات الجليلة الساطعة كالشمس فى رابعة النهار.

الوحدة الاسلامية ضرورة لاغنى للمسلمين عنها بأى صورة وعلى أىّ حال من الأحوال، وهى بما تمتلكه من خصائص ومميزات عظيمة ليست من الأوهام ولا من الظنون، لكنها تستطيع القيام والحياة فى مختلف الازمنة والامكنة، متى صَدَقت النوايا وسَلِمت القلوب وأُخِذَ باسبابها ووسائلها.

وفى ضوء هذا الفهم اتجه هذا البحث منقبا عن هذه الوحدة ومتطلعا إليها، وإنّما د الوحدة الاسلامية لديه تاريخا مشرقا ... وواقعا مُثْخَنا مُتَفَكّكا ...، وأملاً لا تخبو جذوته ولا تهدأ صولته .. والله المستعان.

(د) الوحدة الاسلامية قبل فترة البحث :

لعل من الخير أن أضع - قبل الولوج فى ثنايا هذه الدراسة - نبذة يسيرة لما كان من شأن هذه الوحدة الإسلامية قبل الفترة التى سَتُتَناول فيها، ذلك أنّ هذه النبذة العجلة لا تخلو من ربط لفكرة الموضوع فى الجملة، فضلا عن أنها تدفع ما قد يرد إلى الذهن عمّا كانت عليه هذه الوحدة قبل أن تعرض لها هذه الدراسة، ومع ذلك فنحن لا نعدم فائدة بعد ذلك تقودنا إلى ما طرأ على هذه الفكرة بين الفترتين، وماذا ظهر عليها من تغيّر، وما وراء ذلك من أبعاد ومؤثرات وملابسات .

وإذا كان من المعلوم أن الوحدة الاسلامية لم تكن ابنة النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجرى - فترة هذه الدراسة تقريبا - بل هي عريقة الأصل، تضرب جذورها إلى أيام أن قامت للإسلام أمة لها شأنها بين الأمم فى المدينة النبوية، بعدما خلت نيّف وستمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام، فإن هذه الوحدة فى زمن هذا البحث قد زادت الحاجة إليها، وعظم الاهتمام بها، وكثر الحديث والنقاش بين المفكرين والأدباء عنها، مما جعل لها حيزا كبيرا، وبُعدا خاصا يدعو إلى التأمل ويبعث على المتابعة والرصد والتحليل، وكل ذلك كان - بلا ريب - من أبين الدواعى لاقتحام دراسة هذا الموضوع والعمل فيه.

ولمّا كان للدولة العلية - حكومة بنى عثمان - إبّان فترة هذا البحث، وقبله أيضا من سلطان كبير، إذ يخضع لحكمها جُلّ العالم الإسلامي، وبخاصة بلاد العرب مستثنى منها اليمن ثم بلاد تونس والجزائر والمغرب فى شمال افريقيا، فإن هذه الدولة هي التى كانت تجمع المسلمين وتمثل وحدتهم رغم كثرة الفتن ومحاولات الخروج عليها من كثير ممن خضع للوائها ودان لحكمها، ذلك فضلا عن إحيائها للخلافة الإسلامية، وتمسكها بخليفة واحد تدعو سائر المسلمين إلى الاعتراف بسلطته وشرعية ولايته، والتنفير من الاعتصام بطاعة غيره من السلطات أو الحكومات .

ومع ما كانت توليه من عناية خاصة للأمة الإسلامية العربية ، حتى لا تخرج عن سلطتها، فإنها لم تعدم الوسائل والطرق التى استخدمتها في بث شعور الوحدة الإسلامية بين سائر رعاياها ، والاستفادة من الأحداث لتجعل المسلمين يلتفوا حولها، إلى ما سوى ذلك من أمور جعلت الانضواء تحت هذه السلطة وطاعتها وإجلالها أو العطف عليها أو الدعوة لها هي مفهوم الوحدة الاسلامية ، بل هى مرادفة الذى يدلّ عليه ويوحي به كما سنوضح ذلك فى موضعه بإذن الله ومشيئته .

عند ما كانت الدولة العثمانية هي ممثلة هذه الوحدة ورمزها يومئذ لم يكن غريبا أن نجد المعاضدة والتأييد الذى يشدّ من آصرة هذه الدولة ويناصرها ، فهي وحدة المسلمين وجامعتهم وسندهم الذى يركنون إليه بعد ربهم ، وقد اتخذ هذا الولاء وهذه المعاضدة صورا متباينة وأشكالا شتّى، إلا أنّها جميعا تلتقي حول مرتكز واحد هو تأييد سلطان هذه الحكومة والثناء عليها والدفاع عنها ومقارعة خصومها .

وبين يدينا الآن بعض إشارات تدلنا على حقيقة الأمر، رغم أن هذه الاشارات قد تتفاوت قربا وبعدا عن فترتنا الزمنية التى تعنينا ، لكن ذلك لايعدمنا الوصول الى ماتدل عليه .

ففي تونس عند ما نشبت حرب القرم بين روسيا والعثمانيين قام والي تونس بإعانة السلطان ، فأرسل أربعة عشر ألف جندي إلى اسطنبول ثم أخذ يجمع المال ويرسله لحاجة هذا الجيش الذى بعثه إلى تركيا (١) .

---

(١) اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ص١٩٨ - تأليف احمد بن ابي الضياف ، ط. الجامعة التونسية (١٩٧١ م) وهذا الوالي هو الباى احمد - توفى ١٢٧٠-١٨٥٥م .
وانظر ترجمة الباى احمد هذا بنفس المرجع المذكور ، وفى ص١٨٤ ان هذا الباى وقد بعث وزيره سنة (١٨٥٠ م) معزيا السلطان عبد المجيد عند ما بلغه نعي والدة السلطان ، وكان مما قاله لمبعوثه إلى السلطان بحضرة وزيره أن قال : (ان تخوفنا ونفرتنا من الدولة العثمانية أراه يجرّ بنا إلى العدم ، ومعاذ الله أن أكون سببا في اخراج هذا القطر الإسلامي من يد المسلمين، وخروج روحى أهون علي من ذلك . وهب أن الدولة انتزعت مني هذا الملك ألستُ بمسلم؟) .

وعندما تضطرب الامور في تونس في أول خلافة السلطان عبد الحميد يهرع المصلحون من رجالها إلى اللوذ بجناب السلطان، منطلقين بموقف عاطفي من الباب العالي والدولة العثمانية، وطمعوا أن يجدوا فى الاستانة فائدة تعينهم أن يرجعوا إلى تونس ويصلحوا شأنها، وقد وجدوا من السلطان عناية ورعاية، وإن خاب ظنّ هؤلاء المهاجرين فى الإفادة من الدولة العثمانية لإصلاح وضع تونس(١).

وكثيرا ما نجد الصحف التى تدعو للالتفاف حول الجامعة العثمانية والارتباط بالدولة العلية، وسيأتى لنا مستقبلا باذن الله مزيد من ذلك، ففي لبنان تصدر جمعية الفنون في بيروت صحيفة (ثمرات الفنون) أصدرها بعض أدباء المسلمين وأعيانهم فى (٢٠ نيسان ١٨٧٥م) وكانت قبلتها واتجاهها خدمة الأمة الاسلامية والجامعة العثمانية " وكانت للمسلمين ثقة عظيمة بهذة الصحيفة التى بقيت لسان حالهم مدة طويلة، لاسيما بعد احتجاب (الجوائب) فى الاستانة. فكانوا يطالعونها من جميع الجهات لانّها كانت تنشر أخبارهم وحوادث ممالكهم، وأحوال شعوبهم فى مشارق الارض ومغاربها، وتدعوهم لطاعة أمير المؤمنين والالتفاف حول عرشه .." (٢).

ونجد من صور هذا التأييد ما يتخذ منحى آخر خلاف ما سبق، ويتّفق معه فى الدعوة إلى تأييد هذه الدولة العثمانية والمحافظة عليها، ففي العراق نجد أُحد كبار علمائها يؤلف كتابين لخدمة الارتباط بهذه الدولة، تدور مباحث أولهما على شرعية وجود الدولة العثمانية ووجوب طاعة سلطانها على جميع المسلمين، كما أنه يردّ على ادعاءات الشيعة الذين كانوا يُضمرون الكراهية لهذه الحكومة العثمانية، أمّا الآخر فهو بحث فى الجهاد وبيان فضائله والدعوة اليه، أُلِّف هذا الكُتاب كالتذكير للمسلمين بمساعدة الدولة إبّان هجوم روسيا القيصرية على مناطق القوقاز

---

(١) ورد هذا الخبر فى كتاب" الرحلة الحجازية" لمحمد بن عثمان السنوسى وقد أورد فصلا، من هذا الكتاب بعنوان (الخبر عن التونسيين بالاستانة) علي الشنوفي - تحقيق ودراسة - في حوليات الجامعة التونسية، العدد السابع(١٩٩٠م) ص٨٢-٨٦.

(٢) تاريخ الصحافة العربية - فيليب طرازى : ٢/٢٥/٢٦

التابعة للدولة العثمانية سنة ١٢٧٠-١٨٥٣م[(١)]

ونظفر في بلاد الشام بأديب يجعل ديوانا مستقلا يمدح به السلطان العثماني [(٢)].

واذا يممنا جهة مصر فإننا نجد هذا الارتباط قويا جدا، ونلمس دلائله في كثير من الأمور، مما يدفع إلى القول: إن شعور أهل مصر وتعلقهم بهذه الرابطة أقوى وأكبر من تعلق سواهم بها من بلاد العرب.

ففي الصحف الأدبية نجد صحيفة "وادى النيل" تفتتح صدر عددها الأول بإبراز هذه العلاقة الحميمة وتؤكدها، وهاهي تقول: "سبحانك ما أوفر نعمتك جعلت لنا ملوكا وولاة يقيمون بيننا حدود الشرائع، فأصبح كل شعب بهم آمنا تحت ظل لواء العدل راتع، كما ألقت علينا تحت سلطنة ال عثمان التى أضاء بنور خلا فتها الزمان، بمطالع شمس الوجود، وإكليل تاج السعود السلطانَ الأعظمَ والخاقان الأفخم، السلطان بن السلطان، السلطان عبد العزيز خان، أيد الله سرير شوكته مدى الدوران، فإن أفكاره العلية، ونواياه الخيرية قد سهلت أبواب الترقي والنجاح، ووسعت دائرة العلوم والفلاح، في كافة أقطار ممالكه المحروسه بهمة رجال دولته العظام، وأصفياء شوكته الكرام." [(٣)]

ومثل صحيفة وادى النيل تصدر أخرى واسمها "حقيقة الاخبار" سنة

---

(١) انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة - للدكتور علي المحافظ ص ٥٥.
ومؤلف الكتابان هو الشيخ: ابو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ولد ١٢١٧، وكانت وفاته ١٢٧٠ من الهجرة، وقد وسم كتابه الاول: البيان شرح البرهان في إطاعة السلطان. ويفهم من هذا العنوان انه شرح لكتاب آخر في نفس الموضوع. وكتابه الآخر كان عنوانه: سفرة الزاد لسفرة الجهاد، وانظر: المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع عشر (١٩٦٨) مقال: مواقف سياسية لابى الثناء الالوسي للدكتور: عبد العزيز نواره.

(٢) الاديب هو شاكر شقير الأديب والصحفى اللبناني الذى عاش جزءا من حياته في مصر وكانت وفاته ١٨٩٦م وعنوان ديوانه: الذهب الابريز في مدح السلطان عبد العزيز، انظر لترجمته: الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية - وليم الخازن ١٠٥.

(٣) أفتتاحية العدد الاول وقد صدر في محرم ١٢٨٧-١٨٧٠م وصاحب الصحيفة هو عبد الله ابو السعود

١٨٧٧م وهي فى خطتها تراعي ميول المسلمين عموما وتدافع عن حقوق العثمانيين خصوصا في الحروب التى دارت رحاها بين تركيا وروسيا والدول الغربية الأوروبية (١) .

وعندما يتشب الخلاف بين السلطان العثماني والخديوي إسماعيل - فى أواخر حكم إسماعيل - بسبب ما أعطاه للانكليز من امتياز قناة السويس، اخذت كثير من الصحف فى مهاجمة الدولة العثمانية لتأييد وضع مصر الخاص فى نطاق السلطنة ، خاصة وقد سمح الخديوى إسماعيل بذلك ، فما إن جاء الخديوى توفيق وريث إسماعيل إلّا وكان وحكومته على العكس من ذلك ، فقد أوقف كل صحيفة تهاجم الدولة العثمانية ، وأُرسِلت الانذارات تترى لتحذير من يُخالف ذلك ، ورأت السلطات أن تُصدر إخطارا عاما إلى كل الصحف التى تصدر في مصر " بأن الحكومة المصرية لما لها من علاقة وثيقة وصداقة تامة وإخلاص للسلطان والدولة العلية لاتسمح لأحد من الناس أن يتفوّه بما يمس حقوقها السامية ، أو يخل باحترامها الواجب، وعلى ذلك تخطر كافة الجرائد التى تطبع فى الديار المصرية " (٢) .

وقد كان الخديوى عباس الذى خلف والده على عرش مصر فى يناير ١٨٩٢م حريصا على ربط الصلة والصداقة بالسلطان العثماني ، وزار عاصمة بنى عثمان عدة مرات ، وكان يطمع أن يجد بها نصيرا يأخذ بيده ، وينقذه من تسلط الانجليز وضغوطهم عليه لكيلا يسلس قياده لهم ، ولكنّ عباسا لم يظفر بما كان يرجوه من عون واسعاد ، إذ الخليفة العثماني تضطرب به الفتن والمحن من كل ناحية ، وهو عاجز عن دفع ماهو به ، فأنّى له أن يدفع عمن سواه؟

ومن أجلى البراهين على قوة هذا الارتباط بين مصر والسلطان العثماني ما وقع فى أحداث الثورة العرابية ، فقد كان المصريون لايرون عيبا فى الإقرار بسلطان بنى عثمان " وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم فى مصر، وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه،

---

(١) صاحب " حقيقة الاخبار" ورئيس تحريرها أنيس بك خلاط الطرابلسى ، وانظر: تاريخ الصحافة العربية لطرازى ٣ / ٩ .

(٢) حرية الصحافة فى مصر (١٧٩٨-١٩٢٤م) خليل صابات وآخرون .

فهو يعرض عليه خطواته مستمد آمنه السلطة في كل مايفعل .. ". وفى مقدمة برنامج الحزب الوطني الاعتراف بسلطة الباب العالي ، وبأن جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة اللهفى أرضه وإمام المسلمين ،...والمنشورات التى كان يصدرها الخديوى توفيق تستعين على تنفير الناس من عرابي بتصويره خارجا عن الخلافة ،عاصيا أوامر أمير المؤمنين ، وقد كانت كل خُطب العرابين تدور حول الحض عن الدفاع عن الدين الإسلامي ،وظل عرابي يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده حتى أعلن عصيانه تحت ضغط انجلترا فكان لهذا الإعلان أسوأ الاثر كما يقول عرابي نفسه فى مذكراته " (١) .

واذا كان ما سلف من حديث يقرن الرابطة الإسلامية بالدولة العثمانية فإن من المناسب والمؤكد لما قيل هنا أن نذكّر بالحملة الفرنسية على مصر - وان تقدمت زمنا بائنا عن فترتنا لما لها من دلالة ، فقد كان الولاء الإسلامي هو الحميّة الوطنية والغيرة الدينية ،وقد كان هذا الحدث مما أيقظ أخوّة الإسلام في خارج مصر،فثارت المشاعر وقويت العواطف لنجدة بلاد مصر من نقمة الفرنجة ،واندفع بعض المسلمين من بعض الأصقاع الإسلامية للمشاركة في الدفاع عن حياض الإسلام ،وتسامت نفوسهم إلى هذا الشرف التليد ،حتى كان مصرع أحد كبار قادة الفرنسيس على يد مسلم من أهل حلب ،مما كان له أطيب العواقب فى سرعة خروج تلك الحملة الخبيثة الماكرة (٢) .

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر - الدكتور محمد محمد حسين ١/١٧/١٨ ، وانظر فى تفاصيل ذلك كتاب : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى - عبد الرحمن الرافعي .

(٢) روى المؤرخ العلامة : عبد الرحمن الجبرتي فى تاريخه المشهور (عجائب الاثار فى التراجم والأخبار) فى حوادث شعبان من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف :

" تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلاني كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف ، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم وجرّدوا الكعبة ، وإن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرّضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم،واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه ، فورد الخبر أواخره أنه =

هكذا من خلال هذه النثار المتفرقه من أفكار الكُتّاب والأدباء في البلاد العربية قبل مطلع القرن الرابع عشر الهجرى (قبل الربع الاخير من القرن التاسع عشر الميلادى) وما شابهها يتبين لنا أن الولاء الاسلامي والإخاء الروحي كان الشعور العام المهيمن على القوم في أكثر وأغلب البلدان العربية وقد تمثل ذلك الولاء فى الاتحاد والتضامن مع دولة الخلافة العثمانية والالتفاف حول رايتها وإعزاز خلافتها، إذ هي خلافة الأمة الإسلامية قاطبة، وكان القوم رغم ظهور المعارضات الدينية لمسلك الدولة على نحو ما قامت به بعض الحركات كالوهابية وغيرها ، ورغم قيام بعض المعارضات العسكرية القوية للاستقلال عن الدولة كما فعل محمدعلى باشا فى مطلع القرن التاسع عشر لم يكونوا ليتنكروا لهذه الخلافة التى عدّوها حصنهم الواقي ، بل وكهفهم الذى لايجدون من دونه موئلا .

= انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم من غز مصر عند وقعة امبابه ، وركب الغز معهم أيضا وحاربوا الفرنسيس فلم تثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعه من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلّتهم وذلك بناحية جرجا . . . ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان بدون طائل " .
والقائد الفرنسى المشار اليه هو " كليبر" الذى قتله سليمان الحلبى وكان شابا فى الرابعة والعشرين من عمره ويقيم فى الجامع الازهر ، انظر تفصيل ذلك في المرجع المذكور (. حوادث سنة خمس عشرة ومائتين والف) .

الباب الأول

معالم الوحدة الإسلامية

الفصل الأول

الجامعة الإسلامية

أولاً :

الجامعة الإسلامية والرؤية التاريخية

ثانياً :

مظاهر التصور الأدبي للجامعة الإسلامية

أولا : الجامعة الإسلامية و الرؤية التاريخية

(١) نظـــرة تاريخيـــــة

أ) مفهومهـــا ونشـــأتهـــا :

ليس للجامعة الإسلامية في حقيقة الأمر مفهوم يخالف مفهوم الوحـــدة الإسلامية ،إلا أنّ مدلول الجامعة الاسلامية قد يكون ذو مرونة أكثرفي الميدان السياسى ، وتتمثل هذه المرونة فى وجود عدد من الحكومات والقيادات الـتى ترعى شئون الأمة الاسلامية ، وتتضافر جهودها فى سبيل حفظ حقوق الأمـــة الاسلامية و الدفاع عنها مع بقاء كل قيادة على القيام بأمر رعاياها مـــن المسلمين .

وهذا المفهوم وإن كان يقتضيه الأمر كما هو الحال فى شأن الأمـــة الإسلامية فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى ـ وغيره من الأزمان ـ ويكـــون عندئذ أحد صور الجامعة الاسلامية ـ كما سنرى بإذن الله ـ إلّا أنه قد يبعـد عن الفهمبعض ماتوحي به دقة مدلول " الوحدة الإسلامية " من الارتباط بحاكم واحد ، أو ربط حركة الأمة باتجاه وحدة سياسية عامة ونبذ ماعداها ، كمـــا رسـخّ التاريخ هذا المفهوم في أذهان الناس ،ولعل هذا ـ فى رأيي ـ يُـبرر استعمال المفكرين والأدباء لهذا المصطلح " الجامعة الاسلامية " وتغليبـه على الوحدة الاسلامية منذ مطلع هذا العصر الحديث ،ومنذ يومئـذ جـــرى استعمال هذا المصطلح وكثر تداوله بين المفكرين والكتاب ممّا قوّى شيوعه و استعماله بين سائر المعاصرين حتى اليوم .

ولا أدلّ على أن المراد بالجامعة الاسلامية نفسها هو مدلول الوحدة الاسلامية من أننا نجد كثيرا ممن تحدثوا عن أى منهما من الأدباءأوالمؤرخين ـ كما سيأتى ـ لايكادون يفرقون بينهما ،ويجعلون المراد بهما شيئا واحدا. وعلى هذا فلا مزيد فى القول عن مفهوم الجامعة الاسلامية من أنه هو بذاتـه مفهوم الوحدة الاسلامية الذى سلف القول به .

والذى لاريب فيه أن الجامعة الاسلامية قد صارت منذ مطلع العصر الحديث حركة واضحة ،ودعوة ظاهرة هدفها جمع الأمة الاسلامية فى رابطة واحدة ،وقد نالت قسطا عظيما من عناية المصلحين والكتاب والمفكرين ،وأنارت لشعوب الأمة الاسلامية منارا تطلعت اليه الأبصار واشرأبت اليه النفوس منذ بروزها والدعوة اليها .

ولا محيص لمن يدرس الوحدة الاسلامية من التعرف على نشأة هذه الجامعة ابّان مطلع القرن الرابع عشر الهجرى ،وما طرأ عليها بعد ذلك،وما مرّت من أطوار أو صحبها من أحداث . ونظرا لكثرة الدراسات(١) التى أفاضت فى ذلك فإنّ مايلزم هذا البحث ـ فى تقديرى ـ هو الاشارة الموجزة إلى تاريخ هذه الجامعة ، ومن ثم ندلف الى المسائل التى ترتبط مع هذه الجامعة بوشائج قوية ،مما خلّفه الكتاب من النثر الأدبي فى مضمار الدعوة إلى هذه الجامعة أو مايتعلق بها ، أو الإبانة عن أهدافها وغاياتها .

لم يكن الغزو الأوروبى الحديث للعالم الاسلامى فى مطلع هذا العصر هو الباعث الأول إلى الدعوة لقيام الجامعة الاسلامية كما يرى بعض الباحثين(٢) أو مايفهم من كتاباتهم ،فالواقع أن العالم الاسلامي قبل هذا الغزو واستفحاله قد دبّت فيه يقظة إصلاحية سابقة له بما يقرب من قرن من الزمان .وتُعتبر الدعوة السلفيةالتى نشرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب(١١١٥-١٢٠٦) فى جزيرة العرب فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى هى فجر هذه اليقظة ، بل باعثة العودة إلى صفاء الدين ونقاء العقيدة ،وكانت ـ بحق ـ من أكبر الثورات على الخرافات والبدع التى ليست من دين الإسلام فى شىء وقد انتشرت هذه الدّعوة فى جزيرة العرب وشعّ نورها إلى ماحولها من ديار الإسلام التى أوقعها انحطاط دينها فى شر وبلاء ،وكانت تتطلع بعد ذلك الى إصلاح العالم الاسلامى قاطبة ،ومن ثم تحقيق وحدته السياسية .

---

(١) انظر فى تاريخ الجامعة الإسلامية : حاضر العالم الإسلامى ـ لوثروب ستوادرد ١ / ٢٨٧-٣٢٨ ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١ / ١٧ ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، د . عبدالعزيز محمد الشناوى ٣ / ١٨١ ومابعدها .

(٢) انظر المراجع السابقة نفسها .

وعلى الرغم من النهاية المؤلمة(١) لهذه الدّعوة ومحاولة القضاء عليها، مع ذلك إلّا أن أثرها سرى إلى خارج الجزيرة العربية.

كان من فضل هذه الدّعوة المباركة أن جذوتها أشعلت اليقظة الدينية الصحيحة فى الهند وفى أفغانستان وفى البلاد العربية، وكانت الشوكانية(٢) فى اليمن أقرب من استفاد من هذه الدّعوة، كما تعدى ذلك إلى افريقيا حتى بلغت أقصى المغرب(٣)، وكان خير ماتجلى فيه أثرها قيام الدّعوة المهدية فى السودان والحركة السنوسية فى ليبيا.

ولعل مايعزز القول بسبق اليقظة الإسلامية فى العالم الإسلامى للغزو الصليبى الأوروبى، أن هذا الغزو الذى استفحل وبسط سلطانه على بعض البلاد الاسلامية خارج الدوله العثمانية فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، لمّا يأتِ هذا الغزو إلّا والدّعوة الوهابية والحركة السنوسية لهما وجود واضح، دفع الاستعمار الغربى إلى التريّث والحذر، قبل أن يحاول الدخول فى بلاد انتعش فيها فكر هذه الحركات.

أمّا حين أراد الاستعمار أن يضيف بلاداً أخرى الى ماسبق أن استولى عليه، وأخذ يبسط نفوذه على أجزاء أخرى ومنها أجزاء من بلاد العرب بعد ذلك، فهذا مما لا خلاف فى أنه كان أحد البواعث الرئيسية للدعوة إلى الجامعة الاسلامية.

غير أنّ الذى لايُنكر أن هذه اليقظة التى سبقت غزو الاستعمار قد

---

(١) انظر: فى سيرة الشيخ محمد عبد الوهاب ودعوته: عنوان المجد فى تاريخ نجد - عثمان بن عبد الله بن بشر - الجزء الأول - تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف ال الشيخ.

(٢) نسبة إلى الإمام محمد بن على الشوكانى (١١٧٣-١٢٥٠) الذى كان لدعوته إلى الدين القويم فضلا عن علمه وقضائه وفتاواه ومؤلفاته المشهورة خير الثمرات فى نشر الوعي الدينى الصحيح فى اليمن. انظر ترجمته لنفسه فى: البدر الطالع ١/ ٢٥.

(٣) يروى أن محمد بن عبد الله سلطان مراكش (١٧٥٧-١٧٩٠م) حين علم بهذه الدعوة عن طريق الحجاج المغاربة، قام باتلاف آلاف الكتب الأشعرية، ودمّر بعض الزوايا، واعتاد أن يقول فى مجالسه: إنّنى مالكي المذهب، وهّابي المبدأ. راجع كتاب: الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة، د. على المحافظة - ٤٣.

هيأت الأجواء ، ومهدت لانتشار روح الأخوة التى يدعو الدين الاسلامى الى الاعتداد بها منهجاً وسلوكاً ، فاذا ماتشرّبتها النفس المؤمنة سهل توجهها وحرصها على مايجمع كلمة المسلمين وينظمهم فى وحدة شاملة .

وعند ما جثم الغزو الاستعماري على الهند وأخذ القوقاس واقتطع أكثر ماتملكه الدولة العثمانية من جزئها الأوروبى ،وأنشب أظافره فى شمال أفريقيا ، هنا عظم أمر هذه الجامعة وبدأ يشتدّ كلما ازداد الاستعمار فى غيّه وعتوّه ، وعندئذ انبعثت الحمية الاسلامية ،وحاولت الشعوب الاسلامية أن تدفع عن نفسها ذلك الخطر الداهم ، كما قامت بعض البلدان بالالتفاف حول بعض أبطالها البارزين فى محاولة لجمع الصفوف وتوحيد الكلمة ، لكن ماحاق بالبلاد الاسلامية من انعدام قيادة رشيدة ،وبخاصة فى البلاد التى نزل الاستعمار بها ، إضافة الى ماتميز به هذا الغزو من تنظيم ودقة وتقدم في المجال الحربى ،كل ذلك أتاح للغزاة الظفر فى أكثر غزواتهم ، ثم التقدم لاستلاب أملاك وأمصار جديدة والسيطرة عليها ،وبالتالى جعل تلك الجهود المُقاومة والساعية لتضامن أهل بلد ضد اعدائهم هباءاً منثوراً .

فى غمرة هذه الأحداث المتفرقة فى أكثر البلاد الاسلامية التى تسلط عليها الاستعمار، أدرك كثير من أرباب الفكر وبعض القيادات السياسية فى العالم الاسلامي أن الجهود المبعثرة لصد المستعمرين فى معظم البلاد الاسلامية لاتغنى فتيلاً فى دحره وصدّه ، ولامناص من اتخاذ خطة جديدة لهذا الأمر ، وكان التفكير فى توحيد هذه الجهود وتضافرها مع العمل الجماعى الموحد تحت الرابطة الاسلامية وتحقيق الوحدة الاسلامية أبرز ما ظهر للقوم من سبيل يمضون فيه، إضافة الى الأخذ بأسباب أخرى تهدف إلى نفس الغاية كالاستفادة من الوسائل الحضارية المادية الجديدة ،وإحياء الثقة فى النفوس التى خامرتها بعض الهواجس الموهنة من جرّاء مانزل بهم وطعنهم فى اخوانهم وبلدانهم وحرياتهم .

ب) السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية :

مع بزوغ فجر الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى كان غزو العالم الاسلامي قد تقدّم تقدما كبيرا فى اخضاع مناطق عديدة

تحت سلطته (١) ، فقد أوغلت روسيا في ضم كثير من الممالك الاسلامية حتى تاخمت حدود الافغان وايران ،وبسطت انجلترا أساطيلها فى مياه الخليج وبحر العرب ، وأخذت تمهد لاقتحام مصر، وبسطت فرنسا سلطانها فى شمال افريقيا حتى بلغ الأمر أن التآمر الأوروبى أخذ يهدّد الدولة العثمانية فى أجزائها الأوروبية المتبقية .

فى هذه الآونة لاح لبعض القيادات الإسلامية ولجماعة من المصلحين والمفكرين المسلمين على أن اتحاد واجتماع كلمتهم وتنسيق جهودهم وتعاونهم مع بعضهم هو خير مايواجه به هذا الموقف العصيب .

تولى السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية مع السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجرى (١٢٩٤ / ١٨٧٦م) وكان أعظم القيادات الإسلامية، بل هو زعيم الأمة الاسلامية وخليفة المؤمنين يومئذ ،وهو أكبر وأهم الشخصيات التى دعت إلى الجامعة الاسلامية ،بيد أن كان قَدَرَه أنه لم يصل إلى الخلافة إلّا والدولة العثمانية على غاية من الضعف والاضطراب وسوء الحال فى مختلف شئون الدولة كما صرح بذلك فى مذكراته (٢) . والدول الاستعمارية التى كانت تتحين الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية واقتسامها فلم يكن له معها الا السياسة الأريبة فى ضرب بعضها ببعض، واكتفاء شر واحدة بأخرى .

عمد هذا الخليفة إلى استغلال هذه الجامعة خير استغلال ،فدعا مختلف الشعوب الإسلامية للالتفاف حول الخلافة العثمانية واعتباره زعيم الاسلام وحامي المسلمين من أعدائهم ، واستفاد من بعض الصحف فى العالم الاسلامي لكى تدعو إلى هذه الجامعة ،كما جمع حوله عددا من الشخصيات النابهة من زعماء البلاد الاسلامية ومفكريها (٣) ، وقرّبهم منه لكي يستفيد منهم فى

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية- محمد فريد ٣٢٦ ومابعدها .

(٢) انظر : للتوسع فى أمر السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية رسالة بعنوان : السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية - أعدها موفق بنى المرجه - جامعة عين شمس - كلية الآداب ، ط ١٩٨٤م- مؤسسة صقر الخليج - الكويت ، حاضر العالم الاسلامي ١ / ٣٠٨ .

(٣) منهم جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٥) ،عزت باشا العابد من أهل سوريا (١٢٧٢-١٣٤٣) وخيرالدين التونسى من تونس (١٢٢٥-١٣٠٨) .

الدعوة لفكرته ، كما عمد لإرسال دعاته إلى البلاد الاسلامية وخاصة الواقعة تحت الاستعمار لبث فكرة الجامعة الإسلامية ، وتعليق أمل النجاة من الأعداء على يد الخلافة العثمانية . وفوق ذلك عمل السلطان عبد الحميد إلى الافادة من وسائل العصر الحديثة ، فبنى كثيرًا من المعاهد والكليات ، وسعى لمدّ الخطوط الحديدية وبخاصة خط حديد الحجاز ، وكانت للبلاد العربية عنده نظرة خاصة جعلته يزيد من حَدبه عليها حتى يستميل القلوب إليه .

لقد عمد هذا الخليفه إلى الاستعانة والإفادة من مختلف الوسائل والطرق ، وتحمّل كثيرًا من الصعاب والأهوال فى توحيد الأمة الاسلامية ، وكان من حنكته أن جعل الجامعة الاسلامية الطريق الأمثل لحفظ الدولة الإسلامية فى الداخل من الفتن والانشقاق ، كما أنها فى الخارج سلاح وشبح يرهب به الدول الاستعمارية حتى تنصرف عن اقتحام الديار الاسلامية .

وكانت القيادات الاسلامية التى كانت معاصرة للسلطان عبد الحميد وبخاصة الحركات الاصلاحية تعمل لهذه الوحدة (١) .

فالملك عبد العزيز آل سعود (٢) كان يوفق بقدر استطاعته بين علاقاته مع بريطانيا وبين فكرة الجامعة الاسلامية ، والتى قد تقتضيه الوقوف ضد بريطانيا فى بعض المواقف ، كذلك فان دعوة الامام الشوكانى فى اليمن جعلت أئمة اليمن الشمالى يحملون ولاءهم للدولة العثمانية حتى ألغيت الخلافة .

أمّا الحركة السنوسية فقد كان من أهم مبادئها التى انتشرت فى الزوايا الكثيرة عبر الصحراء الليبية وفى بعض أجزاء أخرى من العالم العربى ،

---

(١) انظر : السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية ـ الباب السابع ـ الفصل الثانى : الحركات الاصلاحية والجامعة الاسلامية .

(٢) عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية الاول وموحد الجزيرة تحت لوائه بعد معارك وغزوات مع جميع القوى التى كانت بها حتى وحدها (١٣٥١) وكانت وفاته ١٣٧٣ ، انظر فى ترجمته : تاريخ نجد الحديث ، وملوك العرب (كلاهما لأمين الريحانى) ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز خير الدين الزركلى .

أنه ليست هناك حدود تُجَزِّئ العالم الإسلامى ، والحركة الاصلاحية ـ مثلها ـ يلزم أن تكون شاملة لكل أقطاره أو أكثرها بقدر الامكان على السواء. ومع ما كانت تتخذه من مواقف محايدة من سياسة العثمانيين ، إلّا أنها حملت راية الجامعة الاسلامية واستمرت عليها وعلى الولاء للخلافة حتى قُضِي عليها.

والمهدية فى السودان وَحّدت القبائل وراء فكرة تتظاهر بالروح الإسلامية ، كما كانت ترى فى جهادها للاستعمار الانجليزى الذى جثم على كثير من بلاد المسلمين وخضد شوكته تطبيق لأهداف الجامعة الإسلامية.

بهذا يتجلى لنا أن الحركات الاصلاحية فى بعض البلاد العربية قد سعت لإحياء شعار الجامعة الاسلامية وإعلاء رأية الإسلام ، وإن اختلفت فى الطرق والأساليب لتحقيق هذه الجامعة ، وكان لهذا أعظم الأثر فى بقاء هذه الفكرة حيّةً حتى عندما ذهبت الخلافة ببضعة عقود .

غير أنّ ماينبغي ملاحظته هنا أن الاستعمار كان وراء كل هذه الحركات بالمرصاد ، وعمل بكل وسائله لمحو صبغة هذه الجامعة مع قياداتها وتضليل أتباعها عنها ، وإن عجز عن ذلك جرّها إلى اتجاه آخر يحاول فيه أن يحتويها أو يحورها بصورة تذهب بحقيقتها وهدفها .

وبجوار هذه القيادات التى تاقت إلى الجامعة الاسلامية فى عهد السلطان عبد الحميد كان هناك قادة فكر حملوا مشعل الهداية الى هذه الجامعة ، وكانت لهم جهود غير منكورة فى هذا المجال ، وهؤلاء المفكرون وإن اختلفوا فى تصوّر هذه الجامعة وتحديد معالمها فقد دفعت جهودهم مع جهود القيادات السابقة إلى بلورة الفكرة وسعة انتشارها وقوتها ، ومن أشهر هؤلاء جمال الدين الافغانى وعبد الرحمن الكوكبى وغيرهما ، وسوف نؤجل الحديث عن دعاة الجامعة الاسلامية هؤلاء قليلاً لنعرض لهم فى الحديث عن الصور أو الهيئات التى ظهرت فيها الجامعة الاسلامية وفق تصور أشهر دعاتها الذين تصدّوا لنصرتها وإحيائها .

ولا شك أن مما ساعد على تعلق الشعوب الاسلامية بهذه الدّعوة والتفافهم حولها ما كان يذيعه أو يكتبه أو ينشره قادة الغرب ومفكروه من طعن وازدراء بدين الإسلام وتجريح للمسلمين على نحو ما فعل (كرومر)

مندوب الاستعمار البريطانى فى مصر فى بعض تقاريره وكتبه التى نشرها كما سيمرّ بنا عندا لحديث عن الجامعة الاسلامية وأوروبا باذن الله . وكان لمهاجمة الدول الأوروبية للدولة العثمانية بروح دينية صليبية رافد آخر للالتفاف حول هذه الجامعة .

واذا كان اعلان الدستور فى آخر حكم السلطان عبد الحميد (١٣٢٦/١٩٠٨م) حافزا على تقوية هذه الجامعة والرابطة العثمانية كما يرى بعض الباحثين (١) ، حيث نُودى بالحرية والمساواة والإخاء بين أبناء الشعوب العثمانية على اختلاف مِلَلِهم ،وكان لذلك فرحة عظيمة استبشرت بها الأمة فى هذا العهد الجديد ، ودعت رعاياها من شتى الطوائف إلى المودة والتآلف والاتحاد ، ونبذ الأحقاد والتفرق ،اذا كان كذلك فانه ينبغي الا يفهم ذلك على اطلاقه ، فلا ريب أنه أحدث هزة وفرحًا كبيرًا،وخاصة في أوساط الطوائف من غير المسلمين ، ونال المسلمين أيضا سرور به ، لكن التفسير الحقيقى لهذا الحادث أعمق مما قد ذكر أولئك الباحثون . اذ الحق أن إعلان الدستور هو حكم بغير شريعة الله للأمة ، وفى هذا ما يلغى الخلافة ويقيد السلطان أميرالمؤمنين ،ومتى زال حكم الله وسلطانه فأى خلافة تبقى وهذا ما كان يقصده دعاة الدستور فى عهد السلطان عبد الحميد وينادون به، وهذا السلطان لم تغب عليه هذه النوايا البعيدة بل كان بصيرا بها ، فاستطاع أن يعصف بالدستور الذى أُضْطر إلى اعلانه فى مطلع حكمه (١٢٩٤/١٨٧٧م) وهكذا الدستور الثانى هذا (١٣٢٦/١٩٠٨م) لا شك أنه أُضطر مرغمًا لإعلانه ناويًا الإطاحة به ،لكن لم يمهله القدر حتى خُلِعَ قبل أن يُسْقط الدستور مرة أخرى .

أما تفسير الفرحة بذلك الدستور الأخير - فيما أرىٰ - فهى فرحة بتخفيف الظلم و الضغط وكثرة الفساد الذى كان يقع على الشعوب العربية من بعض الولاة العثمانيين فى عهد الدولة الأخير ، حيث انتابها الضعف ودب الخلل فى كيانها فليس غريبا أن يصيب الولايات العربية شيء من أوضار ذلك الضعف والانحلال ، أما ما وراء ذلك فالدستور ليس فى الحقيقة إلا نكبة وضربة

---

(١) انظر : التيارات الأدبية فى العالم العربي الحديث - أنيس الخورى المقدسى ٤٤ ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١/٤٣ .

ماحقة للخلافة الاسلامية دبرها خصومها فى مكر ودهاء.

ويمكن القول أيضا: إنّ حروب دولة الخلافة التى كَثُرت فى عهد السلطان عبد الحميد وانتصارها فى بعضها كما حدث فى حرب اليونان (١٣١٥/١٨٩٧م) مما دفع بالمسلمين إلى العطف على اخوانهم ودولتهم فى مقارعة خصومهم، وكانت الانتصارات ترجع لهذه الدولة هيبتها ومكانتها عندهم ليثقوا بقوتها التى كان يصورها أعداؤها بأنها ضعيفة مختلة (الرجل المريض) وسائرة فى طريقها إلى الزوال.

وهكذا نجد أن الجامعة الاسلامية فى ضوء كل الأحداث والجهود السابقة ازدهرت طيلة حكم السلطان عبد الحميد، وكان لسياسته الحكيمة فى اتخاذها أعظم الأثر فى انتعاشها وتطورها.

ج) الجامعة الاسلامية بعد السلطان عبد الحميد :

لم تطل مدة السلطان عبد الحميد الذى بعث الجامعة الاسلامية من وهدتها بعدما أُضْطرّ لإعلان الدستور (١٣٢٦/١٩٠٨م)، فقد تآمر رجال جمعية (الاتحاد والترقى) [1] على هذا السلطان وخلعوه بعد أقل من عام

---

(١) جمعية الاتحاد والترقي جمعية سرية أنشأها بعض أعضاء جمعية "تركيا الفتاة" التى أنشأها بعض الأتراك العثمانيون ١٨٦٥م، وهدف الجمعيتان واحد هو الدعوة للحرية الفردية وقيام النظام الدستورى والقضاء على الإقطاع والتحرر من السيطرة الأجنبية، وارتبط بهذه الجمعية بدء حركة القومية التركية داخل الدولة العثمانية، وصحت عزيمتها على ايجاد قوة لتفرض الاصلاح على السلطان وقد تسلّل إلى هذه الجمعية وإلى غيرها من الجمعيات السرية التى كثرت فى استانبول بعض العناصر اليهودية وبعض عناصر أخرى، وكانت جمعية الاتحاد والترقى هى الجناح العسكرى لجمعية "تركيا الفتاة" وكان لهذه الجمعية اتصال بالمحافل الماسونية التى رحبت بها وآزرتها فى أوروبا حيث جعلت لها فروعاً فى باريس وبرلين، وأغلب المنتمين إلى هذه الجمعيات ممن فُتِنوا بأوروبا ومن الجهلة بالإسلام لأنهم يتهمون الخلفاء بالحكم المطلق، ويطالبون بوضع دستور للدولة على نحو دول أوروبا، وقد تغلغل بعض رجال الاتحاد والترقى فى مناصب خطيرة فى عهد السلطان عبد الحميد حتى تمكنوا من خلعه و احلال الدستور. انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ٢ / ١٠٠٤/١٠٠٥.

من اعلان الدستور، وعلى الرغم مما كان لهذا الحدث من تحسر ورثاء في العالم الاسلامي - كما سنرى في هذا الفصل - وقد كان إقصاء السلطان عبد الحميد - باعث الجامعة الاسلامية - عن الخلافة نكبة وضربة مُصمية لدعوة الجامعة الاسلامية ، ومع هذا فان تيار الجامعة الإسلامية لم يخفت أبدا ، بل لقد اعتمد حكام الدولة العثمانية الجدد على هذه الجامعة واستغلوها في كل مآربهم التي يمكن أن يتوسل بها في تحقيقها ، واعتمدوا عليها في مقاومتهم للعدوان الأوروبي الذي كان يتربص بدولة بني عثمان .

وعندما أقدمت ايطاليا على غزو طرابلس التي كانت تابعة للدولة العثمانية ، ونشبت الحرب سنة (١٣٢٩ / ١٩١١م) بين الطرفين ، وتمادى الطليان في الوحشية في حربهم ، قامت في العالم الاسلامي دعوة إلى نصرة الأخوة الإيمانية ، وتعالت الصيحات وهب الأحرار للنجدة وجمع التبرعات، وانضم للجيش العثماني أفراد وجماعات شتى من الأقطار الإسلامية .

وبالمثل عندما اضطربت البلقان وبلغاريا والصرب والجبل الأسود بتحريض من أوروبا كي تخرجها من سلطة العثمانيين الأتراك ممّا أدى إلى تفاقم الأمر واندلاع الحرب في سنة (١٣٣٠ / ١٩١٣م) ، هنا تظهر الجامعة الاسلامية كما في حرب طرابلس، ويتجلي في كثير من الأقطار الاسلامية الحرص على متابعة حوادث البلقان ، وتحنو النفوس على ما نزل بالمسلمين من جرائم بشعة ، كان المسيحيون قد انتقموا بها من المسلمين حين تحقق لهم النصر وسقطت " أدرنة " أعظم مركز للدولة العثمانية في جزئها الأوروبي .

وعندما قام الطياران التركيان (فتحي وصادق) وهما أول طيارين في البلاد العثمانية ، ووصلا سوريا ولبنان ، وأرادا السير إلى مصر، الا أنهما سقطا وماتا قبل أن يحققا هدفهما ، فأعاد الكرة رفيقان آخران لهما حتى وصلا سالمين الى مصر وذلك قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، كان لهذا الحدث الجلل في الشام ومصر بالذات صدى كبيرٌ استبشر به أهل هذه البلاد ، ورأوا فيه عزّة للإسلام وقوّة للدولة العثمانية ، وكانت مشاعر الترحيب والتهنئة والعزاء مما ألهب العاطفة العثمانية الإسلامية .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢ / ١٩١٤م) لم يغب

عن وعي الاتحاديين استغلال الجامعةالاسلامية التى مازالت حية فى ضمائر الأمة وتحلها مكانة عالية، اذ عندما خافوا أن تنكشف نواياهم، وأنهم سيقفون معزولين عن تأييد غالبية المسلمين عمدوا الى اثارة الشعور الاسلامى لينالوا المؤازرة فى هذه الحرب، فأمروا السلطان (محمد رشاد) الذى وضعوه خلفا لعبد الحميد (١٣٢٧/١٩٠٩م)، أمروه أن يُعلن الجهاد المقدس ضد أعداء الدولة لِيَهُبَّ المسلمون لنصرتها.

وهكذا من خلال كل هذه الأحداث التى سيأتى الحديث عنها(١) - بحول الله - يظهر لنا من خلال هذا العرض السريع لبعض الأحداث المهمة بعد خلع السلطان عبد الحميد، أن الجامعة الاسلامية قد استمرت حية فى جمهور الأمة والشعوب الاسلامية، وبرغم أن الوضع القائم للأمة آنذاك قد أملى عليها أن تكون هذه الجامعة فى شكل مشاعر أخوية وروابط إيمانية فى الاغلب الأعم، إلا أنها بقيت حية ومتيقظة من بعد خلع السلطان عبد الحميد والى انتهاء الحرب العالمية، ولم يقف أمرها عند هذه الفترة، بل نجدها حية عندما سقطت الخلافة وما أعقبها من دعوة لإعادتها واحيائها كما سيأتى كل ذلك فى موضعه من هذا البحث.

وهنا يجب أن نذكر أن هذا العرض الموجز من تاريخ الجامعة الاسلامية قد احتشد الأدب لمواكبته والتفاعل معه، وكان الأدباء ينفثون أحاسيسهم ومشاعرهم ابّان هذه الفترة، ومع تقرير هذه الحقيقة فلعل فى التقديم بهذا الموجز من تاريخ الجامعة الاسلامية القاء بعض الضوء يهدى من يقرأ هذه الدراسة الى فهم مايعرض بعد ذلك فى ثنايا هذا البحث من آراء، وسنعرض للنثر الفنى الذى عالج قضايا هذه الجامعة وما رافقها من البيان الأدبى فى هذه الفترة وما يليها بحول الله تعالى.

د) ارتباط الجامعة الاسلامية بالدولة العثمانية :

ليس غريبا أن ترتبط الجامعة الاسلامية فى مطلع العصر الحديث

---

(١) انظر : فصل : حوادث العالم الاسلامى من هذا البحث، الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ص ١٥ ومابعدها.

بالدولة العثمانية وتندمج فيها ، ويقوى التشابك بينهما حتى كاد الفرق بين الجامعة الاسلامية والجامعة العثمانية ينعدم عند جملة من المفكرين والكتاب[١] اذ يصبح تأييد هذه الدولة والدعوة اليها والدفاع عنها والإشادة بمآثرها ورجالها دليلا على الجامعة الاسلامية والوحدة السياسية، والذى لا مراء فيه أن فكرة الجامعة الاسلامية لم ترتبط بالدولة العثمانية اعتباطا أو مصادفة، فالدولة العثمانية تضرب فى تاريخ الأمة الاسلامية جذوراً عميقه، وقد قام لها سلطان فى العالم الاسلامي نَيَّفَ على ستة قرون ، وهو بحق أكبر وأطول حكم قام فى التاريخ الاسلامي إلى اليوم. أمّا خدمة العثمانيين للإسلام وحماية بيضته ونشره فى بلاد نائية عَزَّ الوصول إليها على من قبلهم، إلى غير ذلك من الجهود السامقة التى بذلوها مما سجله التاريخ بمداد الفخر والسؤدد فى سجل أعمالهم، والتى لا يغض منها ومن مكانة هذه الدولة حنق بعض من يتجاهلون هذا المجد الباذخ، ويرغبون أن يصبغوا أمجاد بني عثمان بسواد الأعمال ومنكر القول وتزوير الحقائق، وان كان لا يُنكر وجود بعض الهنات التى لا مناص لأي أمة من البشر - بطبعها - من الوقوع فى أمثالها[٢] .

ورغم حكم العثمانيين للعالم الإسلامى تلك القرون وتصدّرهم لسياسته فقد حرصوا على صبغ حكمهم بالخلافة الاسلامية ، وكان السلطان سليم (٩١٨ - ٩٢٦) قد استولى على الخلافة الاسلامية من الخليفة العباسى الذى كان قابعا فى مصر عندما فتحها هذا السلطان ، وأعلن أن الحكم العثمانى خلافة تقوم على الأمة الاسلامية ، فضلاً عن تسلمه مفاتيح الكعبة وإدخال بلاد الحجاز المقدسة تحت السلطنة العثمانية .

لقد أقام الأتراك العثمانيون الوحدة الاسلامية "وأعادوا الشرق الإسلامى إلى لواء الخلافة من جديد ، ووجدت الشعوب الاسلامية قوة تحميها

---

(١) انظر: الدعوة الى الخلافة العثمانية وأثرها فى الأدب العربى الحديث الطاهر محمدعلى البشير (المقدمة) رسالة دكتوراة - بكلية الاداب - جامعة القاهرة - ١٩٦١م.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١ / ٥- ٧.

من الغزوات التى تتناوشها من كل اتجاه ، ووضع العثمانيون نظامًا للحكم والإدارة والدفاع عن البلاد . . " (١) .

لقد ظلت تركيا تمثل للعالم الإسلامي - الى مطلع القرن العشرين - القيادة السياسية الكبرى ، وظل سلطانها الخليفة الأعلى والمثال النيّر الذى يراود أذهان المسلمين ويعيد لهم سيرة الخلافة الإسلامية عبر التاريخ ، ولا أدلّ على ذلك أن نجد فى القرن التاسع الميلادى ولاية كمصر تُتَاح لها الظروف بظهور نزعة قومية فى الفكر والأدب ، ومع ذلك تظل النزعة العثمانية هى المستولية عليها ، وعلة ذلك كما يقول أحد الباحثين(٢) : " ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير فى نفوس المسلمين ، فكان سلطان تركيا المثل الأكبر لعظمة الشرق والإسلام " .

لقد كانت العاطفة الإسلامية وفكرة الخلافة تسيطر بقوة على الأدباء ، ويمتزج ولاء الاسلام بخلافة بنى عثمان ، ومن ثم كانت " عاطفة المسلم تتجه حتى العصور الاخيرة إلى جهتين ، ثم إلى قومين ، فهى تتجه صوب مكة مسقط رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومقام إبراهيم وكعبة المسلمين وقبلة أنظارهم ، ومكة فى بلاد العرب ، والنبي عربي والقرآن عربي ، وهى تتّجه - أو كانت تتجه - صوب الاستانة ، مقر الخلافة الاسلامية ، ومقام الخليفة من آل عثمان ، والاستانة عاصمة الترك ، وخليفة المسلمين كان تركيًا ، فكل مسلم كانت تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره - إلى حين ألغيت الخلافة - نحو مكة ونحو الاستانة ، يستمد من الأولى المدد الروحى ، ومن الثانية مدد السيف والمدفع " (٣).

واذا كان الغزو الاستعمارى الذى تكالب على العالم الاسلامى فى القرنين التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ذو أثر عظيم فى التفاف العالم الاسلامى حول السلطنة العثمانية ، وهى مع ذلك أعظم الدول الاسلامية وأكبرها قيادة فى محيط الاسلام ، مما ساعد على التطلع إلى موءازرة هذه الدولة التى ملأ تاريخ قوتها الأذهان ، ويعضد ذلك " أن الدولة العثمانية

---

(١) الشرق الاسلامى فى العصر الحديث - حسين موءنس - ٣٢ .
(٢) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ١٦ .
(٣) الشوقيات - أحمد شوقى - ١ / ١٢ ، ١٣ .

أكبر الدول الاسلامية آنذاك وأكثرها عرضة لأطماع الدول الغربية ومؤازرتها ، فقد اتجهت اليها الأنظار لمواجهة الغرب والتصدي له ، فاختلطت هذه الدعوة (إلى الجامعة الاسلامية) بالدعوة الى تأييد الدولة العثمانية". (١)

وقبل ذلك وبعده هناك الأخوة الاسلامية التى لا تتجافى عن التعاون والتعاضد مع أخوة العقيدة مهما فرّقت بينهم السياسات ونأت بهم الأوطان ، وبهذه الرابطة بقيت الجامعة الاسلامية العثمانية على الرغم مما بذلته الدول الاستعمارية لضربها والقضاء عليها ، وبرغم ما كانت تعانيه الدولة العثمانية فى أواخر عهدها من اختلال وفتن وضعف فقد ظلت ماثلة للعيان تؤدى هذه الرسالة القيادية حتى مُحيت من التاريخ .

مما سبق من إشارات ترمى إلى مكانة الدولة العثمانية وصلتها بالجامعة الاسلامية يمكن القول : إننا سنعتبر كل مايخدم الدّعوة إلى الدولة العثمانية أو يؤازر سياستها ويدافع عنها ويعاضدها مما دبجته أقلام الأدباء وَنَظَمَته قرائحهم جزءًا مهمًّا يدخل تحت مظلة الجامعة الاسلامية ، ويُعَدّ من أعظم مظاهرها ، وسوف نرى نماذج نثرية كثيرة تؤكد ذلك نعرض لها بعد أن تتبين صور الجامعة الاسلامية التى أشتهرت بها وظهرت فيها بحول الله .

---

(١) الحركات الفكرية فى عصر النهضة فى فلسطين والأردن - د . علي المحافظه - ١١٣ .

(٢) اتجاهات الجامعة الاسلامية وصورها

لم تكن الجامعة الاسلامية التى نَعنى بالحديث عنها على صورة واحدة واضحة ، ولا ذات دلالات محصورة محددة ، بل لقد اختلفت الصور التى فُهمت بها ، والمعانى التى دُعِيَ الناس الى فهمها عنها ، وكانت فى الجملة على عدد من الصور والمفاهيم المتشابكة والمتقاربة التى قد يصعب التمييز بين بعضها البعض، بل إن الأمر ليصل الى اختلاف كبير بين الكتاب عندما يرمون تحديد المراد بالجامعة الاسلامية عند أحد دعاتها المشهورين .

والذى يبدو أن ما أوصل الى هذه الصور والفروق فى فهم هذه الجامعة رغم وضوحها فى مصادر الاسلام من الكتاب والسنة وغيرها أمران مهمان :

أحدهما : الاتجاهات السياسية والحزبيةالتى كان يرمى إليها من تعلقوا بهذه الجامعة من القادة السياسيين أو من العلماء المفكرين .

وثانيهما : ظهور مبادىء القومية والوطنية التى كانت تزاحم مفهوم الوحدة الاسلامية فأراد كثير ممن تشربوا هذه المبادىء الاجتماعية الحديثة أن يوفقوا بينها وبين الجامعة الاسلامية فذهبوا فى ذلك مذاهب شتى متباينة .

ولما رأيت للجامعة الاسلامية صورًا متعددة رأيت أن أعرضها واحدة واحدة ، وأن أقرن مع كل منها أشهر من رأيت أنه يمثلها وبدأت بالأفغانى وتصوره لمفهوم الجامعة الاسلامية .

أ) جمال الدين الأفغانى :

فى الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا فى مطلع العصر الحديث ظهر فى العالم الاسلامي جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٥) فى صورة لامعة تثير الآراء والمناقشات فى كل بلد نزل فيه ، فملأ عصره وشُغِل الناس به حتى أثيرت حوله الشكوك وانقسمت الاراء فيه بين مادح وقادح (١) .

---

(١) انظر: هذه الآراء فيما سيأتى من حديث عن الأفغانى فى فصل : كُتَّاب الوحدة الاسلامية من هذا البحث .

اقترن اسمه عند كثيرمن الباحثين بالجامعة الاسلامية ، ومع ذلك كله فاننا لا نعدم من يشك فى ذلك وبعده خلافًا للحقيقة [١] .

وهذا فى نظري غلو فى الرأى يخالف الحقيقة . فتاريخ الأفغاني وآثاره الفكرية تقطع بوجود جهد عظيم له فى هذا الموضوع . أما توجيه نواياه من وراء عمله فى هذه الجامعة فلا يعنينا التحقيق فيه أو تتبعه إن كان له نوايا أخرى غير خدمة الأمة الاسلامية التى لا أشك أنه أرادها [٢] .

واذا كان الأفغانى من أشهر رجال الإصلاح فى العصر الحديث، كما هو ذائع عند أكثر دارسيه [٣] وقد وهبه الله بسطة فى العلم والجد وبُعْد النظر فى عواقب الامور ، وكان على وعى بحقيقة العالم الإسلامى فى زمانه وما كان يعانيه من كثيرمن الرزايا التى رزح تحتها ، وكان الاستعمار وغزو بلاد المسلمين يتصدرها ، ونظرًا لجولات الأفغانى وتنقله فى العالم الاسلامى فى افغانستان والهند وجزيرة العرب ومصر وفارس والقسطنطينية وغيرها ، فقد رأى حاجة بلاد الاسلام إلى وجوه من الإصلاح ، وفكّر فى ذلك فى وقت مبكر من حياته .

وتؤكد الدراسات عن الأفغاني أن دعوته إلى الوحدة الاسلامية من أعظم أفكاره التى آمن بها وبذل جهده فى سبيل تحقيقها والدعوة اليها ، وهنا نلفت النظر إلى أن مانذكره فى هذا المقام ليس الغرض منه بيان جهوده فى هذه الوحدة لأن ذلك سيأتى عند حديثنا عنه فى موضع آخر من هذه الدراسة .

وحسبنا هنا معرفة صورة الجامعة الاسلامية وأبعادها كما رآها الأفغانى ودعا إليها ، لقد نظر الأفغانى فوجد الأمة الاسلامية وبلادها وحكوماتها دولاً شتى وأحزابًا متناحرة، ووقف يتأمل الداء الذى يفتك بالأمة،

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ٢٠٥ ، ٣٣٧ ، البركان الثائر - فتحى الرملى ١٨ ، ١٩ .

(٢) انظر : جمال الدين الأفغانى فى ميزان الاسلام ٢٣٤ .

(٣) انظر : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث - أحمد أمين - فصل : جمال الدين الأفغانى .

وهاهو يرى كل صقع وكل دولة من دول الاسلام فى الشرق وما آل إليه أمرها فيه فيقول [١] : " وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على ألّا يتفقوا، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة "

وإذ أيقن بالفرقة وانتصاب الخلاف يعمد إلى أصل يعوّل عليه، ومن ثم يركن اليه المسلمون جميعًا ولا يختلفون فى الاتفاق عليه مهما اختلفت أوطانهم وتباينت آراؤهم، ذلك هو دينهم الذى هو أصل وجود هذه الوحدة، ففهمه وتطبيق منهجه من أعظم مايوصل إليها، كما أن " السبب الأعظم والفاعل الأكبر فى السقوط هو اهمال ما كان سببًا فى النهوض والمجد وعزة الملك. وهو ترك حكمة الدين والعمل بها، وهى التى جمعت الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته " [٢] .

فتفشي الجهل بحقيقة الدين وحكمته عند الحكام والولاة عصف بأعظم دعامة لأساس حكمهم وزلزلها، فقد ضعف سلطان الدين ولم يعد له تلك القوة الجامعة المانعة من العصبيات الأخرى، فرجع هؤلاء الولاة والحكام الى بعث العصبيات القبلية وإحياء الجنسيات المتفرقة، وبذلك وهنت رابطة الدين فانفتح الباب لروابط مصطنعة ومتعددة، وحصل من ثم التفرقة والخلاف وانشقاق الأمة الواحدة.

ويوصى الأفغانى الأمة بالعودة الى القرآن وفهمه وتطبيق ماجاء به ففيه الهداية وهو الأصل الذى يجب أن يلتفوا حوله فيقول [٣]: " القرآن القرآن، وإنّى لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا فى فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع، خالفوه فى كل أمر، فعملوا عكس ماقال، حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف وحذرهم من الائتلاف، وحضهم على انتقاضهم على أنفسهم وتشتيت كلمتهم وألا يعتصموا بحبل الله جميعًا، بل يتفرقوا ليفشلوا وتذهب ريحهم ".

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ـ محمد المخزومى ، ٤٨ .

(٢) السابق نفسه ١٦٣ .

(٣) السابق نفسه ٩٩ .

ويؤكد الأفغانى الالتفاف حول عصبيةالدين وأنه لا جنسية للمسلمين الا فى دينهم وهى التى تجمعهم ويُحذر من الاعتصام بالأجناس التى توزع المسلمين أممًا ،ولاريب أن الجنسية الاسلامية تُغني أهلها عن اتخاذ الجنسيات والعصبيات وتكفيهم عنها ، ولا يلتفتون إلّا إلى علاقة المعتقد ، (فوازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس، . . وكل فخار تكسبه الأنساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرًا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم) (١)

وإذ يُورد الأفغانى بعض الأدلة الصحيحة لتقرير هذا الأصل فى دين الإسلام يعود ليؤكد حقيقة فهم المسلمين لهذه الجنسية " هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلي الآن ، لا يَعْتَدُّون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يُذعن لرياسة الأفغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وإنّ المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر مايعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظًا لشأن الشريعة ذاهبًا مذاهبها" (٢) .

واذ بيّن الأفغانى الأصل الذى لا يصلح الاجتماع إلا له وعليه ، قام يدعو إليه فى سائر ديار الاسلام التى مرّ بها ،ولكنه وهو يدعو إلى الاتحاد لم يغب عن باله حال الحكومات المتعددة التى تقوم على الأمة الاسلامية ، واختلاف قياداتها وآرائها ، فاتجه يدعو كل حكومة أو قطر من أقطار المسلمين أن يتحدوا فيما بينهم ويكونوا أمة قوية على نحو ماقال عن مصر: (٣)"اذا اتحد المصريون ونهضوا كأمة لا ترى بُدًّا من استقلالها ، ولا تقبل به بديلاً ،وثبتوا على شيء من الجور والحيف والقتل فى بادىء الأمر ، وصبروا ورابطوا وارتبطوا فبشر المصريين بحسن المآل ونيل الاستقلال إن شاء الله" .

---

(١) العروة الوثقى ٥٠ ، ٥١ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) خاطرات جمال الدين الأفغاني ١٨٧ .

واذا قامت هذه الوحدة والقوة فانها لا تقف عند ذلك ولكن لكى تنظر كل حكومة وكل قطر إلى أقطار المسلمين الأخرى. وتتعاون معهم وتآزر أخوتهم ولا تغفل ذلك أبداً، هذا هو الممكن وقتذاك فى نظر الأفغاني، لأن جميع المسلمين تحت حكومة واحدة قد يكون مستحيلا تحقيقه، وقد أبان الأفغانى عن ذلك فى مقولته المشهورة، والتى تصور جانباً مهماً من تصوّره للجامعة الإسلامية عندما قال داعياً الى الوحدة (١): " لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً، فإنّ هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى مُلك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه، إلّا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات".

ويلح الأفغانى على تأكيد مبدئه هذا عندما نراه يدعو مسلمى القارة الهندية الى الاتحاد، ويحث الأفغانيين على التعاون مع اخوانهم الايرانيين كما يأمر الايرانيين بذلك، فاذا اتحدوا فان اخوانهم فى الهند سيشخصون بأبصارهم ويحرصون على التكاتف معهم (٢).

والأفغانى بجانب دعوته لتعاون الممالك الاسلامية وتضامنها يرجو ويتمنى أن لو اجتمعت هذه الممالك تحت قيادة خليفة المسلمين فذلك مايتمناه، وهو الاتحاد الذى يراه يعيد للاسلام مجده وعظمته التى فقدها، ومن العجب ألا نجد من يذكر هذه الفكرة للأفغانى من معظم دارسيه الكثيرين، مع أنها تفهم من مقولته السابقة التى نجدهم يوردونها (٣) دون أن يدققوا تأملهم فى مدلولها، فالرجل لم يتنكر لجمع المسلمين تحت حاكم واحد، ولكن ذلك أمر عسير أو هو كالمستحيل فى ذلك الوقت، فالأمر عندئذ يمكن تداركه أن يبقى كل ملك على ملكه وكل سلطان على حكومته مع تعاونهم وتآزرهم وحفظ بعضهم لبعض، ثم ان هذا الحل الذى يقدمه الأفغانى قضت به الضرورة واستدعته

---

(١) العروة الوثقى ١١٢.

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى ١٨٧-١٩٠، العروة الوثقى ١٤٧.

(٣) انظر: مصر وحركة الجامعة الاسلامية من عام ١٨٨٢-١٩١٤م- نصر الدين عبد الحميد نصر، ٣٨، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى - محمد عماره - ٥١.

الحاجة الوقتية ، وفى هذا مايوحي بتغييره عندما يواتى الزمان وتسعف الأحوال .

ولا أدل على وجود هذه الفكرة عند الأفغانى أنه عندما دعا بعض البلاد الاسلامية كمصر وايران وأفغانستان إلى الاتحاد بين أفرادها ثم إلى الاتحاد مع اخوانهم فى بقية الاقطار الإسلامية تجده يقول عقب ذلك(١) " وما أجلها نعمة وأهيبها سطوة وأمنعها قوة اذا توسط عقد تلك الوحدة الاسلامية صاحب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى جلالة السلطان ، فيستردوا المغصوب من ملكهم ، ويسترجعوا المنهوب من أموالهم ويستعيدوا مجدهم وما بان من عزّهم ، ويرجعوا الملك الإسلامي كماكان مسيطرًا مابين نقطة المغرب الأقصى إلى أحشاء الصين ، فى عرض مابين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء ، وتعاد السيرة الأولى التى كانت لملوك الاسلام العظام الذين أداروا شوكتهم أكثر المعمورة من الكرة الأرضية ، أولئك ماكان يُهزم لهم جيش ولا يُنكّس لهم علم ولا يُرَدّ قول على قائلهم " .

من مقولة الأفغانى هذه ومقولته المشهورة السابقة يجب أن يُلاحظ هنا بدقة كيف أن الأفغاني يجمع فى فهمه للجامعة الإسلامية بين الأمنية الغالية أن تكون الدولة العثمانية أعظم دولة تقود المسلمين إلى الوحدة ، ثم لا يتنكر لاستقلال وقيام الشعوب الاسلامية فى شكل دول مستقلة ، لكنه يدعو هذه الدويلات الى التعاون والتضامن الإسلامي لصد أعداء الاسلام واحباط خططهم ، ودعوة الأفغانى للمحافظة على الدولة العثمانية قد لا ينبعث من عقيدة الايمان بالخلافة القائمة آنذاك لتكون مركز هذه الوحدة(٢) ، لكن الوضع

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ١٩٠ وانظر ما يأتي قريباً عن : الجامعة الاسلامية تحت الخلافة العظمى .

(٢) يدل على هذا قول الأفغانى وهو يرد على الذين اتهموه بالتآمر مع الخديوى عباس ـ خديوى مصر ـ لاقامة خلافة عربية : " الخلافة كفالة الله فى خلقه ، فأين أحلام أولئك العجزة من مقام الامامة والخلافة وما تتطلبه من الشروط والصفات ؟ أين ؟ . . (ثم يقول عن الخلافة العثمانية) أين الولاية الخاصة لأمير المؤمنين اليوم فى الممالك الاسلامية ؟ وأين أين المؤمنون الملتفون حول خليفة المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ وأين الحرية المطلقة للخليفة فى تعريفها على وجه الشريعة =

آنذاك هو الذى ألجأ لذلك ، لكنه لا ينكر أن الخلافة حين تقوم فى صورتها الحقة أنها أعظم وأصلح أساس تقوم عليه الوحدة الاسلامية ، ولعل هذا التصور للأفغاني هو الذى أوحى لأحد دارسيه (١) إلى أن مراده بالجامعة الاسلامية أقرب مايكون " اتحادًا فدراليًا" أى أنها دول متعددة ولكن ترجع لأصل واحد .

والذى يظهر من المناقشة الصريحة التى أبدى فيها الأفغانى للسلطان عبد الحميد تصوراته لتحسين حال دولته وحياطتها من الأعداء أنه خير برهان لفهم هذه الجامعة عند الأفغانى كيف تقوم (٢) .

فهو يرى أن يجعل السلطان من ولايات الدولة الكثيرة ومقاطعاتها خديويات على نحو خديوية مصر قبل احتلال الانجليز لها ، فهى خاضعة للدولة ومن الأجزاء المتممة للسلطنة ، يأتمر خديويها بأمر السلطان ، وعساكر الخديوية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق بجيوش السلطان وخاضعة طائعة له ، وهكذا خديوية الشام والحجاز وغيرها . . ، ثم إن السلطان يُفوّض أمر كل واحدة منها الى من عُرِف بالاخلاص وبُعْد الهمة من آل عثمان أوغيرهم ، وتقع على عاتقهم نهضة تلك الخديويات وأخذها بنصيبها من الرقي والعمران ، ثم يبقى جلالة السلطان ملك أولئك الملوك الذين ينضمون إلى عرشه .

فاذا تم لهذه الممالك أو الخديويات أن تكون مثل خديوية مصر ثروة وانتظامًا فان مايحدث - كمايرى الأفغانى - أنّ ايران ستُسرع للاتحاد مع السلطنة العثمانية لحاجتهم لمن يشد أزرهم ، ثم ما أسرع الأفغان عند ذلك للانتظام فى هذا السلك ومثلها الهند ، وعندئذ يتم اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى .

وإذا وصلنا إلى هنا أمكننا القول : ان هذه الصورة أو التيار من صور

أوالسير على سرة الراشدين ؟ وأين القوة التى تدفع بها اذلال أواستعمار واستعباد المسلمين فى بلادهم وممالكهم وديارهم ؟ وأين ؟ وأين ؟"
انظر : الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٢٤٧ .

(١) دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الاسلام ٢٣٤ .

(٢) انظر : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٢٣٧-٢٤٠ .

الجامعة الاسلامية أو تياراتها - كما يمثله جمال الدين الأفغاني - يمكن تلخيصه في انه يدعو الى اتحاد الامة الاسلامية وتضامن شعوبها في مشارق الأرض ومغاربها للدفاع عن دينهم وأمتهم أمام أعدائهم الذين انقَضُّوا عليهم ، وهذا الاتحاد لا يعني أن يكون على العالم الاسلامي حكومة أو حاكم واحد وان تمنّى ذلك وسعى إليه، لكن الظروف لا تسمح بوجوده ، ولذا فالوحدة تكون بإلحاح شديد على حكومات البلاد الإسلامية المتفرقة المتنافرة أن تتكاتف وتتآزر مع بعضها بعض، وتحذيرها من الهلاك الذى يدبره المستعمرون لها لتتجه إلى الوحدة و الوئام الذى يتكفل بصد الاعتداء عليها ، أما الأسس العامة التى يقوم عليها هذا الاتحاد ويرى دعاة هذا التيار أن الاعتماد عليه، وهو الذى يوصلها إلى الوحدة والتضامن فهو الاعتماد على الأخوة الايمانية والرابطة الدينية ونبذ كل رابطة اخرى سواها ، والاحتفاء الكامل بالفهم الصحيح لهذا الدين كما جاء صافيًا نقيًّا فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والبعد عن التفرق الذى منبعه الأهواء والمفاهيم المجافية أو المُحرّفة عن حقيقة دين الإسلام ، ولعل فى هذا ما يلخص فكرة الجامعة الاسلامية كما كان يتصورها جمال الدين الأفغانى ، والتى رآها الدواء الذى يعالج به داء الأمة الأكبر ويعيد لها حياتها وعزتها .

ب) الكواكبى والجامعة الاسلامية :

يعتبر معظم دارسي عبدالرحمن الكواكبى (١٢٦٥ / ١٣٢٠) أنه أحد دعاة الجامعة الاسلامية المعدودين كما رأيت [١] ، بيد أن أحد متأخرى دارسيه يراه رائد الدعوة إلى القومية العربية كما يراها دعاتها المحدثون ، وأنه سبقهم بقرابة نصف قرن من الزمان إليها بفكره وعبقريته [٢] ، ومع أن تحقيق مثل هذا ليس من هدف هذا البحث إلا أن هذا الباحث الأخير يضيف أن الذين عدوا الكواكبى داعية خلافة اسلامية انما أُتُوا من ترديده لعبارات توهم بذلك " كالجامعة الدينية" و "الرابطة الدينية" و "أهل

---

(١) انظر على سبيل المثال : عبدالرحمن الكواكبى - عباس محمود العقاد ٨٧ ، الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة . ٥ ، عبدالرحمن الكواكبى - سامى الدهان ٧٠ .

(٢) الأعمال الكاملة لعبدالرحمن الكواكبى - محمد عمارة ٣٥-٥٦ .

القبلة " ، ومما أشاعه بعض من كتبوا عنه بأنه " من رجالات الإصلاح الإسلامي " اضافة الى ماحرص عليه الكواكبي في كتابه" أم القرى" من جمع الجنسيات المختلفة التى لا يجمعها إلّا الإسلام فى المؤتمر الذى صوّره الكتاب [١] .

وهذا الكاتب وان كان محقا في ابراز نزعة العروبة عند الكواكبي وسَرْد الأدلةالتى يراها صريحة عليها [٢] لم يستطع أن يُنكر النزعة الدينية والجامعة الإسلامية فى فكر الكواكبى، وذلك ما ألزمه أن يتحدث عن الدين فى نظر الكواكبى كما أنه أومأ الى هذه الرابطة بقوله [٣] :" إن الحديث أى حديث عن " الجامعة الاسلامية " و" الرابطةالدينية " لا يمكن أن يستلزم الحديث عن الدولة الاسلامية ، وانما هو يعنى ذلك الايمان بوجود روابط معينة ، وخيوط مشتركة وقسط من الوحدة بين الذين يدينون بدين الاسلام لا يرقى لمستوى الوحدة السياسية فى الدولة الواحدة ، ولا حتى فى الامبراطورية الواحدة" .

والذى يبدو لى أنا لو اعتبرنا الكواكبى من دعاة القومية العربية ، فالقومية التى تفهم عنه هى قومية ذات منزع إسلامى ، أى متلبسة بالإسلام على نحو ماكانت هذه القومية عند بعض دعاتها حين أعلنت ثورة العرب الكبرى على الترك (١٣٣٤/١٩١٦م) كما كان يفهمها الشريف حسين بن على (١٢٧٠/١٣٥٠) قائد هذه الثورة ، ولم تكن قومية الكواكبى على صبغة القومية غير الاسلامية التى وصلت إليها فيما بعد [٤].

وفكرة الكواكبى لهذه الجامعة تتلخص فيما أودعه كتابه الموسوم بـ" أم القرى" [٥] ., حيث رأى أن الضعف والخلل الذى حل بالمسلمين ومعرفة علته التى يزول بزوالها كان باعث الكواكبى إلى هذا السبيل ، وقد كان مايكتبه المصلحون فى عصره فى بعض صحف العالم الإسلامى مما شجعه

---

(١) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى - محمد عمارة ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) السابق نفسه ٣٦ .

(٤) راجع : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ١٢١-١٢٣ .

(٥) اعتمدت فى التلخيص هنا على طبعة (الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) التى تحوى (أم القرى) .

لتوسيع البحث فى أسباب ذلك الخلل ، ثم صور مالاح له فى حل هذا الخلل والضعف ، حيث سعى لعقدو تكوين جمعية من سراة الإسلام فى مكة ، ثم قيامه بسياحة لأمهات البلاد العربية لاستطلاع الأفكار والآراء بها وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج . وبعد رحلته التى انتهت به إلى مكة حيث وافى بها أكثر الذين أجابوا دعوته من أفاضل تلك البلاد التى مرّ بها ، وعند ذلك أضاف إليهم اثنى عشر عضوًا آخرين من بعض البلاد الإسلامية والعربية الأخرى ، وبعد أن اختار لهم مكانًا آمنًا خفيًّا يأمنون فيه على أنفسهم اجتمعو أو انعقد مؤتمرهم فى اثنى عشر اجتماعًا غير اجتماع الوداع .

وقد جرت فى هذه الاجتماعات مذاكرات مُهمّة وصار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة ، إضافة الى كيفية الاجتماعات وجميع المفاوضات والمقرّرات غير ما آثرت الجمعية كتمه ، وبعد تلك الاجتماعات قررت الجمعية أمورًا لا تُذاع إلا قرارًا واحدا ذكرته لعله المراد من المؤتمر كلّه . والقرار أن الجمعية بعد البحث الدقيق فى أحوال وخصال جميع أقوام المسلمين ، وجدت أن الجزيرة العربية وأهلها بالنظر إلى السياسة الدينية لهم مجموعة خصائص وخصال لا تتوفر فى غيرهم . وعلى ذلك رأت الجمعية أنّ حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقًا ، وأنّ انتظار ذلك من غيرهم عبث محض ، على أنّ لبقية الأقوام خصائص ومزايا تجعل لكل منهم مقامًا مهمًّا فى بعض وظائف الجامعة الاسلامية ، وقد بسطت الجمعية أسباب ميلها للجزيرة وأهلها والعرب عمومًا . وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الديني .

والسبب فى تعلّق الجمعية بمباحث السياسة الدينية وإعطائها الموقع الأول فى مناقشاتها أنها رأت أن أفضل وسيلة لحصول المطلوب هو رفع علة الفتور ، حيث انتجت المباحثات أنّ علة الفتور هي الخلل الديني ، وبناءً عليه حوّلت الجمعية اهتمامها لجهة العلة حتى اذا زالت زال المعلول . واذا تحققت النهضة الدينية أتى النظام السياسي تبعا للدين .

واذ رأت الجمعية أن دين المسلمين أصبح أحزاباً وفرقًا فلابد من إصلاح هذا الخلل ورأب الصدع حتى يتّحد الرأي وتتفق الأمة ، فأصل الدين واحد لا أحزاب ولا فرق ، ولذلك تم اتفاق أهل الجمعية " أن نترك جانبًا اختلاف المذاهب التى نحن متبعوها تقليدًا ، فلا تعرف مآخذ كثير من أحكامها

وأن نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع لكى لا نتفرق فى الآراء ، وليكون مانقرره مقبولاً عند جميع أهل القبلة،إذ أن مذهب أهل السلف هو الأصل الذى لا يُرَدّ ولا تستنكف الأمة أن ترجع اليه وتجتمع عليه في أمهات المسائل" (١)

وقد كان مما بررت به الجمعية فى تعليق أكبر آمالها فى اعزاز الدين بالعرب دون دولة آل عثمان وسلاطينها ، اذ ترى أن احترام الشعائر الدينية فى اكثر ملوك آل عثمان ظواهر محضة ، وليس من غرضهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك ولا تساعدهم الظروف لذلك ، بل دولتهم وفيها وزراؤهم أهل أديان ونحل مختلفة ، ورغم أن إدارة الدين وادارة الملك لم تتحد فى الاسلام تماماً - كما ترى الجمعية - إلّا فى عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم ، ثم افترقت الخلافة عن الملك ، والأدلة كثيرة عند الجمعية عن أعمال السلاطين العثمانيين التى أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين ، كما أن نعت هؤلاء السلاطين بالخلافة وخدمة الحرمين ونحو ذلك لا يفيد الدين وأهله شيئاً .

والذى ينتهى إليه الأمر(٢) - كما يبدو للجمعية - أن تكون الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة وأن يكون الخليفة عربي قرشي مستجمع للشروط وأن تكون اقامته فى مكة ، وترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطاً دينياً ، كما تُشَكّل هيئة للشورى العامة من جميع السلطنات تجتمع كل عام لبحث الشئون السياسية والدينية العامة . وبهذا فلا يوكل أمر الخلافة إلى سلاطين بنى عثمان ، وانما يجتمعون مع غيرهم على خليفة قرشي ، وبهذا تحلّ مشكلة الخلافة ، ويسهل عقد اتحاد اسلامى تضامني تعاوني ، وبذلك تأمن الحكومات الاسلامية الموجودة على حياتها السياسيّة من الغوائل الداخلية والخارجية ، وتفرغ للترقي فى المعارف والعمران والثروة والقوة مما لابد منه للنجاة من التخلف والموات .

وهكذا يضع الكواكبى خطة عملية للجامعة الاسلامية ويصوغ فكره

---

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى" أم القرى" ١٣٨ .
(٢) السابق نفسه ٣١٣-٣١٥ .

الديني في قالب روائي داعياً لخلافة اسلامية عربية قرشية ، تتخذ مكة مركزاً لها، والخليفة سلطته على الحجاز ولا يتدخل فى الشئون السياسية وغيرها فى السلطنات والأمارات، والعثمانيين يجتمعون مع غيرهم على هذا الخليفة الديني والذى يشرف على هيئة شورى عامة أعضاؤها يمثلون جميع السلطنات والإمارات الاسلامية ، وبذا يسهل عقد" اتحاد اسلامي تضامنى تعاونى "يكون العرب فيه هم الوسيلة لجمع الكلمة الدينية ،والتى بها تجتمع الأمة، ولم يكن الكواكبى من أنصار زوال" السلطنة أو الخلافة العثمانية" ولكنه يريد إصلاحها وتجديدها على أن تقف عند حدود السلطة الروحية التى تلعب المهمة الرئيسية فى التضامن الاسلامي وركز على وجوب نقل هذه السلطة الى العنصر العربى ، وهذا مايؤكد ماقلناه سابقاً من ارتباط الكواكبى بفكرة الجامعة الاسلامية وعمله على ايجاد كيان واضح لها .

ج) الجامعة الاسلامية فى رؤية كتاب آخرين :

إذا كان الكواكبي قد يقترب فى فهمه للجامعة الاسلامية من الفهم الكهنوتى المسيحى الذى ينيط بالبابا الشئون الدينية ويكل الأمور السياسية وغيرها الى السلاطين أو الأمراء كل فى بلده وحكومته ،فانا نجد للجامعة الاسلامية فهماً وتصوراً آخر عند عدد من الكتاب والمفكرين يبتعد بها أو ينفى عنها الجانب السياسى ويرى أنها تتكىء على الشعور الدينى، وإن مزجت هذا الشعور ببعض الوسائل أو العوامل التى تنميه وتبعث على حياته وحركته .

ويبدو أن من أصحاب هذه الصورة للجامعة الاسلامية من كان يراها فى صورة غيرها ثم عدل عنها لعارض اضطره لذلك ، أو نتيجة تطور فى الفكر رافق مسيرة هذه الجامعة فى تاريخها المتقلب بها - كما رأينا - فوجد أنه المناسب للحال الذى يختلف عن سابقه .

ولعل أقرب فهم لهذه الصورة أن المراد بالجامعة فيها جامعة الدين والثقافة والفكر، فتكون هذه الجامعة دعوة إلى تحقيق وحدة المسلمين الدينية عن طريق توحيد مناهج التعليم في المدارس فى جميع البلدان الاسلامية ، وإحلال اللغة العربية مكانة مرموقة فى التعليم فى ديار الاسلام

باعتبارها لغة القرآن الكريم، وعقد المؤتمرات لدراسة مختلف المشاكل التى تواجه البلاد الاسلامية ، ونشر الأفكار الدينية بين عامة المسلمين[١] ، واتفاق المسلمين من سُوقة وأمراء وملوك وولاه فى مشارق الأرض ومغاربها على مايعلي شأنهم ويشدّ أزرهم ويقوي جامعتهم ويوسّع نطاق العلوم والمعارف بينهم .

وهذا الفهم المنطوي للجامعة الاسلامية والذى يبعدها عن الرابطة السياسية ربّما كان للمذاهب والطرق الصوفية فى العهد العثمانى أثر واضح فى إرسائه وانتشاره ، والصوفية رغم ما خرجت به عن روح الدين الاسلامى الصافية ، حتى جعلت الدين أساليب دجل وشعوذات وخرافات كان لها شأن كبير فى الدولة العثمانية وخاصة فى عهود الضعف الأخيرة منها حتى نهايتها ، وإضافة إلى ذلك فقد كانت الصوفية ترى لها الفضل فى إحياء الجامعة الاسلامية، ولعل مايؤكد صحة ذلك أن نجد أحد رجالها المعدودين وهو الشيخ محمد توفيق البكرى[٢] " شيخ مشائخ الطرق الصوفية فى مصر" نجده قد ألف كتاباً عنوانه " المستقبل للاسلام" ركّز فيه على أثر الصوفية فى إنشاء الجامعة الاسلامية وبنائها ، لكنه يجعل لهذه الجامعة جانبين : الجانب السياسى والجانب الدينى ، ثم نراه يرفض الجانب السياسى منها ، بل ويحذر المسلمين من التفكير فى إقامة الجامعة الاسلامية بشكلها السياسى ، لأن ذلك سيقابله جامعة مسيحية فى الغرب ، مما يزيد فى حدة الصراع بين الشرق والغرب[٣]، ولذا فهو يريد الجانب الدينى فقط ، أمّا الجانب السياسى فلا يطمح إليه .

واذا كانت الصوفية أساءت فهم الدين فى بعض جوانب فإنه لا ينكر لها فضل المحافظة على تأكيد الإخاء بين جميع المسلمين والعمل على نشر الاسلام وحفظه فى بقاع كثيرة فى العالم الاسلامى .

ونجد قريب من ذلك الفهم للجامعة الاسلامية مانراه عند الشيخ محمد عبده[٤] ، والذى كان تلميذاً وفياً لجمال الدين الأفغانى وكان على فهم

---

(١) انظر : الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) محمد توفيق البكرى (١٢٨٧-١٣٥١) من أعيان مصر تولى نقابة الأشراف ومشيخه المشائخ ،(١٣٠٩) وكان يجيد عدة لغات فضلاً عن أنه شاعر وأديب مترسل وله عدة من التآليف ا نظر : فى الأدب الحديث ٢ / ٤٢٣ .

(٣) انظر : مصر وحركة الجامعة الاسلامية ٥٤ .

(٤) انظر : مايأتى عنه فى فصل : الكتاب المؤيدين للوحدة الاسلامية من هذا البحث.

الأفغانى وتصوره للجامعة الاسلامية بجانبها السياسى ، وكان محمد عبده يحرص على حفظ مصر متصلة بالدولة العثمانية وبخاصة أيام حياة أستاذه الأفغانى ، لكن رأيه تغير بعد ذلك وأصبحت الجامعة الاسلامية عنده هى وحدة الدين والملة ، وأن الدين من أقوى الروابط بين مجتمعات الشرق ، والجامعة الاسلامية تقوم على مُثُل عليا وعواطف يشترك فيها كل المسلمين ، معززة بالتعليم والثقافة الإسلامية .

وعندما رد على " هانوتو " ـ المستشرق الفرنسى ومستشار المستعمرات والذى كتب دراسات عن الإسلام ويطعن فى الجامعة الاسلامية ، صور محمد عبده الجامعة الإسلامية أنها لا تخرج عن كونها تحقيق التضامن الإسلامي والاستفادة من وجود الدولة العثمانية فى مجالات الإصلاح المختلفة [١] ، كما نجده يوصى رشيد رضا [٢] ـ صاحب المنار ـ بعدم التحدث عن الإمامة فى مجلة (المنار) ويقول له [٣] : " إنّ المسلمين ليس لهم اليوم إلّا القرآن وإن الكلام فى الإمامة مثار فتنة يُخشى ضرره ولا يرجى نفعه الآن " .

ومثل محمد عبده نجد الشيخ علي يوسف [٤] ـ صاحب المؤيد الشهيرة ـ والذى بدأ حياته الصحفية بذلك الحماس للجامعة العثمانية واقتناعه بتوثيق العلاقة بين مصر وتركيا وجهاده فى متابعة حروب الدولة العلية وجمع التبرعات لها إلى كثير من جهوده التى ستراها فى مواضع من هذا البحث ، نرى الشيخ على بعد ذلك يهدأ بعد ما حصل الاتفاق بين الخديوى وسلطان الانجليز المستعمر مصر آنذاك (١٣٣٠ / ١٩١٢) ، فهو يعلن أنه يؤمن بالجامعة

---

(١) انظر : الاعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ـ محمد عمارة ١ / ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤) ولد ونشأ فى طرابلس الشام وكان من دعاة الإصلاح الاسلامي ، ورحل الى مصر (١٣١٥) واصدر بها مجلته (المنار) ولازم محمد عبده كثيرا ، كان كاتبا وعالما وبث بمجلته أكثر آرائه العلمية والإصلاحية ، وانظر : محمد رشيد رضا لاحمد الشرباصي ، حاضر العالم الاسلامي ١ / ٢٨٤ .

(٣) الاعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١ / ٧٣٤ .

(٤) الشيخ علي يوسف (٨٠ ١٢/ ١٣٣١) من أكابر الصحافيين فى مصر ، فهو صاحب جريدة (المؤيد) التى أصدرها ١٣٠٧ هـ وكان لها صيت ذائع فى مصر والبلاد الإسلامية ، وكان على اتفاق كبير مع خديوى مصر (عباس حلمي الثانى) لكنه مال عنه فى آخر عمره وقد ولي مشيخة السجادة الوفائية بمصر .
أنظر : أدب المقالة الصحفية فى مصر ـ الجزء الرابع ـ د . عبد اللطيف حمزة ، مجلة الكتاب ٦ / ٢٣٢ ، مقال عنه لعمر الدسوقى .

الاسلامية من الناحية الدينية ولكنه لا يؤمن بها من الناحية السياسية ، ويقول[١] : " إن الجامعة الإسلامية كعقيدة سياسية غير موجودة ، والجامعة الإسلامية قسمان دينية وسياسية ، والدينية موجودة بوجود العقيدة الاسلامية ، والسياسية غير موجودة ولم توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الاسلامية : وهى المصلحة : ذلك أن المسلمين إذا أوجدوا جامعة سياسية اسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية ، وهكذا فتكون من ذلك المضرة عليهم" .

وقريب من هذا التصور ما نجده لدى أحد زعماء المسلمين فى الهند ، والذى يرى[٢] " أن هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوائها كل مسلم مؤمن مخلص، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية يجب أن تُتَعهّد فتنمو أبداً ، لأنها عند أتباع النبى (عليه الصلاة والسلام) أُسُّ الحياة وجوهر النفس" .

من كل هذه الآراء تتجلى لنا الجامعة الاسلامية عند هؤلاء المفكرين أنها وحدة فكر ومشاعر وعواطف حية متيقظة نحو إخوانهم المسلمين ، وليست وحدة ارتباط سياسية تجمع الشمل وترأب الصدع ، وتحاول أن تجعل من هذا العالم الاسلامى الواسع أمة واحدة وقوة متحدة لا تلين حينما يمس طرفا منها ظلم وعدوان ، ورغم أن المشاعر الحيّة لا يُنكر فضلها في الترابط والتضامن إلا أنه ما أبعد البون بينها وبين وحدة تنضم بها الأمة قوة قائمة ، لا تسمح لأى عدو خارجي أن ينال من أطرافها شيئا إلا لتقف أمامه بكل صلف وإباء .

د) الجامعة الاسلامية تحت الخلافة العظمى :

ليس غريباً أن يكون اجتماع المسلمين ووحدتهم تحت مظلة الخلافة الكبرى ممثلة فى السلطان العثمانى وتحت قيادة سياسية واحدة أحد تيارات الجامعة الإسلامية وأحد وجوهها التى ظهرت بها ، وإذا كان الأصل فى الأمة الاسلامية أن تكون تحت قيادة واحدة ـ كما سلف بذلك القول فى مفهوم

---

(١) المؤيد ١٣ أغسطس ١٩٠٧م

(٢) هو الزعيم المسلم (أغاخان) الذى عاش بين ١٨٧٧-١٩٥٧م ، حاضر العالم الاسلامى ١ / ٣٢٠ .

الوحدة الاسلامية ـ وكانت خلافة المسلمين فى تاريخهم تُجسّد حقيقة هـذه الوحدة وعظمتها فى أذهان المسلمين حتى يومنا هذا .

وقد خامرت هذه الوحده ألباب كثير من تحمسوا للجامعة الاسلامية، وتمنوها لو تتحقق لأمتهم فى واقعها الذى عاشت فيه ، وربما يكون حال الأمة الاسلامية المضطرب فى مطلع القرن الرابع عشر قد دعاهم الى التلبث كثيرا أمام هذه الفكرة التى تُراود الأذهان .

واذا كان هذا التيار من تيارات الجامعة الاسلامية يلتصق بخليفة المسلمين وهو السلطان العثمانى يومئذ ، وكان هو السلطان عبد الحميد ، وقد رأينا ـ قبل قليل ـ أنه أقام بناء الجامعة الاسلامية وشيد أركانها وأضاف اليها كل مطمع وغاية جليلة ، وظلت دعوته إليها مدة ثلاثين عاما ، أفلا نعدّه رأس هذا التيار وباعثه ؟ .

قد يكون هناك شىء من الخيال والأمل الذى قد جال بذهن السلطان عبد الحميد أن يتحقق ذلك أو يقع ، ولكن الواقع أن هذا السلطان لم يكن ليطمع فى تحقيق ذلك بدعوته إلى الجامعة الاسلامية " فما كان لمثله فى حصافته ودهائه أن يطمع فى سيادة فعلية على بلاد المسلمين باسم جامعة الإسلام .. فغاية الأمر فيما قصد إليه السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة أن يحتمي بعطف العالم الاسلامي فى وجه التعصب الاوروبي المطبق عليه من كل جانب ، وأن يستمع العالم الإسلامى إليه حين يناديه بتلك الصفة لأنه أكبر ولاة الأمر فيه وأعظمهم مركزًا فى مراسم السياسة الدولية ، ولم يكن يخفى عليه أن العالم الاسلامى لا يقارع المسلمين سلاحًا بسلاح ولا ثروة بثروة ولا نفوذًا بنفوذ ، ولكنه كان يقنع منه بما يستطيعه فى كفاح الاستعمار ، ويعلم أنه يستطيع الكثير مما يخشاه المستعمرون" (١) .

وقد كان جمال الدين الأفغانى ـ كما مر قبل قليل ـ عندما رأى ما حل بالمسلمين من غزو المستعمرين يطمع إلى اتحاد الأمة تحت الخلافة ، اذ " يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذى كان يصوّب نحوه أعماله ، والمحور الذى كانت تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين فى

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى " للعقاد" ٩٧ ، ٩٨ .

سائر أقطار العالم فى حوزة دولة واحدة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى ، وقد بذل فى هذا المسعى جهده ، وانقطع عن العالم من أجله" (١) .

ومما قوى ذلك عنده أنه رأى فى خليفة المسلمين عائقًا لصد أعداء الاسلام حتى قال (٢) : " كنا ولا نزال عليه أن الذات الشاهانية ، وهى الأب الأكبر لعموم المسلمين ، وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هى أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء فى البلاد الاسلامية ، وهى لا تألو جهدًا فى تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم " ، وبلغ به الاعجاب بالسلطان عبد الحميد - وقد أيقن بحرصه على الأمه وبقضته لأعدائها وحرصه على مصالحها وتطويرها - أن بايعه بالخلافة ورأى ألّا نجاة للممالك الاسلامية إلا بالانضواء تحت راية الخليفة الأعظم (٣) .

لكن الأفغانى الذى بلغ به الأمر الى هذا الحد لا يلبث أن يتراجع عن رأيه ذلك حين رأى أن مايطمع إليه من الاصلاح ومايبديه من آراء للسلطان لا تبلغ مبلغ التنفيذ ، ومن عجب أنه طلب الاقالة من تلك البيعة وأخذ ينظر للخليفة غير نظرته الأولى (٤) .

لم يكن الأفغانى وحده مال إلى هذه الجامعة تحت لواء الخلافة، بل كان لهذه الجامعة أنصار ومؤيدون كثر فى أنحاء البلاد العربية والاسلامية ، ويؤيد ذلك كثرة الكتاب والشعراء الذين كانوا يتغنون بهذه الجامعة ويعايشون أحداثها بكل أحاسيسهم وعواطفهم (٥) ، وقد يكون بين من يوالون هذه الجامعة من يعلم نواحي القصور وضعف الخلافة التى كانت تحيط بها فى مطلع العصر الحديث ، لكن هذا لم يجعلهم ينصرفوا عن الخلافة التى كانت قائمة على علّاتها معتقدين أن الخلافة الإسلامية لم تستتم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكًا عضوضًا قد يوجد فيه المستبدّ العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة الى هذا الملك

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) خاطرات جمال الدين الأفغانى ٦٧ .
(٤) انظر السابق نفسه ٦٨ .
(٥) انظر : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر - عمر دقاق ٤٠ ، ٤١ .

العضوض المخالف لشروط الخلافةسواء كان من العرب أو من الترك الا خشية الفتنة فى الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج . (١)

وبذا الموجز يتضح أمامنا صورة أخرى من صور الدعوة الى الجامعة الاسلامية وهى التى تظلها الخلافة الاسلامية .

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامى ١/ ٦ ، ١٢ .

(٣) الجامعة الاسلامية وأوروبا

لمّا كان دين الأسلام بفطرته يوافق حاجة النفوس البشرية إلى الاجتماع الإنساني الذى لاغنى لها عنه،ولا يتنكر لهذه الغريزة ، نجده إلى جوار ذلك يُقوي هذه الفطرة ويشدّ عليها حين يدين الناس به،بل ويجعلها حقا من حقوق المسلمين على بعضهم ، ولمّا كانت هذه الغريزة ظاهرة فى تعاطف المسلمين نحو بعضهم عند أى نازلة أو حدث من حوادث الدهر تحل بأحدهم ،فقد رأى أعداء الاسلام أن ينبزوه بالتعصب ويرجموه باطلًا بالعنصرية أو حب العدوان .

ولمّا كان الجهاد من أظهر ركائز الإيمان التى يوجب الإسلام على أتباعه الاستعداد له والتضحية له ، ظنّ خصوم الإسلام الجاهلون به أو الحاقدون عليه أن هذه حرب دينية مقدسة على شاكلة الحروب التى تقوم الكنيسةبتمويلها ويبارك البابا اشتعالها وتوجيهها .

واذا كانت الجامعة الإسلامية تضامنا وتعاونا على البر والتقوى عند المسلمين فليس غريبًا أن يسميها أعداء الإسلام تعصبًا ، أو يخالوها نعرة قريبة من النعرات القومية التى قويت عند الغرب فى القرن التاسع عشر الميلادى .

والذى يلفت الانتباه هنا هو الأهمية الكبرى لهذه المسألة " أى الجامعة الاسلامية " عند أمم الغرب والحساسية المفرطة من القوم نحوها ، وبجانب ذلك وعورة مسالكها وتعدد عناصرها ، ومعلوم أنه لا يعنينا تفصيل كل ذلك ، وإنما لما وجدنا النثر العربى الحديث حفل بجملة طيبة من الكتابات حولها كان لا محيص من التعرض لها وتنوير بعض جوانبها ، مستفيدة هذه الدراسة ــ بطبيعة الحال ــ من نتاج الأدباء النثرى فى هذا المقام .

لم يكن غريبًا أن يستحرّ عداء الاسلام عند اليهود والنصارى وسواهم من الملل الأخرى حين قامت له دولة تحت قيادة محمد صلى اللهعليهوسلم . وَبِخُلُوّ الأيام وتمكين الله لدين الإسلام فى الأرض حتى بلغ المشارق والمغارب كان حقد ملل الكفر يزداد ضراوة لهذا الدين ،ولم ينتقل النبي صلى الله

عليه وسلم الى ربه الا وشوكة النصارى تتألب ببلاد الشام لإطفاء نور الاسلام، واذ يشاء الله أن يكتسح الإسلام بلاد الشرق إلى حدود الصين بعد زوال كسروية الفرس بقيت للنصرانية معاقل حصينة فى آسيا الوسطى فضلاً عن أوروبا ، وشنّت منها حروباً شعواء لصد جيوش الإسلام ، وقد كانت الحروب الصليبية مما ذاع فى التاريخ وسجله في حملاته المتتابعة المتعددة .

وبقيام الدولة العثمانية فى الشرق تزداد خصومة النصارى للمسلمين، إذ تتوالى الفتوح ويتقدم العثمانيون فى أوروبا حتى شارفوا على أسوار فِيّنا .

واذ يبلغ جهاد العثمانيون ذلك تثور الصليبية وتدعو على أهلها بالويل والثبور، وتستصرخ حكوماتها وتلوذ بقياصرتها وتحرّض بابواتها .

واذ شاخت دولة بنى عثمان واعتراها الوهن ، انتبهت الصليبية لجمع شملها وبدأت تأخذ بثأرها ، واتفقت دول أوروبا على تقسيم بلاد الشرق الاسلامى بينها ، وتعاونت في حربها الصليبيةالجديدة حتى أحكمت القبض على العالم الاسلامى وشدت عليه الوثاق .

واذ قام المفكرون والمصلحون المسلمون مشدوهين لهول الكارثة يتلمسون النجاة ويتداركون مابقى من بلادهم ومصيرهم ، عندئذ نهضت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ـ كما سبق ـ ، وعندها قامت قائمة أوروبا المسيحية لتهويل أممها بهذا الحدث رغم سيطرتها الكبرى على معظم بلاد الإسلام .

والذى يجب وعيه هنا أن أوروبا أرادت أن تشيع بين أممها أن وحدة المسلمين هى نفس المعنى الذى يفهمه الأوروبيون من الاتحاد الصليبى المقدس الذى تتحالف فيه دول أوروبا المسيحية لمحاربة المسلمين كما حدث منها فى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى ، ورغم تكذيب واقع المسلمين يومئذ لهذه الشائعة فان أمر جامعة المسلمين قد أولاه القوم رعاية لا يستهان بها ولا أدلّ هنا على خوفهم وحذرهم من هذه الجامعة من تلك المتابعة ، والوقوف على الجهود والتحركات التى يبذلها المسلمون فى سبيلها (١) .

وأقوال بعض مفكرى أوروبا خير دليل على تنبههم لهذه الجامعة

---

(١) انظر فى تخوف أوروبا من الجامعة الاسلامية : الدولة العثمانية دولةاسلامية مفترى عليها ٣ / ١٣٠٨-١٣١٥ .

وتحذيرهم لقومهم من خطرها ، فالمستشرق الفرنسى (هانانو) مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية فى القرن التاسع عشر بعد أن يعيد إلى الأذهان بواعث الحروب الصليبية محرضاً على استعادة بيت المقدس من المسلمين البربريين - كما يقول - نجده يرى أن (الخطر كمين فى اتحاد المسلمين ضد الأوروبين ، فديار المسلمين التى تحتلها فرنسا يعتبرها الجزائريون وبقية المسلمين " دار حرب " والخطر فى الداخل والخارج [١] . .)

ونجد كاتبا آخر وقد زعم للمسلمين اتفاقاً مع البوذيين والصينيين فلم يبق أمامهم إلا أوروبا فعندئذ يهددونها " وان الشرق ناهض وعلى الغرب أن يستعدّ لمقابلته فى ساحة العراك ، وأمام أوروبا اليوم مسألة هامة هى هذه الجامعة الاسلامية . . . أليس من الحكمة أن تدبّر ضربة قوية قاضية تخمد هذه الحركة الإسلامية . . أما رأيي أنا فهو اقطفوا البرعم قبل أن يزهر فيثمر " (٢) .

واللورد كرومر مندوب الاستعمار البريطانى فى مصر (١٨٨٢-١٩٠٧م) يتتبع حركة الجامعة الاسلامية فى مصر ، وصوّر فى كتابه (مصر الحديثة) سعة انتشارها بين المصريين ، وأكدّ على نفوذ الخلافة التركية وما تتمتع به بينهم ، كما تحدث عن تمسك المصريين بعقيدتهما لإسلامية وأنها تتغلب على نفوذ الوطنية بمعناها الإقليمي ، وايمانهم الكبير بوحدة المسلمين مهما اختلفت أجناسهم ، كما لم ينس وهو يتحدث عن هذه الجامعة أن يصوّر هذه النزعة الدينية مصطبغة بحجاب كثيف من التعصب الذى يقوم بينهم وبين الانجليز [٣] .

أوجس الغرب خيفة من الجامعة الاسلامية وقام لحربها بكل قوة ، ورغم تهمة التعصب التى أشاعوها ليلصقوها بها ، فإن صحفهم ومبشريهم لم يكفّوا عن مقاومتها ، وتتجلى هذه الحقيقة عندما عقد مبشرو الغرب مؤتمراً للتبشير فى بلاد الإسلام ، وكان موضوع الجامعة الاسلامية وكيفية مقاومتها ومعرفة مقاصدها وطرقها ومحاولة تغيير وجهتها هو موضوع المؤتمر

---

(١) يوم الاسلام - أحمد أمين ٢١٤ .
(٢) السابق نفسه ٢١٣ .
(٣) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١ / ٢٧ .

الأول ومهمته الكبرى [١] .

ورغم كثرة كتاب أوروبا فى الاتحاد الاسلامى واقحامهم للجامعة الاسلامية فى النزاع القائم فى الغرب ، فلم يكن من الغربيين من نظر اليها خاليًا من الأهواء والمآرب السياسية والوطنية أو كان عادلاً منصفاً [٢] .

من كلّ هذه الكتابات والتخرصات لدى الغرب تتجلّى الأهمية والمكانة الخطيرة والعظيمة لاجتماع المسلمين واتحادهم ، والحق أن اتحاد المسلمين كان ومازال وسيكون شبحه في المستقبل يقلق مفكري الغرب وساستهم دائمًا، ولذا لا تعدم سياساتهم - حتى اليوم - رغبة الاطلاع والوقوف على حال التيار الاسلامى [٣] الأصيل ، والذى يسعى لإعادة هذه الجامعة ليحاولوا إجهاض تحركاته إن اراد العودة إليها أو إحيائها .

لم تَخف على المسلمين - وبخاصة أنصار الجامعة الاسلامية - هذه الجهود العنيفة فى الغرب فما كان لها أن تذهب سدى ، فحمل أرباب الفكر أسنّة الهدى ، وشرع الكتاب يحبّرون الصفحات فى صد تلك الهجمة الأوروبية الضارية ، وكانوا يتلمسون بيان الحق وتوضيحه لقادة الفكر ودهاة السياسة الصليبيين ، ولاعليهم بعد ذلك أن يوقظوا بني قومهم إلى جدوى الاتحاد وينبهوهم إلى مضاء سلاحه ويحذّروهم من المكيدة التى سمّاها الغرب -ليصرفهم عن جامعتهم- تعصبا أو عنصرية دينية ، وإن لم يطلقوا التطرف الذى يشبه هذه المكيدة ويُكاد للإسلام باسمه اليوم .

كان المفكرون والكتاب فى البلاد التى سيطر فيها الاستعمار يولون أمر التعصب الذى أُتهم به المسلمون عنايتهم ، وسعوا لخلع نزعة التعصب عن اتحاد المسلمين، إذ ليس مشابها لتعصب أوروبا الدينى بأية حال ، هذا مصطفى كامل [٤] زعيم الحركة الوطنية فى مصر ، إنما يرى الجامعة الاسلامية هى

---

(١) عقد هذا المؤتمرفى (لكنو) بالهند فى (٢١ يناير ١٩١١م) وانظر تفاصيله وآراء المؤتمرين وبرنامجه وخطبه وأعماله وتقاريره ومادار فيه : الغارة على العالم الاسلامى - أ . ل . شاتليه ٥١ - ٧٤ .

(٢) انظر : اتحاد المسلمين - جلال نورى ٩ ، ١٠ ترجمة - عبد الرحمن عزام .

(٣) انظربعض صورمن تتبع الغرب المعاصر وعلى رأسه أمريكا للتيار الاسلامى ورصد تحركاته : السلطان عبد الحميد الثانى والخلافة الاسلامية ٣٨٣/٣٨٥ .

(٤) انظرترجمته فى فصل الكتاب المؤيدين للوحدة الاسلامية من هذا البحث .

تعاون وتعاطف وتضامن بين المسلمين ولا تصل أبدا إلى التعصب الديني ، جاء في مقالته (إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) [١] : " إنّي أؤكد بحق أقدس شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر، نعم الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى ، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر، . . . إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعي ولا تعصب فيه ، وانه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون في إيجاد هاوية بين العالم الأوروبي والمسلمين" .

وعندما كتبت جريدة (الطان الفرنسية) عن تخوّف أوروبا من الجامعة الاسلامية التي تهدّدها كتب أيضا يدحض هذه الفرية ويدفع ذلك التخوّف قائلاً [٢] : " لقد فُسّرت كلمة الجامعة الاسلامية في أوروبا تفسيرًا لا يتفق ومعناها الحقيقي . . . إنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد أن الشعوب الاسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا ، وإنّي أتساءل : مَن الرجل العاقل السليم الادراك الذي يُصدّق إمكان تغلّب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية ؟! إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا لا وجود لها بالمرة ، لأن المسلمين أدركوا من بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم ، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت ، أما الشعور الموجود بلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ، ومُعْتَبرين كجزء حيّ من الإنسانية ، ومُحترمين في كل مكان ومن كل انسان . وأنه لما كان لتأخر الشعوب الاسلامية أسبابًا واحدة ، و أن النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم والنور ، وبما أن الإسلام ليس عقيدة فقط بل قانون

---

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ـ عبد الرحمن الرافعي ٥ ٢١ ، ٢١٦

(٢) السابق نفسه ٤٤٨ ، ٤٤٩ . وانظر أيضاً مقال : ياليتنا كنا متعصبين أدب المقالة الصحفية في مصر ـ د . عبد اللطيف حمزة ٥ / ٢٢١-٢٢٤ .

اجتماعى فان احياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان الا باظهاره على حقيقته ، وان ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعي ، ولا يوجد رجل ضعيف ينتقد ذلك الميل" .

وإذ يُشيع الاستعمار الانجليزي فى المصريين التعصب ويلصقونها بأوامر الدين حتى تفشو فى المجتمع هذه اللفظة ويربطها الناس بكل أمر وحال مكروه، مما يختلف فيه اثنان ويُدافع عنه أحدهما بحرارة وجرأة ليعدّ هذا الدفاع مكروهًا وتعصبًا ، ويتنابز الناس به كأنه علة كل بلاء .

راع ذلك الشيخ محمد عبده فدبّج مقالة تدفع عن هذه الكلمة ما أُلبِسته من ظلال سيئة فى عصره ، وصوّر سعة تداولها فقال [1]" لفظ شغل منطق الناس خصوصًا فى البلاد الشرقية ، تلوكه الألسن وترمي به الأفواه فى المحافل والمجامع حتى صار تَكِأَةً للمتكلمين ، يلجأ اليه العييّ فى تهتهته ، والذملقاني فى تفيهقه [2] ، أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحها أو حشوها أو خاتمها ، يعدّون مسماه عله لكل بلاء ومنبع لكل عناء ، ويزعمونه حجابًا كثيفًا وسدًّا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانًا على النقص وعلمًا للرذائل ، والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط، لا يُميّزون بين حق وباطل، هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد ، فتراهم بين بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال " .

وبعد أن بين أن التعصب وصف كسائر الأوصاف وأن له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط يأتى إلى ما أشيع من مفاسد التعصب الدينى ـ والمراد دين الاسلام ـ ويعالج هذه القضية وهل الإسلام دين تعصب؟ ويذكر بيان مفاسد التعصب الدينى كما يثيرها الحاقدون، إذ" ثغثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى بيان مفاسد التعصب الديني ، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع مايلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدينة ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمي بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم

---

(١) العروة الوثقى ٧٩ .
(٢) الذملقاني : السريع الكلام ، التفيهق : التوسع والتنطع فى الكلام .

والعدوان على من يخالفهم فى دينهم ، ومن رَأْي أولئك المثقفين ألاّ سبيل لدرأ المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو آثارها وتخليص العقول من سلطة العقائد ، وكثيرًا مايرجفون بأهل الدين الاسلامي ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم " .

وبعد أن يكذّب محمدعبده هؤلاء الخراصين ويبين أن دين الاسلام أرشد أستاذ وأهدأ قائد إلى اكتساب العلوم والمعارف وإشاعة العدل والرحمة بين البشرية ، وماكان من أمر الاسلام وما أحدثه فى العرب ، إذ نقلهم من التوحش والقسوة وسَما بهم إلى أرقى معارج المدنية وفى ذلك خير رد على هؤلاء الخراصين .

ثم يتقدم محمد عبده ليُجلّي الأمر، وأنّ التعصب مدفوع عن المسلمين حيث حوادث التاريخ خير شهود على ذلك ، فمحافظة المسلمين لدينهم لم تدفعهم إلى ابادة من خالفهم كما فعل الصليبيون فى حروبهم والأسبانيون بمسلمى الأندلس ، والدليل الأقوم على ذلك " هو وجود الملل المختلفة فى ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا (المسلمون) عليها وهي فى أوهن الضعف ، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات ، وكانت لهم شدة على من يعارضهم فى سلطانهم ، إلا أنّهم مع ذلك يحفظون حرمة الأديان ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان .

ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم (أن من رضي بذمّتنا فله مالنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا فى معاملتهم غيرهم عن أمر الله فى قوله " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين" اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية ، ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحدًا من مخالفيهم عن التقدم إلى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ولقد سما فى دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من أرباب الأديان المختلفة ، وكان ذلك فى شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان ، وفى الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسحقا لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم حقوقهم) " .

ويقترب عبد الله النديم [١] من فكر الشيخ محمد عبده فى مقال له بعنوان (أشتات الشرق وعصبيات أوروبا) [٢] حيث يحلل واقع الإسلام بروح وطنية، والشيخ محمد عبده دفاعه يروح دينية بيّنة، فمجد الشرق عند النديم قام لتجرده من الانفعالات النفسية ونبذ جوانب الجنس واللغة والدين والوطن وضم جموعه تحت نظام واحد يعوّلون عليه، ولذلك لم يضرّه اختلاف المشارب والمذاهب مع توحد وجه الملك نظامًا واستيطانًا ودفاعًا. فكان فى مجتمع المسلمين سنة وشيعة و معتزلة ودروز ويهود ونصارى، وكل من هذه الطوائف يشتمل على مذاهب شتى متعددة، وربما كانت هذه الطوائف فى البلد الواحد وكلّ يجرى فى طريقه الديني، فإذا انتهى عاد إلى مجتمعه وانتظم مع حزبه، فاذا سمع الصيحة الجامعة انضم إلى مجموع العصبيات الشرقية صيانة للوطن ودفاعًا عن الملك.

واذ يرى النديم أخذ أوروبا لهذا النظام من المسلمين واستفادتها منه وظهور الأحزاب فيها، وتعاون هذه الأحزاب فى تدابير كل مملكة يتمنّى لو توجد هذه العصبيات والأحزاب فى البلاد الإسلامية، ولكنه يحترس بمراده من العصبيات والأحزاب أنه ليس لمواجهة أوروبا ويقول [٣] " لا يفهم غبي من ذكر العصبيات والأحزاب أن المراد عصبيات إفساد أو أحزاب فتن وحروب، فان ذلك محض الجنون لأننا مُحاطون بدول أوروبا وإن كنا فى قطعة شرقية،. . . . انّ افتراق ممالك الشرق واختلاف معظم أهله يقضى عليهم بالعدول عن كل فتنة توقعهم فى حرب أوروبية لا يقدرون على اقتحام عقباتها لاتفاق ممالك أوروبا عليهم واختلاف ممالكهم الشرقية، مع فقد المعدات والمواد الحربية، واذا كان ذلك مرسومًا بين أعين العقلاء منا استحال تصور التجمع لفتنة أو

---

(١) عبد الله النديم (١٢٦١-١٣١٤) : أديب مصرى وصحافي وخطيب، أصدر جريدة (التنكيت والتبكيت) ثم (الطائف) ولما قامت الثورة العرابية كان من أكبر خطبائها ولكن بعد فشلها اختفى عشر سنين ونُفي إلى فلسطين ثم عاد لمصر وأصدر بها مجلة الأستاذ (١٣١٠) ونفاه الانجليز ثانية فاتجه للأستانة وعمل فى الباب العالى حتى توفى ١٨٩٦م، أنظر : زعماء الاصلاح ٢١٨ أحمد أمين، عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية - نجيب توفيق .

(٢) سلافة النديم - عبد الله النديم ٢ / ١٢٠ جمع شقيقه عبد الفتاح نديم .

(٣) السابق نفسه .

لمعاكسة دولة اوروبية وتعيين فهمجاراتنا لأوروبا فى اتخاذ طرق المدنية" ان مسألة الجامعة الاسلامية وأوروبا رغم كثرة ما دُبّج وانتظم من الأفكار عند من تناولوها [١] غير من عرضنا له هنا - تُغرى بالمزيد ولكن دراسة مهمة تطرّقت لها لا مندوحة من الاشارة إليها لنختم بها هذه الفقرة . ذلك أن (رفيق العظم) [٢] تناولها بإفاضة من عدة وجوه ، وأبان عند سبب كتابته لها أنه ارتفع صوت المرجفين المنادين بخطر الجامعة الاسلامية من قادة الأمم الغربية .

واذ يبالغ فى تقليل أثر رابطة الدين بين المسلمين وانها لم تجمعهم يومًا ولا على التعاون على دفع الكوارث التى حلت ببلادهم يدفع دعوى القائلين بخطر الجامعة الاسلامية بعدة وجوه [٣] .

١) إن الجوامع الجنسية غالبة عند الأمم وخاصة الأمم الاسلامية ، فقد مزقهم الأوروبيون ولم نرهم يمّدون يد المعونة لبعض .

٢) إن المسلمين لو اجتمعوا باسم الدين لمناهضة أوروبا فلا يكون اجتماعهم خطرًا على المدنية كما يذهب اليه سياسيو الغرب ، بل يكون وفاءً بحق القومية ورجوعًا إلى الاعتصام بالرابطة العامة ، وقوانيين الاجتماع تقضى على الشعوب للذود عن مجتمعاتها .

---

(١) انظر لمزيد من ذلك : مجلة الأستاذ لعبد الله النديم - المجلد الأول ١٣١ - مقال : الوطنية ، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم - شكيب أرسلان ٧٢ ط دار البشير - القاهرة ، مجلة المنهل مجلد ١٨ - ١٣٧٧ مقال : الجامعة الاسلامية والغرب" نشر فى خمس حلقات آخرها فى الجزء العاشر من نفس المجلد" .
الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة الأدبية الحديثة - أنيس المقدسى ٢٩ .

(٢) رفيق بن محمود العظم (١٢٨٤ - ١٣٤٣) عالم بحاثة من رجال النهضة الفكرية فى سوريا فى مطلع العصر الحديث ، انتقل الى مصر واستقر بها واشترك فى كثير من الأعمال والجمعيات الاصلاحية والسياسية وله عدد من التصانيف أشهرها أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة - أربعة أجزاء .
انظر : آثار رفيق بك العظم - المقدمة - جمعها شقيقه عثمان بك .

(٣) الجامعة الاسلامية وأوروبا - رفيق العظم - ٢٠ - ط سلسلة الثقافة الاسلامية (٤٣) ربيع الاخر ١٣٨٣ .

٣) ان القول باتحاد المسلمين انما هو من موضوعات السياسيين الأوروبيين لإيغار صدور الأمم على الإسلام، والجامعة الاسلامية لم ترد في تاريخ الاسلام وليس لها في الدول الاسلامية شأن غير سياسي أصلاً .

واذ يعجب من تحقق خطر جامعة أوروبا وانتفائه من قبل جامعة المسلمين وصياحهم بعد بالخوف على مصالحهم إذا دافع المسلمون عن ذمارهم نجده يبين مفهوم الارتباط الديني بميزتين (١) :

ـ الارتباط الأخوي بين المسلمين ارتباط خاص.

ـ والارتباط الانساني بين الناس كافة .

ثم ان رابطة التعاون هذه على الخير بالناس دون الشر والعدوان ، وصريح دعوة الاسلام للاجتماع وعدم التفرق محمول على ماتستدعيه حالة الاجتماع من لزوم حفظ البيضة وكف المعتدين وهذا ضروري لكافة المجتمعات .

وإذ يُدَلِّل على أن الإسلام لا يحض أهله على الاجتماع إلّا ليكونوا يداً على من ناوأهم وأن يقسطوا إلى من سواهم ـ وان افترق عنهم في الدين ـ مالم يبادئهم بالعدوان ويُرِد بهم السوء كما يدل عليه حكم الدين وتاريخ المسلمين ، نجده يكشف عن سبب تمويه ساسة الغرب بخطر الجامعة الاسلامية (٢)، وذلك أن الساسة وأرباب الحَل والعقد ينظر إليهم رجال الحكومات الأوروبية بعين الحذر عند الإتيان بعمل كبير في السياسة في الداخل أو الخارج لأنهم قادة الأفكار ومالكو أزمة الشعوب ، وذلك مايدعو الحكومة الى مغالطتهم وتمويه بعض المسائل عليهم لكي يُمَهِّدوا لأنفسهم سبيل المعذرة في غارتهم على الشعوب المستضعفة من غير عذر إلا الأنانية والطمع .

واذ يستعرض حوادث اعتداء أوروبا على المسلمين ـ باختصار ـ طوال تاريخهم وحتى ضعف الدولة العثمانية وكأنه يعرّض بحقدهم القديم يقول (٣) :

" هذا ماتفعله الدول الأوروبية بالمسلمين ودولهم منذ أربعة قرون تارة مجتمعات وتارة مفترقات ، وهكذا كانت ولا تزال تشاطر ملك الاسلام وتقف لأهله في كل مرصد وتسد في وجوههم كل منفذ .

---

(١) الجامعة الاسلامية وأوروبا ـ رفيق العظم ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) السابق نفسه ٣٥ .

(٣) السابق نفسه ٥٩ ، ٦٠ .

... ان مناهضة أوروبا للدولة العثمانية فى الجليل والحقير من شئونها الداخلية كانت ولم تزل تتجدد كل يوم ، ومع هذا كله فان السياسيين من أهل أوروبا لا يخجلون من الحق ولا يستحيون من جميع العالم الإنساني الشاهد عليهم بالكذب والبهتان ، حيث ينادون بخطر الجامعة الاسلامية واتحاد الاسلام مع أن المسلمين فى كل ناحية من الأرض أسرى الدول الأوروبية وأصبحوا لا حول لهم ولا قوة الا تلك العاطفة الدينية المنبعثة من الشعور دون العقل الفعال" .

وإذ يذكر رفيق العظم كثيرا من البلاد الشاسعة التى اقتطعتها أوروبا من بلاد الاسلام يعزز بأدلة التاريخ التى تؤكد انحلال رابطة الوحدة الإسلامية عندما طلب كثير من المسلمين النجدة من حكومة العثمانيين أو غيرها فى العصر الحديث فلم يجدوا مغيثاً فكانوا فريسة لأوروبا قضت عليهم ومحت الإسلام من بعض ممالكهم (١) .

وما يصل إليه الكاتب بعد هذا ، أنّ تناصر المسلمين وولاءهم فى التاريخ الحديث لا يقاس أو يوازى بتناصر دول أوروبا واتفاقها على اكتساح المسلمين فى كل مكان من الأرض، أفبعد هذا يجوز للساسة الغرب أن يصوّروا أقواما هذا حالهم فى التخاذل والضعف فى صورة غول إذا تضامنت قواه يلتهم العالم؟ إنهم أولى بهذا وأحق (٢) .

ويستنبط الكاتب آخر الأمر أن حركة الفكر الاسلامى إنما هى نتيجة تبادل الشعور بما تريده أوروبا من المسلمين من الاستخذاء والتبعية ، ونتيجة الشعور بما بلغته الأمم الأوروبية من قوّة السلطان وبسطة الملك .

ان " هذه الحركة إذ ظنها الأوروبيون مقدمة للاتحاد الاسلامى أو عين الاتحاد فانما هى اتحاد على معرفة الواجب لا للبحث عن مصدر ترقي أوروبا ألا وهو العلم والحرية .

فأمّا العلم فقد نشطوا له فى كل مكان بقدر ما تساعدهم الظروف وما ينفذ اليهم من خلال حجب الاستبداد من نور المعرفة .

---

(١) انظر الجامعة الاسلامية وأوروبا ٦٢ ، ٦٥

(٢) السابق نفسه .

وأمّا الحرية فهم ينشدونها حيثما وجد الاستعباد لا فرق عندهم في ذلك بين الدول المسيحية والإسلامية ، فكما نرى المصريين يُطالبون الانجليز بالحرية نرى الايرانيين يحاربون حكومتهم الإسلامية من أجلها . ونرى العثمانيين كذلك يبذلون مع حكومتهم ويفتدون بكل نفس ونفيس لأجل الحصول عليها والتخلص من ربقة الظلم و الاستبداد .

أليس هذا اتحادًا في الشعور بالحاجة إلى الرقي وإلى مسابقة الأمم المتمدنة ؟

أليس التمدن والرقي ضد الهمجية ؟ فاذا كان المسلمون همج متعصبون - وبهذا يصمهم الأوروبيون - أفليس في طلبهم الرقي وترامیهم على الدخول في صفوف الأمم الراقية المتمدنة مايزيل عنهم هذه الوصمة ويُسقط حجة أعدائهم في تلك التهمة ؟

بل هذا هو الحق الصراح ، فلينصف الساسة الغربيون وليرجعوا عمّا يقولون " (١) .

---

(١) الجامعة الاسلامية وأوروبا ٦٨ .

ثانيا : مظاهـر التصوّر الأدبي للجامعة الاسلاميـة

أ) مـدح السلطـان العثمـانـى :

حفل أدب العرب منذ أقدم عصوره بجملة من الأغراض يعدّ المديـح من أشهرها و ان لم يختلف عنها كثرة وروعة وجمالاً . وليس المدح عيباً فى الأدب العربى حتى يؤخذ عليه ويعدّ لذلك أدب نفاق ورياءً وتزلّف كما يخال لمـن رموه بذلك، بل إن لهذا الغرض فى هذا الادب دلالة واضحة ومغزى شريفا عرفها الأدب العربى فى عصر الجاهلية وفى الاسلام بعد ذلك [1] ، ورغـم وجود مبررات هذا المدح المألوفة فى حياة العرب كما أملتها عليهم ظـروف الحياة وبيئاتها المختلفة إلا أن وفرة هذا اللون الإنسانى ودلالته لا تمنـع المرء من أن يتصور دوافع أخرى لهذا الغرض الفنى غير ذلك، وربما أعـان على ذلك التصور معرفة طبيعة الحياة العربية فى عصورها المتقدمة فـى الحضر والبادية ، حيث شظف الحياة وكثرة الحرمان ، بيد أن ماكان يتمتع به العربى من حرية وشهامة وأنفة قد تدفعه إلى ذلك الثناء، والعربـي بمدحه إنما كان يلتمس ويبحث عن الكمال الإنسانى الذى تطمح اليه النفـس ويطمع أن يراه أو يُجسده ويجده فى ممدوحه الذى يراه أهلا لذلك.

والسلطان العثمانى الذى يعنينا هنا ليس بدعاً أن يزدحم الشعـر العربى فى تمجيده كما يواكبه النثر الفني، والذى تلمس الوصول إلى الاعتـاب السلطانيـة .

ذلك أنه سلطان المسلمين وخليفة الأمة ، ومكانته الكبرى فى نفـوس المسلمين لا لشخصه أو تفوّق امتاز به ، وإنّما للخلافة العظمى التى جعلتـه الأمـة أمينا عليها.

والمسلمون كما أمرهم الدين الحنيف مطالبون بحفظ خلافتهم وطاعـة أولي أمرهم - ما التزموا طاعة الله ورسوله - بغض النظر عن أجناسهم وأصولهم عرباً أو عجمـًا ، ماداموا قائمين بالأمر على وجه قويم .

---

(١) انظر: عصر الدول و الامارات (الجزيرة العربية - العراق - ايران) د . شوقى ضيف - ٣٣٦ .

والذى يدعو الى الحديث عن مدح السلطان أنه فى حقيقة الأمر كان المسلمون لا يرون فى الخليفة العثمانى إلا خليفة المسلمين ، مع يقين شعوب المسلمين أنّه تركيّ صميم (١) ، وكانت الشعوب الاسلامية إلى مطلع العصر الحديث - رغم وجود عدد من الحكام غير العثمانيين - لا يفرقون بين أبناء المسلمين من كل جنس ومن كل مكان واستمر الأمر حتى قامت النعرات المختلفة من قومية ووطنية ودخلت فى المسلمين وأخذ أعداء الاسلام يغذّونها ويباركونها حتى تأصلت فى كثير من المسلمين ، ومن ثمّ بدأ التحيّز والتمييز بين الأجناس التى وحدتها شريعة الله ، ووصل الأمر أن حُشِيت الأذهان - مكرًا ومكيدة - فى الأمة العربية أن العثمانيين مستعمرون لهم ومستبدون بأمرهم وحسبهم ما مرّ وليقم كل شعب وجنس بحكم نفسه وقيادة قومه .

لم يكن أدباء العرب يجدون غضاضة فى كيل المدح والثناء على السلطان العثماني إلى أن مرّ عقدان أو ثلاثة من القرن الرابع عشر الهجرى ، بل إنهم يفخرون بذلك ويعدوه ديانة تقربهم الى الله زلفى ، واذا أضيف لذلك أن عقولهم وأهواءهم لمّا تخامرها النزعات القومية الجديدة - كما حدث لمن بعدهم - أمكن للمرء أن يدرك عمق الشعور والاخلاص فى أدبهم الذى ساروا فيه على سجيتهم وما تتخيله عقولهم حين توجهوا به إلى السلطان العثمانى خليفة المسلمين .

واذا كان من نافلة القول إن ازجاء المدائح واظهار الولاء والمودة لا تأتي من فراغ في الغالب ان لم يكن للممدوح مايزكّي ذلك ، فالعثمانيون قد بلغوا فى واقع المسلمين - وفى واقع العالم فى عصرهم - شأوًا بعيدًا جعل دولتهم فى صف الدول الكبرى إن لم تكن فى بعض الفترات أعظم حكومة على الأرض. لذلك كله ولغيره احتشد أدب العرب فى مطلع العصر الحديث بقلائد من الدرّ منظومة ومنثورة تُوّج بها الخلفاء وكثير من الولاة والقواد .

ومعظم ماورد من أدب فى هذا الباب تتعاوره صور مختلفة تتلاقى تحت مظلة المديح ، فقد يكون وفادة على السلطان ينعم بها الأديب فيسطر فى كلمة اعجابه وسروره بذات السلطان أو عظمة السلطنة ، وتارة يكون المدح لمناسبة

---

(١) يروى أن قائد الحملة الفرنسية لما نزل بمصر (١٧٩٨م) وسأل ولاتها الذين استدعاهم عن أرضهم لمن هى ؟ فأجابوه : انها أرض السلطان ، يريدون الخليفة العثمانى : انظر: عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ٢٨٥/٤ .

يحتفل بها السلطان والأمة - وهي كثيرة - كعيد الأضحى والفطر أو بعض المناسبات التي كانوا يسمونها دينية ، مما أدخلته الصوفية التي كان لها نفوذ في الحكم العثماني وعلى الخصوص في القرون الأخيرة ، كالاحتفال بعيد جلوس السلطان الذي يتكرر كل عام ، والاحتفال بالمولد النبوي وبالهجرة وغيرها من الحفلات الخرافية المبتدعة .

وتارة يكون المدح ازجاءَ ثناءٍ ودعاء للسلطان من غير حدث يبعث على ذلك ، أمّا الدعوة للالتفاف حول الخليفة والحث على طاعته والتنفير من عصيانه فربما كان باعثه في الأغلب بعض الحوادث التي تعترض السلطان أو تنال من الدولة أو رعاياها المنبثين في فجاج بعيدة مترامية .

هذا محمد توفيق البكري - شيخ مشائخ الطرق الصوفية في مصر - يرحل إلى عاصمة الخلافة وقد كان يتطلع الى تلك الزيارة من زمن ، ويحلم بشرف لقاء السلطان واجتماعه به فيصوّر ذلك الشوق الذي دافع الدّهرُ تحققه فقال (١) : " على أنه قضى العمرُ الا الأقلّ ، وكاد يحول الأجل دون الأمل ، وهو شمل لم يُؤتَلف ، وكنز لم يُكتَشف " .

واذ يُسعف الزمان ويصل إلى ديار الخليفة ويفد عليه ، يقدم مجلسه ويأنس بحديثه ، ويعرف فضل هذا السلطان ومكانته ، ثم يسجّل لنا هذه الوفادة بأسلوب كتاب عصره ، فكيف كان هذا الخليفة عند البكري ؟

إنّه " أمير المؤمنين . وخليفة رسول رب العالمين . السلطان بن السلطان ، سليل الغرانيق العلا من آل عثمان . فقد دعاني الى حضرته والقرب من سُدّته . وبلغ من حسن اللقيا وكرم المثوى . مالو أُعطيتُ لَسَن النابغة في النعمان ، وزهير في هَرِم بن سنان . لما قمت فيه بحق الشكران . فأيّ درّ أنثر وأي مديح أذكر . وقد جلّ المقام عن المقال ، وترفعت الحقيقة عن الخيال .

اذا نحن أثنينا عليك بصالح .. فأنت الذي نُثني وفوق الذي نُثني
وان جرتِ الألفاظُ منا بمدحةٍ .. لغيرك انساناً فأنت الذي نَعْني

ولا جرم فقد ورث المجد جدّاً عن جد . في الأسرة الحصداء والعيص الأشدّ .
والمجد كالخمر كلّما طالت عليه الآمادُ جاد ، وكالحديث كلما علا في الاسنادِ ساد

---

(١) صهاريج اللؤلؤ - محمد توفيق البكري ٤٨ .

ومابلغتكفُ امرئٍ متنـــاول . . بها المجد الا حيث مانلت أطـولُ
ومابلغ المهدون فى القول مدحةً . . وإن أطنبوا الا وما فيك أفضـــلُ" (١)

وذا مصطفى كامل نجده يدعوا لله مخلصًا أن يحفظ الدولـــــة العثمانية ويؤزرها بحفظ السلطان الذى يقوم على حمايتها " إني أضرع إلـى اللهمن فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العليةالقوة الأبدية والنصـر السرمدي ، لعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر فى سؤدد ورفعـة ،وأن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها ،وللاسلام إمامه وناصره ، جلالـــة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبد الحميد الثانى..إن ربي سميـع مجيب " (٢) .

و هو يردف ذلك بتمجيد السلطان مُظهرًا بعض جهوده فى خدمـــة الدولة العلية ،وأنه " أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايتـه لإبطال مساعى الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالى فقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧م (٣) وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا فـى الدولة ومصيبةالمصائب ،فعمل بحكمته العالية على تبديد قوّتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لاعلاء قدرها" (٤) .

واذا أتينا الى عيد الجلوس السلطانى ،وهو مناسبة تولى السلطـــان الخلافة والتى يُحتفل بها فى كل عام ،وماكان يصاحب هذا الاحتفال مـــن مظاهر السرور، إذ كانت تُقام الأفراح والحفلات وتنظم الزينات فى الأنديـة والشوارع وتكثر الاضاءة بمختلف الأدوات الى غير ذلك من المظاهر التى تتبارى الأمة فى اظهارها ،نجد الكتاب يدونون التهاني ،وتعالن الصحافة بتنميقهـا على نحـو مانجده مثلا عند (الكسندره افرينوه) (٥) التىكتبت فى عيـــد

---

(١) صهاريج اللؤلؤ- محمد توفيق البكرى ٤٨ ،الغرانيق : جمع غرنوق وهـو الشاب الناعم ، السُدّة : باب الدار، الحصداء : صفةللدرع اذاكانت ضيقه الحلق محكمته ،العيص: الشجر الكثيرالملتف .
(٢) المسألةالشرقية - مصطفى كامل ، ٤ .
(٣) أى الحرب بين روسيا والدولة العثمانية وقد خسرت فيهاالدولـــة العثمانية خسائر فادحة ومناطق كبيرة .
(٤) المسألة الشرقية ١٠ .
(٥) الكسندره افرينوه (١٢٨٩-١٣٤٦) اديبة ولدت ونشأت فى بـيروت وانتقلتالى مصر ، وأصدرت بها مجلتها (انيس الجليس) الشهرية عشرة أعوام ،لها رحلات الى أوروبا وتركيا وايران ،وكان لها نصيب من الثقافه =

الجلوس المأنوس قائلة (١) : " تحتفل الأمة العثمانية الكريمة فى هذا اليوم السعيد بأجلّ اعيادها مجدًا وفخرًا ، وأحب الأيام إليها تجددًا وذكرًا ، وتبتهج الممالك المحروسة بيوم تعدل المسرة فيه مسرة أزمان ، وتغتبط بخلافة سلطان ما رأت مثله بنو عثمان ، بل أى أثر من آثار ملكه السعيد لا يزهو بيوم عيده ، وأى حالة من حالات بلاده لا تدعو الى الدعاء بطول بقائه وتأييده . فالعدل قد رجع إلى نصابه بأحكامه ، وارتدّ إلى شبابه فى أيّامه ، والعلم فى مدة دولته قد عمّ البلاد ووسع العباد وتناول الجموع والأفراد ، وكفى حتى زاد ، والدولة بحزمه السديد قد طاولت الدول ، وفاخرت بعصره الأعصر الأُوَل " .

والكاتبة تشير إلى جانب طريف اعتنى به السلطان ، ذلك هو تعليم المرأة وتثقيفها ورقيها ، فهل يعنى هنا أن نعده قد سبق دعاة تحرير المرأة وأنصارها الذين ادّعوا ذلك بحق أو بغير حق ؟! إنها تقول " ثم عرف أيده الله ما للمرأة على جلالته من حق الرعوية عليه ، فجعل لها المدرسة بمكان الخباء والقناع . وجمع فى يدها الوشيعة (٢) واليراع ، فصارت تلهو بسواد الحبر على بياض المعاصم ، وتعتصم من أدب العلم بأمنع عاصم ، وكم لجلالته عليها من نوافل .... ذلك هو اليوم السعيد الذى نذكر به هذه الحسنات ومانحن له بناسين ، ونعد فيه مانستطيعه منها وهى تعجز الحاسبين ، ثم نسأل الله تعالى أن يطيل بقاءه نامية به المكارم ، سامية بأيامه الأعياد والمواسم ، ويبقى دولته العلية وطيدة بأركانه ، سعيدة فى زمانه ، وأن تظل عامرة بمديحه القصائد والأبيات ، كما تعمر أعتابه السنية بالدعوات والتهنئات ، ويتصل فى مدحه ما مضى بما هو آت " .

واذا كانت هذه الكاتبة قد أكدت ولاءها للسلطان فان ذلك يلفتنا الى طائفة النصارى الذين يتفيّئون فى ظلال السلطان العثمانى بين المسلمين والتذكير بمواقفهم من هذه الدولة التى لا يعتنقون دينها ، والذى كان فى

= الغربية ، ترجمت بها عن الفرنسية وكانت تتصل بالقصور الخديوية كثيرًا وتوفيت فى لندن . انظر : تاريخ الصحافة العربية ٤ / ٣٢٦ ، الاعلام ٢ / ٧

(١) مجلة أنيس الجليس - لمنشئتها : الكسندرة افرينوه - السنة الثانية ج ٨ ربيع الثانى ١٣١٧ أغسطس ١٨٩٩م . ص ٣١٥-٣١٧ .

(٢) الوشيعة : لفيقة من غزل وتسمى القصبة وهى التى يجعل النسّاج فيها لحمة الثوب للنسج

جملته هو الولاء لهذا السلطان وتقديره والحرص على الدولة وعدم المساس بما يهدمها ، ذلك أن طوائف الملل المتفرقة التى كانت تعيش فى الدولة العثمانية لم تتعصب لدينها وتعمل على الكيد للدولة العثمانية فى الجملة الا فى مطلع العصر الحديث، اذ بدت الإرساليات وطوائف التبشير المختلفة تدب فى الكيان العثماني، ودول أوروبا و من ورائها بطوائفها المختلفة تجد وتدأب فى التمهيد للتبشير والاستعمار.

وعندما تمكنت هذه المدارس والإرساليات من بثّ روح التعصب والحقد للدولة بدأت هذه الطوائف داخل الدولة تتمرد وتطالب بحقوقها وتتعاون مع الأوروبيين وتمهد لهم ليتدخلوا ويدخلوا فى ديار المسلمين كماهو معلوم من أحداث بعض هذه الطوائف الكثيرة فى بلاد الشام (١) .

والمتأمل فى الصحف المسيحية إلى آخر القرن التاسع عشر - بحسب ما أمكن الاطلاع عليه - وما كتبه أدباؤها نجدها لا تخرج عن فكرة الولاء للسلطان العثمانى ، ثم تلا ذلك ظهور النعرات والفتن التى كان للاستعمار أكبر الأثر فى ظهورها - كما سيأتى فيمابعد - وبثها ليخلو له الطريق فى تنفيذ مآربه المتعددة ، وحسبنا من المقال السابق دليلاً لعدد من الكتابات التى تسير فى فلكه (٢) .

وأما الالتفاف حول السلطان والدعوة الى الارتباط به فقد قويت اللهجة به عندما بدأت الفتن التى بثها الاستعمار ومدارسة توءتى أكلها ، ففى مصر وقد تبين للانجليز مكانة الخلافة عند المصريين لم يتهجموا على السلطان أو الخلافة مباشرة بل اندفعوا يدّعون أنهم يريدون قمع الخارجين على الخلافة والسلطان ، مع ذلك عملوا بشتى الوسائل لايجاد العداوة والفرقة بين مصر وتركيا (٣) ، وجَدُّوا فى تحريضِ أبناء مصر على العثمانيين بحيلٍ خفية، وصوروهم

---

(١) انظر: التاريخ الاسلامى - العهد العثمانى - محمود شاكر - ٣ ١ - ١٥

(٢) انظر: مجلة أنيس الجليس (الكسندره افرينوه) المجلد الثانى ص ٣٢ ، والمجلد الثالث منها (١٣١٧ / ١٩٠٠م) ص ٢٨١ ، مجلة المشرق للأب لويس شيخو المجلد الأول العدد الأول (المقدمة) ، المجلد الثالث ١٩٠٠م ص ٧٧ عن تعبير الكاثوليك عن ولائهم للسلطان فى عيد جلوسه الخامس والعشرين ، جريدة مصر لسليم نقاش ١٨٧٧م حيث كانت أخبار الحرب الروسية العثمانية تتقدم صفحاتها الأولى .

(٣) انظر : التاريخ الاسلامى - العهد العثمانى ٥٠٥ .

لهم فى صورة المستعمرين .

هذا عبد الله النديم وقد أحس هذه المكيدة الخطيرة لتمزيق الأمة فماذا يفعل ؟ انه يصرخ فى بنى وطنه قائلاً [١] ،" هذه يدي فى يد مَن أضعها ؟ ضعها فى يد وطنيك ، واعقد خنصريك على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، والا فقطعها خير من وضعها فى يد أجنبي يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهية ، يظهر لك سعيه فى صالحك وحبّه لتقدّمك ، ويرهبك بأوهام لا توجد إلا بينك و بينه ، ويغرك بدعوى انفراده بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمرائك للقصور ، وحكامك للجهل الظلم ، ويصور لك الأباطيل فى صورة حق تخدعك به ، ويحول أفكارك الشرقية إلى أفكار غربية تأخذها وتقول بها ، فتكون يده القوية ودعوته الكبرى على ضياع حقوقك واذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك وانتزاع سلطة أميرك وسلطانك وأنت لا تشعر بشىء من هذا " .

واذ نقف على هذه النماذج فى هذه الفقرة نختتمها برسالة مدح واستعطاف إلى السلطان عبد الحميد ، وتمتاز هذه الرسالة بأسلوب متين ساحر وان لم يخرج عن أسلوب التصنع والسجع الذى غلب على الكتاب فى مطلع هذا العصر ، ولعل بيانها قد أسهم بنصيب كبير فى تحقق الاستعطاف الذى اشتملت عليه ، وقد دبّج الرسالة ابراهيم المويلحى [٢] يطلب فيها السماح من السلطان بالاقامة فى تركيا لاحدى أزواج الخديوى اسماعيل - خديوى مصر - لأن الأطباء وصفوا لها علاجاً فى إحدى نواحيها ، والرسالة طويلة بدأها قائلاً [٣] :" إلى أمير المؤمنين وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطال الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروه فداءه . من عبد اكتنفه حرمان الرضا من ولى نعمته ، ومالك

---

(١) مجلة الأستاذ نقلاً عن : فى الأدب الحديث - عمر الدسوقى ١ / ٤١٣ ط ٨ .

(٢) ابراهيم بن عبد الخالق المويلحى (١٢٦٢-١٣٢٣) أديب وصحفى مصرى لازم الخديوى اسماعيل - خديوى مصر - كثيرًا وعمل له وأشهر اعماله مجلته الاسبوعية" مصباح الشرق" وتوفى بمصر - انظر : ادب المقالة الصحفيه (جـ٣) د . عبد اللطيف حمزة ، تاريخ الصحافة العربية - طرازى ٢ / ٢٧٥ .

(٣) مجلة الرسالة - السنة السادسة (١٣٥٦ / ١٩٣٨) المجلد الثانى ٦١٩-٦٢٠ .

ناصيته ، فساعته شهر وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وكذلك جواب دعائه مما يقاسي من غضب أمير المؤمنين .

... وأمير المؤمنين أولى العالمين في الاقتداء بآي الكتاب العزيز وإنى أتضرع إلى مقام خلافتكم العظمى وسلطنتكم الكبرى ، متوسلاً بجناب صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما أعرضه لدى سدّتكم الملوكية بعين الرضى ... وإنى أتوسل إلى الله أن يلحق أمير المؤمنين بنزاهته ورحمته وعدله وايمانه ورعايته مافي يديه من ودائع الله التي هي أرواح المسلمين وأعراضهم .

وصمته : الاستمرار على حرمان هذه المريضة من علاجها الممكن ، فانها انما تدخل تحت سطوة السلطنة العظمى وقوة الخلافة الكبرى ، في بلدة صغيرة من ممالك الدولة العثمانية ...

... وأنا واقف على البعد أتلقى أوامركم بفريضة الامتثال ، وان لم يصادف تضرعي ودعائي قبولاً فاني أخشى أن هذه المريضة وهي في الاحتضار تمديدها بكتاب الله قائلة : بيني وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز في الدنيا والآخرة ، والأمر لله من قبل ومن بعد " .

واذ تُرجمت الرسالة بهذا الأسلوب الاستعطافي المنطقي ، وبهذا الثناء الذي يفوح بين سطورها ثم عرضت على السلطان عبد الحميد يتأثر بها ويجيب طلبها ، فيرسل برقية الى سفيرة في ايطاليا - حيث تقيم المريضة - بدعوة حرم الخديوي الى تركيا للاستشفاء .

بكل هذه الصور التي تلتقي حول مدح السلطان العثماني والثناء عليه في مناسبة أو غير مناسبة ، يظهر الاهتمام الكبير بالاشارة الى السلطان والاحتفاء به وما ذلك الا لأنه يجلس على عرش الخلافة الاسلامية العظمى ، حيث ينظر إليها المسلمون كظل يفيئون إليه عند كل نعمة ، ولواء يجتمعون حوله عند كل نازلة ، ويغدون بذلك أمة معصومة من الفرقة وأسباب الخذلان .

ب) الدعوة الى الحفاظ على الدولة العثمانية :

رأينا قبل قليل في هذا الفصل صلة الجامعة الاسلامية بالدولة العثمانية ، وظهور الاتصال الحميم بينهما ، وقد زاد ذلك وضوحاً عندما ظهر

بعد هذه الصلة أن الجامعة العثمانية أحد وجوه الجامعة الاسلامية وصورها التي ظهرت فيها إن لم تكن أظهرها .

وأمر المحافظة على الدولة العثمانية الذي قام على ذلك الأساس ميدانه فسيح في الواقع وأرجاؤه رحبة ومتعددة ، ومع ذلك فهو قرين لمدح السلطان والالتفاف حوله ، إذ السلطان في الحقيقة هو المحافظ والقائم على حراسة الدولة وحمايتها ، ولعل في هذا الاقتران مايشجع على إلحاق فكرة المحافظة على الدولة العثمانية بعد الحديث عن مدح السلطان وولائه وطاعته .

تأخذ هذه المحافظة دعوة إلى الوطنية العثمانية ، وتتخذ الولاء لرابطة الخلافة ذريعة إليها ، وتراها تبرز أهمية الارتباط بهذه الدولة ، كما تعرض في بيان مكانة هذه الدولة في العالم وثقلها الدولي ومركزها السياسي وتراها تارة تتخذ الإشادة بماضي العثمانيين المجيد وجهودهم التي أسدوها للأمة الإسلامية ، وعلى رأسها الجهاد الذي يحفظ على الدولة كيانها الكبير . أمّا الخوف على هذه الدولة من الأعراض الكثيرة التي تُهدّدها وتجرها الى الضعف والزوال ، أو التشهير بمن خرجوا عليها وناصبوها العداء أو تحالفوا مع أعدائها فطبيعيّ ألّا يخرج ذلك عن دائرة المحافظة على الدولة حيث نجد من يسطّر فيه من الكتابات الأدبية مالا يسع إغفاله أو التقليل منه .

وإذا أُريد بيان ذلك كلّه فالنماذج الكثيرة تعين على توضيحه وتجلّي جوانب هذه المحافظة التي تدور حولها .

فالوطنية العثمانية وإن تأثرت بالدعوات القومية الحديثة التي دخلت البلاد العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي على يد بعض من تثقفوا في بلاد الغرب ، إلا أنها كانت تدعو إلى المحافظة على سلامة الدولة وبقائها ، وهي لذلك تدعو سائر أبناء الدولة العثمانية الذين يعيشون في أوطان متعددة ، حيث الدولة واسعة البلاد مترامية الأطراف ، ولكل موطن سمات قد تميز بين أبنائه وتدعوهم إلى الاعتزاز عن غيرهم ، وفي ذلك مكمن الداء وأصل البلاء ، هذه الوطنية توجّه جميع أبناء البلاد العثمانية بمختلف أجناسهم ألّا يُميّزوا بين هذه الأوطان المتعددة ، ذلك أنها وطن واحد وديار واحدة ، هي بلاد عثمانية ووطن عثماني واحد ، يقوم عليه حكومة واحدة هي الدولة

العثمانية ، فهى التى تجمع هذه الأوطان وتربطها ببعضها ، فالذين ينشدون الوطنية ويروقهم رفعة بلادهم فإنها إنما تأتي من ارتفاع الدولة العثمانية ورقيّها ، ولا يكون ذلك الا بطاعتها والجدّ فى موءازرتها وإعلاء شأنها بين دول العالم التى تطاولها بوطنياتها وعزتها .

هذا سليم تقلا [1] يكتب عن "الوطنية العثمانية" مشيدًا بها فيقول فى بعض ما أورده [2] : "ان فى ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وأرمنية ويونانية وغيرها ، وكذلك مذاهب مختلفة ، وهى دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بأمره وتنصاع لأحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعيّة دون أطماع الدول ، وما وراء العبث بها إلا الخسران والضياع. واذا تبيّن هذا وهو الحق الصراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام إخوة لأم هى دولتهم ، وأب هو جلالة السلطان " .

ونجد بجوار هذه المحافظة على هذه الوطنية العثمانية من يدعو إلى الأخذ بالأسباب التى توجدها حقيقة واقعة ، ولعل مجال التعليم والدراسة من أصلح المجالات لغرسها ، وها هو " فرح أنطون" [3] يلح على قيام هذه الوطنية ، ويصدر فى الاسكندرية (١٨٩٧م) مجلته " الجامعة العثمانية " والتي يظهر من اسمها الولاء العثماني ، وتجده فى عددها الأول يدعو إلى انشاء مدارس تربّي أبناءها على الوطنيةّ العثمانية والولاء لها ، وقد كانت المدارس الأجنبية التى انتشرت آنذاك فى أرجاءا لبلاد العثمانية مبعث هذا الشعور عنده ، وهذا يعزّز الشك فى نوايا تلك المدارس التى سبقت الاستعمار بعشرات السنين .

ويقول فرح أنطون في فاتحة مجلته مشيرًا إلى المدارس الأجنبية " فلننشئن أيها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون أساس

---

(١) سليم بن خليل تقلا (١٢٦٥-١٣١٠) لبنانى مسيحى صاحب جريدة الأهرام المشهورة التى أصدرها فى الاسكندرية ١٨٧٥م وكانت فى بدايتها ذات ميول فرنسية واضحة، ولم تشارك فى أحداث الثورة العرابية فأحرقها العرابيون مما اضطره لإصدارها بعد ذلك بفترة فى القاهرة انظر: مصادر الدراسة الأدبية ٢ / ٢٢٠ ، الأعلام ٣ / ١١٧ .
(٢) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ٢١ .
(٣) انظره : فى فصل كتاب التيار المعارض .

تعليمها حب الوطن والأمة وتعليم ماهو الوطن وماهى الأمة. لِنُؤسس مدارس جديدة نُدخل إليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة. ونُدخل إليها قبل ذلك عناصر الأمه كلها فنربيها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروسًا واحدة ومبادئ واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة إلى حياة الرجولة بقلوب واحدة وأفكار واحدة : فان هذا هو السبيل الى تقويه جدار الوطنية العثمانية ووقايته من الثلم والهدم " (١).

اذا كانت الوطنية العثمانية تعنى المحافظة على سائر البلاد العثمانية التى تخضع لها وعدم التفريط فيها أو بترها منها فان من يحاول فصل أى جزء من هذه الأوطان عنها إنما يُحطّم هذه الوطنية ويهدم الدولة مهما اتخذ من الأسباب وتوشح به من الأدلة فى دعواه ، ولا غرو أن يجد من يحاول ذلك من يرّد عليه ويفندّ أراءه ويدحضها من أنصار الرابطة العثمانية ، وإن من أجلى الأمثله على ذلك ماحدث فى مصر ابّان استيلاء الاستعمار البريطانى عليها ، لقد حاول الانجليز أن يُقرّروا فى أذهان المصريين شرعية دخولهم وضرورة مقامهم فى وادى النيل واتخذوا من الأحداث التي صنعوها أو خططوا لها ذريعة فى أحقية بقائهم بمصر.

لقد اتخذ الاستعمار الانجليزى من الكتابة فى الصحف وسيلة لبث الأفكار التى يريدها والتى يذبذب بها أفكار المصريين ومفاهيمهم ، ولذا فقد استقطب عددًا من الصحف والمجلات التى تؤيده وتدعو له ـ كما سيأتى فيما بعد ـ وسعى لكسب الكتاب والمفكرين ليكونوا تحت مظلته ، ولا حرج عليه بعد ذلك أن ينشر مايريد من آراء وما يملى من أوامر على ذلك الشعب المضطهد، إضافة إلى الحِيَل الذكية التى كان يلبّس بها مايريد الوصول اليه.

واذ اندفع الكتاب الموالون للانجليز يؤيدون شرعيته ينهد الغيورون من انصارا لدولة العثمانية فى مصر لرد هذه المزاعم وتفنيدها.

فها هو أديب اسحاق (٢) فى ابان حوادث الثورة العرابية يكتب عن

---

(١) مجلة الجامعة العثمانية ـ المجلد الاول ـ ١٨٩٧م فاتحة العدد الاول.

(٢) أديب اسحاق (١٢٦٢ - ١٣٠٢) أديب مسيحى من دمشق ، اشتغل فى بيروت ثم انتقل الى مصر وأصدر بها عددا من الصحف منها مصر والتجارة وكان قد اشتغل قبلها بالتحرير فى بعض صحف فى بيروت ، وهو كاتب جيد الانشاء حاد العبارة حين يثور ، وجمعت آثاره فى كتاب سمى (الدّرر). انظر : مقدمة : الدّرر ، الفنون الادبيه واعلامها ٤١١.

حال مصر مع الانجليز ويتخيّر العبارات المثيرة فى كتاباته ليحرّك الحمية والنخوة فى قلوب المصريين ليتحمسوا فى الدفاع عن وطنهم ويتيقظوا للخطر الداهم عليهم فى استفهام واستنكار عليهم أن يرضوا بذلك ويقول (١) :" إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقود ؟ و حتام تداهمنا المصائب ونحن قعود ؟ وكيف ينادينا العِرْض لنحميه فيجد آذانًا صمّاء؟ أم كيف يشير إلينا الوطن لنحفظه من غوائل الطمع فيرى أعينًا عمياء؟ فما للمدافع لا تتدفق ، وما للنفس لا تزهق ؟ ومن للأعراض تحميها اذا دخلنا تحت صخور الحَيْن (٢) ، ومن للوطن يمنعه بحوزته اذا تأخرنا عن نصرته ؟ ما رأينا عِرْضًا حُفِظ وصاحبه فى غمرات سكرته :

وما منعت دارٌ ولا عزّ أهلها . . من الناس الا بالقنا والقنابل "

وبعد أن يوضّح نوايا الانجليز الاستعمارية وعزمهم على اقتطاع مصر، وأن مصيرها مصير الهند التى استبدّوا بها وسلبوها خيراتها واستذلوا أهلها وساموهم سوء الذل والعار يشير بعد ذلك إلى مزاعم الانجليز التى يتذرعون بها لدخول مصر كما دخلوا غيرها :

" فيا أيها الانجليز ماتريدون منّا ، زعمتم أن مرادكم اصلاح حالنا وأنتم أسوأ الناس حالا ، هذه الأمة الإيرلندية تندبها الانسانية وتبكيها الرحمة ، ويتلهف عليها العدل ، ويتحسّر عليها الإنصاف ، قد روّت الأرض بعرق جبينها ، وفلحتها بقوة يديها ، ففتحت أبواب النَّصَب عليها ولم تكتسب الا سوء معاملتكم وعظيم تكبّركم وبأس تجبركم ، وقد فاضت نفوسهم من عسفكم فقاموا لطلب الحرية التى بذلتم جهدكم فى رياء السير فيها للأرقاء ، فتركتم خروقكم مفتوحة ، وأتيتم إلينا مدّ عين السلم ، ومنادين الأمن وأنتم أحربُ من الحَرب ، وأخونُ من الخيانة ، وقد هددتمونا وزعمتم أنّنا نهددكم :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم . . وأن نكفّ الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنّا لا نُحبكم . . ولا تَلومكم إن لم تحبونا

وإلى هنا يصل إلى التنبيه إلى مكانة مصر، فهى جزء حيوى منها لاغنى عنه لمن يريد الحرمين المقدسين ، كما أنها ولاية عثمانية لها دولة تحميها

---

(١) أدب المقالة الصحفية- د. عبد اللطيف حمزة ٢ / ١٦٤-١٦٧.
(٢) الحَيْن : الموت .

" أطبقوا فم الشرّ عن مصرنا فانها باب الحرمين الذين يبيع كل مسلم روحه في المدافعة عنها ، سيّما وأن مصر تابعة لدولة لها ذكر بين الدول المعظمة ، فلا يمكن أن تدعكم وشأنكم هذا ، وأيضًا كل مسلم لا يترك لكم الميدان فسيحًا تجولون فيه كيف شئتم " .

أمّا الأعوان الذين اصطنعهم الانجليز لتنفيذ مخططاته وانجاح مقاصده فلم يكن أمرهم خافيًا، فهو يخاطب الانجليز " إنّ لكم منا أعوانًا اتخذوكم أولياء، وان ولينا الله فنعم المولى ونعم النصير، وحاشى لله أن يكون أعوانكم منا ، وإنما هم أناس ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون " .

وتصدّت صحيفة (البرهان) لمن زعم أن مصر مستعمرة انجليزية لأن الانجليز استولوا عليها ، وناقشت ذلك بمنطق عقلى ينفي حق بريطانيا الشرعي عن مصر، وأنّها ولاية عثمانية مهما أرجف المبطلون ، بل لقد أوضحت الصحيفة مغبة الاستعمار وما يحيّر الفكر من أمره وتقول (١) : " هو الإنسان المصرى ، بل الرجل الشرقي ، قد اكتنفته الخطوب ، وتوالت عليه الكروب ، وعلمته التجارب ما لم يكن يعلم . " .

اذ أبصر نفسه عرضة للطامع، وبلاده فريسة فى أنياب المغتال ، فألقى السمع وهو شهيد ، ودار حول الأحوال يتأمل ، ويتدبر الظواهر والخوافى حتى ارتسمت فى مدركته الحقائق ، وبات وهو عاقل ثم أصبح وقد نبهته الحوادث فحرمت عليه المنام قبل أن يصل إلى فهم خباياها واستنباء مكنوناتها ، وأمسى سريع الشعور يرى دورة الكرة زلزالًا ، وحركة المياه طوفانًا ، فقد جعلته التقلبات إن سار التفت ، واذا رأى غير شيء ظنه رجلًا .

تأمل فى مرآة الكون فشاهد فيها وجود بلاده عدمًا ، وهمة قومه فتورًا ، ثم حوّل طرفه إلى مصر فرآها تسري على غير طريقه وتدور على غير محور وتنقاد خلف أهواء النزيل ووراء غايات من أنكرته هيئة اجتماعها ، فلبث حائرًا فى الأمر مترددًا فى المقصد ، إلى أن علم أنها معرض عام تأتى إليها الوفود أفواجًا وزُمَرًا ، السابقون السابقون أولئك المقربون " .

---

(١) البرهان ـ عدد ٦٨ فى ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٠٠ - ٣ مايو ١٨٨٣م والمقال موقع باسم (سمير) .

وبعد ذلك ترى البرهان أن كل مملكة لا يباشر أمر إصلاحها إلا حكامها والعارفون من أهلها اذ هم أعلم بما يصلحها ، وتتساءل مَنْ مِنْ دول العالم الغربي باشرت الإصلاح فى دولة أخرى؟ فذلك لم يدل عليه تاريخ ولم يعهد وقوعه فى زمن من الأزمان . أما مصر فهى ولاية عثمانية لا يزال الخطباء ينادون باسم الخليفة على منابرها ، ورغم تدخل الانجليز فيها فان ذلك لا يغيّر عثمانيتها ، ونسبة انجلترا فى مصر لا تزيد عن غيرها من باقى الدول إلّا ببعض نفوذ بسبب تدخلها فى شئون مصر ، وهذا بخلاف ما لأبناء مصر الذين منحتهم الدولة العثمانية استقلالهم الإداري وقررت لها امتيازات أثبتتها (بالفرامين) المقدسة ، فدولة تخوّل أبناء البلد كل هذه الحقوق تأبى الذمة أن تُقابل بالعقوق والعصيان ، وعلى هذا يقوم الحق لهذه الدولة ولا تُبخَس حقها وان التبس الأمر على بعض الجاهلين أو المغرضين .

هذا الاتجاه إلى التنبه بأهمية الارتباط بالدولة العلية والاشادة بمكانتها والسخرية ممن يكيدون لها بأي لون من الكيد والتحذير منهم لونٌ آخر من ألوان المحافظة على الدولة العثمانية ، وهاهي صحيفة البرهان أيضًا تحث المسلمين على المحافظة على الارتباط بالدولة العلية ، فى وقت قد ظهرت الحاجة إلى قوة الاتحاد وضرورته ، وبرزت أطماع الأمم الأخرى فى الأمة الإسلامية العثمانية وتحذرهم من هذا الاتجاه المخيف فتقول(١) : " أى بني الشرق ولا أراكم تجهلون حالكم أو تنسون ماعليكم ، كيف لا تؤدّبُكم الأغيار ولا تربيكم الخطوب ، ولا تروعكم النوازل ، وقد تقدم الناس وتأخرتم ، وأفسد الزمان أخلاقكم فأوردكم موارد الذلة والهوان . فإلى متى التنافر وعلامَ التخاذل والشقاق ؟ لا جرم أن من دقق النظر فى أحوال الدولة ومالها من الممالك والولايات لا يرتاب فى كون كل واحدة منها جسمًا مركبًا من عدة أعضاء ، ولا قوام للجسم الإسلامي إلا بسلامة أعضائه وهى فى تلك الولايات كناية عن اتحادها وطرح الدسائس الأجنبية عنها ، ذلك أن الوصول إلى أى أمر كان موقوف على التعاون والوفاق ، وبغير ذلك تسمى القوة ضعفًا ويكون القرب بعدًا . . " .

ولا ريب أن هذا الأسلوب البين قائم على العقل والحجة ليصل إلى التأكيد على حقيقة مايدعو إليه هو الغالب على من يريدون الدعوة الى حفظ الدولة وإن لم يعدموا البيان العربى فيما يكتبون ، و بالمثل عندما تتحالف

---

(١) البرهان (عدد ٦١) ٣ جمادى الثانية ١٣٠٠-٩ أبريل ١٨٨٣م مقال : القوة فى الاتحاد - بقلم أحمد سمير.

قبيلة (بنى مروان) باليمن مع خصوم العثمانيين، وتُعلن العصيان تشتد الصحيفة (البرهان) فى بيان سوء العاقبة ، وأن هذا الانفصال ناشئ عن الطيش أو عن دسيسة أجنبية خَدعت رؤساء هذه القبيلة التى سوف لا تلبث أن تصير ألعوبة فى أيدى من بَثّوا فيها روح تلك الفتنة ، علاوة على مايعقب ذلك من الذل الدائم والفقر المدقع مما لا يُحتاج فى إثباته إلى دليل .

وبعد تذكير هذه القبيلة بخضوعها لسلطان العثمانيين منذ بضع عشرة عامًا مما لا يسوّغ لها ذلك العصيان تبين "البرهان" المكانة السامية التى تتمتع بها الدولة العلية فى السياسة الدولية، إذ جعلتها على مكانة كبرى من التأثير فى السياسة العالمية" إن راحة أوروبا متوقفه على قوة الدولة العثمانية ماجعلوها سُلَّمًا يرتقون به إلى الأغراض، اذ من المعلوم أنها هى الحد الفاصل بين الصقالبة وأوروبا ، ولولا مايخشونه من بأس الدولة لسقطوا على أوروبا سقوط الماء المنهمر فجعلوا عاليها سافلها وبدلوا السكون حركة والهدوء اضطرابًا ، كما حصل منهم فى الأيام الخالية فقد صادموا الممالك المتمدنة فخفضوا من مجدها ما ارتفع، ونَكَّسوا أعلام حضارتها وتمدنها وهذا أمر لا تنكره أوروبا . . . إنّ سبب سقوط الامبراطورية الرومانية هو هجوم الجرمانيين وغيرهم عليها . . . فاذا افترضنا ان هذا الحاجز ضعفت قواه أو زال من أصله (لا أرانا الله ذلك) فان أوروبا لا تشعر إلا والصقالبة قد فاجأوها بغتة وكَدّروا من كؤوس السلم ماصفا . . " (١) .

ومكانة الدولة العلية الكبيرة إنما تنبع كمايراها بعض الكُتاب (٢) من السياسة التى اختطتها هذه الدولة لنفسها من بين الدول ، كما أن حسن سياسة القائمين بتدبير أمرها على كسب كل ماينفعها ويعلي شأنها وعلى رأسهم أمير المؤمنين الذى حمى الدولة والدين حتى مالت قلوب الرعية إليه، وانقادت لأوامره السياسية مما كان أكبر عون لأن تنال الدولة مكانتها المرموقة العالية .

وعند ما أطلت النزعات العرقية فى أواخر أيام الدولة العثمانية ظهر

---

(١) البرهان ـ العدد السابق نفسه .

(٢) انظر : المؤيد (عدد ١١٢) ٢ شعبان ١٣٠٧ - ٥ ابريل ١٨٩٠ م مقال الدولة العلية ومركزها السياسى .

من يطعن فى العثمانيين عموماً ويتهمهم بعدد من النقائض والمآخذ ، ويدل على معائبهم وسوء حكمهم وسياستهم ، لم يَرُق مثل هذا التعميم الجائر الكتاب المنصفين الذين سبروا حقيقة تاريخ العثمانيين وما أسدوه من أياد بيضاء للإسلام ، وكان شكيب أرسلان (١) مِنْ أشهر مَنْ تصدّى لتلك الكتابات المغرضة لكرامة الدولة العثمانية التى يجب أن يُعرَف لها فضلُها الكبير على الأمة ، أمّا العلل التى كانت تهوى بالأمة التركية - آنذاك - الى الزوال فانه يرشد الى أن علتها تنبع من سياسة الحكام الأتراك الجدد ، وهم الاتحاديون والكماليون .

ولا يرضى شكيب أرسلان قولاً يَذْكُر الأمة التركية بسوء فى أى وقت من الأوقات لأن الحق والعدل يقتضى ألا تؤخذ الأمة التركية بأعمال حكومتها المتأخرة الطائشة ، ذلك أن الأمة التركية تنكر من أعمال هذه الحكومة أكثر مما ينكره غيرهم عليها ، وأما من تقدم من العثمانيين فهو يشيد بجهودهم فى نشر الاسلام وخدمته ويذكر عدداً من علماء الأتراك المسلمين فى التاريخ ، اضافة الى العديد من جهود العثمانيين السامقة كانشاء المدارس والمساجد وغيرها (٢) .

ويكاد يشبه وليُ الدين يكن (٣) أميرَ البيان فى ولائه للعثمانيين والحفاظ على سمعتهم وحسن ذكرهم ، فعندما كان بمصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على العنصر التركى وتنبزه بأطراف من القول ، وهو آنئذ يكره السلطان العثماني وينقم على حكومته التى كان يراها سيئة فى سياستها وحكمها ، لكنه مع ذلك انبرى يدافع عن العثمانيين غير آبه بالأحرار اللاجئين إلى مصر خوفاً وكرهاً من السلطان العثمانى حتى قال فى حمية وطنية عارمة (٤) :" لوطني مني حياتي وكل ماكان دونها على أن أعيش عثمانياً

---

(١) انظر فصل : الكتاب المؤيدين للوحدة الاسلامية من هذا البحث ص ٢٨٤

(٢) انظر : مجلة الفتح - عدد ١٥ ذو الحجة . ١٣٥ - مقال : لا نرضى أن تقال كلمة سوء بحق الأتراك .

(٣) ولى الدين بن حسن يكن (١٢٩٠-١٣٣٩) كاتب وشاعر مجيد من أصل تركى جاء أبوه الى مصر وعاش حياته بها ، مال إلى الأدب والصحافة ، مكث بها وزار الأستانة ١٣١٦ ، ونفاه السلطان عبد الحميد إلى سيواس وبقى بها حتى أعلن الدستور فعاد إلى مصر إلى أن مات بها .
أنظر : المقتطف ٥٨ / ٣٧٥ ، الأعلام ٨ / ١١٨ .

(٤) المعلوم والمجهول - ولى الدين يكن ١ / ١٠٧ ، ١٣٩ .

وأموت عثمانياً " .

وإذا كان ماسبق ينطلق من مبدأ المحافظة على الدولة العلية فثمت من يرصد تحركات من يخططون للخروج عليها من بعض أتباعها ، ومن هؤلاء الشيخ عبد العزيز جاويش(١) الذى يتوجّس من بعض التحرّكات العربية ممن يريدون اخراج العرب عن حوزة العثمانيين ، والذين اتخذوا لذلك وسيلة أطلقوا عليها (مشروع التبشير الاسلامى) ، وإذا كانت الدوافع لأرباب المشروع هى المطامع والشهوات لأنهم حُرِموا من مناصب الدولة العالية - كمايرى الكاتب - فانه ينبّههم إلى عظيم جرمهم وكِبْر مايقترفون من سوء ، إنما يطعنون الإسلام وما يعلمون الدولة التى يكيدونها ناسين أو متجاهلين " أنّ منارها منار الإسلام القائم ، وذمارها ذماره المهيب ، وحرمها حرمه الممنوع وعلمها علمه المرفوع ، زَيّن لهم أمثالهم من الرجعيين الذين لا وازع لهم من وجدان أو دين أن يسعوا إلى تمزيق شمل الجامعة العثمانية كل مُمَزّق ، ويتراموا في أحضان الذين لا يريدون بدولة الخلافه الاسلامية خيرًا انتقامًا لأنفسهم مما نالهم من الفشل ، ولو علموا أنهم بذلك يحاربون الله ورسوله لما نقلوا لتحقيق مآربهم قدمًا ولا أجروا فيه قلمًا" (٢) .

أمّا صفة هؤلاء القوم وطريقة مشروعهم فانها جلية واضحة ، بل هى فتنة وضلالة يجدّون فيها ، "أراد أولئك النفر وهم خارجي ورجعي ودعيّ أن يكيدوا للدولة خلف ستار مشروع قَبُح باطنه بقدر ماحسن ظاهره ، وهو مشروع (مدرسة التبشير الاسلامى) .

مرحبًا بالغيورين على الدين وهم أضرّ عليه من أعدائه ! مرحبًا بأنصار الدولة وهم ألدّ خصومها ! مرحبًا بالذين أَدْنَفَهم الهوى بالخلافة الاسلامية وهم أعدائها المستترون !

---

(١) عبد العزيز بن خليل جاويش (١٢٩٣-١٣٤٧) كاتب وأديب من رجال الحزب الوطنى والحركة الوطنية فى مصر، وقد كان لكتاباته القوية ضد الاستعمار أثرها في اضطراره إلى الرحيل الى الأستانة التى بقى بها إلى مابعد الحرب الأولى، ثم عاد إلى مصر وتوفى بها ، انظر: عبد العزيز جاويش من رواد التربية و الصحافة والاجتماع/ انور الجندى/ سلسلة أعلام العرب.

(٢) مجلة الهداية (عبد العزيز جاويش) السنة الثانية ١٣٢٩/ ١٩١١م) ص٦ ٤-١ ٥ مقال : مدرسة التبشير الاسلامى ، وانظر مثله مقال آخر حول خروج محمد على باشا على الدولة العثمانية لرشيد رضا : المنار مجلد ٥ ص ١٥٩ .

لبس أولئك الجماعة لمشروعهم لبوسه ، وظهروا فى مظهرمن يغارون على الاسلام ويعنيهم ألآتقوم للفتنة قائمة ، والله يعلم ونفوسهم عليهم تشهد أنهم دُعاة فرقة وفتنة وضلال" .

واذ تبين أمر القوم وهو سعيهم لإثارة القلوب على دولة الخلافة والتعاون مع الانجليز لتحقيق حلمهم بخلافة عربية ، فلا غرو أن يُحذّر الكاتب الأمة تضليلهم الذى اتخذوه .

أمّا دعوة أرباب المشروع للعودة الى الحق والتفكير فى سوء عاقبة ما يذهبون إليه والتحذير من التعاون مع خصوم الملة والدولة الذين يسرهم هذا المشروع فلا غرو أن يبذل لهم الكاتب النصائح ويُخاطبون بما يثير مشاعرهم الدينية حتى لا يُصِرُّوا على مافعلوا وهم يعلمون .

واذا كانت مثل هذه المحاولات للخروج على الدولة مما يقودها إلى الاضمحلال كماهو معلوم فلا ريب أن قيادات الدولة وولاة الأمر عندما لا يحسنون القيام على هذه القيادة وتسوء تصرفاتهم أو تضعف حنكتهم وحكمتهم سيكونون وبالاً على الدولة ، وقد ينال الدولةَ بسببهم من وخيم العواقب مايعجز عن الحاقه بها أعداؤها المتربصون ، وخيرمثال على ذلك أن تسمع ماقاله ولي الدين يكن فى كلام حاد وألفاظ تتقد نارًا وهو يلاحظ الضعف والفساد ينهشان الأمة العثمانية نهشًا عنيفًا ، وكان ذلك بسبب قيادة الاتحاديين الكليلة ، اذ أوردوها موارد الهلاك وزَجّوا بها فى هاوية مالها من قرار. لقد هال الكاتب حَالُ السوء الذى حاق بأمته ، كيف لا وهو العثماني الصميم ، فانفجر يسجل ذلك فى مقال يلهب النفوس ويستثير المشاعر جعل وسمه (مايمنع القلوب أن تطير من الصدور) [١] ، وماذاك إلا لما بلغ منه الخوف على مصير أمته العثمانية .

بدأ كلامه بعرض الاضطراب الذى ألحقه بالبلاد بنوها دون سواهم ، وهذا الخلل فاشٍ ومتسع ، " فى أعشاش القرى ومنازل المدن أصوات تتجاوب بالعويل ، وعلى السُرر المتقابلة أجساد أُستخلصت من الموت أو كادت ، التَفّت حولها العوّاد ، وبين هذه القيامة دولة كظل الجام [٢] على المائدة ، لا يراه إلا المتثبت . تستجمع قواها لتصول صولة واحدة إما إلى حياة تستمر فيها المغالبة

---

(١) التجاريب - ولى الدين يكن ٣٦-١٠٣ .

(٢) الجام : كلمة فارسية معناها الكأس.

واما الى موت تستكنّ فيه الآمال . هذا هو المشهد الذى تتجلّى من مشاهدته دول أوروبا بنات التمدين عرائس القرن العشرين .

. . . سليلة السبعة الأعصر محتضرة ، وإنّا نراها مختلجة على مرقدها لن يضيرَ زوالها إلا العثمانيين ، هم وحدهم أولى الناس بالوجل والجزع . إن تستتم أنفاسها تقض بسنن الماضيات من الدول ، غير أن ذاك الاسم الكبير اسم العثمانية ، يبقى خالدًا مشرقًا فى أوله مظلمًا فى آخره ، ويشهد الله والناس أنه لم تمحه أكف الأعداء بل أكف بنيه . و أنه لم يُضعه إفراط الأعداء فى هجومهم ، بل تفريط الأبناء فى حَذرهم " .

امّا الاتحاديّون المفرّطون الذين لا شأن لهم وقد اتخذتهم الأمة أوصياء عليها بعد ما تنادوا بالحرية فهاهم ينهبون الأمة ويعطونها المواعيد التى هى أبعد شئ عن الوفاء ، هاهى صفاتهم وأعمالهم ، لقد أذلّوا الأمة وضيّعوها " أية أمة تطيق هذا الذل ، خمسة أعوام (١) طوال مضت وأعنّة الأمور بأيدى أناس لا ندري من أين طلعوا . فيهم الجاني والمستبد ، والمتعصب والسارق والمُفْتَهن ، أوزاع وأعناق لا تكوّن سرابًا ولا إقطاعًا ، فكيف تكوّن بناء مملكه يُراد أن يعاد بناؤها .

تَخاطفوا ما ادّخره عبد الحميد ، وتناهبوا ما علّق بأركان الخزائن الفارغة وأنزلوا الويل على رؤوس الأمة حتى استغاثت بالأغيار ، وأوقعوا فى الناصحين تقتيلاً وتعذيباً ، وصالوا على أهل الرأي يستخرجونهم من وظائفهم ، ثم فَرطوا سلك الممالك ، فتهاوت متتابعة من طرابلس الغرب إلى البلقان ، وجاءوا فى أواخر الدولة ليحرموها الموت فى دعة . أربعون مليونًا وأكثر من أربعين مليونًا ذهبًا عينًا ، لو اشترت الحكومة العثمانية بهذا المال حجارة ترصف بعضها فوق بعض لحالت دون إيغال المتغلبين فى أرضها .

أين ذهب هذا المال ، وأين بات ذلك الجيش الذى قالوا إنه فى مقدمة جيوش العالم ، أمّا الجيش الذى كان الأمل فيه أن يُحافظ على الدولة فما أبعد تصرفاته عن صونها ، لقد ساءت القيادات وكان منظم الجيش يقبع فى بيته والقائد على فراشه الوثير والناظر لم يَبدُ للأعين والقواد والجنود بين موت

---

(١) يريد الخمس سنوات الأولى التى بدأ فيها حكم الاتحاديين من ١٩٠٩ الى ١٩١٣م .

وأسر وجروح داميات، ذلك فضلاً عن تناقص أعداد أفراد الجيوش، وكأن الأمة لا تعد بالملايين " .

واذ يصل ولى الدين يكن الى هنا فى هذا الوصف الرائع والساخر من هذه الحكومة الخائنة المتهالكة ، يذكر فى سخرية مرّة خاتمة هذه الخيانة بالأمة والتأويل الذى يعتذر به الاتحاديون فى تبرير ضياع الممالك والأوطان والأمة ، وهم يسترون جرائمهم باسم الغيرة على الوطن الذى قتلوه وأنهم حماته الساهرون عليه .

" الدولة والأمة تنضخان دمًا وتتّقدان ألمًا .

نموت كرامًا أو نعيش كرامًا . ما أجمل الكلام لو قاله غير قائله . وكم من كلام حقّ يراد به الباطل ، ولا يحتاج الخادع لخدع الأمة إلى أكثر من هذا ، غير أنّا واحسرتاه نعيش أذلاء ونموت غدًا أذلاء . وتبقى تلك الأموال المختلسة من خزائن الدولة ينفقها مختلسوها فى سبيل لذاتهم ، لا يحيون الدولة الزائلة بقطرة من دمع . مافات مات . وقد قال كثيّر عزة :

فقلت لها ياعزُّ كلُّ مُصيبةٍ .. اذا وُطِنَتْ يومًا لها النَّفسُ ذَلَّتِ

الآن لما كادت الحرب تطوى شرّتها ويُدعى الى التقاضى قاتلُ الأمة وناهبها . يأتى الجانون وأيديهم تقطر دمًا ، وأكياسهم تتفجر ذهبًا يستعيدون المخادعة ليستروا تلك الآثام ثم ينادون بيننا باسم الوطن الذى قتلوه ، ونصدق نحن مايقولون . إنّنا اذًا أبعد الناس عن الصواب كلا إن اسم الوطن أرفع من أن تتماضغه تلك الأفواه ، نخشى عليه من حرّ تلك الأنفاس التى تنفخ فيه بسموم المطامع . على الأمة أن تنظر فى أمرها . لابد لهذا العبء الثقيل أن يوضع ، أفى ساعة الموت نُرَوّع بهذه الوجوه . مايمنع القلوب أن تطير من الصدور " .

والدعوات التى كانت تُظهر الولاء للدولة العثمانية وتحث على الالتزام بها والارتباط معها على أى صورة من صور الترابط والاتحاد، سواء كان فى طاعة سلطانها وولاتها أو موءازرتها ، وموافقتها فى السياسة الدولية ، أو التعاون معها على مَن يعتدى عليها ، كل ذلك يُعَدّ من صور المحافظة على الدولة العثمانية، وهذا الولاء فيما يبدو كثر ظهوره والحديث عنه فى أواخر العهد العثمانى عند

الكُتاب كلما استجد مع الأيام مناسبة لاظهاره كالاعياد وسواها .

واذا تابع المرء افتتاحيات الصحف والمجلات فى أعدادها الأولى وفى بداية كل عام هجرى يرى كثيراً من ذلك ، ولا ريب أن مصر كانت فى هذا الجانب تفوق غيرها من بلاد العرب نظراً لوقوعها تحت ضغط الاستعمار الانجليزى فضلاً عن انتشار الصحافة بها ، مما أتاح لتلك المشاعر أن تظهر للمتأملين .

هذه مجلة الموسوعات تعرض صورة من صور الولاء للدولة العلية ، إنه متابعة مايكتبه الغرب عن الإسلام وأهله والدولة العلية ومصيرها وما يبيّتونه لها . واذ تَعجب المجلة من كثرة كتاب الغرب عن الشرق والاسلام بينما أهمل المسلمون الغرب ومتابعة أحواله والكتابة عنه مع أنه يتحالف ضدهم ويدرس ويخطط لهم ، وأرباب الفكر من المسلمين مع أمرائهم لا ينظرون إلى ذلك ! أمّا حين تريد المجلة عرض جهدها فى هذا الأمر الخطير فتقول (١) : " إنى مولع بكل مايتعلق بالدولة العلية التى هى سند الإسلام وعضده ، ومركز القوة المحمدية ومحط الآمال الاسلامية ، وقد اطلعتُ كل ماكتبه كتاب المسيحية عنها وعن مستقبلها ، ولاحظت أن آراءهم وأحكامهم مشوبة بالعداوة والبغضاء ، فلا نجد منهم الا نذيراً بقرب زوال الدولة التركية - حماها الله - وسقوط السلطه السياسية للاسلام ، ولا تقرأ فى كتاباتهم إلا انذارات صريحة لمُلك آل عثمان . وقد كان كُتاب النمسا فى صدر كتّاب المسيحية وساستها ألدّ أعداء الاسلام .

ومن يراجع المراسلات السياسية التى كانت تتبادل بين مديرى السياسة النمساويه وعمالها فى الخارج من قرن مضى يرى أن زوال الدولة العلية كان عندهم من الأمور المقررة والقواعد الثابتة التى لا يصح للعاقل أن يشك فيها ولا يجوز للفطن أن يرتاب فى أمرها " .

أمّا الوسيلة التى عمدوا اليها لتحقيق نواياهم فقد " أسّسوا مبدأ الجنسيات فى إيالات البلقان ، وأرسلوا رسل السوء والفساد الى البلغاريين والصربيين والرومانيين ليسمعوهم أن كل جنس مخلوق لأن يكون أمة مستقلة وأنّ بقاء هذه العناصر المختلفة تحت سلطة الأتراك مَظْلمة هائلة ، ولم يدرِ

---

(١) مجلة الموسوعات - عدد ١٥ - غرة صفر ١٣١٧ / ٩ يونيو ١٨٩٩م الجزء ٢ - مقال : التنازع بين البقاء والفناء .

ساسة النمسا أن يد الله فوق أيديهم وأن هذه السياسة وإن كانت وخيمة العواقب على تركيا فإنها أشد وخامة على النمسا نفسها . . " .

أمّا عندما تصل المجلة الى هذه الحقيقه فانها تدعو المسلمين للاجتماع حول راية دولتهم وخلافتهم التي يخطط الأوروبيون لتمزيقها وفنائها .

والحزب الوطني في مصر يؤيد السياسة العثمانية ويحرص على رابطتها ، ويرى أن مصلحة مصر السياسية في الارتباط بالدولة العلية ، واذ أفصح رئيس الحزب (مصطفى كامل) عن هذه العلاقة الضرورية الحميمة في كثير من أقواله وكتبه، فحسبنا أن نعرض قوله وهو بصدد الحديث عن عداوة انجلترا للدولة العثمانية حيث قال (١) : " واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انجلترا للدولة العلية لا ينكره الا الخونة والخوارج والدخلاء ، فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يُدافعوا عن مُلك بلادهم بكل قواهم ، ولو تفانى الكثير منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيدا .

واجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح ، ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفي بقاء مجدها ورفعتها رفعة العقيدة الاسلامية " .

والشيخ محمد عبده ترك مقولة مشهورة في الدعوة للالتفاف والتكاتف مع دولة الخلافة ، وذلك ابّان نفيه إلى بيروت بعد حوادث الثورة العرابية حيث قال (٢) : " ان المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسله ، فانها الحافظة لسلطان الدين . . " .

وكان يرى في سلامتها حفظاً للمسلمين باعتبارها زعيمة للعالم الاسلامي والتي تقف لصد اعتداءات المستعمرين .

ومن صور المحافظة الذكية على هذه الدولة بل والعظيمة في اظهار الولاء لها تدوين تاريخها الذي يُذَكّر بمجدها وسؤددها ، وهذا اللون يمثله

---

(١) المسألة الشرقية ٢٣ .
(٢) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١ / ١١٣ وانظر ص ١٠٩ .

(تاريخ الدولة العلية العثمانية) الذى ألفه محمد فريد [١] خدمة للدولة وتنويهًا بفضلها ، وهو يفصح عن هذه الحقيقه عندما قال [٢] : "على أن الملك العثمانى قد لمّ من شعث الولايات الاسلامية ، وقطع من تقاطعها ماردّ على السيطرة الاسلامية كل السيطرة الشرقية . على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الدينى فى الممالك الأوروبية واتفقت على اختلافها وتوحّدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثمانى فأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى مهده الأول ، فحال عزمه بينه وبين مايشتهون . . . فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذبّ عن حرية الشرق والذود عن حوضها ، ولما كانت هى الحامية لبيضة الدين الإسلامى فى زمان طويل . . . رأيت من الواجب خدمة للحقيقة ونفعًا لأبناء البلاد أن أدوّن هذا التاريخ متحريًا فيه صدق الأخبار عن صحيح الروايات" .

بكل هذه المعالم المتعددة التى تدعو إلى حفظ الدولة العثمانية وكثير مما يشابهها كالدعاء للسلطان أو للدولة والتى تنمّ علاوة على الحرص والرغبة فى بقاء هذه الدولة عن التنبه والحذر الذى أخذ ينتاب الأمة الاسلامية يومئذ من مكائد الاستعمار وتسلطه على بلاد المسلمين ، اتجه الكُتّاب والمفكرون إلى إحياء الأمل فى النفوس ، يؤكدون للأمة القوة والحماية فى دولتهم العظيمة ، فحفظها والوقوف لمآزرتها هو الملاذ الذى يصح أن تنهد الأمة الأسلامية لاعلائه ، ومن ثم يتحقق لهم وجودهم وعزّهم ولا يستخفهم الأعداء المتربصون .

ج) الحث على الوحدة ونبذ التفرّق :

أمر مألوف أن يَرد في هذا البحث عَرضٌ لبعض الكتابات التى سُطّرت فى الدعوة إلى الوحدة الاسلامية بأى فهم يقصده الكتاب بها ، غير أن الدعوة

(١) محمد فريد (١٢٨٤-١٣٣٨) من رجال الحزب الوطنى فى مصر وسياسييها المخلصين ، كان مع مصطفى كامل في الدفاع عن مصر ولما توفى عين رئيسًا للحزب ١٩٠٨م ونفى ١٩١٢م واستمر فى سياحات كثيرة يدافع فيها عن قضية بلاده حتى مات ببرلين ، أنظر : محمد فريد رمز التضحية والاخلاص - عبد الرحمن الرافعى - أحد أجزاء (تاريخ الحركة القومية فى مصر) .

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد - ٤ ، ٥

الى الوحدة قد ظهرت بوادر لها فى جملة من الكتابات السابقة التى مرّت بنا فى هذا الفصل ، ولأن هذه الوحدة محور هذا البحث فانها ستأتى أيضًا وتلوح لنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة فيما سيعرض من جوانب البحث التالية بحول الله. لذا فالمترجح هنا الايجاز قدر الامكان على مايظهر لي تجنبًا للاطالة والتكرار.

واذا كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية قد اتخذت بعد سقوط الدولة العثمانية صورًا مختلفة كالدعوة لاحياء الخلافة أو الوحدة العربية، فانها قد ارتبطت فى جملتها بالدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد على وجه الخصوص، وقد استمر أيضًا بعد خلعه - وان اعتراه الضعف - إلى الغاء الخلافة الاسلامية.

بلغت هذه الدعوة المرتبطة بالدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد شأوًا عظيما لتبنيه السياسة الاسلامية بصفة عامة وتشبثه بالجامعة الاسلامية بصفة خاصة كما مر بنا ، ولا أدل على ذلك أن نجد كثيرًا من الكُتّاب والصحف والمجلات تتخذ من الدعوة الى هذه الوحدة جزءًا من برنامجها أو خطتها التى ستسير عليها ، والناظر فى الأعداد الأولى من المنار، والهلال والمقتبس وعشرات من الدوريات غيرها يتحقق له ذلك، بل إن الأمر تعدى الى الصحافة التى لا تحمل ميولاً عثمانية حتى يسمح لها بالدخول فى البلاد العثمانية أو يتلبسوا بذلك حتى لا تظهر نواياهم الأخرى التى يقصدون إليها كما نرى فى المقتطف وسركيس.

فجريدة التقدم فى بيروت مثلاً تكتب مبيّنة مسلكها الذى تجرى فيه وان كان مسلكًا سياسيًا ، حيث تشايع الوحدة العثمانية وتوآزرها كما تقول[1]: " فمقصدنا السياسى تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين ، والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاة باختلاف أحوالهم وما يعتقدون ، ولنا على ذلك حجة بالغة ، وعلى منفعته دليل صريح ".

أمّا لماذا اختارت هذا الاتجاه، وما فائدته التى تراها نتيجة هذا التوجه ؟ فهو أن " الوحدة العثمانية واجبة لأنه لابد للأمة المختلفة الأصول

---

(١) الدّرر- أديب اسحاق ٣٧١- وانظر أيضًا منهج جريدة (مصر) التى أنشأها أديب اسحاق فى المرجع نفسه ١٠٧-١٠٨.

من وحدة تجتمع الكلمة عليها ، ورابطة توءلف بين القلوب ، ومركز تنتهى إليه خطوط القوى .

وليس للأمة الداخلة تحت النسبة العثمانية من جامعة ممكنة غير تلك الوحدة المذكورة ، فانها موجوده والموجود لا يُترك للمفقود ، ثم إنها متصلة الحاضر المنظور بتاريخ قديم مذكور وهى صفة لا بد منها ولا غنى عنها فى قيام الدول .

وهذه الوحدة نافعة لما يلزم عنها من بقاء الاستقلال ، والاستقلال حياة الأمم ، ولأنها اذا اخلصت على الوجه الذى نتصوره من الصفاء والسواء كانت سبباً قريباً فى زوال الإحَن والعداوات، وتألف بين القلوب والأفكار فيقوى بها جانب الدولة ، ولا قوة لها من غير هذا الباب " .

واذا اتجهتَ إلى الكتابات النثرية المتفرقة التى ينهج أهلوها الدعوة الى الوحدة مطلباً فهى كثير ، وبكل عصر ومصر ، ففى الجزائر بشمال افريقيا نجد أحد كتابها يهيمن عليه الاهتمام بجمع المسلمين ووحدتهم حتى أطلق عليه بعض الدارسين (١) (رائد الدعوة الى التضامن الاسلامى) أى فى الجزائر ، الا وهو عمر بن قدّور الجزائرى (٢).

أمّا خلاصة تصوّره لهذا التضامن فقد كانت حال المسلمين الممزقة من أعظم باعث على ذلك ، حيث " إنّ كل مسلم فى هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة . بل هو تركي ، أو عربي ، أو بربرى ، بحسب العناصر ، أو مغربي أو جزائري أو تونسي أو سوري أو مصري ، بحسب الأوطان ، ذلك التنافر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التى كانت تربط كل مسلم بأخيه ، وان كان احدهما بأقصى الشرق والآخر بأقصى الغرب . . . " (٣)

وبعد أن بين أن سبب ما أصاب الأمة انما هو عبارة عن نسيان لأهمية

---

(١) انظر : مجلة الأصالة (الجزائر) عدد ٥٨-٥٩ رجب وشعبان ١٣٩٨ - يوليه ١٩٧٨م - مقال : رائد الدعوة الى التضامن الاسلامى عمر بن قدّور الجزائرى - د . محمد ناصر ، وكانت كتابات ابن قدّور فى مجلة كان يصدرها بالجزائر ١٩١٣م اسمها (الفاروق) .

(٢) انظر : فصل الكتاب الموءيدين للوحدة الاسلامية . ص ٣١٨ .

(٣) مجلة الأصالة (الهامش (١) نفسه ص ٥٥-٥٧ .

نفوسهم نتيجة ما أحاط بهم من هول الجهل وتسلط الأجنبى ، يبين دواء المسلمين وأنه فى إصلاح حالتهم الروحية وتنظيم هيئاتهم الاجتماعية ، ثم يدعو إلى ضرورة الوحدة الاسلامية ، ألا وهى أخوّة المسلمين قبل كل شىء "تلك الرابطة هى قوة روحية اذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يَحِنّ إلى أخيه حنواً[(١)] لا يرى به عند أخيه عيباً ينكره عليه ، أو شذوذاً يخذله بسببه.

رابطة حث عليها الاسلام قبل أن يحث على الصلاة والصيام ، فأصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين ، وقلوبهم صخور مرصوصة إلى بعضها يتألف منها سور ضخم لا تهزّه زوابع الشقاق ولا تمسه أمواج التخاذل".

واذا كان ضعف الحياة الروحية وذهول المسلمين عن أنفسهم مما فتح باب الفرقة بين المسلمين فان مصطفى كامل يرى بنظره البعيد أموراً أخرى أضعفت الوحدة الاسلامية ، فهو يرى عدم توحيد الدين فى الدولة العثمانية وأخذها بالحرية الدينية للشعوب التى تحكمها قد أوقعها فى كثير من الشدائد والأهوال ، أضاعت من أجلها ثمرات فتوحاتها وانتصاراتها الباهرة ، وفوق ذلك فإن مدارس التبشير التى تعجّ بها حواضر الدولة كلها ترمي الى بذر عداوة المسلمين فى قلوب أبناء الملل الأخرى.

واذ يؤكد هذه الحقيقة بنقل أقوال كاتب انجليزى كتب عن (أمريكا فى الأستانة)[(٢)] اذ " انّ كلية (روبرتس) هى التى أعدت لبلغاريا كبار ثوّارها وهى التى ربّت أبناءها على كراهية المسلمين وعرّفتهم أساليب الخروج عليهم وأفهمتهم حقوق الصليب وواجباته ضد الهلال".

فاذا كانت أمريكا تعمل ذلك - وهى أبعد الدول - فلا شك أن غيرها يبذل أضعاف ذلك ، ومن هنا يدعو مصطفى كامل إلى بعض وسائل يراها تُعَدّ مُهمة فى تحقيق الوحدة للأمة ، ومن ذلك انشاء مدارس تُربّى فيها ناشئتها وتجلب ناشئة المسيحيين إليها حتى تربيهم تربية عثمانية ، ولا يكون ذلك إلا اذا كان التعليم بلغتها ، فان نشر اللغة من أنفع الوسائل فى تحقيق أهداف الدولة

---

(١) حنّ مصدرها حنيناً ، وحنا مصدرها حنوّ ، وقد استعمل الكاتب مصدر رحنا مكان مصدر رحنّ.

(٢) اللواء ٧ أكتوبر ١٩٠٣م نقلاً عن : أدب المقالة الصحفية فى مصر ٥ / ٢٢١ - ٢٢٤.

كمايرى أن على الخلافة أن تجدّ في جمع المسلمين ، ولا يتحقق لها ذلك إلا بجعل لغة القرآن في مدارس الدولة أسوة باللغة التركية كما تفعل دول أوروبا .

وبذا يندفع عن المسلمين الاغتراب الذى يحسه المسلم من غير الأتراك عندما يقدم إلى دار الخلافة ، فضلاً عن تلقين الناشئين حقائق الاسلام وأمجاد تاريخ أمتهم ، ومن هنا لا يُضيرّ الأمة العثمانية من يرميهم بالتعصب ان فعلوا ذلك ، "بهذا - لا بسواه - تبلغ الدولة غايتها ، وتحارب أعداءها بالسلاح الذى حاربوها به السنين والأجيال ، وتحقق رغائب المسلمين فى الحال والاستقبال ، ولعمرى إن الساعة الحاضرة فى تاريخ الاسلام ودولة آل عثمان لساعة إنذار وإخطار ، والأمل وطيد فى أن القائمين بأمور الدولة يسمعون صوت الزمان والمكان ، ويعدّون للمستقبل ما أهمله السالفون للحال ، ويدركون أن مسألة التربية وتأثيرها على حياة الأمم هي أهم الوسائل التى يجب عليهم النظر فيها .

وإنه اذا كانت فرنسا وانجلترا اهتمتا به مرّة يتحتم عليهم الاهتمام به ألف مرّة ، لكى نبرأ من ذلك الداء العضال ، ويحيى بيننا عصر الآمال والأعمال"(١)

لا ريب أن تكون قيادات المسلمين وحكوماتهم المتعددة أعظم من يُسأل عن وحدة المسلمين وتعاون شعوبهم ضد ماتدبره الأمم الأخرى لهم من كيد ومكر ، أمّا حين تتقطع السبل بهذه الحكومات والقيادات فلا تعدم أن تجد كاتباً يدعوها إلى التعاون الإسلامى بين العرب وإخوانهم المسلمين(٢) .

وينهد كاتب آخر ينعى على الأمة الاسلامية قياداتها الرخوة وسياساتها المستكينة وإراداتها المعطلة ، واذا يخص الكاتب مصر - لوضوح الخلل بها - يذكر بنشاطها السياسي فى الشرق ، إنها مع جاراتها فى تدابر وخاصة فى التمثيل السياسى ، وهو أقل ماتفرضه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من تواصل ومجاملة ، والعجب أن مصر تسخو على تمثيلها فى الخارج - آنذاك - وتكاد تنكره فى الشرق الاسلامى ، ولقد أدى ذلك إلى عدم إرسال سفراء لتلك الدول فى مصر ، وماذا بعد هذا ؟

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر ٥ / ٢٢٤ .

(٢) انظر: مقال : التعاون الاسلامى - كتبه حامد صادق - جريدة أم القرى (مكة) عدد ٦٥٣ سنة ١٣٥٦ / ١٩٣٧ م .

ان الاستعمار يتربص بالعالم الاسلامى ليفترسه ، وهو ان لم يكن متعاونا ومتحداً وقع فى فخه وناله الهوان والخسران (١) .

ان الذى ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا فى هذه الوحدة التى يدور القلم حولها أن نعلم أن وحدة الأمة الاسلامية فى أواخر العهد العثمانى تعرضت لهزات عنيفة ترجع فى جملتها الى سوء سياسة الاتحاديين ، ومن جملة تلك السياسة الخرقاء تبنّيهم تتريك الشعوب الإسلامية وفرض اللغة التركية فى الولايات العربية إلى جانب الأحداث السياسية المؤلمة التى ذهبت بأجزاء من بلاد المسلمين فى فترة حكمهم ، وآنئذ بدأ التناوش بين العرب والترك، فحميت العنصرية وتعالت العصبية الجاهلية بين القوم ، وقد اضطر ذلك الكُتّاب المخلصين لرأب هذا الصدع واغلاق بابه وشلّ عقاربه ، فذا الشيخ مصطفى الغلاييني (٢) من بيروت يتصدى لهذه الزوبعة الهوجاء مراراً ، ليجعل من الأمتين جسمًا واحدًا ، " إن حياة الأمم حياة أفرادها ، ولا قيام لأمة إلا متى كانت أفرادها متضامنة متكافلة ، حيث يشعر كل فرد بما يشعر به الآخر ، يألم لألمه ويُسّر لسروره ، هذه هى الحياة الاجتماعية الراقية ، وتلك هى الأمة التى يُرجى لها أن تطول السماكين عزّاً وشرفاً (٣)" .

وإذ يُقرر الكاتب هذا المبدأ فى حياة الأمة التى تنشد الرقي يذكّر الأمة العثمانية بما كانت تعانيه من عقبات حالت دون تآزر شعوب الأمة وتضامنها ، فقد جاء الدستور ليقطع العوائق ويفتح باب الألفة والإخاء " فأى عذر تعتذرين ؟ وبأية حجة تتمسكين ؟ ماذا يمنعك من ضم أجناسك ولَمّ شعثهم ، ماذا يحول بينك وبين التأليف بين عناصرهم والجمع بين متفرقهم ؟ وقد نلت الدستور الذى ساوى بين العناصر وآخى بين الشعوب فهلاّ عقدت على

---

(١) انظر: الرسالة ـ السنة الثانية ١٣٥٤ / ١٩٣٥م ج ٢ ص ١٣٨١ مقال: مصر والشرق الاسلامى ـ أحمد حسن الزيات .

(٢) الشيخ مصطفى بن محمد الغلاييني ـ كاتب وشاعر وخطيب ومن أعضاء مجمع دمشق اللغوى ، مولده ووفاته ببيروت وقضى معظم حياته فى التعليم ببيروت وغيرها وشارك العثمانيين خطيبًا للجيش فى الحرب الاولى وكان آخر حياته رئيسا للمجلس الاسلامى فى بيروت وقاضيًا بها ، انظر: مجلة المجمع العلمى العربى ٢٠ / ١٩٠ الأعلام ٧ / ٢٤٤ .

(٣) أريج الزهر ـ مصطفى الغلاييني ٢٢٤ ، وانظر أيضًا مقال : العرب والترك ٢١٤-٢١٨ .

النهوض والألفة الخناصر، وربطت على جمع الكلمة الأواصر".

وبعد أن ينبه على دعاة الفتنة ومايريدونه من سوء بالأمة يناشد أفراد الأمة وعقلاءها ألا يصغوا آذانهم لمفرقي العرب عن الترك ، فما بينهم من رابطة الدين قد وضعها الله لهم، وذلك مالا يستطيع بلوغه الكائدون "الأمة العثمانية جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وإن مَن يَسعى بتفريق العناصر والأديان فانما يسعى لخراب المملكة واضمحلال الأمة".

واذا كان الغلاييني تمتزج أفكاره بالمشاعر الدينية فان ولي الدين يكن حين يتعرض لما أخذ يدب فى المجتمع من الطعن على الأتراك يتفجر وطنية ، ويثور حمية تركية لبني قومه ، إنه لا يتعصب للدين ولا للجنس، ولكنه يُحب جميع العناصر العثمانيه ويكره أن يعتدى أحد على آخر، أما حين يُنَال من قومه فانه يرد مقتديًا بالشاعر القائل :

"مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا . . لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم . . وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا"

ثم يقول (١) : " شهد الله وكل عثماني حُرّ قرأ لى شيئًا أنـي لا أتعصب للدين ولا للجنس . أنا تركي وأبغض عباد الله إليّ تركي يعتدى ، أُحب العناصر العثمانية كلها ، وآخذ بناصر المستضعف منها . ثم أحب العرب حبًّا خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق ، وأنا عربى الأدب والقلم ، عربي النزعة ، ومن أبغض العرب فأنا مبغضه ، أولئك إخوانى الذين أغنيهم فيطربون وأحدّثهم فيُقبلون علي بالسمع ، هكذا عهد العرب الكرام بأخيهم هذا غير غير أني لا أكذبهم أنى لا أحب من لا يحب الترك ولا من يكون لهم عدوًّا ، وكذلك العرب لا يُحبون من لا يحب إخوانهم واذا جرى بين العرب والترك شر أكون بمعزل عن كليهما ، داعيًا عليهما بالفشل جميعًا ".

بكل هذه الحالات التى تدعو الى الوحدة الاسلامية وتنبذ التفرق أو تحاول أن تدعو المسلمين إلى الالتفاف حول الخلافة العثمانية ، يتجلى لنا أهمية هذه الدعوة واسهامها فى مضمار الوحدة التى تسعى لها الأمة الاسلامية رغم ما يعترضها من عقبة كأداء.

---

(١) الصحائف السود ـ ولى الدين يكن ـ ١٠٧

د) وصف دار الخلافة :

يحفل الأدب العربى الحديث بروائع كثيرة مما يمكن أن يُسمى (أدب الرحلات) والتى يراد بها تلك الصورة الأدبية الممتعة التى صوّرها وسجلها كثير من أدباء العصر عندما قاموا برحلات وأسفار إلى نواح من الأرض شتى ، وسجلوا فيها أحاسيسهم ومشاعرهم فضلاً عما يضعونه أمام القارئ من وصف بارع لما استمتعوا بروئيته من معالم وآثار وحضارة فيما مرّوا به من البلدان .

ومن عَجَب أن هذا اللون الأدبي الرائع لم أجد من اهتم به وخصه بالبحث والدراسة رغم كثرة الدراسات التى تناولت الأدب الحديث، وهو فى نظرى قمين بدراسة تُحييه وتجلّى معالمه ، مما يضفى على أدبنا العربى روعة ومتعه بجوار ماتمنحه من ثراء وجمال ربما سدّ به ثغرة يُدفع بها اتهامه بالقصور والرتابة . والذى يبدو لى أن الاهمال الذى لحق هذا اللون الأدبى ربما يرجع الى قلة الدراسات التى تصدّت للنثر العربى الحديث اذا قيست بمثيلاتها فى الميدان الشعرى .

ووصف دار الخلافة هذا قد تراه فى شىء من أدب الرحلات ، كما تجده أيضاً مستقلاً عند أى كتابة أخرى ، ولكن الذى يلاحظ هو وفرة الكتابات التى طرقت هذا الوصف - كما سنرى - مما يحدو بالمرء الى الكتابة عنه بعد أن طال العهد بهذه الكتابات دون أن تنال أدنى عناية تستحقها . ومع هذا فيجدر بنا هنا أن نشير اشارة موجزة تومىء الى الباعث وراء هذه الكتابات لعل فيها مايعلمه المسلم المعاصر كم خسرت أمته بعد أن قوّضت دارخلافتها فعاشت شعوبها أوزاعاً لا جامع لها بعدها رغم كل الجهود التى تُبذل لجمع قوى الأمة من يومها إلى الآن . ان دار الخلافه على الرغم من أنها لم تأخذ مكانتها فى الأمة الاسلامية إلاّ لأن خليفة الأمة يُقيم فيها ويتخذها مقرًّا لحكومة المسلمين ، غير أن هذه الدار بمرور الزمن ومنذ العهد الأموى فى أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجرى بدأت تتخذ طابعاً حضارياً ذا جوانب متعددة بجانب الخليفة، أخذت فى تكاثر سكانها وكثرة عمرانها وكثر الاحتكاك والتبادل بينها وبين مواطن التجارة من حولها ، وغدت بعد ذلك دار تجارة وحركة علمية تعجّ بالعلماء والطلاب من مختلف الجهات ، وبمرور الزمن وانفتاح زهره الحياه الدنيا على المسلمين بدأت تأخذ دار الخلافة

بالنظم المخططة لبنائها وموقعها والحرص على التنظيم والعناية بمرافق الحياه الأخرى حتى يتوفر لهذه الدار من الأمن والرقي والرخاء ، مايضفى على الحياه فيها نعمة وحبورًا ، ولا تصل إلى العهد العثمانى إلاّ ودار الخلافة أعظم ولاية فى الدوله الاسلامية ، وهي أيضًا أفضلها تطورًا حضاريًا بجميع جوانب الحضارة من علمية واقتصادية وثقافية ، وكانت فوق ذلك ذات مكانة عسكرية لما تحويه من عساكر أو ما يُقام حولها من ثكنات عسكرية متعددة تكون فى الغالب على استعداد كلما لاح خطر أو ثارت ثائرة تعكر صفو الحياة .

إنّ دار الخلافة فى تاريخ المسلمين أسدت للأمة خدمات جُلّى فهى فضلًا عن حمايتها للإسلام باكتنافها لخليفة المسلمين هى التى حفظت كثيرًا من تراث الأمة فى الغالب للأجيال المتعاقبة ، أمّا أفذاذ الرجال وأعلامهم الذين يزهو بأكثرهم تاريخ الأمة فيغلب عليهم أن يكونوا قاطنيها أو ممن ترد د عليها ، أما جوانب الحياة المادية التى تنمّ عن رقى الأمة وأخذها بأسباب الحضارة والمدنية فلا يُنكر ما حفلت به أكثر دور الخلافة منها ، وعلى صفة خاصة حين يكون ثمة خلفاء وأمراء يسرفون فى تعاطي هذه الأسباب ويتباهون فيها ، وحسبنا من مآثر طليطلة واشبيلية وغرناطة فى بلاد الأندلس خير دليل فى هذا المجال .

لكل ذلك ولغيره من المعانى الأخرى غدت دار الخلافة فى ذهن الأمة هى قوة الاسلام وحضارته وسوءدده ، وهي المَعْلَمة التى تُفاخر بها الأمةُ حواضر الأمم الأخرى ، ولأنها أول مكان تثار فيه أغلب أمور الدولة وتتجلى به حوادثها وأخبارها فلا غرو أن تبقى فى الأنظار مصدر إشعاع وتوجيه تُتَلقّى منه الأوامر والأخبار وسواها .

واذا رجعنا إلى القسطنطينية ـ دار الخلافة التى نريد ـ فقد كانت على مكانة عظيمة من الأهمية من قديم الزمان . اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم أحقابًا عديدة ، والمسلمون غزوها فى وقت مبكر من أواخر القرن الأول (٤٤ هجرية) وتنبهوا لمكانتها العظيمة التى تتمتع بها ،وموقعها الخطير الذى تتربّع عليه.. ورغم جهادهم الذى كاد لا ينقطع لمحاولات فتحها إلا أن حصانة موقعها أعيتهم قرونًا عديدة أن ينالوا منها . واذ جاء السلطان العثمانى الفذ محمد الفاتح ،ويجدّ بكل ما أُوتى لفتحها يَمُنّ الله عليه بهذا الفتح

المبين سنة ١٤٥٣/٨٥٣م ، وبفتحها تحقّق للمسلمين ما كانوا ينتظرون من نصر الله واعزاز دينه (١) ، وتهيأ للعثمانيين بهذا الموقع الجديد ميدانًا جديدًا لنشر الاسلام وطريقًا للدخول إلى أوروبا التى استعصى عليها الدخول من شرقها ، ومن هذه العاصمة دوّى الاسلام فى بلاد لاعهد لها به، وبلغت عزة الاسلام أن أُلجمت دول أوروبا مئات السنين أن تُطاول على دولة الإسلام. يقول الأمير شكيب أرسلان مبينًا أهمية تلك المدينة (٢) : " لم يملك الإسلام في الحقيقة بلدة أجلّ منها ، ولا خطة أهم موقعًا ، ولا مدينه أصلب نجعة . . . . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى فى المعمورة، واقعة بين البحرين الأبيض والأسود ، وواصلة بين البرين آسيا وأوروبا ، أمامها بوغاز (خليج) ووراءها بوغاز ، من ملكها فقد تبوأ ملكًا كبيرا وكرسيًا عاليًا منيفًا ، ومن شرقيها البوسفور ومن غربيها بحر مرمرة المنتهي بمضيق الدردنيل واذا تحصن كلّ منهما كما يجب أصبح العبور منهما فى حكم المستحيل" .

والكتابات التى تطرقت لوصف القسطنطينية - دار الخلافة - وان دارت فى جملتها حول هذه المدينة الا أن كلًا منها يصوّب وكده تجاه بعض المعالم أو الأجزاء الرائعة التى توجد بها وتحتويها . وما تحويه القسطنطينية من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والثكنات العسكرية ، وما تزخر به من مناظر خلابة وآثار تاريخية وما تحفظ متاحفها ومعارضها وخزائن مكتباتها ومشاهدها من الكنوز والروائع والنوادر والنفائس مما لا يحتفظ به غيرها ، ولا يزهو بمثل بعضه كثير من حواضر العالم وأمّهات المدائن (٣) ، وكل ذلك مما يستحق التأمل ويثير الدهشة ويبعث على الاعجاب والاشادة بتلك المآثر الخالدة .

انظر إلى هذه الكاتبة التى تزور القسطنطينية فى أوائل القرن

---

(١) جاء فى الحديث الشريف "لتفتحنّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش" رواه السيوطى فى الجامع الصغير.
وانظر فى حصار المسلمين للقسطنطينية وفتحها : حاضر العالم الاسلامى ١/٢١٤ ومابعدها.

(٢) حاضر العالم الاسلامى ١/٢١٩.

(٣) انظر فى ذكر هذه المعالم : حاضر العالم الاسلامى ١/٢٢١ وما بعدها ، مجلة الهلال - جرجى زيدان مجلد ١٨ (١٩٠٩م) مقال الأستانة العلية - الصفحات ٣ ، ٦٧ ، ١٣١ .

الرابع عشر الهجرى (١٣١٧م) وهي (الكسندره افرينوه) بعدما طافت بباريس قرابة شهر، ورأت من جمال عاصمة الفرنسيس - وهى من أجمل بلاد الممالك الأوروبية - ماخالت ألا ترى بعده أعظم ولا أجمل منه، ولكنها عندما تصوّب دار الخلافة تتغير الفكرة لديها، وتعجب مما أخذ بلُبّها فى عاصمة العثمانيين، إنّها تقول وهى تصف حال فراقها لباريس(١)" ولقد أقمت فى باريز مدة شهر بين مثل هذه الخدم أقضيها (تريد اداءً لحق الخدمة عليها) وبين محاسن آثار وأعمال أُمَتّع العين فيها، حتى خرجت منها خروج آدم من الجنان، وفارقتها مفارقة المتنبى لشعب بوّان، وجدير بمن لَقيتْ من فضليات باريز وفضلائها ما لقيتْ أن تُزايلها على أسف، ومن شهدت ذلك البلد العظيم ومعرضه الجليل أن تتركها على لَهَف".

فماذا عسى أن تكون دار الخلافة بعد هذا الحزن على فراق باريس وأهلها؟ لقد " هجرتُ باريز إلى الأستانة العلية دار الخلافة العظمى، وانتقلت من المنزل السامي إلى المنزل الأسمى، فكان مَن فارقت غيرَ مُذَمّم، وكان من يَممت خيرَ مُيَمّم، لقد رأيتُ الأستانة العلية ومارأيتُ الا مدينة المجد والسيادة وحللت القسطنطينية وماحللت الا دار السعادة، واذا كانت الطبيعة قد كست باريز أجمل ماكوّنته يد الصانع الحاذق، فلقد خلعت على دار السعادة أجمل مانسجته يد العظيم الخالق. فهناك تتمتّع العين بأسنى ماتجلوه الأرض من الزخارف، وهناك تجر الطبيعةُ أنفسَ ماحاكته من البرود والمطارف، فاذا شئت ملأت العين من جمال البوسفور بما يملأ النفس من المسرة والابتهاج، واذا أردت وجدت الجزرَ منتشرةً بين تلك الأمواه كأنها قطع الزمرّد قد نشرت على أزرق الديباج، وعلى الجملة فان محاسن الطبيعة هناك مما لا يفيده حصر، ولقد اشتهرت تلك العاصمة بالجمال وماحُسن الأستانة بسِرّ".

ومحمد توفيق البكرى - شيخ مشائخ الطرق الصوفية بمصر - قد كتب عن جملة من معالم دار الخلافة، فهو فى وفادته إليها بعد أن يصف البحر والسفينة التى حملته إليها تجده يصف خليج البوسفور على طريقة كتاب السجع الأقدمين ومجاراة لكتاب عصره مع إيغال كبير فى محسنات البديع فيقول(٢) : " برّ حوّ تلاعه، خضر آكامه وأجراعه، مُعشِب مَحَاجره، مُنبثق بالمياه مفاجره،

---

(١) مجلة أنيس الجليس - السنة الثالث (١٣١٧ / ١٩٠٠م) ص ٣٢٦، ٣٢٧

(٢) صهاريج اللؤلؤ ٢١-٢٣.

يشق خليج كأنه سيفٌ مسلول ، أو سجنجل مصقول ، وعلى شاطئيه قرى ودَساكر ، ورساتيق ومقاصر ، وقصور بيض على الخضراء كالنجوم في السماء ، أو أشرعة فلك في ماء " (١) .

أمّا منظر هذا الخليج حين تميل الشمس للغروب وقد تسلّل شعاعها بين تلك المباني والأشجار على شاطئه وقد عكس الماء صورتها ، عندئذ تخالك " أبصرت في الماء قُبُبًا من ذهب ، وأهلّة من لَهب ، وكثبان من زمرّد ، ووديان من زَبرجد ، وجبالاً وأفياعًا ، وحصونًا وقلاعًا ، وسِدْرًا و دُلّاعًا ، وسقوفًا من جوهر وعمدًا من مرمر ، وصرحًا من قوارير وتماثيل وتصاوير (٢) ، ودورًا وحورًا ، ونارًا ونورا وحللاً تُطوى وتُنشر ، وسيوفًا تُغمد و تُشهر ، وأقمارًا تُصاغ وتُكسر ، فكأنما تَقرأ في البرّ قصيدة من شِعر ، وتَنظر في البحر قاموسًا من سِحر" .

أمّا الجزء القديم من القسطنطينية فلا يفوته تصويره على حال المدن القديمة التي لا تنظيم فيها ولا تخطيط ، مع وفرة الطرق الضيقة والأطلال الآيلة للانهيار ، إنها تلوح " كأنها جبل ذو طول وعرض ، أو غمام مطبق على الأرض ، وكأن مآذنها أجمة من القصب والأسَل ، بأعلى الجبل ، فاذا دخلتها وجدتها واسعة الرقعة ، جديدة البقعة ، فرأيت اختلافًا في البقاع وتباينًا في الأوضاع اذ ترى القصر ذي الشُرّفات من سنداد ، والجوسق كأنه إرم ذات العماد ، بينهما دورًا كنافقاء اليَربوع ، أو الأطلال البالية في الربوع ، ويتخلل المدينة طرق بعضها كأفاريز البساتين ، والبعض كرؤوس الشياطين ، وفيها أسواق كل سوق أضيق من جِحاظ وأحفل من عُكاظ ، لا تزال تفهق بطُرف الهند ، ومُلح فارس والسند وتُحَف فرنجة والتركمان ، وأفلاذ البحرين وعمان " (٣) .

---

(١) حوّ : خضر ، التلاع : جمع تَلعة : وهي مسيل الماء من أعلى الوادي إلى أسفله . الأجراع : جمع أجرع ، وهو الرملة الطيبة المنبت . المحاجر : الحدائق ، منبثق : متفجر . المفاجر : مواضع انفجار الماء .

(٢) الكُثبان : جمع كثيب وهو التل من الرمل ، سمي بذلك لأنه انكثب ، أي انصب في مكان فاجتمع . الأيفاع : جمع يفع ، وهو التل ، الدّلاع : بزنة الرّمان ضرب من مَحار البحر . الصرح : القصر أو كل بناء عال ، القوارير : أوان من زجاج في بياض الفضة .

(٣) الأجمة : الشجر الكثيف الملتف ، الأسل : نبات ، الرقعة : القطعة من الأرض ومثله البقعة ، القصر ذي الشُرفات من سنداد : اسم قصر بالعذيب وقيل من منازل إياد أسفل سواد الكوفة . الجوسق : القصر =

ان الشيخ البكرى قد تعرض لجوانب أخرى من مدينة القسطنطينية وهو يتفق بعد ذلك مع الشيخ حسن العطار[١] الذى وصف منتزهات القسطنطينية وغيدها الحسان [٢] ، واتفاقهما فى الفكرة لا يخرج عنه اتفاقهما على الأسلوب السجعي الذى كان له عندهما مكانة كبرى ، تتفق وروح حياتهما العلمية التى درجوا عليها .

وهناك كاتب يقف قلمه على آثار الأستانة ، أسوارها ومساجدها وقصور سلاطينها ومدارسها ، ولا يفوته أن يمزج وصف هذه الآثار بتاريخها الذى مرّت به ، ولا يهمل الآثار البيزنطية ليجلّى الآثار الاسلامية بل يعرض لهما معاً ، فهو يقول [٣] : " أقف اليوم على عتبة الأستانة بين آثار السلاطين العظام ، وتلك الخرائب القديمة التى تمثل عظمة البيزنطيين ، فأبصر من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنه من أعجب آثار الدنيا ، بل أقف (على) تلك القصور الجميلة المشرفة على البوسفور واستقرى الأماكن المشهورة بها وعيثُ عنها من الأنباء وأحسن ما استظرفت منها . تلك الأسوار الهائلة ، وذلك المسجد الأثرى الخالد (أيا صوفيا) وكلاهما له فى التاريخ ذكر مجيد . . . " .

وحسبك وقفه الكاتب مع تلك الأسوار التى شاهدها بين قائمة ومندثرة ، حيث تستولى عليه فكرة الحيطان المنيعة فى وسط صحارٍ قفراء ، إنها غارات الشعوب العديدة واتقاؤها بهذه الأسوار غائلة المعتدين ، وبعد أن

= النافقاء : إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها فاذا أُتى من جهة (القاصعاء) الجحر الظاهر مدخله ، ضرب النافقاء برأسه ونفق منها . الأفاريز : جمع إفريز وهو من الحائط طرفه والكلمة فارسية معرّبة ، حِجاظ : محجر العين ، تفهق : تملأ ، الطرف : جمع طُرفة ، وهى الغريب المعجب والمستحسن .

(١) الشيخ حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠) عالم مصرى له إلمام بعلوم كثيرة وخاصة الأدب ، عاش فى عصر محمد على باشا وتولى تحرير (الوقائع المصرية) وولى مشيخة الأزهر حتى وفاته . انظر : تاريخ آدب اللغة العربيه لجرجى زيدان ٤ / ٢٢٢ ، الخطط التوفيقية ٤ / ٤٨ .

(٢) انظر : انشاء العالم حسن العطار ٧٤ ، ٧٥ ، وصهاريج اللؤلؤ ٣٣ ، ٣٧ .

(٣) مجلة رعمسيس - مجلد ٢ - ج ٧ يونيه ١٩١٣ م ص ٥٥٩ - ٥٦٤ بدون اسم الكاتب .

يذكر طرفاً من جهود البيزنطيين في إقامة هذه الأسوار المنيعة يعرّج على كفاح السلطان محمد الفاتح الذى دك هذه الأسوار التى استعصت على كل من سبقوه، ويذكر بعض عجائب هذا الفتح ثم يقول عن هذه الأسوار: " فى تلك العزلة حول تلك الأسوار يتمثل الانسان تاريخ كفاح الشرق ضد الغرب، فلقد طالما ارتوى ذلك الخندق بدماء الانكشاريين وهو اليوم منبت الأعشاب الخضراء السندسية. وطالما هُوجِمت تلك الأسوار وغلبت وهى اليوم مسرح الجراذين والحشرات، الخرائب فى كل مكان، والأطلال فى كل صوب، هنا أحجار مكدّسة وهناك رسوم مندثرة . . " .

واذ أُشيع نقل هذه الخرائب وإزالة حجارتها يصرخ الكاتب ويمتعض معارضاً لهذا الرأى حتى لا تُهتك حرمة هذه الآثار التى يجلها الكاتب فهو يقول عنها " تلك الحصون مقدسة وليست ملكاً لأمة بل ملكاً للانسانية، وكلّ أمة قد تركت آثاراً هناك، وكل أمة وطئت ذلك المكان بأقدامها ظافرة أو مغلوبة فما هو إلا مدفن التاريخ وفيه من المجد ما يحول دون جعله هباءً منثوراً .

إنه بحجارته المتقدمة أكثر حياة من تلك الحوادث التافهة التى تنقلها الينا الصحف كل يوم. وهو تحت الشمس الناشرة عليه أعلامها والباعثة فيه الحياة أثر ماض مقدّس لا يُدنس ولا يُمسّ " .

وأخيراً نجد محمد حسين هيكل (١) يكتب عن دار الخلافة وقد مرّ بها فى طريقه الى باريس ويعرض ما يظهر من الأستانة لمن يدخلها من خليج البوسفور، ومع ذلك فهو يستوحى عظمة الإسلام حول تلك المدينة ويشيد بحسن المناظر التى تبهر القادمَ إليها وهو على مقربة من نزوله بها .

أمّا الدردنيل عنده فهو آمن وأمواجه هادئه بعدما كان جحيماً تستعر يوم حاول الحلفاء فى الحرب الأولى الوصول إلى دار الخلافة، فأصلاهم الأتراك فيه ناراً حامية حتى رجعوا عنه .

أمّا الأستانة فيقول الكاتب (٢) " القسطنطينية - بل استغفر الله - أستانبول فذلك هو الاسم الذى قصره الأتراك على هذه المدينة القديمة بعد

---

(١) انظر: فصل : كتاب التيار المعارض من هذا البحث.

(٢) السياسة الأسبوعية - عدد ٨٢ - أول اكتوبر ١٩٢٧م .

ظفرهم الأخير، وبعد نقلهم عاصمة ملكهم إلى أنقرة (١) .

أستانبول وماحولها هى مدخل البوسفور. مدخل هذا البوغاز (الخليج) البديع الجمال الفذّ من بين ما أبدعت الطبيعة من أمثاله ، فذّ بموقعة ، فذّ بتاريخه ، فذّ بما شهد من تطورات . . . " .

أما حين تبدت مظاهر الأستانة وقد بهرت الكاتب بجمالها فيقول :
" وقفنانُحَدّق بظاهر المدينة القديمةالعظيمة ، بظاهر العاصمة التى لم تُصبح عاصمة ، بظاهر مدينة قسطنطين التى شهدت حكم الرومان ، وبيزنطية وعظمة النصرانية ، ثم اقتحمها محمد الفاتح فأقرّ فيها حكم المسلمين وجعل من كنيسة أيا صوفيا جامعًا يُسبحّ الناس فيه بحمد الله ويقدّسونه ويصلون على نبيّه. وجعل خلفاؤه من بنى عثمان منها مستقر خلافةالمسلمين حتى أ جلاهم الأتراك عنها وشلّوا عرشهم منها ، وتركوها اليوم مدينة سقط عنها تاج الخلافة واسم العاصمة ، ثمبقى لها برغم ذلككله جمال الطبيعة وعظمة التاريخ ، ومشهد التطور الاجتماعى من أقوى مظاهره وأجلّها . . " .

بكل هذه الكتابات التى دارت حول دار الخلافة ومآثرها تبدو لنا الأهمية الكبرى التى كان يوليها الكُتاب لهذه الدار، ولا غرو أن ذلك لم يكن وليد الصدفة لولا المكانة العظيمة لها فى النفوس، ثمكان لها من معالم الجمال ومفاتنه نصيب كبير، فاجتمعا وأخرجا ذلك الأدب الذى حاول السمو والتحليق الى المكانة الرفيعة لعاصمة الاسلام.

---

(١) أطلق الكماليون على القسطنطينيةاسمها القديم (استانبول) فى غمرة الثورة التى اعترت القوم على كل ماتزعم أنه قديمًا أو بالأصح اسلاميًا ومن عجب أن يُهمل الكماليون هذه المدينة التى عاش المسلمون قرونًا متعاقبة وهم يطمعون فى فتحها ، يقول الأمير شكيبفى هذا التغيير :
" إنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التى لا نظير لها إهمالاً زائدًا . ونقلت مقر الحكم إلى انقره ، فرجعت الاستانه القهقرى ، ونزل عدد سكانها من مليون ومائتى ألف الى سبعمائة وقيل ستمائة ألف، وانّ اهمال الحكومة التركية لمثل الأستانة من الأغلاط السياسيةالتى لا جدال فيها .
انظر : حاضر العالمالاسلامى ١ / ٢٢١ .

هـ) نبذ الروابط المختلفة سوى الرابطة الدينيــة :

تطلب التجمعات البشرية على أيّ صورة كانت من وراء اتحاداتهـــا وتضامنها القوة والعزة ، وتنشد الغلبة والسوءدد والرفعة ، هذا ماسعت إليه كل التجمعات البشرية ، وما تروم أن تصل اليهبذلك الاجتماع سواء كان علـى عصبية أم على قومية أم على وطنية أم غـــيرها .

والاسلام وان لميتنكر لهذه الثمرة التى تعود عليه من الوحـــــدة الاسلامية لميجعلها غايته وهدفه الأخير، وانماهى وسيلة الى غاية أكبر وأعظم حتى يكون الدين كلّه لله ، وحتى تكون كلمة اللههى العليا وكلمة الذين كفـروا السفلى .

بيد أن الاسلام وهو يقدّر الوزن الكبير لهذه الوسيلةلا يعدم أن يـدل أتباعه على منبعها وطريقها الحقيقى حتى لا تضل عليهم إن صدقوا الاتجـــاه إليها ، وحتى لا يُغَرِّرُ بهم غيرُهم ويدلهم على سواها فيضلوا السبيل ،قـــال تعلى :" ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " (١) .

فالمنافقون فى كل عصر ومصر يلهثون وراء مجد العزة والعظمة و الــتى قد يحققها لهم التجمع على أى صورة من صوره ، لكن أنى لهمبالعزة الحقيقية . إن (العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالـــى . العزة التى لا تهون ولا تَهِن ، ولا تنحني ولا تلين ، ولا تُزايل القلب المؤمن فـى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الايمان .

فاذا استقر الايمان ورسخ فالعزة معه مستقرة وراسخة "ولكـــــــن المنافقين لا يعلمون" وكيف يعلمون وهملا يتذوقون هذه العزة ولا يتّصلـــــون بمصدرها الأصيل" (٢) .

ولقد أطلق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كلمـــــة تجسد هذهالحقيقةلتكون معلماً لمن يريد العزة والسوءدد ، وكأنما كان يتوقع عمرُ وينظر من وراء حُجُب الغيب أن يأتى من يطلبها من غير بابهامن دعـــاة

---

(١) سورة المنافقين ٨ .
(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب ٦ / ٣٥٨٠ .

الشعوبية والقومية والنزعات المتفرقة ، لقد قال : نحن قوم أعزنا الله بالاسلام ، فاذا طلبنا العزة من غيره أذلنا الله . وما أروعها من حقيقة لو وعاها وحافظ عليها المسلمون .

وقد كانت العقيدة الإسلامية هى الرباط والجامعة التى يفخر كل مؤمن بانتمائه اليها حتى مطلع العصر الحديث، وقبل بزوغ فجر القرن الرابع عشر الهجرى بدأت تدب فى العالم الاسلامى وتتوزعه نزعات عديدة ، فالقومية والاقليمية والوطنية وأمثالها بدأت تنشر مبادءها ويظهر دعاتها فى مجتمع المسلمين يروّجون لها ، ويبشرون باتجاهاتها ، متأثرين فى ذلك بما سرى إليهم من أوروبا وسواها بمثل هذه الأفكار. وكان حرص أعداء الإسلام من اليهود والنصارى على حرب الاسلام أكبر باعث لبذر هذه النزعات فى ديار الاسلام ومراكزه الكبرى ، ثم تنميتها ومباركة جهودها كما سنرى فى بواعث التيار المعارض من هذا البحث بحول الله .

ورغم حداثة هذه الاتجاهات فى البلاد الاسلامية آنذاك الا أن مآربها البعيدة لم تكن خافية على مفكري الاسلام وأنصار الجامعة الاسلامية .

فالسلطان عبد الحميد كان على وعي تام بهذه الدّعوات التى ظهرت متلبسة بدعوة الاصلاح أو الحرية كي تموّه حقيقتها حتى لا تنكشف ، ولذا نجده يُعَطّل الدستور الذى أعلنه فى أول خلافته (١٢٩٨/١٨٧٦م) بعد مضى قرابة عامين (١)

وحين اتجه إلى بعث الدعوة إلى الجامعة الاسلامية واحيائها لم يكن خافياً عليه مافى ذلك من خضد لشوكة الدعوات القومية والوطنية وخفض لدعاتها . وقد كان من عظمة هذا السلطان هنا ـ كما تذكر المصادر التاريخية(٢) ـ وقد

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامى ١/ ٣٠٨

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد نقلاً عن : السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ١٨٩ ، والعجب حقاً أن من ينقمون على هذا السلطان يأتون من هذا المدخل ، وحسبه هنا أنه أوقف هذه النزعات المختلفة" مدة ثلث قرن من الزمان ، وعند ما خلعه الاتحاديون الذين تبنوّا هذه النزعات وباركوها لم تمض قرابة عشر سنوات إلا والدولة العثمانية إرباً متناثرة ، كلّ يدعوا إلى عنصريته . وكل ذلك يسّر تمزيقها وافتراسها للاعداء المستعمرين .
انظر: الادب والقومية فى سورية ـ سامى الكيالى ١٨٣ .

وقد عرف دعاة هذه النزعات ، وكانوا فى الغالب من الطلبة الذين تعلموا فى أوروبا ويكتبون ضد السلطنة العثمانية ، أنه كان يمدّهم بالمساعدات المادية ويغض الطرف عن إرسالها من داخل الدولة العثمانية لأنه كان يشجع المعارضة الشريفة ولا يريد دفع المعارضين له أن يميلوا إلى الغرب بدافع الحاجة ، فضلاً عن منعه نشر الأفكار الهدامة والمبادىء المستوردة داخل حكومته .

وجمال الدين الأفغانى وتياره المشهور فى الجامعة الاسلامية مع أنه كان لا يعارض قيام كل بلد باستقلاله الذاتى عن الدولة العثمانية اذا تأهل لذلك كان يجعل الدين الاسلامى والعقيدة الاسلامية هى الأصل الذى يجتمعون عليه ويتضامنون وإن كانوا دولاً متعددة ، وجعل ذلك بديلاً للنعرات الجديدة التى لم تكن خافية عليه . ولذا فقد كانت العروة الوثقى رغم تقدّم صدورها (١٣٠١ / ١٨٨٣م) حافلة بالموضوعات التى تُناقض تلك النزعات ، ويقظة لكلّ ما من شأنه أن يوضح الرأي السديد فى ذلك ، و" الجنسية والديانة الاسلامية " من أول مقالاتها (١) ، واذا ذكرت (العروةُ الوثقى) وجودَ رابطة الجنس التى تُوجد بين سائر البشر تُذكّر المسلمين أن الاسلام قد أغنى اتباعه عنها برابطة الإسلام ، وذلك هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم من اعتبار الجنسيات ، ورفضهم لانواع العصبيات ماعدا عصبية المعتقد عصبية الإسلام وكل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمسلمون لا يعتدّون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس وإنّما ينظرون إلى جامعة الدين .

وحين تصف العروة الوثقى حال الأمة تجدها تذكر من يَدعون إلى تلك النعرات بهزء وسخرية ، فمنهم ممن درس على النمط الجديد أو ابتعثوا إلى البلاد الغربية ، وكان منتظرٌ منهم أن يحملوا لأمتهم ماتحتاجه من العلوم والمعارف وطرق التمدن ، ولكنهم " أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية (٢) . . " .

أمّا دعوة العروة الوثقى بعد ذلك الى الوحدة الاسلامية (٣) فذلك

---

(١) انظر العروة الوثقى ٤٩ .

(٢) السابق نفسه ٥٩ .

(٣) انظر : العروة الوثقى - فاتحة الجريدة - ٤٦ .

معلوم وواضح لا خفاء فيه .

وقد نافح محمدعبده عن رابطة الدين التى لا تقوم مقامها رابطة الجنس ولا ترقى إليها ، ويردّ بذلك على دعاة الأفكار الغربية خصوم رابطة الإسلام ، ذلك أن الدين أقدس الروابط إذ أنه " كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل مابينهم في المقاصد والعزائم والأعمال كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر، بل الأجناس المتخالفة فى المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة فى الصور والأشكال، ويحوّل أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف وتخليد الذكر. . . وهذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني ، شهد عليه التاريخ بعد ما أرشد إليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه . . . " (١)

واذ قد يدخل الغلو فى التعصب الجنسى فيفضى الى الجور والطغيان فذلك الأمر فى التعصب الدينى ، وإن كان من المعلوم أن تعصب أجيال المسلمين لا يبلغ تعصب أمم الغرب عندما فتكت بمن خالفها فى الدين كما فعلوا بمسلمي الأندلس على سبيل المثال لذا فليس من الإنصاف أن يُرمى بالتعصب والتحيز كل من حرص على الاعتدال فى الأخذ والتمسك برابطة الدين ، وعلى هذا نجد محمد عبده يقرّر جهل من يرمون بالتعصب من التزم برابطة الدين ونبذ ماعداها " هل لعاقل لم يصب برزيئة فى عقله أن الاعتدال من التعصب الدينى نقيصة ؟ وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة ؟ لا نخال عاقلاً يرتاب فى صحة ماقررناه .

فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ أيّ أصل من أصول العقل يستندون إليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ ، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها ؟" (٢) .

---

(١) العروة الوثقى ٨٢
(٢) تاريخ الاستاذ الامام محمدعبده ٢/ ٢٥٥

وعند ما سئل محمد عبده بآخرة من عمره عن الجنسية فى الاسلام أكد أنه لا جنسية فى الإسلام ، و" الجنسية ليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجري عليهم ، لا فى خاصتهم و لا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية. جاء الاسلام فألغى تلك العصبية ، فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة . . . لا جنسية فى الاسلام . . " (١) .

لا بدع أن يُهاجم أنصار الجامعة الاسلامية فكرة القومية ويتوجسون منها مكر السوء ووسيلة المخادعة، وحين ذهبت الخلافة وتشتت الأمة وضَعُف أمر الوحدة فى واقع المسلمين وتجلّى عوار النعرات القومية والوطنية ، وأنها كانت باب الشر الذى فتح على أمة الاسلام أعظم الرزايا وأسوأ المحن ، وأنها لم تصل إلى ماوصلت إليه الجامعة الإسلامية من تأليف المجتمعات فضلًا عن أن تطاولها ، لذا لا نعدم من يحملون على القومية ويحذرون من الاغترار بها أو الركون إليها والاعتصام بها (٢) :

وأخيرا فإن رابطة الدين وجامعة الإسلام هى رابطة يؤيدها القلب ويحرسها الضمير، وتقف مذعورة كاسفة قبل أن تَحِلّها إن رامت اليه ، ذلك أن الشعور الديني والرقابة الالهية تغذيها وتحول دون ضعفها أو انفصامها وكل هذا لا وجود لشىء منه فى الروابط القومية والوطنية ، حيث تتوزعها السياسة وتهيمن على أهلها الأهواء ، وكان المنفلوطى يصوّر ذلك بيراعه وبيانه العذب حين قال (٣) :" من لا خير له فى دينه لا خير له فى وطنه ، لأنه إن كان بنقضه عهد الوطنية غادرًا فاجرًا فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وأن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألّا يَحرص على وطن السقوف والجدران " .

بكل هذه المعانى والاشارات المقتضبة يتجلى لنا البعد المستكنّ وراء النعرات القومية والوطنية وما شابهها من دعوات ، حيث أنها كانت تقصد

---

(١) الأعمال الكاملة لمحمد عبده ٦ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٢) انظر مقال : الأخوة الاسلامية ـ عبد الحميد الخطيب ـ صحيفة (أم القرى) عدد ٦٤٦ ـ السنة ١٣-١٣٥٦ / ١٩٣٧م .
(٣) النظرات ـ مصطفى لطفى المنفلوطى ٣ / ١٧٦ .

الى صرف المسلمين عن جامعتهم الاسلامية وفَضّهم عنها ، وحين يتحقق ذلــك سيتّجهون إلى تلك العصبيات والنعرات الأخرى التى لا يصح اجتماعهم عليهـــا، لذا كان التأكيد على التمسك بالجامعة الإسلامية والتنفير من تلك ا لنعــــرات أمر لا معدى عنه لانصار الوحدة الاسلامية وكتّابها .

الفصل الثاني

الخلافة الإسلامية

أولاً :

الخلافة الإسلامية والواقع التاريخي

ثانياً :

الخلافة الإسلامية والرؤية الأدبية

أولا : الخلافة الاسلامية و الواقع التاريخي

أ) مفهوم الخلافة وأهميتها :

شاءت ارادة الله أن يخلق أبا البشرية آدم - عليه السلام - ليجعله وذريته خلفاء في الأرض منذ اللحظة التي هبط فيها آدم على هذه المعمورة ولقد أكد القرآن هذه الحقيقه في عدد من آياته البيّنات حسبنا منها قوله سبحانه(١) : " واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . . " .

والذي يجب ألاّ يغيب عن البال - ونحن بصدد الحديث عن الخلافة الاسلامية - أن هذه الآية ومثيلاتها من آيات الكتاب العزيز تدّل بوضوح وتُبيّن بجلاء معنى الخلافة التي يقصدها القرآن ، وهي نفس الخلافة التي يطلبها الله من الناس وهم في هذه الأرض ، كما أنّها هي الخلافة التي يجب أن تقوم الأمة الإسلامية لتحقيقها ووجودها ، حتى وإن عاشت الأمة في بعض فتراتها على غير هديها أو بادعائها والعمل على خلافها .

إنّ معنى الخلافة يظهر من مدلول هذه اللفظة اللغوي إذ هي " نيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه وامّا لموته وامّا لعجزه وامّا لتشريف المستخلف . . . وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض"(٢) ، ومع ذلك فقد عرّفها علماء الاسلام تحت معان متقاربة كالإمامة أو الإمارة فضلا عن الخلافة ، وحسبك بتعريف ابن خلدون عن غيره وإن أوردها تحت مسمّى الإمامة اذ يقول(٣) : " هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلّها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به " ، ويزيد هذا التعريف ايضاحا تعليق أحد الباحثين عليه(٤) " أنه في قوله - أي ابن خلدون - (حمل الكافة) يخرج به ولايات الأمراء والقضاة وغيرهم ، لأن لكل منهم حدوده الخاصة به وصلاحياته

---

(١) سورة البقرة ج. ٣٠
(٢) المفردات للراغب الأصبهاني : ١٥٦ ، وانظر تاج العروس " خلف "
(٣) مقدمة ابن خلدون : ١٣١
(٤) الامامة العظمى عند أهل السنة والجماعة ص ٢٩ ، ٣٠ .

المقيدة ، وفى قوله : (وعلى مقتضى النظر الشرعى) قيد لسلطته ، فالإمام يجب أن تكون سلطاته مقيدة بموافقة الشريعة الاسلاميه ، وفيه أيضا وجوب ربط سياسة الدنيا بالدين لا بالأهواء والشهوات والمصالح الفردية ، وهذا القيد يخرج به الملك ، وفي قوله : (فى مصالحهم الأخروية والدنيوية) تبيين لشمول مسئولية الإمام لمصالح الدين والدنيا لا الاقتصار على طرف دون الآخر) .

على هذا فالخلافة حكم فى الأرض يعتمد على تطبيق شريعة الله وأحكامه المنزلة فى مختلف شئون مناحي الحياة المتعددة ، وهي بذلك تُغاير المُلك وسائر الأنظمة التى قامت قديما وحديثا لحكم الناس[١] ، وإذا أردنا زيادة فى التوضيح أمكن القول : إن الخلافة التى تُقصد هنا - والتى هي الأصل فى الحكم الاسلامي - هي مثل تلك الخلافة الاسلامية التى قامت فى القرن الأول بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والتى تُعرف بالخلافة الراشدة ، والقائمون عليها هم الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ، ولا غرو أن في سيرة هوءلاء الخلفاء وسياستهم التى أخذوا بها الأمة مايُوضّح جوانب هذه الخلافة المتعددة ، كاختيار الخليفة وأعماله وصلاحياته ومن يعاونه وكيف يتم حكمه ، إلى غير ذلك من الشئون المتعددة المنوطة بها .

هذه الخلافة الراشدة التى هي الأصل فى حكم المسلمين كما يأمرهم بها دينهم - وإن تركتها الأمة الاسلامية فى بعض فترات من حكمها - هى التى تُظهر في الحقيقة أهمية هذه الخلافة وصلاحيتها لأن تسوس البشرية فى هذه الحياة .

وفضلا أنّ اجتماع أي طائفة من الناس حول رئيس أو عميد لهم أمر فطري في النفوس البشرية وحاجة اجتماعية تستوجبها ظروف الحياة ، فإن الفوائد العظيمة التى تحققها الخلافة التى تسدّ هذه الحاجة الفطرية أكبر دليل على فائدتها وأهميتها . وتتجلى هذه الأهمية في إقامة الخلافة للمنهج الربّانى وتطبيق احكام شرعه فى الحياة البشرية ، ذلك أن هذا المنهج والحكم الرّبانى هو أصلح نظام لحكم البشرية على الاطلاق ، إذ أنه

---

(١) انظر الفصل الشيّق الذى كتبه شكيب أرسلان عن : الفرق بين الخلافة والمُلك : حاضر العالم الاسلامى ١ / ٢٤٠-٢٥٨ ، الاسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة فصل " حقيقة الخلافة " ص٢٠٧- ٢١٥ ، أبو الاعلى المودودى .

قد راعى جميع جوانب النفس الإنسانية وحاجاتها الفطرية حتى تعيش فى توازن واطمئنان وسعادة ، ومن ثمّ تتفجرّ طاقاتها فى سائر مجالات الحياة عاملة منتجة مستغلة ما سخّر الله لها فى هذا الكون الكبير ،وصلاحية الخلافة المطلقة تنبع من كونها النظام الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى أن يعيش فى الأرض ، فهو نظام خالق الخلق وأحكم الحاكمين، وانه سبحانه أعلم بما يصلح لخلقه " الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " (١) ، ولذا فان الأنظمة الأخرى بجواره تتلاشى وتتجلّى عيوبها ومواطن النقص فيها ، لدرجة أن هذه الأنظمة تصلح فى فترة محدّدة وتَقْصُر عن الفترات الأخرى ، فضلا أنّ ما تأخذ به أمة من الأمم من تنظيم لا يصلح بتاتا أن تأخذ به بعض الأمم الأخرى إن لم تسخر منه ومن واضعيه و جدواه فى واقع الحياة ،وبذا يظل نظام الخلافة الاسلامية شامخا لا يطاوله أيّ نظام آخر أو يقترب منه مما يؤكد صلاحيته وحيويته ومرونته، إذ هو نظام صالح لكل زمان ومكان .

والذى يُظهر أهمية الخلافة الاسلامية أيضا بعد أن تُقيم حكم الله فى الأرض هو شمول وعموم هذا النظام لكل متطلبات الحياة وشئونها المختلفة، فتقيمها على هدي من شرع الله ونور حكمه ، فهو نظام صالح للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة ،أخبر القرآن عن شموله وأكد كماله " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا " (٢) ، ويقول تعالى : " مافرّطنا فى الكتاب من شيء . . . " (٣) أمّا احتواؤه لتفصيل كل مايحدث فقد حوى الأصول العامة التى يُقاس عليها كل ما يُستجد من الحوادث والأمور " ونزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين" (٤) .

إذا تبين أن الخلافة نظام يسعى لقيادة الحياة البشرية بشريعة الله تجلت لنا ثمار هذا الحكم بنظام الخلافة (٥) ، وإن أظهر هذه الثمار التى تحققها الخلافة توحيد الأمة وجمع شملها ونبذ عناصر الفرقة والشتات عنها ،ولا يتيسر ذلك إلّا لقيادة واحدة وأمة متكاتفة مترابطه ، وهذا بلاريب

---

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) سورة المائدة جـ : ٣ .

(٣) سورة الانعام : ٣٨ .

(٤) سورة النحل : ٨٩ .

(٥) انظر : الامامة العظمى عند أهل السنة والجماعة . فصل (مقاصد الامامة) .

من أعظم عوامل قوة الأمة وبقائها وصمودها أمام أعدائها المتربصين بها . ولقد تحقق ذلك للأمة الاسلامية على امتداد تاريخها عندما كانت تحت خلافة واحدة - فى الغالب - ولم تنل منها هجمات أعدائها ووحشيات الأمم التى تسلطت عليها إلا فترات انتابتها ثم استفاقت إلى أنها أمة لن تزول ، فعادت لقوتها أمة واحدة عزيزة الجانب موفورة الحقوق .

والخلافة فضلا عن ثمرة اتحاد الأمة التى تعنينا بصفة خاصة هنا فانها تهدف إلى تحقيق المآرب المتعددة التى يسعى كل نظام لايجادها - وإن لم تدانيها فى ذلك - ولعل إقامة العدل ودفع الظلم من أعظم هذه الأهداف، وذلك هو الذى جاءت كل رسالة به ودعت الناس اليه " لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . . . "(١) كما أن عمارة الارض واستغلال خيراتها بما يحقق الحياة الكريمة والمتطلبات اللازمة وما يسهم فى رقي الأمة وتقويتها مما تحققه هذه الخلافة ، والتى يقول دستورها الكريم " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " (٢) .

إن خير مايدل على أهمية الخلافة وجدارتها لتنظيم شئون البشرية مع صلاحها لكل مكان وزمان أن يتذكر المرء ماحققته هذه الخلافة الراشدة فى قرون هذه الأمة المفضلة يوم طُبّقت تطبيقا حيّا فى دنيا الواقع ولم تكن خيالات أو أوهاما تُراود النفوس كما يتصور من يكتبون عن المدن الفاضلة .

لقد قلبت قيم الحياة وموازينها وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن ظلم الأديان الى عدل الاسلام (٣) ، وأخرجت من أولئك الأعراب الجفاة المتقاتلين فيما بينهم زعماء وقادة سادوا الأرض وجاسوا خلال الديار ، وحسبك أن أعظم قوة كانت فى زمانهم تعيش بها دولتان لهما الغلبة يومئذ على الارض، الفرس فى الشرق والروم فى الغرب ، ومع كل هذا ففي نصف قرن تقريبا قُوّضت هاتان القوتان، ودالت دولتاهما وبلغ الاسلام بلاد الهند فى الشرق وشمال افريقيا فى الغرب

---

(١) سورة الحديد : ٢٥ .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) هذه المقولة المشهورة للصحابى الجليل ربعى بن عامر رضى الله عنه قالها لكسرى عند مابعثه المسلمون ليتفاوض معه قبل معركة القادسية ويدعوه الى الاسلام .

ودخل أوروبا عن طريق الأندلس التى بلغ فيها المسلمون شأوا عظيما من المجد والحضارة ، يوم كانت أوروبا تغُط فى ظلمات قرونها الوسطى ، وإذا كانت عظمة الأمم وحضارتها لا تقاس بقوتها وفتوحاتها البطولية فقط بل لابد من النظر إلى الجوانب الأخرى ، فان أمة تلك الخلافة الراشدة حين يُنظر إليها فى ظروف عصرها وما حققته في جوانبها العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وسواها من الجوانب الأخرى ، يجدها قد بلغت من ذلك شأوا عظيما ومكانا عاليا يؤهلها بلا ريب لأن تُعدّ فى أعاظم الأمم وأفضلها ، والتاريخ حافل بكل ذلك صادق أمين لم ينس شيئا أبدا .

ب) مسيرتها :

لما كانت الخلافة على هذه المكانة العظيمة والأهمية الواضحة كما جسدها الخلفاء الراشدون وميزوها عن المُلك العضوض الذى جاء بعدهم فليس بدعا أن تحقق فى تاريخ البشرية تلك الأمجاد السامقة وذلك الذكر الجميل فى العالمين ، ولو لم تكن خلافة حقيقية لما تحققت تلك الإنجازات التى عجزت عن تحقيق معشارها - فى الميدان العسكري فقط - أقوى الأمم فى التاريخ ، وذا وحده كاف لتفوّق هذا النظام على سائر الأنظمة التى حكمت البشرية حتى اليوم ، والأمة الاسلامية هي أعظم من يدرك حقيقة هذا النظام ويدعو إليه ، ولذا ما برحت الأمة المسلمة تحرص عليه وتأخذ به في عصورها المتعاقبة - وإن ابتعدت أو اقتربت قليلا أو كثيرا عن روح هذا النظام - مما يحدونا إلى الاشارة الموجزة عن تاريخ هذه الخلافة فى الأمة الاسلامية لعل فيه ما يعين على فهم مايرد في ثنايا هذه الدراسة .

قامت الخلافة عندما أقام المسلمون أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلقوا عليه خليفة رسول الله وخليفة المسلمين ، وسار بالأمة على هدي ما كان يأخذها به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، واستمر على ذلك حتى فارق الدنيا وقد أوضح الطريق الذى يأخذ به من ولي أمر الأمة المسلمة حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه : " لقد أتعب من أتى بعده " أى فى التمسك" بهدى الخلافة الراشدة ، وهكذا سار عمرُ من بعده حتى أطبق تاريخ عدله وحسن سياسته وحنكته تاريخ الأمة

الى اليوم ،وكان رضى الله عنه مضرب المثل للخليفة الراشد الذى يجب أن يقوم على أمر المسلمين وحكومتهم ، ثم سار على هديه عثمان وعلي رضى الله عنهما ، إلا أن باب الفتنة قد أطل على الأمة الاسلامية بقتل عثمان رضي الله عنه فكانت الفترة الأخيرة من خلافة علي ممزوجة ببعض الأحداث والفتن التى لم تستطع - على الرغم من آثارها السيئة - أن تحجب عن الخلافة الاسلامية هيبتها ومكانتها في الأمة .

وإذ تقوم الدولة الأموية بعد هؤلاء الراشدين تتزعم خلافة الأمة الاسلامية ،ويتسمى حكامها بالخلفاء وان ابتعدوا إلى حدّ ما عن روح الخلافة الحقيقية - سوى بعضهم كعمر بن عبد العزيز الذى تحرى هدي الراشدين - تجد الخلافة موئل الأمة ومركزها الذى أناطت به أمرها وقيادتها .

وبقضاء العباسيين على بنى أمية يتحرون انتقال الخلافة إليهم فيحرصون على قتل مروان بن محمد الذى طاردوه حتى قتلوه فى مصر ومن ثم يعلنون خلافتهم فى العراق ، وتستمر الخلافة فى الدولة العباسية وتبقى فيها قوية شامخة فى عهد خلفائها العظماء فى العصر العباسى الأول الذى يستمر الى عام ٢٣٢ هـ منتهيا بوفاة الواثق ابن المعتصم ،أما العصر العباسي الثانى الذى يبدأ بهذه السنة فقد اعترى الضعف والخلل جسم الدولة العباسية نظرا لاتساع خط الإنحراف عن هدى الخلافة الراشده بأكبر مما كان فى عصر بنى أمية ،ومن ثمّ بدأت الانقسامات وبدأت تظهر الدويلات فى داخل هذه الدولة فى شرقيها وغربيها ، وقد بلغ من قوة بعض هذه الدويلات كالأمويين فى الاندلس ومن جرأة بعضها كالعبيديين (الفاطميين) (١) فى مصر أن يدّعوا لأنفسهم الخلافة ، مما يسبغ على هذه الدول الشرعية فى نظر الأمة

---

(١) يعتبر كثير من العلماء والمؤرخين المسلمين أنّ الفاطميين ليسوا من الخلفاء المسلمين ،فالإمام السيوطى فى (تاريخ الخلفاء ص ٤ ، ٥ ، ط ١٣٧١ ، تحقيق محى الدين عبد الحميد)
لم يذكرهم من خلفاء المسلمين لأنه يعد إمامتهم غير صحيحه لأمور :
- منها أنهم غير قرشيين ،وإنما سمّتهم بالفاطميين جهلة العوام والا فجدّهم مجوسي .
- ومنها أن اكثرهم زنادقة خارجون عن الإسلام .
وانظر العواصم من القواصم ص ١٩٩ للقاضى أبى بكر بن العربي ، تحقيق : محب الدين الخطيب .

من جهة كما يدلّ على العظمة والمكانة الكبرى التى يفهمها كل مسلم من مدلول الخلافة ، وعندئذ ظهرت فى بلاد الاسلام ثلاث حكومات تتسمى بالخلافة فى كل من بغداد والقاهرة وقرطبة .

وعندما دمّر المغول بغداد وقضوا على الخلافة كان للمماليك فى مصر فضل إحياء منارة الخلافة الإسلامية ، فهذا هو الظاهر بيبرس يستقدم أحد سلائل بنى العباس ويُقيمهُ خليفة ويلقبه بالمستنصر، ويتسلم منه الخلع ثم يرسله إلى بغداد مع قوّة مكنت له من دخولها ، ثم عاد فقرر نقل مركز الخلافة إلى القاهرة حذرا من وقوع الخليفة تحت سلطان آخر غير سلطانه، وتستمر هذه الخلافة العباسية بمصر حتى يتمكن السلطان سليم العثمانى من فتح مصر، ثم تسلّم الخلافة بنفسه من الخليفة العباسى سنة ٩٢٣هـ(١٥١٧م) حيث قضى على آخر سلاطين المماليك (قانصوة الغوري) وأدخل مصر فى حوزة الدولة العثمانية ونقل الخلافة إلى الاستانة العليه مقر سلاطين آل عثمان آنذاك ، ومع أن سلاطين العثمانيين قبل السلطان سليم لم يتسمّوا بالخليفة أو يدعوها إلاّ أنهم بعد ذلك أسبغوا على الخلافة هيبتها وقدسيتها واحترامها بل جعلوا لها من المراسم والتقاليد، وخاصة عند توليها، مايضفى عليها الطابع الديني والأثر المقدس(١) .

مضت الخلافة فى سلاطين العثمانيين مرعية الجانب محفوظة المكانة حتى تم القضاء على هذه الدولة وبانقضائها كان انقضاء الخلافة لاحقا لها بيد أن الذى يبدو أن ثمت محاولات مبكرة كانت تهدف إلى النيل من نظام الخلافة قبل أن تعصف بالدولة العثمانية تلك المحن التى تتابعت عليها فى الخمسين سنة الأخيرة من حكمها، حيث قادتها بسرعة شديدة إلى السقوط والزوال ، فمن الباحثين (٢) من يرى أن المحاولات الأولى لإلغاء الخلافة كانت بالدعوة الى الدستور الذى ينتهى وفق الدساتير الأوروبية إلى الحكم البرلمانى وإخلاء الخليفة من السلطة سنة ١٢٥٥ / ١٨٣٩م فى عهد السلطان عبد المجيد الاول (١٢٥٥ / ١٢٧٧) . والواقع أنّ هذا موافق لحركة الدستور التى ظهرت واستمرت وكان دعاتها بعدئذ يحلمون بتقييد سلطة الخليفة

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١ / ٦٤ إذ يشير إلى جملة من تلك التقاليد .

(٢) السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية : ٢٦٣ .

وتغيير أنظمة الدولة بما يكاد يشابه ماعند أمم أوروبا ، وهذا ما تحقق بالفعل عندما طُبّق الدستور على نحو ما أراده دعاته المستغربون ، بيد أن الخلافة مع استمراريتها بجانب هذه الحركة لم تضعف منزلتها فى نفوس ابناء الأمة سوى نفر قليل ممن كانت ثقافتهم ثقافه غربية .

وقد أحس السلطان عبد الحميد (١) ـ الذى تضخمت فى عهده الدعوة إلى الدستور فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ـ بخطورة الأمر فاضطُر لإعلان الدستور في مطلع حكمه وقد بيت الغاءه عما قريب ، ففكر فى هذا الأمر وهداه فكره إلى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ـ كما سبق أن اوضحت فى الفصل الخاص بها ـ ورغم أنه أراد بفكرته هذه تحقيق العديد من أهدافه السياسية التى وُفق فيها ـ إلى حد طيب ـ فقد كانت الخلافة من أعظم ما قامت عليه هذه الفكرة ، حيث عمل على احيائها فى الأمة الاسلامية وأنها خلافة المسلمين التى يجب عليهم أن يلتفوا حولها وأن لا ينظروا إلى جنسياتهم وقومياتهم ، فهو خليفتهم جميعا وأنهم بذلك إنما يتّحدون للدفاع عن دينهم ووطنهم ، واستكمالا لهذه السياسة عندما قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانيه (١٢٩٣ / ١٨٧٧م) أُلغى الدستور الذى سبق أن أعلنه ، وجَدّ ليعيد للخلافة مكانتها وحضورها فى العالم الإسلامى ، ونظرا للحالة السيئة والظروف الصعبة التى كانت تعيشها الدولة فى عهد توليه خلافتها ، إذ تكالبت عليها أمم الكفر من جميع الاتجاهات ، وكانت المؤامرات للقضاء على هذه الدولة واقتسام اجزائها مما اتفقت عليه دول أوروبا وروسيا ، وكثرت الثورات والفتن التى أشعلها خصوم الدولة حتى إنّهم لم يعطوها الفرصة لأن تُصلح ولو جانبا واحدا من جوانب حياتها المتدهورة آنذاك ، وبتآمر من الصهيونية التى خيّب هذا السلطان ظنها عندما رفض عروضها المغرية للسماح لليهود باقامة مستوطنة صغيرة لهم فى فلسطين ، تكالبت كل هذه الطوائف لإبعاد هذا السلطان بأى وسيلة تكون ، وقد تحقق لها ذلك عندما تمكن رجال حزب الاتحاد والترقي الذى كان يعمل فى الخفاء مع كل هؤلاء المتآمرين أن يخلع هذا السلطان من منصب الخلافة سنة ١٣٢٦ / ١٩٠٩م ، وفى الواقع أن هذا الحدث وقبله بعام (١٩٠٨م) عندما اضطر السلطان عبد الحميد لإعلان

---

(١) لمزيد من تفاصيل تاريخ الخلافة فى عهد السلطان عبد الحميد ومابعده انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد ـ تحقيق احسان حقى ٦٨٧ .

الدستور بدأ الأفول الحقيقي للخلافة (١) وقام من بعده خلفاء لا يملكون من السلطة شيئا ، والسلطة الفعلية هي بيد رجال الاتحاد والترقي الذين أخذوا زمام السلطة بعد ماخلعوا السلطان عبد الحميد ، وعقدواالنية على رفض الخلافة وإن اضطرتهم الظروف السياسية إلى ابقائها لأجل محدود، ولا أدلّ على ضعف الخليفة فى هذه الفترة وذهاب السلطة والأمر من يده أنه عندما أقام الاتحاديون السلطان محمد رشاد خليفه بعد ماخلعوا السلطان عبد الحميد ، وبعد ما أقحموا الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الاولى مناصرة لألمانيا لم يكن للسلطان محمد رشاد ولا الصدر الأعظم علم ولا خبر بذلك ، فلما أُخبر بذلك لم يكن بيده حيلة لما وقع فاضطر مكرها لإعلان الجهاد المقدس ضد الحلفاء ، غير أن المسلمين لم يتجاوبوا مع هذه الدّعوة اذ كانت الشكوك تساورهم فى كثير من الأمور التى لا يعلمون حقيقتها وعلى رأسها نوايا الاتحاديين وهدفهم من دخول الحرب ، ولم يقف الأمر إلى هذا الحد بل تعداه فيما بعد ، حين أكمل الخطة عملاء الحلفاء بعد الحرب العالمية الاولى. استغل الحلفاء وبخاصة بريطانيا (٢) ضعف الدولة وكثرة مشاكلها بعد

---

(١) انظر فصل (حكم الاتحاديين) من التاريخ الاسلامى (العهد العثمانى) محمود شاكر لمتابعة حالة الخلافةفى هذه الفترة حتى الغائها .

(٢) لقد بذلت كل من روسيا وفرنسا وايطاليا جهودا جبارة لالغاءالخلافة ولكنها لا تقاس مع جهود بريطانيا التى تم على يديها بالفعل إلغاء الخلافة ، وقد استغلت لذلك كل العناصر التى تخدم هدفها هذا فاستخدمت الماسونيه والصهيونية والدونمة والكمالية ، ويوضح هذا التدبير البريطانى أنها زرعت فى مصر أن العثمانيين ظلمة ومستعمرون لمصر ، كما سعت مع الشعوب العربية ابان الحرب الاولى لتبعث فيها الخلافة العربية ، وحققت ذلك بموءازرتها لجهود الشريف حسين وابناءه فى الثورة على الخلافة، وأخيرا فان رجال مخابراتها وقادتها العسكريين وبخاصة (ارمسترونج) قد تسللوا في أعمق قيادات رجال الاتحاد الكماليين وكان عمل (ارمسترونج) فى تركيا مشابه لعمل لورنس فى بلاد العرب مع ثورة الشريف حسين وابناءه . ولم تقف عند هذا الحد بل كانت هى الدرع الحصين الذى كان وراء قيام اسرائيل فى فلسطين المسلمة ، وكل ذلك وكثير من الجهود التى تبذلها بريطانيا لحرب الاسلام من عهد الحروب الصليبيه إلى هذه الجهود الوريثه ينسى المسلمون - وبخاصة كثير من قادتهم - كل ذلك ويثق فى صداقة هذه الأمة وأوهامها التى تزعمها لحب الشعوب الاسلامية =

خروجها مهزومة فى الحرب العالمية الأولى للقضاء ايضا على الخلافة فبعد أن برز فى الساحة التركية مصطفى كمال (١) حيث خططت له بريطانيا كثيرا من البطولات والأمجاد المصطنعه حتى تثق الأمة التركية فى ولايته لأمورها - وبريطانيا تحقق بعد ذلك أهدافها مباشرة - وقامت فى تركيا مايشبه حكومتين فى انقرةواستانبول ودُعيتا إلى موءتمر لوزان (١٣٤٠-١٩٢٢م) وجرى انقلاب فى استانبول عزلت على اثره حكومة السلطان ،فاعتزل السلطان محمد وحيد الدين (١٣٣٦-١٣٤٠) هذه الخلافة التى تقرر نزع السلطة من يده ثم رحل إلى مالطه فنُودي بالسلطان عبد المجيد الثانى بن عبد العزيز

= انظر فى جهود بريطانيا لالغاء الخلافة : السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية فصل : بريطانيا والحلفاء والكمالية "ارمسترونج والمخابرات وراء اتاتورك" فى باب : الصليبية الجديدة ودورها فى الغاء الخلافة ، المسألة الشرقية - مصطفى كامل ١٩ ، ٢٢ .

(١) مصطفى كمال : (١٨٧٩-١٩٣٨م) ولد فى سلانيك من أصل مشكوك فيه ودرس بالكلية الحربية باستانبول ،وعُيِّن ضابطا فى الجيش لكنه لم يكن منتظما حيث نُفي ونُقل عدة مرات حيث كان على خلاف مع جمعية الاتحاد والترقى ،واشترك فى عدد من الحروب لميكن له فيها شأن كبير، وفى عهد السلطان وحيد الدين انسحب أمام الانجليز أثناء تقدمهم فى الشام فى اواخر الحرب العالمية الاولى ،فاتصل به الانجليز بقيادة (ارمسترونج) وحرضوه على القيام بالثورة على الخلافة على أن يدعموه فوافق على ذلك ،وكان هذا خافيا على السلطان الذى كان يضع فيه ثقته ،وبعد الحرب أخذ يعمل لإلغاء الخلافة وطرد السلطان حتى تمكن من ذلك ، وكان كما يصفه معاصروه منصرفا إلى الخمرة والنساء ،ويأخذ ذلك جل وقته ،وهو على كره شديد وعداء للاسلام ،وذو ميل شديد للزعامة ، فكانت صلته بالانجليز هى التى حققت له ذلك حيث رفعوه إلى الزعامة التى كان مستميتا لها .

انظر فى ترجمته : الرجل الصنم - ألفه ضابط تركى وترجمه إلى العربية عبد الله عبد الرحمن ، مصطفى كمال - آرمسترونج - ترجمة : حلمى مراد ،(سلسلة اقرأ) .

(١٣٤٠ - ١٣٤١) خليفه مكانه لاسلطة له . وبعد ثلاثة أيام من توليه لهـا عُقِد موءتمر لوزان مرة ثانية وحضره وفد أنقرة فقط ووضع رئيس الوفد الإنجليزى (كرزون) شروط الاعتراف باستقلال تركيا وأولها إلغاء الخلافة الاسلامية ، ثم طرد الخليفة العثمانى - وهو السلطان - خارج البلاد ومصادرة أموال وأملاك آل عثمان و إعلان تركيا دولة علمانية لادينية ، ووافق الموءتمرون على ذلك وكان ذلك آخر مسمار يدق فى نعش الخلافة الاسلامية ليصبح جاهزا يحملها إلى مدفن لاتطيق فيه حراكا ولا تستطيع الخروج منه .

وما هى إلاّ فترة وجيزة حتى أعلن مصطفى كمال الجمهورية برئاسته ثم أعلن إلغاء الخلافة مع كثير من التغييرات التى تتجه مباشرة إلى محاولة إلغاء الاسلام ، وما يدل على روحه من عباداته ومآثره ، وطُويت بذلك الخلافة الاسلامية سنة (١٣٤١-١٩٢٤م) بعد تاريخ حافل يشهد لها بالامجاد ، وآثار عزيزة تستلهمها الأجيال فى تلك القيادة الراشدة ، حيث كانت العزة والرفعة ، والريادة والسياده منذ فجر الاسلام إلى مطلع هذا العصر الذى أودى بخلافة الاسلام .

وبالغائها قضى مصطفى كمال على امبراطورية عظيمة كانت ملء عين الزمان وسمعه ، وقتل أمجادا وقضى على ثقافة ، ونحر أقواما طالما ازهقوا أرواحهم فى صدق وإخلاص فى خدمة هذه الدولة ، وأراقوا دماء زكية فى سبيل إعلاء نور الاسلام فى فجاج المعمورة .

ثانيا : الخلافة الاسلامية والرؤية الأدبية

أ)) تيارات تعصف بالخلافة :

ليس عجيبا أن يواكب الأدب مسيرة الخلافة وتطوراتها فقد أغرم الأدب العربي فى كثير من أحواله أن يزدهر حول الخلفاء والأمراء والولاة ، وبلغ الأمر أن رأى جمهرة دارسي تاريخ الأدب العربى أن أيسر طريقة يسهل تناوله بها أن يُقسم وفق العصور والتواريخ السياسية للأمة،وإذا تذكر المرء ما اجتمع من الأدباء على أبواب بنى مروان فى الدولة الأموية وما حفل به بلاط الرشيد والمأمون من جمعهم وما كان لهم من حضور فى مجتمع الحمدانيين وعند الصاحب بن عباد وأمراءبنى بويه، إضافة إلى عبد الرحمن الناصر والمعتمد ابن عباد فى الأندلس وكثير غيرهم أدرك فى يُسر ما كانت تحظى به الخلافة من حدب أدباء الإسلام عليها والتفافهم حولها والإلمام بما يحيط بها أو يدور فى بلاطها من الوقائع والأخبار.

وهذه الظاهرة فى تقديرى لم تكن وصمة نقص يُتّهم بها الأدب العربى لشيوعها فيه ، ولا يمكن أن نبرر بها أو على حسابها مايُرى من قصور الأدب فى معالجة بعض الأغراض أو الموضوعات أو الأجناس الأدبيه الأخرى إن كان ثمة قصور فيها (١) ، ولذا أراها نزعة أصيلة المحتد في هذا الأدب لا نشاز فى خروجها عنه ، وإذا علمنا أن الأديب يستلهم من أمجاد أمته كما يستلهم من بيئة عصره كثيرا من الصور التى يظهر بها إبداعه الأدبي لسهل فهم تعلق الأدباء بالخلافة فى مطلع العصر الحديث، فالأمجاد التى حققتها الخلافة الإسلامية ماثلة فى الأذهان، وبخاصة ماتم فى صدر الأمة الاسلامية وقرونها الأولى ، أي عهد الراشدين وعصر بنى أمية وبنى العباس، والبيئة كماتعلم بيئة إسلامية تدعو إلى الالتفاف حول ولاة الأمر ما التزموا شريعة الله ودينه، كما تحث على طاعتهم فى المعروف ـ اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ـ

---

(١) هذا الاتهام حرص سلامة موسى على رمي الأدب العربى به وبخاصة فى كتابه الأدب للشعب .
انظر: النثر الفنى المصرى فى العصر الحديث ـ عبد الباسط احمد على حموده ـ ٤٨١ رسالة دكتوراه ـ كلية اللغة العربية ـ جامعة الازهر ـ اشراف د . عبد السلام سرحان .

وتحذّر من الحياة بلا انتماء إلى جماعة المسلمين ، وتحرّم الخروج عليهم والشذوذ عنهم أو البغي على ولي أمرهم بدون حق .(١)

غير أن الذى لا يقره المرء ولا يستقيم مع الطبع السّوي فى ظاهرة الالتفاف حول الولاة والخلفاء عندما تنقلب هذه الكوكبة من الأدباء تُمجّد الرذيلة وتحارب الحق يوم تلتف حول وليّ جاهل أو سفيه ، أو عندما تخنع لأمير ظالم باغ أو أي وال لا يتحرى الحق والعدل ، بل يتخبط كيفما تُزيّن له شياطينه الإنسية والجنية ، إذ تتحول هذه الكوكبة فى هذه الحالة إلى بؤرة شر ومصدر ضلال تدعو إلى الشر والسوء وتنافح عنه كما قد حدث فى بعض الأحيان ، ولا ريب أن الأدب بهذا المعنى يؤول إلى مطية سوء وسلاح هادم فتاك ، وما ذلك هو المنشود والمرجو من الأدب فى أية أمة قويمة فضلا عن أمة هي خير أمة أخرجت للناس.

وإذا صوّب المرء ناظريه تجاه الخلافة التى تقع فى فترة هذه الدراسة فإنّ السلطان عبد الحميد أول من نلقى على عرشها ، وإذا كان من قَدَرِ هذا السلطان أن تُسند إليه الخلافة والخلل الكبير قد دب فى جسم الدولة وكانت فترته عصيبة الأيام متلاطمة بالفتن ، إذ قد تم التآمر العالمي على حكمه وإبادة دولته ، إلا أنه برغم ذلك واجه هذه العقبات بصبر وأخذ أمره بحنكة وحزم ، وصمد أمام تلك الكرب المدلهمة ثلث قرن من الزمان يصارعها بكل ما أُوتي من حذر وحيطة ودهاء ، مما يعكس الحقيقة التى يجب أن يعبق بعبير مجدها تاريخ هذا السلطان (٢) إذا ما نظرنا إليه فى مواجهة التآمرات التى كان ينازلها فقط، فضلا عن كثير من الحسنات التى يغمطها من يغضون عن حسناته لينعتوه بما شاءوا من الزور والبهتان ، ومع ذلك فقد كانت الأمواج التى تعصف من حول هذا الخليفة أكبر من أن تُغالب أو تدافعَ ، حتى استطاعت أن تنزع الخلافة منه لتفرض عليه العيش وحيدا معزولا حتى الممات .

---

(١) جاء فى الحديث النبوى" من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" رواه مسلم في كتاب الامارة .
وفى حديث آخر" من أتاكم وأمركم جميع على رجل منكم يريد ان يشق عصاكم فاقتلوه" رواه مسلم فى كتاب الامارة ، وانظر لمزيد من ذلك كتاب الامارة عند البخارى ومسلم.

(٢) انظر : المراجع التى كتبت عن هذا السلطان فى الفصل الاول من هذا البحث .ص٨٥ .

فى خلافة السلطان عبد الحميد كان ثمة من ينقم على الخلافة العثمانية، بل كان ثمة من يغلى حقدا على هذا الخليفة - كما سنرى فى قسم التيار المعارض باذن الله - ويدعو إلى الخروج عليه، وقد ساعد على مثل هذه الأفكار تلك القلاقل التى حاقت بالدولة يومئذ وجعلتها مسرحا للقلاقل والاضطرابات، وقد كان الشيخ محمد رشيد رضا يعلم كثيرا من هذا الحقد على السلطان فكتب مقالة عن الخلافة والخلفاء (١) أنكر فيها على من يدّعون نقص شروط الخلافة فى بنى عثمان، إذ أن بيان شروطها وانطباقها على القائم بالخلافة فى ذلك العهد أو عدم انطباقها " إنما يأتيها أرباب الأغراض الدنيوية بل الامراض الروحية ، الذين يثيرون رواكد الأوهام ، ويسيرون فى دياجير الظلام ، . . . إن مَن يُحاول اشراب الافهام وجوب نزعة الإمامة من بنى عثمان فهو عامل على الاجهاز على السلطة الاسلامية ومحوها من لوح الوجود ، وما لهؤلاء النوكى (٢) من تكأة يتكئون عليها إلا قولهم" الخلافة فى قريش" وغفلوا أو أغفلوا الشروط المهمة التى لا توجد اليوم فى قرشي كالعدالة على شروطها الجامعة ، والعلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والاحكام ، والرأى الصحيح المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح وجمع الكلمة ، وكل الذين توسوس لهم أمانيهم بالخلافة وتطريهم جرائدهم باستحقاقهم لها عراة من هذه الصفات التى هى أركان بناء الخلافة " .

واذ يُقرّ الكاتب شرعية خلافة آل عثمان لا يمنعه ذلك أن يُلمع إلى بعض الأمور التى خرجت فيها هذه الخلافة عن مقصدها ووظيفتها وإلى أن السكوت على أخطاء الأئمة وعدم النصح لهم منكر وباطل لا يصح اقرارهم وتركهم عليه ، كيف وقد حذّر القرآن من هذا المسلك ؟ الذى سيؤدي بأصحابه في طاعتهم العمياء إلى أسوأ مصير ، وماينفعهم يومئذ أن يقولوا (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) (٣) .

وعندما خُلع السلطان كان لهذا الحدث رنة فى الأدب العربي وبخاصة فى الشعر ، وهي لا تقل فى جملتها عما أحدثه إعلان الدستور في

---

(١) المنار - فاتحة العدد الثالث والثلاثين - ١٦ جمادى الاخرة ١٣١٦ المجلد الاول ٦٢٨ .
(٢) الأنوك : جمعه نوكي ، ونوك وهو الأحمق .
(٣) سورة الاحزاب : ٦٧ .

العام الذى قبله ، وما كان لهذا الحدث من أدب غزير دوّى في سائر بلاد الدولة العثمانية ، وقد كانت عواطف أدباء العرب إزاء هذا الخلع على طرفين متضادين كما أكد أحد الباحثين المعاصرين للحدث[1] ، عواطف الفرح والسخرية والشماتة وقد شاعت فى أوساط أدباء العراق والاقطار السورية والمهاجر ، وعواطف الشفقة والعطف وكانت فى مصر وإن لم تخل من بعض الشامتين ، ولا غرو فظروف مصر التى كانت تُعانى منها وهى سلطة الاستعمار الانجليزى الذى جثم عليها كان يُملى عليها ذلك ، فضلا عن أنّ النزعة الإسلامية كانت تُملي على المصريين حبهم وتعلقهم بالسلطان العثمانى ، ورغم أن انجلترا قد أعلنت الحماية على مصر فى سنة ١٣٣٣ / ١٩١٤م ملغية بذلك السيادة العثمانية من مصر فقد استقر الولاء والعطف على الخلافة بعد خلع السلطان عبد الحميد وفى سني الحرب العالمية الأولى والتى أعقبتها رغم انقطاع ما بين مصر وتركيا من صلات ، كما أكدت ذلك كثير من الحوادث التى وقعت[2] كمظاهر السخط على السلطان حسين كامل (١٩١٤-١٩١٧) الذى عينه الإنجليز لحكم مصر و الاعتداء عليه ، وكاضطهاد الشعب المصرى للأرمن والطليان واليونان المقيمين بمصر ، وقد تعدّى الحزن لخلع السلطان عبد الحميد البلاد العربية إلى بعض البلاد الإسلامية ، فقد كتبت بعض الصحف عن هذا الانقلاب مظهرة حزنها الشديد لهذا الأمر ، وسماه بعضهم " الانقلاب المشئوم فى الدولة العلية" كما أُشير إلى فضل هذا الخليفة وحسن حنكته مما دفع أوروبا أن تتحد لمقاومته والاخلال بتدابيره وخططه . [3]

وحسبك أن تقرأ ماكتبه المنفلوطي [4] الذى آلمه هذا المصاب الجلل فوقف مندهشا يسائل قصر (يلدز) الذى سكنه السلطان ثم يسائل السجن الذى خلف القصر ثم يسائل الدّهر كيف يجمع بين النقائض والتقلبات العجيبة .

أمّا القصر فأين تلك الحياة التى كانت فيه يضيئها وجود الخليفة وتزينها وفود العظمة من كل مكان لتظهر الطاعة لرب القصر ، وأين تلك الحركة التى كانت تنصاع لذلك الصوت بالسعد أو النحس من جنبات ذلك القصر ، لقد

---

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث : ٥٢ ، ٥٥ .
(٢) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ١٠ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) انظر : المنار مجلد ١٢ ص ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
(٤) النظرات ٢ / ١٩ - ٢١ .

سلب الدّهر كل ذلك رغم كثرة الحجب والحراس والأبواب .

" أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذى كان يتنقل فى أبراجك ؟ أين النسر الطائر الذى كان يُحلّق فى أجوائك ؟ أين الملك القادر الذى كان يطلع شمسا فى صباحك وبدرا فى مسائك ؟ أين الأعلام والبنود تخفق من شرفاتك؟ والقواد والجنود تخطر فى عرصاتك؟ أين الشفاه التى كانت تلثم ترابك ؟ والأفواه التى كانت تُقَبّل أعتابك ؟ والرؤس التى كانت تطرق لهيبتك والقلوب التى كانت تخفق لروعتك ؟ أين الصوت الذى كان يُجلجل فيقرع أذن الجوزاء؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء؟ أين الفلك الذى كان يدور بالسعد والنحس، والنعيم والبؤس، والرفع والخفض ، والابرام والنقض ؟

. . . أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحرّاسك وحجابك؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء؟ وتصدّ عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر اذ ريعّ سربُه . . وإذ ذُعرت أطلاؤُه وجآذرُه
تحمّل عنه ساكنوه وهُتّكت . . على عجل أستارُه وستائرُه

أمّا السجن فيطلب منه الرحمة الشديدة بنازله الذى من عجب أن يحيط به بعد أن كانت الدولة الشاسعه ملكا له ، فيخاطب السجن قائلا :

" حل بأرجائك اليوم مَلك تضيق به الدنيا ، فكيف وسِعْتَه؟ وتعجز عن احتماله قُلَلُ الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقا به لا تُزعجه، ولا تُحرج صدره ، وضمّ جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع، وارحم هذا الجلال الذاهب والعزّ الزائل ، والرأس الذى بيّضته حوادث الدهور، والظهر الذى قوسته أيدى المقدور" .

وبعد أن يُسائل الدّهر عن هذه الاعمال المتناقضة من اعطاء وسلب، وكيف أنه لا يعطى الانسان كأس السرور خالصة يشد على صبر الخليفة أن يحيا، ويواسيه بأن ماحصل له إلا وديعة أُرجعت لأهلها وعسى فى ذلك خير كثير.

" ايها الرجل المودّع :

كان ارتفاعُك عظيما فوجب ان يكون سقوطك عظيما .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطّبت كما يجزع ويقطّب كل من ذاق من الشراب مالاعهد له به ، ولا قِبل له باحتماله لا تأسى على مافاتك فانما كان وديعة من ودائع الدّهر، أعاركها برهة من الزمان ثم استردها ، إنك لا تدري لعل اللهأراد بك خيرا . . . .

من بات بعدك فى مُلك يُسَرّبه . . فإنّما بات بالاحلام مغرورا "

ليس غريبا أن تتغير وجهة الدولة العليه حين وقعت سلطتها بيد جماعة لم يرضها أن تكون الخلافة هى محور قيادة الأمة (١) ، ولذا فالأحداث تجرى بسرعة والتطورات أخذت تظهر فجأة ، ويصحو الإتحاديون سنة (١٩١٣/١٣٣٠م) وإذا بموءتمر يُعقد فى باريس جميع أعضاءه من العرب يطالبون بكثير من الإصلاحات التى ترجع فى جملتها إلى اعتبار حقوق العرب فى المملكة العثمانية ، ولاسيما الحقوق السياسية من غير خروج على الدولة (٢) .

---

(١) يذكر الموءرخ والمفكر المعاصر محمد جلال فى كتابه (الحل الاسلامى) ط ١٩٨١م المطبعه الفنية القاهرة ص ٤٤٤ وهو بصدد حديثه عن الحملة الصليبية التى قامت بها أوروبا فى أواخر عهد السلطان عبدالحميد ثم حكم الاتحاديين فيقول" كان الاتجاه الطبيعى (اى للامة الاسلامية فى هذا الوقت) هو الالتفاف حول دولة الخلافة فى معركتها الأخيرة من أجل الإسلام. ولكن فى نفس الوقت كانت المعلومات والشواهد والوقائع تتجمع على أن هذه العصابة التى تحكم تركيا (يقصد الاتحاديين) هى الخصم الألد للاسلام ، والتى على يديها - كما قيل - سينزل بالاسلام وبالدولة العثمانية فى عشر سنوات ماعجزت صليبية أوروبا عن تحقيقه فى أربعة قرون .
قال سيرمارك سايكس (وزيرخارجية انجلترا قبل الحرب الاولى) الذى وُصِف بأنه ميّال للترك فى وصفه الحكومة الانقلابية بعد زيارة قام بها لاسطنبول عام ١٩١٣ (١٣٣١هـ) إن السلطة الجديدة علّمت الطبقة العليا شرب الخمر، والجندى العثماني ، الذى اشتهر باخلاصه علمته العصيان ، أمّا الدين الاسلامى فقد أصبح عرضة للسخرية والإهانة. إن هوءلاء الثوار الذين كانوا فى المنافى قد حملوا معهم إلى تركيا كل ماتقمّموه من مزابل ومجارى أوروبا من أفكار وقيم مسلكيه ، وطبخوا من كل هذه السلبيات مزيجا غريبا أحلوه محل قوة الخلافة التى سقطت .

(٢) انظر عن هذا الموءتمر : يقظة العرب - جورج أنطونيوس ١٩١ ، كتاب : الموءتمر العربى الاول ط ١٩١٣م مطبعة البسفور - القاهرة ، وهو سجل لكل ماتم فى الموءتمر ، وقد كتب محمد رشيد رضا تقديم الكتاب .

ومع أن هذا المؤتمر لم يمض دون أن يجد من ينتقده ويهاجم أربابه ويعترض على فكرته، غير أن الاتحاديين لم يستفيدوا من أبعاد مثل هذا المؤتمر رغم ما أبدوا من موافقة وإرضاء لمطالب المؤتمرين حين عُرضت عليهم .

وماهى إلا بُرهة حتى يُعلن الشريف حسين فى(عام ١٣٣٤ / ١٩١٦) (١) ثورته على العثمانيين الأتراك منطلقا من مكة بعد أن أعدّ وأبناؤه كثيرا من الخطط التى نسجتها لهم نسجا مموءها السياسة الإنجليزيه ، ويجهر بانفصال العرب عن سلطة الترك ويباشر ضرب قواتهم فى الحجاز مثبتا سلطته العربية وقيام حكومته ، وإذ تكشف الأيام بسرعة الأصابع الخفيه وراء هذه الثورة ، وإذا بالشريف دمية فى يد الإنجليز ، هنا تجد من يقف ضد هذه الثورة من الموالين للجامعة الاسلامية ، اذ هي حركة تشق عصا الأمة الواحدة ، والوضع المحيق بالأمة يُظهر مسيس الحاجة الى التآزر لا التنابذ ، ولذا تصدى مجموعة من الكتاب والشعراء بل والعسكريين الذين لهم المام بحقيقة الثورة وخطورة الموقف ضدها منفّرين منها ومعارضين ، وقد كان بدر الدين الغسانى ورشيد رضا والأمير شكيب أرسلان من أشهرهم (٢) ، فرشيد رضا لم يقبل أن يبث الدعاية للإنجليز لموافقة سياستهم التى تنوي فصل العرب عن الترك ، كما رفض أن يدعو للشريف بل نصحه بالحذر من الانجليز (٣) ، وأما شكيب أرسلان فقد " وقف ضد بني قومه من أحرار العرب فى استانبول حين دعوا إلى الانسلاخ عن العثمانيين ، واعترف أنه سيكون فى الصف المقاوم للحسين بن علي ، وأنه ينتقد سياسة الخروج على الخلافة " (٤) ، ولقد كان استنكار أدباء مصر لثورة الشريف التى عرفت بالثورة العربية فى التاريخ المعاصر أظهر من غيرهم من الأدباء (٥) ، اذ قد عدّوا ذلك تحالفا مع الانجليز مستعمري مصر، فهو تحالف

---

(١) انظر عن حوادث ثورة الشريف حسين كتاب : اسرار ثورة العرب الكبرى أمين سعيد .

(٢) انظر مايأتى عنهم فى فصل : كتاب التيار المؤيد من هذا البحث.

(٣) انظر : السيد رشيد رضا او إخاء اربعين سنة - شكيب ارسلان ٢٠٣ ، ٣٢٥ ، المنار مجلد ٢٩ - مارس ١٩٢٨م - فاتحة الجزء الاول .

(٤) محاضرات عن الامير شكيب ارسلان : سامى الدهان ١٥ ، ١٦ .

(٥) انظر : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر : ٤٣ ، ٤٤ .

لأمة غربية ، كما رأوا أن الامر تقويض لأركان الجامعة الاسلامية .

من هذه الصور المحدودة التى تقف بنا إلى منافحة الأدباء عن الخليفة والخلافة الاسلامية حتى قيام الحرب الأولى ، إضافةالى ماسبق أن رأيناه من مدح السلطان فى الفصل الأول ، نرى - من كل ذلك - حفاوة الأدباء الكبرى بالخلافة وحدبهم الشديد عليها حتى خمود نار هذهالحرب العظمى فماذا كان الحال بعدها ؟ ذلك ما نأتى اليه .

ب) الخلافة بعد الحرب الأولى :

انتهت الحرب الأولى بانتصار الحلفاءعلى العثمانيين الذين حالفوا ألمانيا ،وقد كان من أثر ذلكأن وقعت القسطنطينية عاصمة الدولة تحت قبضة الحلفاء وسيطروا عليها ،وأرغموا العثمانيين على الموافقة على معاهدة " سيفر" الجائرة[١] (١٣٣٨/ ١٩٢٠م) والتى أباحت المضايق المائيه التركية وجعلتها تحت الرقابة لحرية مرور السفن فيها ،عندئذ دب الحزن والذعر فى الأمة من هذا المصاب العظيم ،كيف وقد وقعت دارالخلافة فريسة للصليبيين يدبرون بها مايريدون ،والذى زاد من عظمالبلاء غلبة الشعور اليائس واستبعاد أى محاولة لطرد هؤلاء الحلفاء ، غير أن الأمر فجأة يتغير ،ففى غمرة هذا اليأس تتوالى الأنباء بتمرد الاتراك على الحلفاء فى الأناضول بقيادة (مصطفى كمال) وتتوالى الانتصارات حتى تمكن هذا الجيش من طرد اليونان من الأناضول نهائيا فى (١٣٤٠/ ١٩٢٢) .

حينئذ تدب الحماسة والفرح في الشعوب الإسلامية ويتبارى الشعراء والكُتاب فى إطراء هذا الجيش وقائده ،إنّه هو الذى أعاد حياةالدولة وسيردّ مجد الخلافة ، وحين تقرأ ماكتبه فكرى أباظة فى ابتهاج المسلمين بهذاالنصر تشعر بقوّة العاطفة الاسلامية التى مازالت ترتبط بالخلافة ،فمن سخريته بهؤلاء المتحالفين يقول :[٢]

---

(١) انظر شروط معاهدة سيفر فى : الدولةالعثمانيه دولةاسلامية مفترى عليها ١ / ٢٤٥ ومابعدها .

(٢) اللواء ١٨ سبتمبر١٩٢٢م - عن الاتجاهات الوطنية ٢ / ٢٨ ، ٢٩ . وانظر مقال اخرمثله يمجّد انتصارات الكماليين هذه فى المنار - مجلد ٢٣ - ج ٩ - ٣٠ ربيع الاول ١٣٤١ - ١٩ نوفمبر١٩٢٢م .

" خير لكم أيها الأروام أن تهجروا من اليوم ميادين الحروب الى براميل المشروب ، وان تستعيضوا عن بلاد الأبطال المغاوير بفتح الخمامير وتربية أسمن الخنازير ،وان تسدُّوا نفقات الصليب الأحمر من بيع البصل الاحمر وأن تعودوا كما كنتم جرسونات من أن تعيشوا جنرالات بدون ألايات .

أنتم أيها الأروام فى العدو وأسرع من الخيول ،فقد سابقتم الأتراك فى مسافة أربعمائة ميل ،فوصلتم أزمير قبلهم ،وقفزتم من الشاطىء الأسيوي إلى جزر الأرخبيل ، فقدمتم الدليل القاطع على أنكم أبطال الألعاب الأولمبية، وأنكم النوابغ المُبَرّزون في الجري والنط والقفز وسائر الألعاب أيها الأحباب.

وبعد أن يُمعن فى السخرية باليونان التى منّتها بريطانيا بأجزاء من بلاد العثمانيين،ويحذر قادة مصر من تسرب اليونان إلى مصر يختم مقاله بالترحيب الحار بهذا الجيش الظافر :

" حياكم الله أيها الابطال . أنتم ابناء الموت وبنو الكريهة وخوّاضوا الغمرات ! انتم أبناء الحقائق ، وأُباة الذل ،وحملة الصارم البتار.

يمينا لا تعيدوا السيف الى قرابه ،حتى تعيدوا كل وطن مغتصب الى أصحابه وطلابه ، أيها الأعداء ،ان تركيا لم تمت ، وان تركيا لن تموت" .

ومع ذلك فقد وجدنا الكماليين بعد هذا النصر يسيطرون على القسطنطينية ويعلنون عزل السلطة عن الخليفة (وحيد الدين ١٩١٨م) الذى طلب الحماية الانجليزية لكى يطالب بحقه فى السلطة فيما بعد ، ثم يعلن " مصطفى كمال" فصل الدين عن الدولة ويُعين السلطان" عبد المجيد" خليفة فى الدولة - لاسلطان له - ويذيع قيام الجمهورية ، ويجعل أنقرة عاصمة للجمهورية الحاكمة بدلا من القسطنطينية .

ولذلك كانت هذه التغييرات - التغريبات - والتقلبات الجديدة موضع استغراب واستهجان فى الأمة الاسلامية يومئذ ،لكن الانتصارات التى سبقتها جعلت كثيرا من الكُتاب والمفكرين يغضّون الطرف عنها ولا يطعنون فيها ولقد ساعد على هذا السكون مقت الأمة يومئذ على السلطان وحيد الدين الذى اهدر دم " مصطفى كمال" الذى ظهر فى تلك الانتصارات فى صورة البطل المنقذ للأمة مما نزل بها ، بينما الخليفة راضخ فى القسطنطينية لما أملاه

الحلفاء ، وزاد من هوان هذا الخليفة أنه طلب الحماية فى بارجة بريطانية عندما أحس بأنه خليفة لا سلطان له عندما نُزعت السلطة منه .

وازاء هذه المواقف تباينت الآراء فى هذه التغيّرات لكن أكثرها مالت إلى تأييد مصطفى كمال الذى يُقاوم الحلفاء المتآمرين عليه وعلى الأمة فكان ثمة من يُبرّر أعماله بهذه الظروف الصعبة وإن رأى بعض الكتاب ألّا يتعجلوا الحكم عليه حتى تتبين الأمور ،والتى كانت الحرب تحدد اتجاهها والطريق الذى تسير فيه [1] .

وفى مصر تحتدم المعركة حول هذه التغييرات عندما قدم الشيخ (مصطفى صبرى) [2] شيخ الاسلام فى الدولة العثمانية فارا من الكماليين [3] - وأخذ ينبه المصريين الى مايضمره الكماليون من سوء نية وفساد للإسلام والمسلمين بهذه التغييرات ،واذ يعجب الشيخ من كثرة مايرى فى مصر من الكيل الوافى والثناء على الكماليين بلا تحفظ بينما دعاة الحق وأنصاره لا يقولون الحق إلا همسا ثم لايجدون من يصغي اليهم ،تراه يعرض مكان الخلافة من الحكم الاسلامي الصحيح داعيا إلى إقامتها ، ثم يتساءل لماذا اختص الكماليون بالسلطة ورفضوا الخلافة لأنها - اى الخلافة - هى التى

---

(١) راجع مقالا فى المنار مجلد ٢٣ - ج ٩ - ٣٠ ربيع الاول ١٣٤١ - ٩١ نوفمبر ١٩٢٢ م بعد ان يمجد الكماليين فى انتصاراتهم ينكر عليهم ما ابتدعوه فى امر الخلافة المجردة من السلطة ،ولكنه يدعو المسلمين إلى تأييد الكماليين فى موقفهم العام أمام الحلفاء الذين سيتفاوضون معهم فى (لوزان) ويرى مناقشة هذه الأمور بعد أن تستقر الأمور.

(٢) مصطفى صبرى - عالم وفقيه تركي ولد ١٢٨٦ ،تولى مشيخة الإسلام فى الدولة العثمانية وقاوم حركة العلمانية التغريبية التى نفذها مصطفى كمال، وهاجر بسببها إلى مصر ١٣٤٠ وكان له ردود ومعارك مع كثير من المفكرين المصريين الذين كان فى آرائهم جنوح عن الحق واكثرها فى كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) مطبوع فى اربعة اجزاء وتوفى بالقاهرة ١٣٧٣ / ١٩٥٤ م. انظر مقدمة الكتاب المذكور ط ٢ - ١٤٠١ / ١٩٨١ م) دار احياء التراث العربى - بيروت ، الاعلام - خير الدين الزركلى ٧ / ٢٣٦ .

(٣) انظر الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ٣٣-٣٦ .

تصبغ السلطةبصفة دينية ، ولذا يرى الشيخ أنّ هذا كاف لجلاء حقيقتهم التى تريد السلطةالمادية وتعرضعن الخلافة الدينية .

ثم يضيف تساؤلا آخر : عن معرفة أسباب وحاجة هذا الفصل بين السلطتين ،كما أنه كان المتصور أن يترتب على انتصار الكماليين اعلاءً لكلمة الله ان كانوا جنده كما يدّعى لهم كثير من كتاب مصر ، ثم يقول (١) :

" أرونى حكومة إسلامية تمكنت من الجمع بين السلطة والخلافة ، وأقرها عامة شعب المسلمين عليه . . فردته تلك الحكومة نفسها وأبعدته عنها كما صنعته الفئه الكمالية؟ فما رامت هذه إلا التخلص من ربقة الخلافة و التباعد عنها " .

ومع خبرة الشيخ " مصطفى صبرى" بحقيقة الأمر لأنه من أهله فقد قُوبل بكتابات عنيفة ساخرة لا تليق بمثله ،وكُتبت ردود عليه مناصرة للكماليين ، ظنا أنهم حماة للاسلام الذين سيقومون بنصره ، وحسبك أن تقرأ وجهة نظر هؤلاء المعارضين للشيخ فى مقال طويل كتبه الشيخ محمد شاكر(٢) يبدأه بالثناء على أبطال الشرق (الكماليين) ورجال المجلس الوطنى الكبير وحماة الاسلام فى أنقره ، ثم يهاجم السلطان وحيد الدين الذى احتمى بالانجليز، ويبين مافعله الانجليز من كيد للمسلمين فى تلك الحرب ،إذ جهزت مصرُ تحت ضغطهم جيشا جرّارا حاربت به الخليفة فى العراق وسوريا وفلسطين وغيرها حتى أوقفوهم فى وجه خليفتهم ،واذ يصل الكاتب من ذلك إلى تبيين جرم وخيانة هذا السلطان يشير إلى منشور السلطان وحيد الدين الذى أذاعه قبل مغادرته القسطنطينية ،ودعا فيه المسلمين لمناهضة الكماليين

---

(١) الاهرام ٢ ديسمبر ١٩٢٢ عن الاتجاهات الوطنيه ٣ / ٣٤
وانظر لمزيد من آراء هذا الشيخ عن فصل الدين عن السياسه فى كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ج ٤ " الباب الرابع " .

(٢) الشيخ محمد شاكر قاض وعالم مصرى ولد ١٢٨٢ بمصر وكان من أعضاء هيئة كبار العلماء بها ووكيلا للازهر ومن اعضاء الجمعية التشريعية وكان بجانب ذلك كاتبا فى شئون السياسة المصرية ومناصرا للحركة الوطنية وتوفى بالقاهرة ١٣٥٨ / ١٩٣٦م .
انظر: مجلة الكتاب ٢ / ٤٢٣ ، الأعلام ٦ / ١٥٦ .

ويقول [١] :

" . . . يذيع هذا المنشور فى الاستانة وحيد الدين بن عبد المجيد عامله الله بما يستحقه ، وهو على أهبة السفر مغادرا ملك آبائه وأجداده ملتجئا الى الدولة البريطانيه ، معلنا أنه بصفته خليفة للمسلمين يطلب الحماية الآنكليزيه ، ولا يستحي من الله ورسوله ، ولا من الشعب الذى وجّه إليه هذا النداء ولا من الأمم الإسلامية التى يزعم أنه يتكلم باسمها كخليفة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ولا يشفق على تاريخ آبائه وأجداده ، ولا على التاج الذى دنّسه بالالتجاء إلى وضعه تحت الحماية الأجنبية ، فسحقا لمدنّسي شرف الإسلام وعز الأوطان حيث كانوا ، ثم سحقا سحقا . " .

واذ يتساءل عن نظام السلطة العثمانى " أفلا يجدر بالمسلمين بعد هذا أن يفكّروا فى قلب هذا النظام العتيق رأسا على عقب ، حتى يُنقذوا الاسلام والمسلمين من هذه الكوارث ، وحتى يضعوا حدا لتصرفات البلاط الشاهاني والباب العالى فى الشئون الاسلامية العامة ؟ " .

ثم يمضي يُذكر المسلمين بمآلهم تحت سياسة الخلفاء هوءلاء اذ خسروا عواصمهم التى حفلت بتاريخ مجدهم كبغداد ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وكادوا أن يخسروا " عاصمة العواصم الاسلامية على ضفاف البوسفور والدردنيل وهى البقية الباقية للاسلام من دور الخلافة العظمى والعواصم الكبرى ، بعد ما خسر الإسلام عواصم تونس والجزائر ومراكش وطرابلس ، وعواصم أخرى لا تُعدّ ولا تحصى فى مشارق الأرض ومغاربها " .

واذ يعزو للكماليين انقاذ الاستانة مُقراً لها بالزعامة ولآل عثمان بالخلافة لا يريد فرد الخليفة يتحكم فى مقدّرات الأمة " فمنبع الحركة والسكون هو العالم الاسلامي ، والخليفة مظهر لهذه الارادة لا منبعها ، وفى اعتقادى أن رجال المجلس الوطنى الكبير فى انقره انّما قصدوا إلى تحقيق هذه الغاية الشريفة حينما خلعوا السلطان محمد وحيد الدين ، وقرروا انتخاب ولى عهده عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة للمسلمين ، فبايعوه بالخلافة ، وبايعه

---

(١) الأهرام عدد ٥ ديسمبر ١٩٢٢م - ١٦ ربيع الثانى ١٣٤١ عن الاتجاهات الوطنية ٢ / ٣٤ ، ٣٥ .

المسلمون في مشارق الارض ومغاربها (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) . ." .

واذا كان الرأيان السابقان متباينين في فصل الخلافة عن الدولة فان ثمة بعض الآراء التى تميل إلى الاعتدال بين الرأيين السابقين ، فهى إذ ترى أن الأصل فى الخلافة عند المسلمين أنها منصب ديني وسياسي معا، وما قامت به تركيا الكمالية من فصل بين السلطتين يجعل من غير الضرورى أن تدين البلاد الاسلامية للخلافة التركية ، وفى هذه الحالة ليس هناك ما يمنع أن يكون الأمر شورى بين المسلمين لانتخاب خليفة لهم ، وفى ذلك موافقة لحقيقة الاسلام فى تنصيب الخليفة بعدما مضت بها قوة الملوك وعصبياتهم الى التوارث فيهم (١). ولعل هذا الرأى الأخير جاء بعد أن خفّت حدة المناقشة بين الرأيين قبله فتناولها فى نقاش هادئ وحياد في الرأى لا يميل إلى طرف أو يتحامل على الآخر.

ج) كارثة سقوط الخلافة :

لم تنته المناقشات في الأعمال البدعية الكمالية بعد وإذا بالقارعة تدوّي بازعاج شديد يقرع أسماع الأمة ، ويفجأهم بما لم يكونوا يحتسبون ، ففي سنة ١٣٤١ - مارس ١٩٢٤م حين مُكّن لمصطفى كمال في رئاسة تركيا يعلن إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا ويطرد الخليفة (عبد المجيد بن عبد العزيز) وآله وأسرته إلى خارج تركيا ويستولى على أموال آل عثمان وممتلكاتهم كما يأمر بإلغاء الوظائف الدينية وامتلاك الدولة لكافة الأوقاف (٢) .

وبذا يكشف مصطفى كمال عن حقيقته ويعرض - بعد شك وجدل حوله - صفحته الشوهاء ونواياه القبيحة السوداء .

وفى هذا الجو المكفهر والوقت العصيب من تاريخ أمة الاسلام، وقد

---

(١) هذا ملخص رأى د . طه حسين فى مقال له بعنوان (مسألة الخلافة) انظره فى : السياسه ٥ نوفمبر ١٩٢٢م.

(٢) انظر : تاريخ الدولة العليه العثمانيه محمد فريد - تحقيق : احسان حقى ٧٥٥.

فات الأوان وبلغ الكتابُ أجله ولم تجد الأمة من يرفع الكرب أو يسكن روع المصاب قامت النوادب وتعالى العويل وأطبق الحزن بجلاله الكئيب على النفوس، ولم يجد الكُتاب والشعراء صبرا يكافئ عظم الخطب وفداحة الرزء ، فانطلقوا يبكون الخلافة بدموع سخينة وأنفاس مكظومة ،تندب ذلك الراحل العزيز كما تندب الأم وحيدها ،إذ كيف يُمكن أن تزول هذه الخلافة التي لم تعهد الأمة - على امتداد تاريخها - سقوطها وإلغاءها ، ثم أخذوا بألسنة حداد فى قذف هؤلاء البغاة أعظم مجرمى التاريخ ،والكشف عن مخططاتهم التي أصبحت ماثلة للعيان ،وتبيين مسلك هؤلاء المارقين فى مسخ الأمة ومحاربة كل مايتصل بدينها،وما يقودونها فيه من سبيل التغريب والتضليل والضياع وكان من هذا الانقلاب الخطير أدب غزير يسامقه ويرسم مناحي النفوس التي هزها بخطورته وأهميته هزا عنيفا (١)

فذا كاتب يناقش فى تعقل وشفقة هذا الحادث الجلل (٢) ، ومادفعه إلى ذلك الأسلوب إلا إقناع من لا يرون مايذهب إليه صوابا إن لم يسخروا منه ويعدون هذا الأمر أحد أعمال النهضة فى تركيا ، وإذ يبدأ الكاتب بإقرار الرابطة الاسلامية بين العرب والترك العثمانيين أيام الخلافة قائمة، حيث المشاعر واحدة ،والأحاسيس متقاربة ومتيقظة ، يفرحون لفرحهم ويأسون لمصابهم،لكن ماذا يكون الحال حين وقعت هذه الكارثة؟ لقد تغير الحال كما يرى الكاتب " فخابت من الناس الظنون ،وتحطمت الآمال ،وتصدّعت القلوب، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم ،يراه قد ركب رأسه، واشتط فى هواه يقطع أواصر الأخوة ويصرم حبال المودة . . . " .

أمّا مايُقال عن صحة الخلافة وجدواها أو ضررها على الدولة فمنها " يَفْتَنُّ المجالدون فى تبيان ماجلبت على الدولة من مصائبَ ورمتها به من عداوة أوروبا ، فلا ريب عندي أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانية قط بل نفعتها أحيانا ،ماحاربت أوروبا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة ، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية " فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة بل الخلافة نتيجة

---

(١) انظر جملة من هذه الكتابات فى :الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ٢ / ٤١-٤٧ ، جريدة الاهرام أعداد شهر مارس ١٩٢٤م .

(٢) عبد الوهاب عزام - الرسالة : السنة الثالثه - ج ١ص ٩٤٣-٩٤٤- مقال : النهضة التركية الأخيرة .

الحروب وهذا ماجعل العثمانيين يحرصون على ادّعائها فى العصور الأخيرة ولو كانت غارات أوروبا عليهم لأجل الخلافة فلماذا قضوا على دول إسلامية كالتيمورية في الهند والسعديين فى المغرب ووالوا الغزو على المسلمين شرقا وغربا ؟ .

كانت الخلافة على ضعفها تُهدّد قوى الاستعمار وترهبه فهى على وهنها فى ذلك الزمن كانت " علما ينظر إليه المسلمون إن لم ينحازوا إليه ، وتنضوي إليه آمالهم إن لم تنله أيديهم ، وتعتز به نفوسهم وترى فى خفقانه ذكرى الماضى العظيم ، وتباشير المستقبل العزيز " .

أمّا إلغاء الخلافة فى تلك الخطوب المكفهرة فهو " كحل رباط حزمة من القصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلّغت أعداءهم أبعد غاية . لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبي عن تاريخ المسلمين وأحسب أن الانجليز - مثلا - كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التي بلّغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كدّ .

ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى الغاء خلافة الاسلام قد أخروا دولتهم عن صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة ، فهم اليوم فى صف دول البلقان ، وأن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشتري مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل والمال الوفير، طيبة نفوسهم بما بذلوا وما نالوا . . . ذلك شرّ أصاب المسلمين لا محالة، وإن عجز عن إدراكه الثائرون في غبار الثورة فقد أدركه البعيدون يقينا، وبكوا من أجله طويلا " .

وتخرج الأهرام (١) على الناس بمقال عنيف يُندّد بضخامة ما اقترفه الكماليون وأنه " مارُمي الإسلام بسهم أو هى لجَلَده وأوهن لعَضده وأدمى لكبده ، من هذا السهم الذى رماه به الكماليون ، أحنى ما كان وأشدّ ما كان سكينة واسترسالا إليهم ، وما استطاع أعداء الاسلام أشدّ ما كانوا به ائتمارا وأعدى ماكانوا عليه عدوانا ، وأصدق ماكانوا رغبة فى الكيد له والنكاية فيه أن يبلغوا منه مابلغه هؤلاء الكماليون على مرأى ومسمع من المسلمين جميعا

---

(١) عدد ١٤ مارس ١٩٢٤م مقال "ياغربة الاسلام فى موطنه" بدون ذكر كاتبه .

فإقدام الكماليين على إلغاء الخلافة أكبر جريمة فى عهد هذه الدولة على الدولة ،وأشنع جريمة في تاريخ الإسلام على الإسلام .

فأيّ شرّ يحسب هوءلاء الملاحدة أنّهم بإلغاء الخلافة يدفعونه وأيٌّ خير يظنون أنهم للدولة بذلك يجلبونه؟ .

لقد نقضوا موثقا أخذته عليهم ثمانية قرون وبعض قرن ،واطّرحوا أمانة حملوها كل ذلك العهد العهيد ، وخرجوا للمسلمين من تبعة لم يخرجهم منها أحد ،وحاولوا عبثا أن يحلوا بيعة بعنق كل مسلم في الأرض معقودة . لقد جردوا أمير الموءمنين من القوة التي تقوم بها إمارته بدعوى الفصل بين السلطتين ، وما أرادوا إلا الفصل بين عهدين ، عهد الدين الذي استدبروه وعهد الإلحاد الذي استقبلوه ، ثم صرح الشر عن محضه ، وتكشفت النية عن خبثها ، فإذا هم يلغون الخلافة برأيهم ، ويخرجون بالخليفة من مقر خلافته فى جنح الليل ،كأنهم استحيوا أن يواجهوا بجريمتهم وضح النهار،وودّوا لواستطاعوا أن يخفوا جريمتهم عن مسلمي الأمصار" .

لم يكتف مصطفى كمال بحل الخلافةالإسلامية بل أتبعه بخطوات أخرى جريئة فى سبيل التغريب والتضليل والبعد بالأمة عن ميراثها الإسلامي والدفع بها فى التشبه بالغرب واللحاق به، ولقد أسرف الكماليون فى هذا الاتجاه ليطمسوا معالم الإسلام مما لفت الأنظار إلى هذا الأمر، فسجل بعض الكتاب الغيورين هذه الأعمال كاشفين المغزى الكبير من ورائها ، فهذا الزيات يكتب فى استفهام وسخرية عن هذه الموجة المضللة العنيفة ،ويصور الكماليين وهم يغذون السير ويستحثون الخطى فى هذا الطريق التغريبي ويتساءل الكاتب كأنه لا يعرفهم (١) : " مَن السائرون فى شحوب الأصيل على حدود المغرب، يسرعون الخطى كأنهم هاربون من النهار،ولا يلتفتون إلى الخلف كأنهم ناجون من سدوم ؟ ! مَن السائرون بين النور والظلام على الدرب الخادع المبهم، يخفقون كأطياف المساء على حواشي الطفل ،ويطمسون الطريق من الوراء حتى لا يرجعوا إلى الأهل .

إنها أمة من صميم الشرق نشأت فى نوره ،وطُبعت على شعوره ،

---

(١) الرسالة ،السنةالثالثة ،مجلد ١ص٣٦١ مقال : أين يساق الأتراك .

وتنفست فى عطوره، ألقت زمامها الأقدار الغالبة فى يد عصبة من أبنائها، رُبّوا فى غير أحضانها فنشأوا على غير منشئها، وجروا على خلاف مبدئها، فقطعوها بالكره عن مشرق الشمس ومبعث الروح ومنبت العاطفة ومنشأ الدين، وخرجوا بها متعسفين إلى طريق مشتبه، وغاية مريبة، ودنيا مجهولة، ثم قالوا لأنفسها إنسلخي عن شرقيتك بأمر القانون، ولقلوبها إعتقدي غير عقيدتك بحكم القوة، ولألسنتها أنطقى غير لهجتك بإرادة الحاكم، ولحاضرها انقطع عن الماضى بسطوة الجمهورية، ولأرضها وبيئتها وطبيعتها إنفصلي عن آسيا باذن الحكومة ! كأنما الأمم تُصاغ بالقوانين، والطبائع تُغَيّر بالأوامر !!.

مهلا ساقة الظعن وهداة القافلة !! سترحلون عن وطن إلى غُربة، وعن ولاء إلى عداوة، وعن إخوة إلى سادة. ماذا نقمتم من الشرق مهد الإنسان ومهبط الأديان ومنبع الإلهام ومسرح الأحلام ومبدأ النشأة؟ ألم يخلق اليابان اليوم كما خلق الصين والهند وبابل والفرس والعبران والعرب بالأمس؟".

وبعد أن يأمل الكاتب للشرق نهوضا فى مستقبل الأيام كما لاحت بشائره يذكر تلك الأعمال القبيحة التى أقدم عليها الكماليون لسلخ الأمة عن جنسها الإسلامي وطبعها الشرقي كإلغاء الكتابة بالعربية وتغيير الأعياد ونزع الطربوش وغيرها، غير أن أكبر الأخطاء هى حين علّلوا أخطاءهم وأسباب نكباتهم بسبب الخلافة فنفوها من الأرض وتحيفوا مايلابسها من شرقية وعروبة ودين .

وأخيرا يناقش مصطفى كمال فيما يظنه التعمير وهو تدمير، وما نتائج هذه الأعاصير الهوجاء، إنه سيسجل عليه الرقيب " إنك أحييت دولة وأمت أمة، وبنيت دستورا وهدمت عقيدة، وبعثت لغة ودفنت ثقافة !

ماجريرة العرب على الترك وقد استخلفوهم على الدين واستأمنوهم على الرسالة، وماجريمة الإسلام على الترك وقد نعشهم من الخمول وأجارهم من الجهالة؟ وماذا يبقى من لغة الترك وثقافة الترك إذا محوت أثر العروبة ودينها من كل ذلك ؟ .

إن العرب ليسوا أقل شأنا من الطليان والجرمان، والإسلام ليس

بأضعف فى رفع الشعوب من وثنية اليابان ، ولكنها موجة من المادية الطاغية غشت على الأبصار وطغت على البصائر، ستنحسر غمرتها عن مجالي الفضيلة والحق ولو بعد حين !"

ويكتب مصطفى الرافعى فى تصوير بارع عن انحراف أتاتورك متخذا أسلوب الرمز حيث سماه بالطاغية مبينا سيرته التي بدأها متظاهرا بتأييد الإسلام ليجمع حوله الأمة، حيث أمر بعمارة المساجد والمدارس وأحضر له علماء ليفقهوه فى الدين ، بيد أن النزعة اليهودية عند هذا الطاغية لا تلبث أن تغلب عليه لأنه يريد الربح من أى سبيل كان ، فعندئذ تتغير حاله وينقلب أمره فيهدم كل مابناه ، وعندها يودي بحياة كثيرمن الرجال والصناديد بالشنق والتعذيب ، ويوغل فى عصبيته التركيه حتى يكاد يجن لمحو كل مايصل الترك بالعرب ، ويرى أن دين الإسلام خرافة وشعوذة على النفس ، ومما جاء من الصور التي تدل على رعونة هذا الطاغية وطيشه كما صور الرافعى[1] أن" سخر منه المصريون بنكتة من ظرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته ، فصنعوا إمرأة من الورق الذى يشبه الجلد ، وألبسوها خُفّها وإزارها ، حتى لا يشك من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قصة وأقاموها في طريقه ، فلما رآها عدل إليها وأخذ من يدها القصة وقرأها ، فإذا فيها سب له ولآبائه ، وسخرية من جنونه ورعونته المضحكة ، فغضب وأمر بقتل المرأة ، فكانت هذه السخرية أخرى حين تحقق أنها من الورق " .

أما عن سعيه لهدم كل ماورثه الأبناء عن الآباء من دين وأخلاق وأعراف فيقول الرافعى عنه " يزعم الطاغية أنه يعز قومه وما أراه يعزهم ، ولكنه يمتحن ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم ، يتجرأ شيئا فشيئا ، متنظرا ما يتسهل ، مترقبا مايمكن ، وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هىَ أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا ، فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظن عند نفسه أنه يهدم قبورا لا أخلاقا . . . يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم ، وإني لأخشى والله أن يأمر الناس فى بعض سطوات جنونه أن كلّ من كان له أم أو أب بلغ الستين فليقتله . لتخلص الأمة من قديمها الإنسانى ! ، كأنه لا يعرف أنّه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ ، ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم

---

(١) وحى القلم ٢/ ٢١٦ ، ٢١٧ .

وطباعهم وميراثهم من الأسلاف، فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيئان : نتن رمته في بطن الأرض ، ونتن أعماله على ظهر الأرض .إن هذا الرجل المسلط كالغبار المستطار لا يُكنس إلا بعد أن يقع" .

وبمثل هذا النهج الرمزي أيضا صاغ الرافعي مقالته" كفر الذبابة[1] " لمعالجة فكرة الطغيان والتسلط الكامل،وإن كان قد إتخذ من " كليلة ودمنة" والحوار فيما بينهما أسلوبا لمقالته .

ويخاطب علي الطنطاوي[2] أيا صوفيا الذى عمد الكماليون إلى جعله متحفا،ولكنه يبدأ بمناقشة حكومة الكماليين التى " عمدت إلى بيت من بيوت الله ،تُقام فيه شعائر الله ، فجعلته بيتا للأصنام ومثابة للوثنية ،أماتت فيه التوحيد ،وأحيت فيه الشرك ،وطمست منه آي القرآن ،وأظهرت فيه الصور والأوثان ،لم تضق بها الأرض حتى ماتجد مكانا لمتحفها هذا إلا المسجد الجامع ،ولكن النفوس الملحدة ضاقت بهذا المسجد ،وأحس أصحابها كأنّ هذه المآذن فى عيونهم ، وكأن هذه القبة على ظهورهم ، وغشيت أبصارهم من نور الله ، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ،ويمنعوامساجد الله ان يذكر فيها اسمه فعُطّلت الصلاة في أيا صوفيا فلا تقام فيها بعد اليوم ،وسكتالمؤذن فلا يدعو فى مآذنها إلى الله ،ولا يصدع بالتهليل والتكبير ،ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلوها إلا مستعبرين باكين ،يندبون فيها مجد الإسلام وعظمة الخلافة وجلالة السلطان " .

ليست أيا صوفيا شيئا تافها حتىتُمحى بكل هذه السهولة ، إنها أمجاد أمة وعظمة تاريخ وميراث عز،ولذا يقول الكاتب عنها " أيا صوفيا التي تشهد كل حجرة فيها ، وتشهد أرضها وسماؤها ، وتشهد قبتها المشمخرّة وتشهد مآذنها السامقة ،ويشهد الناس،ويشهد الله وملائكته، أنها بيت من بيوت الله ،وحصن من حصون التوحيد ، ودار من دور العبادة .

---

(١) انظر : وحى القلم ٢ / ٢٢١ .

(٢) الرسالة ـ السنة الثالثة ـ المجلد الاول ص٨١٢ ، مقال : أيا صوفيا وانظر أيضا : المجلد نفسه ص ٥٤ مقال : حرب منظمه يشهرها الكماليون على الاسلام ـ لمحمد عبدالله عنان .

أيا صوفيا تعود للجبت والطاغوت ، وتحمل الصور والأصنام ، ويخسرها الإسلام والشرق ، ليربحها الكفر والغرب ؟ .

لقد أُريقت حول أيا صوفيا دماء زكية ، وزُهقت فى سبيل أيا صوفيا أرواح طاهرة ، من لدن معاوية إلى عهد الفاتح ، إلى عهد عبد الحميد ، أفراحت الدماء هدرا ، وذهبت النفوس ضياعا ، وعادت أيا صوفيا بعد سبع وثمانين وأربعمائة سنة وكأنما لم يذكر فيها الله ، ولم يتل فيها القرآن ، ولم تقم فيها الأئمة ، ولم تتجاوب مآذنها بالآذان ؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم ، وسقوه بدمائهم ، وحموه بسيوفهم ، ثم وقفوه على الإسلام ، أفيأتي فى ذيل الزمان من يعبث بالوقف ويهزأ بالدماء ، ويلعب بالجماجم ، ثم لا يردعه رادع ، ولا يعظه واعظ ؟ "

أمّا تعصب الكماليين لعنصريتهم الطورانية فيسخر منها الكاتب فى استفهام إنكارى قائلا : " ومن هم الأتراك لولا الإسلام ؟ على أيِّ حسب يتّكلون ، وبأي نسب يفخرون ، وبأى ماض يعتزون ، وبأى مجد يباهون ؟ أبمجد رُعاة البقر فى تركستان ، أم بمجد أُرطغرل بك ، وقد جاء من مشرق الشمس بدويا جافيا فقيرا لا يملك إلّا أعنة ركائبه ، وطنب خيامه ، يفترش الغبراء ويلتحف السماء ، فصار أحفاده بالإسلام سادة القارات الثلاث ؟ أفرأيت من ينطح برأسه الصخر ، ويشرب بفيه البحر ، ذلك هو التركي حين ينكر الإسلام ويسعى لإيذائه ، إنه لا يُحطّم الصخر ولا يُجفّف البحر ، ولكن يمشي على رأسه إلى القبر ، وإن الإسلام إلا يكن بالترك يكن بغيرهم ، ولكن الترك إلّا يكونوا بالإسلام والله لا يكونوا بغيره أبدا . . " .

رغم الحزن الذي انتاب الأمة لسقوط الخلافة وماتلاه من أعمال المسخ والتغريب والبعد بالأمة عن كل مقوماتها الإسلاميه التي باشرتها عصبة الكماليين فإن لهذا الحدث آثارا أُخر ظهرت في تلك الكتابات التي كانت تعتذر بحرارة، وتأسف لما دبّجته من بيان لنصرة مصطفى كمال قبل أن يكشف قناعه ، وهي فى الجملة تهاجمه وتذم صنيعه، وتُنمّ عن خطورة ما أقدم عليه وضرره المحيق بالأمة ، وبجانب ذلك كانت ثمة كتابات أخرى ترثي لحال خليفة المسلمين ولمآله الحزين ، وتريد أن تُعرِّف الأمة بأخباره وأسرته

وأحوال المطرودين من آل عثمان ، ودعوتهم للنزول إلى بلاد المسلمين أنى يريدون منها[١] ، وكأنما هؤلاء يريدون إعادة الكرة وتخطيط الأمر من جديد لمحاولة إعادة هذا الخليفة وأسرته إن أسعف الزمان ، ولكن الأمر كان أعظم مما يتصورون ، إذ قد نُفي الخليفة إلى أوروبا ليعيش مغزولا عن المسلمين، لتُضرب عليه الذلة ولا يستطيع هناك أن يبتغى نفقا فى الأرض أو سلّما فى السماء .

د) ما بعد سقوط الخلافة :

رغم القضاء المبرم الذى حلّ بخلافة المسلمين ليمحوها من الوجود تجد الأمة الإسلامية - مع فداحة الخطب - لم تقطع العهد بالخلافة أو تيأس منها استسلاما للواقع أو رضى به ، فقد قامت المطالبة بإحيائها وإعادتها فور تأكّد سقوطها، مما يدل على المكانة العظيمة التي توليها الأمة لهذا النظام فى الحكم وتعلقها به ، وإذا كانت الكتابات الأدبية والفكرية - وهى التي تُقصد هنا - قد أسهمت بنصيبها فى هذا المجال فإن ثمة بعض الجهود العسكرية التى قاومت أعداء الخلافة متوخية بعثها لا تغمط في ما بذلته فى هذا الميدان[٢] .

ولقد كانت مصر آنذاك هى التى تزعمت بحث مسألة الخلافة ، وطرحت مسائلها المتعددة على صفحات صحفها واحتدم النقاش حولها[٣]، وبرغم المكانة التى كانت لمصر آنذاك وكما كان يتصورها دعاة الخلافة فى زعمهم أنها أولى البلاد بها فقد كانت السياسة الخديوية للملك فؤاد (١٢٨٤-١٣٥٥) من

---

(١) انظر : الإتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ٢ / ٤١ ، ٤٢ .

(٢) قامت ثورة الطائفة النقشبندية في قبائل الأكراد بزعامة الشيخ سعيد النورسى الكردى شيخ الطريقة النقشبندية فى ديار بكر عام ١٩٢٥م للمطالبة بعودة الخلافة وإسقاط الجمهورية وامتد لهيبها إلى أنقرة فجرد لها مصطفى كمال حملة كبيرة استطاع بها أن يقضي على الثورة وعلى رئيسها ، وعمل على ترحيل قبائل الأكراد تفاديا لأي مقاومة أخرى .
انظر : السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية ص ١٨٩ .

(٣) انظر التفاصيل : الإتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : ٢ / ٤٧-٥٥

وراء ذلك[1] ، حيث كان الميل والطمع في حيازة عرش الخلافة الكبرى .

ورغم الجهود التي كان للأزهر ورجاله فيها أكبر النصيب فقد كان هناك حزبان مختلفان في الرأي : الأول الذي يتزعمه شيخ الأزهر وعلماؤه الرسميون ، والآخر : تمثله جماعة الخلافة الإسلامية والتي ترى أن مصر لا تصلح للخلافة وتعارض ذلك .

أما الحزب الأول فهو الذي كان من ورائه الخديوى يشجعه ويسهل أموره ، فنشطت الدعوة لعقد مؤتمر إسلامي للخلافة في داخل مصر ، وأصدر مجلة باسم المؤتمر العام للخلافة ، خرج عددها الأول في ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (أكتوبر ١٩٢٤م) ، تصدّره مقال للشيخ محمد رشيد رضا أبان فيه أهمية المؤتمر ومطلوبه [2] " فهذا أول مؤتمر إسلامي عام يشترك فيه علماء الدين والدنيا من أكبر الشعوب الإسلامية وأوسعها علما و ثروة ، وأشدها بأسا وقوة ، والمطلوب الأول منه وضع نظام للإمامة العظمى يدخل في بابين (أحدهما) قواعد حكومة إسلامية مدنية يظهر بها علو التشريع الإسلامي على جميع ما اشترعه البشر في العدل والمساواة والجمع بين السياسة والفضيلة التي خلا منها اشتراع القوانين المادية ، (وثانيهما) قواعد للتربية والتعليم الجامعين بين هداية الدين و مصالح الدنيا وتوثيق روابط الأخوة الدينية بين المسلمين على اختلاف شعوبهم ومذاهبهم وتعدد حكوماتهم . . . وأمّا المطلوب الثاني فهو اختيار خليفة وإمام للمسلمين . . . " .

ويقول كاتب آخر بعد أن بين شرعية الخلافة وحاجة المسلمين إليها[3] :
" فاذا قامت مصر بالدعوة إلى عقد المؤتمر وتعميم الدعاية بإنشاء مجلة خاصة وبإرسال الرسائل للتخاطب مع أهل الاختيار في البلاد الإسلامية فإنها بذلك قد قامت عن المسلمين كافة في أمر فرضه الدين ودعت إليه حاجة العمران ولعل المسلمين يتخذون من ماضي تاريخهم ومن الحوادث الحاضرة وازعا يدفعهم إلى النهوض متفقين لا متفرقين . . . تحت راية خليفه واحد يحمي

---

(١) انظر مايؤكد ذلك في : الاسلام واصول الحكم ـ على عبد الرازق ـ دراسة ووثائق ـ محمد عمارة ٨-١٤ ، ١٦ .

(٢) مجلة المؤتمر الاسلامي العام للخلافة (العدد الاول) ص ١٣ .

(٣) مجلة المؤتمر العام للخلافة ص ١٨٧ و الكاتب : محمد فراج المنياوى .

دينهم ويسوس دنياهم .

إن مسألة الخلافة من أمّهات المسائل باعتبار أنها قضية دينية، فالتخاذل فيها تخاذل فى الدين تخاذل فى أمور الدنيا ، فلننهض بأكبر مسألة حتى لا نجعل التاريخ يحكم علينا بأحكام قاسية مهينة لكرامتنا وسمعتنا فى عصر العلم والنهوض، عصر العمل والتجدد والتعارف والتفاهم" .

وعندما نشطت الدعوة إلى المؤتمر وحُدّد شهر شعبان ١٣٤٣ (مارس ١٩٢٥م) لعقده أُجّل عدة مرات ليتم انعقاده فى ذى القعده ١٣٤٤ (مايو ١٩٢٦م) وتجتمع الوفود المشاركة وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، والنوايا غير مخلصة ولا واضحة ، وكلّ يريد أن يتجه الأمر إليه ، فانتهى المؤتمر بالفشل وخرج بلا ثمرة تُرجى ، وقد ساعد على نجاح هذا الفشل تلك التدابير التى سعت لتجعل فؤاد مصر خليفة ، واتضاح أطماع ملك الأفغان (أمان الله خان) أيضا فضلا عن التدابير التى كانت تريد إحباط هذه النوايا ، إضافة إلى أن الملك حسين قد أعلن الخلافة لنفسه فور سقوطها فى تركيا ، وهكذا تخرج كل هذه الجهود التي تروم الخلافة وإحيائها بلا جدوى ، وتلك سنة الله فى أمة ابتعدت عن منهج الله القويم أن لا يُمَكّن لها حتى تعود إلى الأخذ بحقيقة دينها وتقيم حياتها على هديه" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا " (١) .

فى غمرة هذه الجهود لإحياء الخلافة كانت الكتابات لا تنقطع هى الأخرى حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فهذا الزعيم التونسى (عبد العزيز الثعالبي) (٢) يكتب عن داء الشرق الإسلامى ودوائه (٣) ، ويرجع الكاتب

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) عبد العزيز بن ابراهيم الثعالبى زعيم تونسي خطيب وكاتب قاوم الفرنسيين فى احتلالهم لبلاده فأنشأ بعض احزاب سياسية وأصدر مجلة وشارك فى الاحداث السياسية فسجنه الفرنسيون ونفوه ، غادر بلاده متنقلا بين مصر وسوريا والعراق والهند مشاركا فى حركاتها الوطنية ضد الاستعمار وعاد إلى تونس فى آخر حياته وتوفى بها ١٣٦٣ . انظر: الادب التونسى ١٣٦/١ ، الحركة الادبية والفكرية فى تونس ١٢١ .

(٣) مجلة المعرفة ـ السنة الاولى (١٩٣١م) ص ٢٧٢ ، ٥٣٤ .

(بزعمه) هذا الداء إلى عدم وجود العناية الكاملة في وضع الدعامات الثابته لإقامة نظام ثابت للاجتهاد والخلافة والتشريع عند المسلمين كي يجعلوا لها شروطا وقيودا تتطور بحسب حاجات العصر، كما يدعو إلى فصل الدين عن الدولة حتى تبقى وحدة الأمة الإسلامية غير معرضة للأخطار.

أمّا الدواء فهو عقد اجتماع لا يكون بجهود الأفراد ولا بجهود موضعيّه يستبدّ بها فريق عن فريق، بل لابد لذلك من عقد اجتماع يتألف من عباقرة المسلمين وفطاحلهم وزعمائهم، ومن هؤلاء ينعقد مؤتمر يضع مناهج لتربية المسلمين وتعليمهم، ويؤلفون اللجان الدائمة لتنشيط علمائهم واستثمار جهودهم، وتسوقهم لإيجاد مقومات اجتماعهم ورسم الخطط الكافلة لتقدّمهم ودرء الأخطار الأجنبية عنهم، وبشرط أن يُشرف هذا المؤتمر على أعمال هذه اللجان وينعقد دوريا ليضع الأساليب التي تجعل تلك القرارات تأخذ التنفيذ.

وعلى مقربة من انعقاد مؤتمر الخلافة تجد كاتبا يتخذ طريق الرمز ويكتب عن " أول مؤتمر في الاسلام وماذا أثمر" (١) ويظهر لي أن الكاتب يتوخى من التذكير بمؤتمر" سقيفة بني ساعدة " تنبيه أعضاء المؤتمر الذي سينعقد في أمر الخلافة، وليعلم المؤتمرون أن الخلافة يجب أن تنأى عن الأهواء وتخلو من الرّيَب والمحاباة، ويلزم فيها التجرد والإخلاص، وأن يكون الهدف حفظ الأمة وصيانة الملة، واستبعاد الأهواء السياسية والنزعات النفسية والميول الشخصية، وليرغبوا في النصح لله ورسوله ولأمة الإسلام، مقتدين بإخلاص الصحابه في اجتماع سقيفة بني ساعدة في صدق التفاهم والمشورة مع الحرص على البعد عن الفرقة والشقاق.

وهذا الشيخ طنطاوي جوهري (٢) يكتب في الخلافة الإسلامية (٣)،

---

(١) مجلة المعرفة - السنة الثانية (١٩٣٢م) ص٨ ٤ ٤، كتبه: عبد الرحمن أبو لبن من دمشق - كلية الحقوق - الجامعة السورية.

(٢) طنطاوي جوهري: عالم مصري له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثه للتوفيق بينهما، مارس التعليم في عدد من المدارس وألقى محاضرات في الجامعة المصرية وله عدة تآليف اشهرها تفسيره (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وتوفي بالقاهرة ١٣٥٨، انظر: الاعلام ٣ / ٢٣٠، مباحث في علوم القرآن - مناع القطان ٣٧١.

(٣) مجلة المعرفة السنة الأولى (١٩٣١م) ص٦٤ ١٠، مقال: الخلافة الإسلامية

وبعد أن يعرض وظيفة الخلافة فى الاسلام مع شذرة من تاريخها ثم خروجها عما جاء به الاسلام يذكر رأيه فى انتخاب خليفة للمسلمين ، وخلاصة رأيه أن يجتمع أمراء الإسلام المفوضون من أممهم فى أمر الخلافة لينتخبوا أميرا منهم شريطة ألاّ يُبرم الخليفه أمرا من صلح أو حرب أو غيرها إلاّ بمشورتهم ، ثم يحددوا مدة خلافته فاذا انقضت أعيد بالانتخاب بالشورى مع مراعاة أن يكون جيش الخليفة أقوى الجيوش ، وأن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار .

وحين أشاع بعض الكتاب أن قيام الخلافة غير ممكن آنذاك لأنّ تركيا والمغرب لا تعترف بها ، ردّ عليه كاتب مغربي يبطل هذا الزعم[1] ، وأن هذه الشائعة ربما وصلت عن طريق الصحف الإستعمارية أو تصريحات الرجال الرسميين ، والقول فى الخلافة ليس من حق هؤلاء ولا أولئك إنما هو لإرادة الشعب المغربي الذى لن يُعارض مطلقا كل فكرة يستمد منها الاسلام والعرب القوة والمجد ، ويُنكر الكاتب عدم مساهمة المغرب فى أمر الخلافة نظرا لوقوع المغرب تحت الحماية الفرنسية ، ويدحض الكاتب مقارنة المغرب بتركيا التى أخذت تتنصّل من الإسلام ولكن المغرب يمسك على دينه بأيد من حديد ويريد إقامة شريعة الإسلام كما جاءت من عند الله .

وقبيل بزوغ الحرب العالمية الثانية نجد عباس العقاد يُناقش قيام الخلافة فى مصر[2] حيث قد قامت الدعوة فيها أقوى وأكبر من أيّ بلد آخر بعد ما أذكى الخديوى أمرها ، فينظر إليها من وجهة تكاد تكون سياسية ليخلص إلى أنّ الخلافة التى يلح المطالبون بها على مصر أن تقبلها فلن تقبلها مصر إلا إذا كانت معروضة عليها من الدول الاسلامية وكانت مفيدة لها ولهذه الدول التى تعرضها ، ولكن الأمر فى مسألة الخلافة - عنده - على خلاف ذلك بل نقيضه ، فمن ثمّ فان هذه الخلافة (عبء يضاف الى تبعاتنا ولا يفيدنا نحن ولا البلاد المشمولة بها ، وأنه ما من مزية مفروضة للخلافة إلا ونحن قادرون على تحصيلها فى حالتنا الحاضرة عن طريق التعاون والمساعدة الأدبية التى لا إلزام فيها لنا ولا غضاضة فيها على غيرنا ، ففى وسعنا اليوم أن نخدم إخواننا المسلمين وجيراننا الشرقيين بالوساطة الحسنة . . . دون أن يُفهم

---

(١) الرسالة - السنة السابعة - ج ٢ ص ١٨٠٣ ، والكاتب : أبو الوفاء من فاس بالمغرب كما فى المجلة .

(٢) الهلال - مارس ١٩٣٩ م مقال : مصر والخلافة .

من وساطتنا معنى سيادة أو ولاية أو افتيات على دولة من الدول الأجنبية ، وفى وسعنا أن نتبادل الرأي والمشورة كلما سنحت الفرصة الملائمة ، وأن نصبح قبلة للقاصدين ، مادمنا قادرين على الإفادة والخدمة فإذا عجزنا فليس لنا ولا للأمم الأخرى مصلحة في اتجاه الأنظار إلينا ، وهكذا نحقق الخير الذى فى الخلافة ولا نجرّ على أنفسنا ولا على العالم الاسلامى شيئا من تبعاتها وشقائها " .

وهكذا فى كل ما تقدم ومايماثله من ضروب البيان التى احتدمت حول أمر الخلافة يتجلى هذا الاهتمام البالغ بها ، وذلك الحرص الشديد على اقامتها واستمرارها ، ولاغرو أن لا تخرج هذه الروح الموءازرة والتأييد الواضح للخلافة ولدولتها إلا من مشاعر إسلامية أصيلة ، تعد الخلافة جزءا أساسيا من الدين وهدفا رئيسيا من اهدافه ، وتوءمن أنها هى النظام الإسلامى للحكم الذى لا يصح تغييره أو الخروج عليه (١) ولا يُعارض هذا معارضة الخليفة أو تغييره أو تعديل أحكامه عند الحاجة ، لكن الواجب أن تظل الخلافة جامعة شاملة تضم المسلمين وتوحدهم فى جميع أنحاء الأرض .

خرج عن الغاء الخلافة الاسلامية فضلا عن الكتابات السابقة عديد من الكتب التى دارت فى جوهرها حول نظام الخلافة وأصول الحكم فى الإسلام ، ولا ريب أن إلغاء الخلافة هو الباعث الرئيسي وراء هذه الكتب ، إلا أن هذه الكتب وإن اصطبغت بروح البحوث الدينية كما يُملى عليها موضوعها ، إلا أنها مع ذلك لم تكن لتخلو من القوة فى الرأي والجودة فى العبارة ونصاعة الأسلوب فى بعضها ، وقد كانت على قسمين : أحدها يوءيد الخلافة ويدعو إلى الأخذ فى الحكم بها ويناصرها ، والثانى يعارض ذلك ويرى فى الخلافة نظاما عتيقا لا يصحّ إجبار الناس عليه وحكم الأمة به فى العصر الحاضر ، بل لها أن تأخذ ماتراه يصلح لها فى هذا المجال .

وأشهر هذه الكتب أربعة دارت حول قضية الخلافة اثنان منها يوءيدان الخلافة وهما : (الخلافة أو الإمامة العظمى) لمحمد رشيد رضا ، و(النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) لمصطفى صبري ، والاثنان

---

(١) انظر : الخلافة أو الإمامة العظمى ـ محمد رشيد رضا ص ٢٠ ـ ٢٦ ، ٩٠ .

الاخران يؤيدان مصطفى كمال فى الغاء الخلافة وفصل الدين عن الدوله وهما : (الخلافة وسلطة الأمة) وضعه بعض الأتراك باشارة من الكماليين وترجمة (عبد الغنى سني) إلى العربية ، وكتاب (الاسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق .

ونظرا لاستيفاء أحد الباحثين (١) عرض هذه الكتب وكشف مضامينها فحسبنا هنا أن نذكر أنّ كتاب (الخلافة أو الإمامة العظمى) (٢) قد اتجه الى معالجة مسألة الخلافة من عدد من النواحى أهمها ناحيتان : تكلم فى الأولي منها عن الخلافة من الناحية الفقهية والشرعية وكل مايتصل بها من المسائل الدينية التى تتعلق بها ، وتكلم فى الثانية عن معالجة الخلافة فى ضوء الواقع والاحداث المعاصرة لها كأعمال الكماليين وتطلعات العرب إلى الخلافة بقيادة الشريف حسين ، وقد ركّز المؤلف على أهمية الخلافة ومكانتها من الدين الاسلامى وماتقوم به من حفظ الشريعة وانتظام شئون الامة ومصالحها واعتبرها ركن ركين منه ، ومن الدعائم الكبرى التى لاغنى للمسلمين عنها ، متطرقا إلى بيان فضل شرع الله وأسراره وعلوه عن قصور القوانين والأنظمة البشرية ، وإلى فضل الشريعة الإسلامية على التشريعات الغربية .

وأما كتاب (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة)(٣) فهو لم يركز على المسائل الفقهية والشرعية التى تتعلق بالخلافة والإمامة وما يتفرع عنها بل ترد فى ثناياه من دون تفصيل ، أما ما اتجه اليه وركز عليه وجعله وكده فهو التصدى لمهاجمة الكماليين والاتحاديين وبيان فساد وجهتهم ودينهم وسوء نياتهم التى يبيتونها لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، وهو لتوضيح ذلك والتدليل عليه يذكر أعمالهم ويورد أقوالهم وآراءهم ويناقشها ، ومن ذلك استخفافهم بدين الاسلام ومحاربة مظاهره ، وتشبثهم بالعُصبية للجنس التركي ومحاربتهم للعصبية الاسلامية ، وكذلك ما كان لهم من صلات وروابط باليهود فى داخل حكومتهم مع تواطئهم مع الحكومة الانجليزية وكلاهما يكيدون المؤامرات لحرب الاسلام .

---

(١) الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه : الاتجاهات الوطنية ٢ / ٥٥-٩٧

(٢) ظهرت طبعته الاولى ١٣٤١ وكان قد نشر قبل ذلك فى ست حلقات بمجلة المنار.

(٣) ظهرت طبعته الاولى ١٣٤٢ فى مصر.

ويكشف المؤلف عن خطتهم فى تجريد الخلافة من السلطة لينزعوا عن الحكومة التركيه لباسها الدينى ، ذلك لأن الحكومة هى القوة العاملة ، والخلافة هى اتصاف تلك الحكومة بصفة دينية،فإخراج الحكومة عن الخلافة إخراج لها عن الدين ، كما رد المؤلف فى هذا الكتاب على كثير من الحجج التى كان يبثها الكماليون ويدافع بها أنصارهم عنهم ،وقد كشف فساد ها وردّ على كثير من الشبهات التى كان يثيرها المتفرنجون فى تركيا وفى مصر، وفى كل هذا يريد المؤلف أن يؤكد ـ بما لا يدع الشك ـ فساد حكومة الكماليين وعداءها للإسلام حتى يحذر المسلمون فى مصر وفى كل مكان منهم ومن خطرهم وان لا ينخدعوا بالاضاليل التى تُروّج لمدحهم فى الشرق أو الغرب وما هم إلا أكبر عدو قام لحرب الاسلام آنذاك.

أما الكتابان المعارضان للخلافة فاننا سنشير اليهما فيما يأتى مستقبلا بحول الله (١) .

بكل هذه الكتابات الأدبية الحيّة ،والتى اهتمت بالخلافة وواكبت الأحداث المدلهمّة التى حاقت بها فى مطلع هذا العصر حتى عصفت بها ، يتجلى لنا كيف كانت الخلافة على تلك الأهمية والمكانة الكبرى فى كيان المجتمع الاسلامي ، كما يظهر لنا بوضوح شديد تلك الحفاوة الكبيرة التى أولاها الكتّاب لخلافة الأمة وسلطانها ،وما حفزته فى نفوسهم من مشاعر وأحاسيس نحوها ، مما كان له صدى كبيرا فى ميدان الأدب شعره ونثره على حد سواء، حيث جعل الكتاب والشعراء يسهمون بآرائهم ويعبرون عن رأى الأمة ووجهتها ازاء هذه الخلافة التى هزّت أحداثها النفوس هزا عنيفا .

وبعد . . فان كل مادار من آراء وأحداث وحفاوة بموضوع الخلافة ماهو إلا حلقة متصله ومترابطة بحلقة الجامعة الإسلامية التى سبقتها بما تخللها من حوادث متعددة ،وهاتان الحلقتان تكوّنان الجزء الأكبر من سلسلة الوحدة الاسلامية التى تحتشد لها هذه الدراسة فى فترتها المعلومة ،أمّا ماتبقّى من هذه السلسلة بعد ذلك فسيأتي تحت مسمّى الوحدة العربية من هذا البحث كما سنرى بحول الله .

---

(١) انظر: فصل مظاهرا لمعارضة للوحدة الاسلامية (الطعن فى الخلافة) من هذا البحث.ص١٠٥ .

الفصل الثالث

حوادث العالم الإسلامي وارتباطها بالوحدة الإسلامية في المنظور الأدبي :

- تمهيد في بيان ارتباط حوادث العالم الاسلامية بالوحدة الإسلامية
- أثر حوادث العالم الإسلامي في النثر الأدبي

تمهيــــــــــد :

شاءت حكمة المولى ـ جل وعلا ـ فى خلقه أن يجعلهم شعوباً وأجناساً متعددة ، كما نفذت إرادته أن يكونوا شيعاً فى دينهم وعبادتهم رغم دعوتــه لهم جميعًا إلى الدخول فى عبوديته والخضوع لسلطانه فى كل زمان ومكان .

ولعل فى قوله سبحانه" ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالــون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنّم من الجنة والناس أجمعين" (١) وقوله سبحانه أيضاً " ولو شاء ربّك لآمن مَن في الأرض كلهم أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون " (٢) .

لعل فى هذه الأيات ومثيلاتها الأخرى فى ثنايا الكتاب العزيز مــا ينّبه إلى سرّ هذه المشيئة العظيمة التى تغيب وراء اختلاف الناس في الأرض طرائق ومذاهب شتى ، فإذا كانت الأيات السابقة تدل على أن الإيمان باللــه وطاعته إنماهو فضل من الله يمنّ به على من يشاء من عباده ويصرف عنه آخريــن بحكمته ، وأن مايحدث من ذلك إنّما هو بفضله ورحمته ،متى علم فى عباده خيرًا وعقلاً يقودهم إلى الحق ،وأن المصير فى الآخرة مبنّي على هذا الإيمان أو عدمه كما يُفهم من هذه الأيات ، فإن هناك بعض المعالم قد تُستشفّ من وراء هــــذا التباين فى الناس، وأن لكل منهم شرعة ومنهاجًا ، ومع أن المُسَلّم به فى معرفة أسرار الحكمة الالهية فى أىّ أمر من الأمور أن حقيقتها لا يعلمها ولا يقدّرهــا الا الله سبحانه وتعالى ، وأن الإنسان أعجز من أن يقف على جوهر هــــذه الحقيقه ، وليس له إلاّ الإيمان بها وتصديق ما أخبر به عنها ،مع ذلك فيمكن القول : إنّ هذا الاختلاف ناموس من نواميس هذه الحياة ،إذ أن قيام أمــم مختلفة يدعو كل أمة إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة والظهور حتى لا تفــنى أمام الأمم الأخرى ، وهي فى سبيل ذلك تسعى وتبذل من الجهود فــى استغلال طاقاتها وخيرات أرضها ومواردها مايحقق لها ذلك ، ولا شك أن ذلك يفضى الى عمارة الأرض وحياتها وتطورها وازدهارها .

---

(١) سورة هود : ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) سورة يونس : ٩٩ ، ١٠٠ .

ويظهر هذا التنافس بصورة أكبر حين يقوم الصراع بين هذه الأمم المختلفة ، وهو قائم بلا ريب بين الأمة التى تعبد الله وبين الأمم التى تتخذ غيره آلهة أخرى .

والصراع الذى يقوم بين أمة مسلمة وأخرى كافرة هو صراع بين الحق والباطل ، وقد تخفى على الناس حقيقة كل منهما فى خضم الصراع ، مع ادعّاء كل طرف منهما بأنه الذى على الحق ، لكن الأمر لا يلبث أن ينكشف فى نهاية الأمر ويتميز الحق من الباطل ، ويظهر الحق جليًا للعيان، وذلك مامثل به القرآن الكريم لاصطراع الحق والباطل فى قوله تعالى" أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زَبدًا رابيًا وممّا يُوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب اللّهُ الحق والباطل ، فأمّا الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" (١)

وإذا استصحبنا هذه السنة الربانية فى صراع الحق مع الباطل لنرى من خلالها حوادث العالم الاسلامى فى هذا الموضوع فاننا نجد أن هذه الحوادث التى تقع فى الفترة التى تعنينا تأتى فى تيار حملة أوروبا الصليبية على العالم الإسلامى والتى سبقت هذه الفترة بأكثر من قرن من الزمان، ذلك أن أوروبا التى قادت عددًا من الحملات الصليبية فى القرون الوسطى لحرب الاسلام ، ولكنها لم تستطع أن تُوقف مدّ الاسلام أو تستردّ بعض المواضع المهمة فى نظرها ، ومع اكتساح الاسلام بقوة العثمانيين أوروبا وتوغله في شرقها ووسطها حتى ضرب أسوار فيينا عام ١٠٩٥ / ١٦٨٣م ، آنئذ قامت قائمة أوروبا ، وبدأت تتنادى بالوحدة تحت راية الصليب لدفع هذه القوة الداهمة ، ومع ظهور عوامل الضعف التى أخذت تنخر فى كيان الدولة العثمانية وبدء التفتح العلمي والحضاري فى أوروبا نجد التغيير يظهر في ميزان القوى ، وما إن ينتهي القرن الثامن عشر الميلادى إلا وأوروبا أخذت تتربص بديار الاسلام فى كثير من الجهات لتبدأ فى تمزيقه واحتلاله بلدًا بعد آخر، وقُبيل أن ينتهي القرن التاسع عشر الميلادى كانت أوروبا قد اقتسمت بلادًا شاسعة من العالم الإسلامى ، فاستولت انجلترا على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسيا ، وأخذت فرنسا شمال أفريقيا ، فضلاً عن دول آخرى أوروبية لها نصيب آخر من بلاد

---

(١) سورة الرعد : ٢٠ .

العالم الاسلامي في أفريقيا وجنوب شرق أسيا ، وكانت قمة هذه الحملة الجائرة على العالم الاسلامي هي الحرب العالمية الأولى التي قُضي بها على دولة الخلافة،ليزحف الاستعمار على البقية الباقية من العالم العربي حتى لا نكاد نجد آنئذ قطرًا إسلاميًا إلا وللاستعمار فيه سلطان أو سبيل يحقق به مطامعه وأهدافه الكبرى،ويحاول تهديده ليُسَيَّر في طريقه الذي يريد أن يقوده فيه (١) .

إنّ هذه الحملة الاستعمارية التي اتقدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر واستمرت أيضًا في القرن العشرين، مع ماصحبها من إذلال وشراسة وقهر للعالم الإسلامي لم تكن لتصل إلى كل هذه البلاد الشاسعة وتذل كل هذه الأمم الكثيرة وتفعل بها الأفاعيل لو لم يتوافر لها أمران - لا مناص من ذكرهما - كانا وراء كل هذه الحوادث العظيمة :

أمّا أولهما ، فهوالحقد الذي تكنه أوروبا للاسلام،ومع أنه داء قديم زادته علاقة أوروبا وصراعها مع الاسلام بمرور الأزمان قوة وحدّة ، فهذا الداء حقيقة لا يمكن نسيانه أو التقليل من شأنه ، كيف وقد أكدّ القرآن الكريم هذه الحقيقة بكل جلاء " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم" (٢) ، ويقول تعالى مقررًا هذا الداء في صورة الحسد" ودّ كثير من أهل الكتاب لو يَردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق" (٣) فهذا الداء أصيل في نفوس أعداء الاسلام قبل أن يكون للإسلام معهم شأن ،وقبل أن ينطلق أو تظهر دولته وتعلو شوكته .

أما الأمر الثاني - فالطمع في استعمار البلاد الاسلامية واستلاب خيراتها واستغلال ثرواتها الكبيرة في وقت تَكَشّف فيه للقوم ماتحتوي عليه هذه البلاد من كنوز ، وما ستُدرّه عليهم من أرباح،علاوة على المصالح الأخرى التي تأتي من موقع هذه البلاد الجغرافي الممتاز على سطح الأرض،لذا عقدت أوروبا (٤) الاتحاد والتحالف،وجهزت التعبئة لحرب الاسلام .

---

(١) أنظر حاضر العالم الاسلامي ١ / ١٩-٢٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٩ .

(٤) ليس المراد بأوروبا هنا في أغلب ماترد فيه القارة المعروفة بل كل أعداء الاسلام منها ومن خارجها .

وهذا التحالف والاتحاد لحرب الاسلام و إن كان قد عُرف قبل هذا الغزو الاستعماري فى مطلع العصر الحديث بفترات متقدمة إلا أنّ الدول النصرانية بعد أن عرفت طريق النهضة اتفقت كلها على حرب الدولة العثمانية التى كانت تُمثل الإسلام ، ومن ثمّ اقتسام اجزائها بينهم بعد أن أطلقوا عليها عبارتهم المشهورة باسم " الرجل المريض" ، والتى ربما نعتوا قضيتهم معها باسم " المسألة الشرقية " ويعنون به الدولة العثمانية التى تقف أمامهم فى الشرق من أوروبا ، وقد كان هذا التحالف يظهر تارة ويختفي أخرى وكانت علّة ذلك ترجع إلى اختلافات هذه الدول المتحالفة حول مصالحها ، وتنافسها لاحتواء أكبر جزء من هذه الفريسة التى أقدموا على ابتلاعها ، ولا غرو فأوروبا الحانقة على الاسلام لم تكن أحداثها المتفرقة بين دولها وصراعاتها فيما بينها ، و اختلاف دولها فى اضطهاد المسلمين بين سياسة اللين والمراوغة أو العنف والغلظة ، ما كانت لتدل على نقاء الدول الأخرى ، وليس مابينهم من إحن ليدل على اختلاف نظرتهم وحقدهم على المسلمين ، كلاّ ، فهم مختلفون فى كل شيء فيما بينهم إلا فى عداوة الاسلام (١) .

إنّ حقد دول أوروبا واتحادها وتعبئتها لحرب الاسلام قد أدّيا بطبيعة الحال إلى صبغ حروبها للإسلام فى مطلع القرن الحديث بصبغة التعصب الذى يحاولون زورًا أن يصموا المسلمين به ويدفعوه عن أنفسهم كما سبق أن أشرت الى ذلك فى الفصل الأول من هذا البحث (٢) ، ومن ناحية أخرى فقد كانت الروح الصليبية هى الطاغية على هذه الحروب، وذلك الاستعمار وإن تشدّق كتابهم وساستهم بإنكار ذلك ودفعه عنهم ، بيد أنّ مباركة البابا لهذه الحروب وما استخدمه الاستعمار من وسائل مختلفة لانجاح مخططاته من غزو عسكري سافر وحملات تبشيرية بقيادة القسيسين والمبشرين، فضلًا عن الدراسات والأساليب الكثيرة التى بذلها كُتاب أوروبا وقادتهم لتسهيل مهمة هذا الغزو، إضافة إلى ما قامت به كثير من دول أوروبا من جهود جبارة تهدف مباشرة الى إضعاف الإسلام والقضاء عليه فى أكثر بلاده التى احتلها ، كل ذلك وغيره

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ص ٤ ، والاسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ص ٥٢ - ٥٨ ترجمة عمر فروخ .

(٢) انظر فقرة : الجامعة الاسلامية وأوروبا ، وانظر حاضر العالم الاسلامى ١ / ٢٣٨ .

كثير يدحض قول من يزعم خلو روح الصليب عن هذا الغزو الأوروبي ويؤكد تأكيداً قاطعاً غلبتها وهيمنتها عليه وبروزها في مختلف طرقه ووسائله (١) .

---

(١) ينقل الأستاذ أحمد أمين في" يوم الاسلام" ص١٠٩ عن مجلة العالم الاسلامى الفرنساوية (مارس ١٩١٣م أنه جاء فى أحد مقالاتها" الروح الصليبية كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد، وروح التعصب لم تنفك حيّة معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كماكانت فى قلوب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها متغلغلاً فى أحشائها متمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت . . . " .
أمّا النشيد الصليبى الذى كان يردده الايطاليون فى حرب طرابلس فمنه قولهم :
أمّاه صلّى ولا تبكي .
بل اضحكى وتأملي
ألا تعلمين أن ايطاليا تدعوني
أنا ذاهب إلى طرابلس
فرحًا مسرورًا لأبذل دمي
في سبيل سحق الأمة الملعونة
ولأحارب الديانة (الضلالة) الإسلامية
التى تميز البنات الأبكار للسلطان
سأقاتل بكلّ قوّتي لمحو القرآن
ليس بأهل للمجد
من لم يمت لايطاليا حقًّا
إن سألك أحد
عن عدم حدادك علىّ فأجيبيه :
إنه مات فى محاربة الإسلام
الطبل يُقرع يا أمّاه . . .
ويروى حافظ وهبه :
أنه لما اتحدت أساطيل أوروبا لمواجهة الأسطول العثمانى فى (ليبانة) أعلن البابا أن (دون جوان دتريش) قائد الأساطيل الأوروبية هوالذى عناه الإنجيل عندما تحدث عن مجيء رجل من قبل الله يدعى يوحنا .
وعندما أطبق الجيش الفرنسى على دمشق قال قائده"غورو" عند قبر صلاح الدين : هانحن عُدنا فقم ياصلاح الدين ، أمّااللنبي قائد جيوش الانجليز التى استولت على فلسطين فقد قال : الآن انتهت الحروب الصليبية .
لعل فى هذه الاشارات مايكفى للدلالة على تأصل الروح الصليبية فى أوروبا على غزوها للعالم الإسلامى فى مطلع العصر الحديث .

وإذا كانت هذه الروح الصليبية وذلك الحقد على الإسلام أكبر باعث لغارة أوروبا على العالم الإسلامي [١] فان مما لا يُنكر أن هناك أمورًا أخرى ساعدة آزرت الباعث الأكبر، والاتجاه الاقتصادى الذى يهدف إلى ابتزاز موارد الثروة لانعاش اقتصادها واضعاف قوة المسلمين فى آن واحد - كما سبق على رأسها ، كما أن التنافس الذى كان بين دول الاستعمار وميدان المصالح والقوى دفع بهم إلى ارتياد مناطق نائية ومجهولة بالنسبة لهم حتى يعلم أندادهم أن لهم فيه وجودًا أو قوة تحول دون طمع أحد فيهم أو الاعتداء عليهم .

ومع هذه الدوافع فقد لجأ الاستعمار إلى اصطناع الحيل واختلاق المبررات الكثيرة [٢] والذكية للتمويه عن الهدف الحقيقي عند أهل كل بلد نزلوه أو يريدون السيطرة عليه ، كادعائهم أن الممالك الاسلامية تعاني من الانحطاط وانها لا تستطيع أن تكون قوامة على شئونها ، وكتذرعهم بإصلاح حال هذه الأمم وقيادتها إلى التطور والمدنية رغم أنهم هم الذين وقفوا في وجه كل عمل يحاول به المسلمون تحقيق صلاحهم وقيام نهضتهم ، أمّا حماية الأقليات النصرانية الذين ينعمون بين ظهراني المسلمين ، وحماية المصالح التى يختلقون مايقلقهم عليها ، فما تركها الغرب فى تلك الأونة كلما أمكنته الفرصة لاحتواء بلد عقدوا النية على أخذه منذ آماد طويلة .

اذا كان قد تبين لنا الأن الدوافع الحقيقية والمصطنعة لغارة أوروبا على العالم الاسلامي فيجب ألا ننسى هنا أسباب انتصار الغرب فى هذه الغارة على المسلمين وبخاصة العثمانيين ، وعلّة سقوطهم ووقوعهم فريسة في يد أعدائهم الألداء .

---

(١) هذا لا يعني أن الحقد الصليبى مبعثه بالضرورة تديّن أوروبا بالنصرانية ، إذ الواقع أن أوروبا فى مطلع هذا العصر الحديث قد وصلت إلى مرحلة هجرت فيها دينها ولم يعد له رصيد فى حكم شيئ من حياتها ، ولكن السبب الأساسى لهذا الحقد هو وجود المسلمين فى أمة لا تنتمي الى ملتهم ولا تنضوى تحت لوائهم .
انظر: واقعنا المعاصر ص ١٩١-١٩٤ محمد قطب .

(٢) انظر يوم الاسلام ص ٩٠١-١١ ، ولمزيد من هذه الحيل انظر : الغارة على العالم الاسلامي ص ٩١-٩٢ فصل" مقاصد المبشرين وآمالهم فى المستقبل" .

إنّ أكبر باعث لهذه الهزيمة - في رأيي - هو ضعف الوحدة الاسلامية وضعف الترابط الأخوى بين قيادات المسلمين ، وهذا لا يعنى نفي هذه الوحدة في جملتها، إلا أنه يؤكد ضعف تطبيقها والأخذ بها للوقوف أمام ذلك الزحف الاستعماري قوة واحدة ، تصدم زحفه ولا تسمح له بالتدخل في بعض أجزائها .

واذ أسعف المسلمون أوروبا بهذا المنفذ الخطر لضرب شوكتهم فقد كان هناك التقدم الحربى عند الأوروبين ، وهذا التقدم لا يُنكر أثره في إحراز الانتصارات ودحر الأعداء ، وهذا التقدم واحد من جملة نتائج النهضة والتطور العلمي والحضاري الذى قد دب في جسم أوروبا آنذاك ، ويُضاف إلى هذا انتقال ميدان الصراع إلى البحار وتطور حركة الكشوف الجغرافية التى لم تخرج عن هدفها الصليبي [1] ، مما أتاح للاستعمار الالتفاف حول العالم الاسلامى وتطويقه ومعرفة المنافذ التى يستطيع العبور منها ، واختيار البلاد التى تتوافر فيها الموارد الاقتصادية أو المواقع المهمة التى لا غنى عن استخدامها في مختلف الشئون والأهداف.

إنّ هجوم أوروبا على العالم الاسلامي في مطلع العصر الحديث وتسلطها المطبق عليه كما أشرت في بدء هذا الفصل هو ما أعنيه بحوادث العالم الاسلامى هنا، وإن كان ثمة أمور أخرى قد تلحقها ككوارث الأمراض والجوع بيد أن هذا القول المجمل عن حقيقة هذه الغارة وطبيعتها - كما يقتضيه المقام في رأيي - لا مندوحة من اعتباره مدخلًا وتمهيدًا للحديث عن هذه الحوادث المتعددة - ذلك أن هذه الحوادث والحروب وإن لم تخرج في جملتها عن الغارة الأوروبية على بلاد الإسلام، إلا أن هناك أحداثًا بارزة ومدوية تظهر واضحة في جملة هذه الغارة العامة ، ونظرًا لخطورة هذه الأحداث الذائعة وأهميتها نجد القول يتجه إليها عند دارسى التاريخ ومؤرخى هذه الحقبة ، وهو أيضًا ما نلحظه في الواقع الأدبى شعرًا ونثرًا، حيث كان اهتمام الكتاب والشعراء بهذه الأحداث الكبرى اهتمامًا بارزًا .

ولا ريب أن أعظم هذه الحوادث التى تعنينا في هذا البحث، وهى

---

(١) انظر : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ص٣٧ - ٤٠ ، حيث ينقل عن المستشرق "باركر" تصريحه بعدم خروج الكشوف الجغرافية الحديثة عن هدفها الدينى الصليبي .
وانظر ص٤١ - ٤٥ عن لقاء المسلمين بأساطيل البرتغال وانهزامهم أمامها.

أكبرها قوة وأبعدها فى نتائجها وأهوالها بالنسبة للعالم الاسلامى الحرب الروسية العثمانية التى شبت فى مطلع حكم السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٩٤ ١٨٧٧م) واحتلال فرنسا للجزائر (١٨٣٠/١٣٤٧م) وانجلترا لمصر (١٨٨٢/١٢٩٩م) والحرب اليونانية العثمانية (١٨٩٧/١٣١٥م) وحرب طرابلس بين ايطاليا والعثمانيين (١٣٢٩/١٩١١م) ثم حرب البلقان على الدولة العثمانية (١٣٣١/١٩١٣م) والحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة الاسلامية (١٣٤١/١٩٢٤) ، مع ملاحظة إيثارى لإيراد مايتعلق بحوادث الكماليين وسقوط الخلافة فى فصل الخلافة لأنه ـ فى تقديرى ألصق بها ، ويُضاف إلى هذه الحوادث ماقام به الاستعمار من أحداث فى بعض البلاد العربية بعد سقوط الخلافة كما سنرى فى أحداث فلسطين وفضائح الفرنسيين فى الجزائر وغيرها إلى انفجار بركان الحرب العالمية الثانية التى لاتدخل فى نطاق البحث .

إن الذى لامناص من الاشارة إليه قبل أن يتجه القول إلى هذه الحوادث كلّ على حدة أن هذه الحروب والقلاقل التى أوهنت قوى العالم الاسلامي ، وسعت إلى ابادته وتمزيقه وفرقته كان لها أعظم الأثر فى بعث وانتقاد عواطف شعوب العالم الاسلامى بعضها إلى بعض، ومناداتها باتحادها وتعاونها لدفع الهول الذى نزل بها ، وليس هذا الشعور الأخوى غريبًا ، فالمسلمون كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر(١)، كما أن المسلم أخو المسلم ، لايُسلم أخاه لأعدائه ولايتخاذل عن دفع الاعتداء عنه ونصرته ، فالعدو واحد والرزء رزء الجميع ، وجماعة المسلمين هم كما وصفهم القرآن الكريم " أشدّاءُ على الكفار رحماء بينهم"(٢) وعلى هذا الترابط الأخوى نرى الكتابات عن هذه العواطف تكثر حين يكثر الطغيان الاستعماري، وتسير موازيه له فى الغالب ، وراصده لأعماله الاجرامية منددة بها .

بيد أن دارس الأدب فى ضوء هذه الأحداث يلحظ ظاهرتين من المناسب أن نشير إليهما قبل الدخول فى غمار تلك الحوادث ، هاتان

---

(١) من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم ونصه : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد . . .

(٢) سورة الفتح ٢٩ .

الظاهرتان هما :

١) كثرة الشكوى من سوء الأحوال والاضطراب والضعف الذى حلّ بالأمة وما للاستعمار فى إيجاد هذا الخلل والتخلف من جهد غير منكور.

٢) كثرة هذه الحوادث والحروب ووحشية كثير منها حتى تعالت الصيحات بتقبيح الحروب والتنفير منها .

أما الظاهرة الاولي :

فمع أن العالم الإسلامي إبان هذه الحوادث وقبلها لم يكن خلوًا من مظاهر الضعف والتخلف الذى أورثه اتساع شقة الانحراف عن منهج الله ، وبخاصة فى العصور الأخيرة ، إلا أن هذا السبب مهما بُولغ فيه - كما نجد عند بعض الكُتاب -(1) لا يُساوى معشار ماكان لأعداء المسلمين من إسهام فى إضعاف الأمة الاسلامية واضطرابها وتخلفها وتمزيقها .

ومع أن الحديث عن هذه الحروب البارزة - كما سيأتي - يؤكد ذلك فحسب المرء هنا أن ينظر إلى الدولة العثمانية التى هي أعظم دولة إسلامية يومئذ - إن لم نقل هي دولة الاسلام - فرغم شعورها بالحاجة إلى الإصلاح ، لو نظرنا لما عانته من حروب وصراعات منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادى إلى مطلع خلافة السلطان عبد الحميد فى الربع الأخير منه (2) مثلًا ، نجد أن هذا القرن قد أهل وقد تقدمت روسيا حتى أطلت على البحر الأسود ولا تزال آخذة فى التقدم حتى احتلت بلاد القرم ١٨٥٤م، وتتقدم مرة أخرى حتى تستولي على أدرنة أكبر معاقل العثمانيين فى أوروبا ، وكانت فرنسا آنئذ فى قوة من أمرها وجابهت العثمانيين حتى احتل نابليون بونابرت مصر كما حاول الاستيلاء على الشام ، ورغم خروجها من مصر مُكرهة فإنها تعود لتدبر الأمر لاحتلال الجزائر (١٢٤٧ / ١٨٣٠م) ، ولم تقف فرنسا عند ذلك بل كانت وراء أكثر حوادث الفتن الطائفية فى الشام ولبنان ، وتثور اليونان على العثمانيين حوالي (١٢٣٧ / ١٨٢٠م) فترسل لهم محمدعلي باشا ، وهذا الباشا رغم ماأسداه للدولة من أعمال جليلة ، إلا أنه كان يهدف إلى أن يستقل له كيان بدولة

---

(١) أنظر : أم القرى، ط المطبعة العصرية حلب ص ١٠، ٢١، ١٥٨ ، ذكرى وعبرة أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٨، ٢٤، ٢٧.

(٢) أنظر فى هذا الحروب : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص. ١٨ وما بعدها .

كبيرة فكان ذلك الصراع الطويل بينه وبين العثمانيين حتى استقل بحكم مصر، أما الأحداث والصراع بين الدولة السعودية فى نجد والعثمانيين الذين أوكلوا ذلك إلى محمد على باشا فقد كانت عظيمة الأثر، حيث أثارت قلق العثمانيين على الديار المقدسة وخوّفتهم أن تزول من أيديهم .

كل هذه الأحداث الهائلة وغيرها لم تكن هي كل ما واجه العثمانيين من صراع مع خصومهم الأوروبيين الذين كانوا فى الجملة وراء كل هذه الثورات والحروب عدا ما كان فى الحجاز واليمن قبل استفحال الغزو الأوروبي ، ولهذا فكيف يتحقق النهوض والتطور مع هذا الاتساع وتعدد شعوب العثمانيين ؟ وهناك أيضًا القلاقل الداخلية التى لا تكاد تنقطع ، من غير أن ننسى أن العثمانيين يجابهون دولاً عظمى متقدمة عليهم فى أغلب الميادين ومتآمرة عليهم .

واذا كان هذا حال الاستعمار مع الدول التى لم يتمكن من السيطرة عليها ، حيث والى عليها الأحداث التى تُضعفها وتعوّقها عن الأخذ بأسباب النهوض والقوة ، وقد تركها تعاني القلاقل والمحن، ولم تفرغ لإصلاح أمرها والقيام على شئونها العامة ، وقطَعها عن الأخذ بأسباب القوة ، فان حاله مع البلاد التى وقعت فى قبضته أدهى وأمرّ، بل أشد خطورة وأمضى سلاحًا ، لبقاء المسلمين فترات أطول يعانون من علل الضعف والتخلف والفرقة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما قام به الفرنسيون فى الجزائر، وما نفّذه الانجليز فى مصر والهند ، حيث كان الغزو الفكرى يُنفذ فى تخطيط ماكر للقضاء على الإسلام - مصدر القوة وباعث طرد المعتدين - وابقاء البلاد فى ضعف واضطراب وفتن تحول بينها وبين الإصلاح والرقي الشامل ، مما لا تزال مصر والجزائر تعاني من آثاره ووخيم عواقبه حتى يومنا هذا ، على الرغم من رحيل الاستعمار عنهما منذ أمد غير قصير[1]

(١) إنّ تصوير الفساد الذى عمّ مصر فى مطلع القرن العشرين وماكان للأجانب من أثر كبير فى خلقه و نشره بين الطبقات العامة ، مثلت ذلك الفساد كثير من الكتابات الاجتماعية التى كانت تنزع الى الإصلاح وفى الجانب الأدبى صور هذا الفساد قصص ومسرحيات فرح انطون وقصص سعيد البستانى (كذات الخدر) و (سمير الأمير) وقصص لبيبه هاشم ، وكتاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى ، ففرح أنطون =

وهذا أديب استحاق على سبيل المثال يبين بمرّ الشكوى سوء حال الشرق الذى هو أمته، وكيف تسلط عليه أعداوءه بحجج واهية(١)" قضى على الشرق جهل عامته واستبداد خاصته، وخيانة زعمائه، وتعصب روءسائه أن يهبط بعد الارتفاع، ويذل بعد الامتناع، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب، تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة أمر المدينة، ولم نر منهم من صدق فى دعواه، بل كل منهم تابع قصده وهواه".

ولا أدل على ذلك عند الكاتب من انجلترا التى استولت على كثير من البلاد الاسلامية وتدخلت فى شئونها، إنّ انجلترا " لم توءيد فى جميع

= فى مسرحيته (مصر الجديدة ومصر القديمة) ١٩١٣م، جزء من المسرحية يدور حول (الست المز) نابغة فن الغناء: وهى مبنية على تاريخ ابنة العيلة وابنة المدرسة التى سقطت لغلوأفكارها فى طلب الحرية وأرادت النهوض في سبيل الحب، وجزء منها يدور حول (خريستو الهائل) صاحب أعظم كازينو فى مصر، وهى مبنية على حوادث الرقيق الأبيض واغراء البنات بالفساد والسكر والقمار والاستقراض الهائل بربا هائل يذهب بالمال والأطيان والعقار، وقهاوى الرقص والخمارات والملاهى السرية التى تأكل الثروة العمومية.
وقد مثل أنطون للأجانب (بخريستو) صاحب الكازينو وقال عنه على لسان أحد الشخصيات: (ليس له صناعة ويشتغل بجميع الصنائع، وهو صاحب أعظم وأكبر كازينو فى مصر كلها، بل فى الشرق كله، ولهذا الكازينو دوائر وأقسام، فقسم للغناء العربى، ولقد احتكر اشهر مغنية عربية عندنا وهى الست (المز) واتخذها خليلة له ضمانة للاحتكار، وقسم للمغامرة يجتمع فيه أشهر المقامرين وأغناهم، وقسم للبار، وفيه الساقيات الجميلات بين شرقيات وافرنجيات، وقسم مشرف على الشارع جعله مجتمعاً أدبياً لمن لا يهوى الأقسام الأخرى وهو فضلاً عن ذلك يسلف نقوداً بناء على رهن أطيان أو عقار، ويشترى قطناً ويتّجر بالمصوغات القديمة ويصدّر إلى الخارج سمكاً مملحاً من دمياط، وأرزاً من رشيد، ويستورد الخمور والساقيات الجميلات... وفضلاً عن هذا وذاك يتوسط فى تسوية المشاكل والقضايا، ويشتغل بالسمسرة فى كل شىء.. انظر المسرحية فى الأدب العربى الحديث ٤١١

(١) أديب اسحاق: الكتابات السياسية والاجتماعية ص١٨٩، ١٩٠، وانظر المرجع نفسه أيضاً: مقال الاستقلال والتابعية ص ٩٤، تأمل ص ٨٢، الإصلاح ص ١٢٨.

تلك البلاد بغير الخشونة والاستبداد ، استبقاء لاهلها على حال يسهل معها أخذ أوطانهم واستخدام أبدانهم ، بما فُطرت عليه من الأثرة، تحملها على كراهية الفضل إلا لبنيها ، وبغض السعادة الا لذويها ، بل بما تقرر في أذهان أهلها من أن الخارج عن جزائرها الثلاث، منحط عن درجة الإنسانية لم يُوجد الا لخدمة الذين ألقتهم الطبيعة لخشونة طباعهم على صخور منقطعة عن اليابسة ، محرومة من الطيبات محجوبة الشمس والنجوم ، مستمرة الضباب والغيوم " .

وبالمثل نرى عبد الله النديم يصيح من هول المآسي الكثيرة التي زرعتها انجلترا في مصر وهي كثيرة تبعث على الأسى المرير والحسرة البالغة إذ هي قاضية على الأمة إن لم توقفها وتتنبه لخطرها ، لذا يقف الكاتب عند أهمها مبرزاً خطورة كل منها ، وكيف أخذ الانجليز في بعثها من أعمال معجبة ، وحال محيرة مدهشة ، بلغ من حيلة انجلترا أن خفي على المصريين ماوراء تلك الأعمال .

فاذا عرّجنا نحو الصحافة والمطبوعات التي هي مبعث الأفكار وموجهة الأمة ، نجد انجلترا التي استخدمت صحافتها لكل هدف نبيل ، ومعلمة للآداب والعلوم النافعه تتخذ الصحافة بالنسبة للأمة الاسلامية كما يقول النديم(١) " خادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم، خاتلة لعظمائهم ، مقبّحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة ، منادية بينهم أن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل ، لا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ، ولا مجد لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته " .

أما في مصر فقد أطلق الانجليز حرية المطبوعات والأفكار ففرح بذلك المصريون وافتخر الانجليز ، لكن ما تحقق من هذه الحرية هو ماتريده انجلترا من الفُرقه وإشغال الناس عن المحتلّ حتى يسلس لها القياد ، هكذا تفرقت الآراء كما قال النديم(٢) ، " هذه تقول أنا وطنية أنادي بأن خير البلاد وصلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا . . . وهذه تقول مصلحة البلاد موقوفةً على

---

(١) سلافة النديم ٢ / ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٧٠ - ٧١ .

زيادة نفوذ الانكليز ووضع الادارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء وحتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم . . وهذه تقول إنّ فرنسا هي الدولة الوحيدة فى المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها و تأييد الخديوى ولا يضرها إلا وجود الانجليز فيها ، وهذه مذبذبة لا إلى هوءلاء ولا إلى هوءلاء ، وهذه علميّة تهذب النفوس، وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان مايوقعهم فى الشك والتردد ، وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طبية ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ولا رقيب عليهم ولا جاسوس. " .

والدين و العادات التى هى من أهم مايتحقق به تغير الأمة ، لاتفتأ انجلترا بعد أن أعلنت عند بدء دخولها أنها لا تتعرض للدين و لا للعادات أن تأخذ فى تغييرها بتجربة بسيطة ومتواضعة ، فاذا مرت التجربة دون معارضة ولا إحباط فقد نجحت وانتشرت، وان وجدت من يوقفها، ويردها أوّلتها بما تريد ، فما الحيلة لمسخ هذا الدين والعادات فى مصر ؟ يجيب النديم (١) : " قالت أوروبا إنّ وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فلابد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة وفتحت لنا البيَر والخمّارات والمقامر وأباحت الزنا والربا ، ووسعت دائرة اللهو والخسران ، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف، وانكب الأغبياء والمغفّلون على الخمور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم ، وتحولوا إلى المومسات فارتكبوا الاثم بارتكاب المحرم والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش وجعلها عرضة للأجنبى بعدم غيرتهم عليها فهم فى رتبة القُوّاد (٢) بل هم هم ، ومال فريق إلى القمار فباع الغيط والدار واضطر لبيع حلي زوجته برضاها أو بسرقة منها ، والكل عطف على المرابين يقترض ويصرف فى الملاهي ومتلفات العقل والجسم والمُلك حتى أسكن الأوروبي مكانه ، وصار له خادمًا بعد أن كان عظيمًا محترمًا " .

وهكذا يمضى النديم فى مقاله الطويل على هذا النسق التهكمي والتساؤل الإنكارى ، فى أسلوب شيق وحوار لا يخلو من الجدل ، يتابع بحرارة المشفق وصادق النصح أساليب انجلترا الهدامة التى نسميها " الغزو الفكرى"

---

(١) سلافة النديم ٢ / ٧٠ ، ٧١ .

(٢) يريد الذين يدلّون على البغاء من أراده .

لإذلال شعب ومسخ معالم الاسلام فيه، واذ أقدمت انجلترا على مسخ الدين والعادات ، واستغلت الصحافة ومنابر الفكر لتضليل المفاهيم فإنّ الكاتب يذكّر أمته بأمور أخرى لاتقل عن سابقتها خطورة وأهمية ،ومن تلك الأمور محاربة الاستعمار للنهضة الزراعية والتجارية لاضعاف الاقتصاد وإنزال الفقر ومحو القوة ، وإشغال الصحف والمفكرين بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية وصرف القادة والسياسيين عن الخوض فى الدين والسياسة ،كما يكشف الخطورة البالغة فى المدارس الأجنبية ونظام التعليم الذى سيربي النشء الجديد ، أما ماحققه الاستعمار من فُرقةوخلاف ليصرف المصريين عن أعماله ومقاومته كفتنة الأقباط ونزاع الشوام النازلين بمصر فانه يطيل القول فيها ليكشف خطورة هذين المقتلين وضررهما البالغ على الجميع ثم يدعوهم إلى الاتحاد والتعاون بعد أن جلّى افتعال هذا الخصام الذى لاحقيقة له فى الواقع .

أما الظاهرة الأخرى :

فهى التى تُعنى بتقبيح الحرب والتنفيرمنها ، فلاشك أن الحرب ممقوتة ومشئومة عند جميع الأمم ، وما نتائجها التى تهلك الحرث والنسل بخافية على أحد وان كان لاغنى للأمم عنها فى صراعاتها المختلفة ، لكن مع ذلك فلايُنكر أن هذه الحوادث والحروب التى تمر فى هذه الدراسة تقع فى جملة تلك الحروب والصراعات الكثيرة التى شبتها أوروبا منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، واستمرت الى مابعد الحرب العالمية الثانية فى القرن العشرين ، واذا تذكرنا كثرة هذه الحروب كما سبق أن أُشير إليها فى القرن التاسع عشر الميلادى ـ عدا ربعه الأخير ـ فان هذه الحروب فى الربع الأخير من هذا القرن قد ازدادت ضراوة وقوة ، حيث كان التآمر الأوروبى على العالم الاسلامي على أشده ومضت أوروبا فى تدفق عارم حتى أطبقت على جميع انحاء العالم الاسلامي عدا مواضع فى جزيرة العرب[1] .

من كل هذا تتجلى هذه الكثرة الكاثرة لهذه الحروب ، وليس غريبًا عندئذ أن يُخيم هول شبحها على الأنفس فيبعث على الرعب والفزع كما يدعو الى القلق والحذر و النفور .

---

(١) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ٣٣٥ ومابعدها .

يضاف الى هذه الكثرة ما كان يقع فى أكثر هذه الحروب من الأعمال الوحشية والمآسى الأليمة ، حيث الظلم و القهر والبغي والتعذيب الشديد والإبادة الجماعية وغيرها ، ذلك شأن أوروبا فى حروبها وتحقيق أطماعها كما حصل فى أكثر بلاد الإسلام التى وقعت تحت سيطرتها (١)، وإن ما قام به الفرنسيون فى شمال أفريقيا المسلمة ، وايطاليا فى طرابلس وغيره من أجزاء القطر الليبى من وحشية وهمجية وعدوان - كما سنرى - لأوضح دليل على تلك النزعة العدوانية، والتى تشابه مثيلاتها فى أقطار الاسلام التى جثم عليها هذا العدوان الصليبي الحقود .

هذه مجلة " أنيس الجليس " تنفح قراءها بطريف المقالات عن شؤم الحرب ، معتذرة عن الخوض فى خطط القواد وآراء الساسة وأحاديث الحرب فى مجلة نسائية ، لكن كثرة الأحاديث عن الحروب فى تلك الأيام قد ملأت كل سمع ، ومصائب القتال قد نزلت بكل صقع، فكتبت لهم عن ذلك (ليعلموا مصائب الحروب ونفقاتها ، وماتجره إلى الناس من رزاياها وويلاتها ، ويتيقنوا أن هذا العالم المتمدن كلما زاده العلم رقة زاده الطبع قساوة ، وكلما أمعن أهله فى الحضارة أمعنت أخلاقهم فى البداوة .

فلقد ذكروا أنه لم تبلغ الدنيا منذ التاريخ مابلغته فى هذا العهد من شدة التحفز للقتال، وكثرة الانفاق فى سبيله، ووفور من ماتوا من أجله ، بل انه لو حسبت ديون أوروبا كلها لتبين أن تسعة أعشارها كان بسبب الحروب وأن العشر الباقى فقط قد أُنفق على سائر الشئون التى أوصلت المدنية الى هذا الحد" (٢) .

وقبل أن تُنبه المجلة على شؤم تلك الحرب وضررها واستعدادات أوربا الهائلة لها تراها تنفّر من الحرب، وتجعل الانسان بها فى درجة الوحوش الضارية ، وتخرج به بعيدًا عن انسانيته وطبيعته لتقول عنها" هي

---

(١) انظر صور من هذه الأعمال فى : يوم الاسلام ص ١١١-١١٣ .

(٢) مجلة أنيس الجليس (لكسندره افرينوه) السنة الأولى (١٣١٥ / ١٨٩٨) ص ١٠٠-١٠٣ ولم تذكر اسم الكاتب و، وانظر مقالات فى نفس المجلة ويلات الحروب ، المجلد الثانى (١٣١٦ / ١٨٩٩م) ص ٣٩٧
حرب السلام - المجلد الثالث (١٣١٧ / ١٩٠٠) ص ٤١ .
وفى مجلة الزهور (أنطون الجميل) مقال : الحرب، السنة الثالثة (١٩١٢م) ص ٤٧٢-٤٧٤ .

الخلق الذميم الذى نشأ عليه الانسان منذ البدء حتى لقد يتغير كيانه ولا يتغير، والطبع القبيح الذى كلما زادت مصائبه زاد وتكرر، أو هي الخلق الوحش الذى تستعير له هذه الصفة من الوحش والانسان بها أليق ، والميزة التى تفصل الحيوان عنا بالضرر لا بالنطق إذ هو بعدمها أنطق . بل هي السيف مسلول فوق الرقاب أبداً والموت الثانى منتشر على البرايا اذا أمهل الأول أحداً لم يمهل هذا أحدًا ، والعيب الفاضح تحمله المدنية ولكنها تستره بستار الشرف،والحياة الوهمية تسوقها الانسانية حقيقة حسية اسمها الموت والتلف" .

هذه الحرب التى تتنافس فيها الأمم لا تورث إلا الدمار والخراب ، وهي ظلم لألوف النفوس البريئة،وها هي نتيجة هذه الحروب كما يصورها نفس المقال " ألا إنها لأنفس بريئة قد ظلمها من الناس واحد وهي لم تسيء من الناس إلى أحد ، ومجموع عظيم كان قبل الحرب بلا عدد فأصبح بعد الحرب وهو فى الحقيقة بلا عدد ، وإنها لأجسام لم تصر قادرة على تحمل السلاح الا بعد أن تحملت مصائب الدهر لتدفع يد الدهر، وأبدان قد غالبت قوى الطبيعة بقواها لتعيش إلى نهاية العمر فعاجلتها المنية فى طريق العمر. بل إنها أبناء أمهات قد سهرن على أبنائهن الليل الطويل فكان جزاؤهن البكاء الطويل ، وأمانى آباء كانوا يسعون لتحقيقها فى كل سبيل فاذا هي أماني الموت فى هذا السبيل . بل قل إنها جهد أمهات فقيرات مدة دهر مديد وقد أضاعته الحرب فى لحظة ، وتهذيب مدارس كثيرة قد أفسدته مدرسة الحرب فى لفظة ،وقلن قضى بذلك القلم الواضح الذى يسمى بالعدل ،وذلك القول المأثور القاضى بأن القتل أنفى للقتل ، والأمر لله من بعد ومن قبل" .

اذا كانت الحرب هذه نهايتها فما أحرى البشرية بالحرص على السلم الذى يكفل لهم الحياة الرخية ، هذا مانجده عند كاتب آخر يقارن بين الحرب والسلم ، وبضدها تتميز الأشياء .

أما السلم فانه الحياة الطبيعية فى جمالها وأنسها وهنائها ، لا تكدير ولا فزع، يقول الكاتب واصفا السلم(١)" للهما أبهاك أيها السلام،وما أجملك وأجمل خطوتك فى الأودية الخضراء التى ألقت عليها الطبيعة حلة

---

(١) مجلة رعمسيس ـ المجلد الأول ج ٩ (١٩١٢م) ص ٤٧-٤٨ .

رضاها . . . ها الدخان يتصاعد من بين الأشجار الباسقة ينبئ عن أناس يعيشون فى أكواخ بين تلك الأشجار. هناك فلاح لا يُبالى بقدوم الشتاء ولا برعده القاصف . هناك سلام سائد وسرور دائم. هناك بيوت بيضاء بعيدة تظهر من وراء التلال وتقول" سلام سلام" هناك قطعان رابضة بجانب ينابيع المياه الباردة على غاية الطمأنينة والأمان ، وبيت راعيها قد حجبته زهور الياسمين والنسرين التى أريجها يُعطّر ماحولها من الأرجاء. هناك أولاد يلعبون بالتراب الناعم ويتقلبون عليه من شدة الفرح و السّرور . . . " .

وهكذا تكون الحياة فى السلم . سرور ولعب للاطفال ، وأحاديث شهية بين الرجال والشيوخ عن جمال الطبيعة وحكمة المولى القدير، ونساء فى البيوت قد ألبسهن النعيم نضرة وبهاءً أما العدل فرايته مرفوعة وشريعته نافذة فى أمن وطمأنينة حتى لم يخرج السيف من غمده ، ولا سئل عن البارود الذى أفسده البلل من طول مكثه ، هذا السلم فكيف الحرب عند هذا الكاتب؟

"هبّت الجندُ هبوب العاصف وماجت كجيش الجراد ، وها الدمار قد وقعت على الأرض كشلّال من الماء فصبغتها بلون أحمر قانى ، حتى اختفى تصاعد الدخان الآن من بين الأشجار واختفت أعلام السلام وانطفأت نار ذلك الراعى وصعد مكانه دخان القرى التى لعبت فيها ألسنة اللهيب ، وبينها دخان بيت ذلك المسكين الذى سكب ماء الحياة فى بنائه . ها البقر قد تاهت فى البراري وخوارها ملأ الفضاء لا أكل لها ولا شراب لها، لأن الأرض قد أصبحت كقطعة سواد من النار، وها الفلاح قد ضم يديه إلى صدره وأصعد زفرات الحزن على مزروعاته التى ذهبت ضحية النار . . . الشرعية والقانون أصبحا فى زاوية النسيان ، وسقط عليها جدار الظلام فحطمها ، النهب والجور، وقد فكت قيودهما ، رجال الهيئة الاجتماعية يصيحون صياح الوُيل ، صراخ الشقاء وولولة الضعيف يخمدان نيران غضب الغضوب ، أنين الجرحى فى المستشفيات أوقف نغمات الطيور ووصل إلى معابر الطرق ، الأعشاش والأنسجة الموجودة فى البيت لا تكفى لتضميد جراح الأب والابن وتمسح دموعهما المنسكبة من عيونهما الدامية .

. . هذه هي أعمالك أيها الانسان كلها أعمال ظلم تفعلها تحت أعين النهار ، وتدفن الموت تحت الهواء لا تحت التراب ، فياالهول الحرب ويالشدة شقاء الانسان " .

بهذه الصورة الدقيقة لأهوال الحرب ، والتى يضعها الكاتب مقابلة لتلك الصورة الجميلة للسلم فى جزئياتها وتفاصيلها ، يلتقى هذا المقال مع سابقه فى جملة الكتابات التى اتجهت لتقبيح الحرب والتنفير منها ، وهي كما نلاحظ صورًا أخاذة وتصوير دقيق يأخذ بالألباب ويحرك كوامن النفوس ويثير فى القارئ مشاعر عديدة ، تجعله يستشعر الفروق الهائلة بين الحرب والسلام وبين الخوف والأمن ، وتدفع به دفعًا إلى الحفاظ على السلم وأن يسعى جاهدًا فى ترسيخ أهدافه وحياطته بكل مايستطيع من إمكانات .

أثر حوادث العالم الاسلامى فى النثر الأدبي

أ) احتلال الانجليز لمصر :

لم يكن احتلال انجلترا لمصر فى فجر القرن الرابع عشر الهجرى (١٣٠٠/١٨٨٢م) أول حوادث الاستعمار الأوروبى على هذا القطر الإسلامى ، بل لقد سبقته محاولات لا تُعد قليلة فى تاريخ الاستعمار الذى بيت النية من آماد بعيدة لهذا الاحتلال ، ويدل على ذلك أن الحملة العسكرية الفرنسية التى جاء بها نابليون بونابارت فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى (١٢١٣/١٧٩٨م) واحتل بها مصر تسبق هذا الاحتلال بقرابة قرن من الزمان ، وبعد خروج هذا الاستعمار الفرنسي والذى لم يتمكن من البقاء بعد محاولة استمرت خمسة أعوام للسيطرة ، اتجهت انجلترا فى محاولة يائسة إلى احتلال مصر فى غزوة بحرية عند رشيد (١٢٢٢/١٨٠٧م) تكبدت فيها هزيمة أعقبتها موليةً الأدبار . ومع فشل هذه الهجمة الشرسة على رشيد فان الاستعمار قد اتجه إلى الأخذ بالأسباب الخفية الكثيرة التى تمكنه من احتلال مصر ومنها استغلال ظروف الدولة العثمانية آنذاك حيث أخذت انجلترة تضغط عليها لكي تسمح لها بالتدخل فى بعض شئون مصر ، وفى الوقت ذاته عززت انجلترا ذلك بكثرة البعوث والمدارس والإرساليات وانشاء الشركات والموءسسات المختلفة وازدياد عدد رعاياها واتباع حكامها فى الاستدانة منها إلى غير ذلك من الوسائل التى فتحت بها طريق السيطرة والتحكم وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٢/١٨٧٩م) ، الذى كان حريصاً على أن يجعل من مصر دولة أوروبية ، ومهما تكن البواعث وراء هذا الاحتلال فلا يخفى أن احتلال انجلترا لمصر لا يخرج فى جملته عن الغارة الاستعمارية التى تواطأت الدول الاستعمارية عليها لحرب الاسلام وتمزيقه وامتصاص خيرات بلاده ، كما أن موقع مصر الجغرافي الرائع لم يكن خافياً على المستعمرين حين تنافسوا عليها ، وعندما أخفقت الثورة العرابية وتمكن الانجليز من الاجهاز عليها والاستيلاء على مصر[1] أخذوا فى تثبيت أقدامهم وإحكام قبضتهم ، وقد سارعوا إلى تنفيذ مخططاتهم واتخاذ الأساليب التى

---

(١) أنظر : التفاصيل التاريخية لهذا الاحتلال ، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ـ عبد الرحمن الرافعى .

تحقق مآربهم وهي كثيرة وشائكة لا يتسع لها مقام هذه الدراسة وان كانت لا تخرج عمّا يخدم المستعمر ويحقق طموحاته ومآربه.

آنئذ تشرع الأقلام أسنّتها إزاء هذا الخطب، والذى أصاب المصريين فى مقتلهم، ويبدو لى أن "كتابات صحيفة العروة الوثقى "كانت من أوائل الكتابات التى تناولت هذا الحدث المرير، فقد كانت" تعمل على إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها وتنبهها للقيام على شئونها، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية "(١) لذا أمرت سلطات الاستعمار بمصر أن تُعلن عن غرامة مالية نكالاً بمن توجد عنده العروة الوثقى بعد أن أمرت بعدم السماح لدخولها.(٢)

وهذا جمال الدين الأفغانى ينقم على الاحتلال الانجليزى عدوانه ويلح فى كتاباته على إعادة الروح القومية إلى المصريين الذين سرى فيهم اليأس واستسلموا للخضوع، فها هو يثير الشعب على الاحتلال فيقول(٣) "كأن المصريين نسوا ماكان بينهم، وأن الانجليز مادخلوا بلادهم إلاّ بمعونتهم، هذا هو الوهم العجيب، إنّ الذين كانوا مدة سنتين سببا فى تقلب العساكر الانجليزية وحلولها فى وادى النيل وأنهم لولاهم ما استقر لهم قدم فيه، يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الأهالى عموماً واخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً، ويجارونهم فى أهوائهم نفاقاً. هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانجليزية ليعلموا أن ليس فى طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزود من عشرين الف جندى ...

اذا كان الأهالي فى داخل البلاد يناوئونهم وليس لهم من القوة العسكرية البرية مايقهرهم على الطاعة. ليس فى الأمر شيئ سوى الوهم، هذا الوهم تمزّقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا من هم الانجليز .. ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء، صوت عال وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلمهما أن الانجليز صاروا للأمم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة

---

(١) العروة الوثقى ٢٤.
(٢) المرجع السابق ص ٣٢١.
(٣) المرجع السابق ص ١٨١.

وتدمر البنية. لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بأمورهم ".

والسودان التي يجب ألا يفوت التذكير بما أنزله الاستعمار بها،[1] والتي تُلحق في هذه الدراسة باحتلال الانجليز لمصر، كانت يومئذ تابعة للحكومة المصرية، وقد طمع فيها الاحتلال الانجليزي حين أنس من نفسه القدرة لاحتلالها، وحين كان الانجليز يثيرون الشكوك ويبثون الشائعات بين السودانيين لزعزعة الثقة في الثورة المهدية التي عانوا منها العنت ومرّ البلاء. تحذّر" العروة الوثقى " من الاستماع لهذه الوشايات، وتتخذ شرعية حماية الوطن حجة كافية لمقاومة الانجليز لأنهم محتلون، ولا يحتاجون في الانبعاث للمقاومة إلى أمر سلطاني، فالشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عنه، والموت دونه، والمدافع عن الوطن هو الذي يرسم له تلك الصورة الجميلة المحلاة بالفضائل في ذاكرة التاريخ، ويعرف بضد ذلك من يقصدون الوطن ويخونونه، وهو ماتحذر منه " العروة الوثقى" وتجلّيه[2]" لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر وعلى أي وجه انقلب القادر على فكر يبديه، أو تدبير يأتيه لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه فهو الخائن. مَن سوّف عمل اليوم الى الغد، وتوانى في تضليل كيد الاعداء بقول أو فعل، فقد ارتكب خطيئة الخيانة، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وممقوت في نظر العالم أجمعين، ما أعظم جريمة الخيانة، يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه إلا وصمة الخيانة فلا تطويها الأدهار ولا يخفيها تطاول الأعصار. محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين. لوث على

---

(١) انظر في احتلال الانجليز للسودان : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال " عبد الرحمن الرافعي.

(٢) العروة الوثقى ١٨٨، وانظر أيضاً المقالات التالية بها : زلزال الانكليز في السودان ، الانكليز في السودان ، عودة إلى خرطوم ، وانظر : أدب المقالة الصحفية جـ٣ ص٨٦-٨٨، ١٦٨

وجه الزمان ودون فى صفحة الامكان مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت الى أبد الآبدين " .

مضى الاستعمار الانجليزى لمصر فى سنواته الأولى لتثبيت قدمه وبسط سيطرته الحربية والادارية والمالية على البلاد ، فألغى الجيش الوطني ليحل محله جيشًا جديدًا هزيلًا خلوًا من القوة المادية والمعنوية ، تحت تصرف ضباط انجليز ، كما وضع يده على الأمن الداخلي وألغى قوانين الاصلاحات العسكرية ، كما ألغى البحرية المصرية ، وسيطر على المالية ووضع قواعد الحماية المقنّعة التى تقوم على بقاء جيش الاحتلال والزام الحكومة المصرية ، باتباع أوامره (١)، ومضت انجلترا بخطوات واسعة فى تحقيق أغراضها الاستعمارية فكان لذلك أثره السيىء على الشعب المصرى فى جميع النواحى، فى نظام الحكم ، وفى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعيه وفى الروح الوطنية وروح المعارضة وفى التعليم وغير ذلك (٢) .

إن هذه الروح الاستعمارية التى تسلّطت على كل شيىء خليقة ببعث الحقد والكراهية الشديدة عليها ، فليس عجبًا أن تظهر المقاومة المختلفة لصدّها والحدّ من سطوتها ، ومن ثم تجد زُمر الكتاب يتلو بعضهم بعضًا يسطرون هذه السياسة ويتابعون صغيرها وكبيرها ، وتضطرّهم إلى الجري معها فى ميادين متعددة ومحيطات واسعة ، فالاتجاهات السياسية والقضايا الدينية ، والمسائل الاجتماعية ، كل ذلك عالجه الكتاب وخاضوا فيه ، ومع ذلك فلا يخرج ذلك عن مقاطعة الاستعمار ومكافحة آفاته ونزع عقاربه (٣) .

واذا تذكرنا كثرة الكتاب والأدباء الذين ازدهرت بهم مصر فى عهد الاحتلال وما كان لأحداث الأحتلال من أثر فى نتاجهم الفنى واهتمام كل منهم بالكتابة عنها ، أمكن للمرء أن يتذكر ذلك السيل الهائل ، وتلك الكثرة مما يمكن أن نسميه " أدب المقاومة " فى الأدب العربى الحديث فى مصر.

والواقع أن هذه الكثرة التى يمكن تلمسّها عند أى كاتب لا سبيل إلى

---

(١) انظر التفاصيل فى" مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال" الفصل الأول" عبد الرحمن الرأفعى .
(٢) المرجع السابق" الفصل الثانى عشر" النتائج العامة للاحتلال الأجنبى
(٣) انظر أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٣ ص ١٣ .

تتبع جوانبها والالمام بأطرافها ، فذلك يستحق دراسة كاملة توضحه ويضطر مقام هذه الدراسة هنا إلى الاكتفاء بنماذج محدودة حسبها تعضيد ماتذهب اليه مع ماسلف من أمثالها .

هذا ابراهيم المويلحى يكتب فى تصوير رائع كيف يتدخل الانجليز فى شئون مصر ، وكيف تنطوى حيل القوم على المصريين ، مع أن المصرى كما يقول الكاتب(١) " من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالاً وأحَدَّهم ذهناً ، وأوقدهم ذكاءً وهو أكثرهم تشعباً فى الفكر ، وأطوعهم انقياداً للوهم ، وأسهلهم عن المقدمات وأسبقهم إلى النتائج وأسرعهم فى الحكم ، فلو تكلمت مع مصري مثلاً على عمل يعمله لربح يربحه لاخترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل ، واحدة إثر أخرى ولنفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام لشغفه بالوصول إلى النتيجة ، فيأخذ فى تعداد وجوه الانفاق من ذلك الربح الموهوم ، قبل الشروع فى العمل . . . " .

أما الانجليزى فيصفه بقلة الذكاء وقصر النظر" تراه بطىء التصور بطىء القياس ، قادراً بذلك على التأمل والتثبت ، والتروي والامعان فإن عمد إلى أمر انصرف بجميعه أولاً إلى النظر فى المقدمات وأخذ يقلبها بطناً لظهر فلا ينثني حتى يقتلها علماً ، ثم ينبرى للقياس فلا يخطىء إلا بمعاكسة الحدثان وصروف الزمان التى لم تكن فى قدرته أن يحيط بها وله من تلك الأناة وذلك الإمعان مايسّهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية " .

واذ يستمر الكاتب فى المقارنة بين الحالتين ، ويصف التدرج الذى يتداخل به المحتلون ، وابتداءهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير ليؤكد أن ذلك مكمن الداء الذى اضطرب فيه المصرى ونجح فى تجاوزه الانجليز " ومازال المحتلون ينتفعون بصوابهم وخطئنا معاً ، وينالون أغراضهم باغفالنا الحزم فى أمورنا . وانتباههم وتبصرهم فى أمورهم ، حتى تمكنوا من التدخل فى ادارات الحكومة المصرية ، ولم يبق لهم من ادارة سالمة من تداخلهم الا ادارة الأوقاف التى دبروا مادبروا لوقوعها فى أيديهم" (٢)

---

(١) مصباح الشرق - عدد ١٩ - السنة الأولى ٥ أغسطس ١٨٩٨م عن أدب المقالة الصحفية ج ٣ ص ١٧٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

وذا الشيخ على يوسف يتخذ من حادثة " دنشواى" [١] سببًا يمهد به لاستقبال " كرومر" الذى كان فى انجلترا وعاد إلى مصر[٢] ويقول " يوم الأربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر إلى القطر المصرى وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال قضوا فى (دنشواى) شنقًا ، وكانوا حتى يوم سفر اللورد إلى انكلترا أحياء يُرزقون ، لكن السياسة لا قلب لها ، وجناب اللورد سياسي محنك مشهود له فهو لا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على اثنى عشر مليونـًا .

إلا أن السياسة التى لا قلب ولا حنان لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر بالفشل والخسارة ، ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله لأنه سيجد فى البلاد نقصًا كبيرًا من هذه الوجهة " واذ يذكر الشيخ على يوسف ظهور الظلم فى هذه الحادثة ينتقد ذلك النظام الذى وضعه الانجليز سنة (١٨٩٥م) لنشر العدل فاذا هو نظام لا ضمان له من الرجال " من حادثة دنشواى " تجلت قوة الانسان وضعف النظام بأكمل وجوههما ، فظهرت صورة القوي مطلقاً لنفسه العنان فى الانتقام ، وظهرت صورة الضعف شوهاء متلاشية . . . فعلام توجد هذه المحكمة المخصوصة بل " الدائرة المخصوصة" [٣] ، لأنها دائرة الدوائر التى تدور على المصرى ، وفى البلاد محاكم منظمة يحاكم فيها كل وطنى اعتدى على أحد ، حتى على مقام ولي الأمر ؟ " [٤] .

لم يخف على الاستعمار الانجليزى استخدام الوسائل التى تُحقق له

---

(١) دنشواى من قرى المنوفية ، وقد خرج ضابط انجليزى مع رفقاء له لصيد الحمام فى هذه القرية (١٩٠٦م) فتعرض لهم أهل القرية واحتدموا بهم ففر منهم هاربًا فى حرارة النهار فمات فى الطريق ، الا ان " كرومر" اتخذ من هذه الحادثة ذريعة لاتهام المصريين بالتوحش والتعصب الدينى وقد اتخذ الكُتاب من هذه الحادثة دليلاً كبيرًا على جريمة الانجليز وفضحهم مما كان له أثر فى عزل كرومر بعد ذلك لأنه أمر بشنق أربعة رجال من أهل القرية ، انظر : مصطفى كامل عبد الرحمن الرافعى .

(٢) أدب المقالة الصحفية ج ٤ ص ١٥٠

(٣) هى محكمة مخصوصة بحادثة دنشواى أصدر قرار تشكيلها بطرس غالى حين كان وزيرا للعدل بالنيابة .

(٤) أدب المقالة لصحفية ج ٤ ص ١٥٤ .

له مأربه وخططه ، وقد كانت الصحافة من أعظم هذه الوسائل ، فاتخذ له من الصحافة مايبث فيه أخباره وأوامره ، كما كان يدافع فيها عن كل مايفهم فيه من تصرفاته وأقواله ، كما كانت من أنجع الوسائل فى إشغال الرأى العام عنه بأي أمر حتى يصرف الشعب عنه ليسير فى سياسته ويحقق أهدافه . ورغم سياسته التى اتخذها لاضعاف الصحافة التى تعارضه وتطبيق نظام الرقابة عليها متى يشاء فانّ الصحف التى سارت فى فلكه وهادنته أوخذ عنها سياسته كانت تجد الكتابات الكثيرة التى تُهاجم مسلكها من الصحافة الشعبية ، والتى تدلّها على سوء ماخدعت به ، كقول أحدهم (١) " إن الجرائد العربية المصرية المتعصبة للادارة العاملة بما فطرت عليه من كراهية الهيئة الوطنية ، والصحف المداجية لها (مراعاة لأحوال الزمان والمكان) تضرب طبول المدح لهاته الإدارة . . فيرقص المغرورون على نغمات تمليقها رقصًا يذكر بعضهم بأيامه السالفة فينشد بعد احتجاب النهار بسحابة الدّجى :

إذا تَذَكَّرْتُ أيامًا به سَلَفَتْ .. أقول بالله يا أيّامنا عودي

فهل خفى على تلك الصحف أن ليس من شفقة الصياد على الطير القاوءه الحب بين يديها . . . إنّ الجرائد المصرية لاتجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لاتستطيع التصريح علما بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور . فاذا حاولت الجرائد باظهاره سارع الى إطفائه بتعطيلها والغائها ، وإن الأمة المصرية لاتُوءخذ بهذه الوسائل ولاتصاد بتلك الحبائل . . . " .

ومما لايفوتنا فى هذا الاتجاه التذكير بتلك الصيحات التى تتعالى فى كتابات كثيرة ، هذه الصيحات تجسّد الضعف والخلل ، وتظهر الفساد وسوء الأحوال التى تشكو منها الأمة (٢) ، وما كل هذه الآثار السيئة إلا من قِبَل ذلك الاستعمار ، ومباركته لكل مايحقق مصالحه وإن أودى بالأمة المصرية إلى الهاوية وسوء المصير ، هذا عبد الله النديم يحذّر كثيرًا من هذه النتائج التى أوصل الاستعمار الشعب اليها على شاكلة قوله (٣) " أم هم " متسائلًا " الانجليز " الذين أعطوا الالتزامات الوابوريه والأرضية ووسّعوا نطاق

---

(١) أديب اسحاق ، الدّرر ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ وأنظر مجلة الفتح فى مقال تهاجم فيه الصحف التى تكيد للإسلام ، عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧ م .

(٢) انظر : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١ / ٢٣٥ .

(٣) سلافة النديم ٢ / ٧٦ .

المعدات الى أن ضيقوا كل عمل مصرى ، أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هوءلاء الضعفاء أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن وربما أعطوا من أخذها شيئًا يستعين به على نقلها حتى تركموا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو النبوت (١) أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء فى المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانيةسبيلا أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين فى مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بغرض المكافآت لمن ينبغ فى الانجليزية لتُنسى لغة القرآن فيُنسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا".

إن كثرةمادبجه الكتاب فى محاربة الاستعمار وفضح ألاعيبه ومخططاته لاسبيل إلى حصره أو متابعته فى هذه الدراسة هنا ـ كما سبق القول بذلك ـ بيد أن هناك ثلاثة أحداث تفرض نفسها على دارسي هذه الفترة مما أجدني فى حاجة إلى التذكير بها ونحن بصدد انهاءالحديث عن الاستعمار الانجليزى لمصر.

(١) أول هذه الحوادث هى الفتنة الطائفية التى احتدمت بين المسلمين والأقباط(٢) ، وقد بلغت هذه الفتنة قمتها حين بدأ الأقباط يدعون الى موءتمر قبطي لبحث حالتهم ومطالبهم فى المساواة فى الحقوق العامة ، وكان مقتل " بطرس غالى" رئيس الوزارة فى سنة ١٣٢٨ (فبراير ١٩١٠م) مما زاد فى خطورة الأمر وتفاقم الخلاف ، ومضى الأقباط إلى اتهام جيرانهم المسلمين و بخاصة الحزب الوطني ورجاله ، وتم انعقاد الموءتمر القبطى فى أسيوط فى (١٣٢٩ / مارس ١٩١١م) وكان لهذا الموءتمر صداه فى الحكومة المصرية التى خافت من انصداع الأمة باحياء الفتنة مما حدا بها لدعوة الفريقين إلى موءتمر سُمي بالموءتمر المصرى" لينظر فى شئون الطائفتين ويحسم الخلاف الناجم ، مع مطالبة الجميع أن تكون مصلحة الوطن نصب أعينهم ، ومضى هذا الموءتمر الذى انعقد فى (١٣٢٩ / أبريل ١٩١١م) الى غايته متوخيًا التوفيق بين العناصر التى تجمع الوحدة المصرية فكان له أعظم الأثر

---

(١) النبوت : كلمة عامية فى اللهجة المصرية وهى العصا .

(٢) انظر تفاصيل الفتنة الطائفية فى مصر : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ، عبدالرحمن الرافعى ص٢٩٢ ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ١/١٢٥ - ١٥١ .

في إطفاء هذه الفتنة والتئام الفريقين بعد ذلك في الوقوف ضد الاستعمار عدو الجميع .

كانت هذه الفتنة مبعث كثير من الكتابات[١] والاتهامات وسوء الظنون التي طفحت بها الصحف القبطية والوطنية ، وزاد من قوة الكتابات ووفرتها ميل بعض الصحف القبطية إلى الاستعمار والاستعانة به والشكاية إليه ، ولهذا فليس غريباً أن تنال الصحافة الوطنية من القبط وتتصدر صفحاتها بكتابات قوية عنيفة ، تنذر وتهدد وترمي الاستعمار والأقباط بألسنة حداد لا تقل عن السنان قوة ومضاء .

(٢) والحادث الثاني : هو اعلان الحماية على مصر في سنة ١٣٣٣ نوفمبر ١٩١٤ م)[٢] وذلك لكي يقطعوا آخر علاقة لتركيا بمصر ، متذرعين بانضمام تركيا إلى ألمانيا والنمسا في الحرب الأولى ضد انجلترا وحلفائها ، وبهذه الحادثة كُمِّمت الأفواه وقُيدت الحريات وفُرضت الأحكام العرفية على الشعب المصري ، وأخذ الاستعمار الحكم والسيطرة بيد من حديد ، وأجهز على السلطة فخلع الخديوي عباس الثاني عن العرش وولّى مكانه السلطان حسين كامل .

ومن العجب أن كل هذه الضغوط والمآسي التي أنزلها الاحتلال بمصر في هذا العهد الجديد لا يوجد لها صدى في الأدب المصري كما قال أحد الباحثين[٣] " يأسف التاريخ المصري الحديث حين لا يجد لهذه الحركة الهائلة - وهي حركة انتقال العرش على يد الانجليز من فرد إلى آخر من أفراد أسرة محمد علي - وحركة اعلان الحماية - من صدى حقيقي لاحتجاج المصريين على هذه التصرفات التي بدت من جانب الانكليز لا نكاد نستثني من ذلك الا صدىً واحداً فقط هو احتجاج " جريدة الشعب " التي كان يحررها الأستاذ أمين الرافعي[٤] عن الصدور منذ قال في عدد أصدره في ٢٧ نوفمبر

---

(١) أنظر جملة من هذه الكتابات : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/١٢٨-١٣٨ .

(٢) ادب المقالة الصحفيه ج ٨/٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٤) أمين الرافعي (١٣٠٣/١٣٤٦) كاتب وصحفي سياسي مصري ولد ومات بها تخرج من مدرسة الحقوق وناصر الحزب الوطني في عهد مصطفى كامل وكان من كتاب صحفه كاللواء والعلم . انظر تفاصيل ترجمة ادب المقالة الصحفية . د . عبد اللطيف حمزة ج ٧ .

سنة ١٩١٤م " انه سيحتجب عن قراءة منذ ذلك اليوم ، وان الغرض من ذلك هو ألا تُنشر صحيفة الشعب إعلان الحماية المشئوم ، أو تنشر البلاغات التى تستتبعها الحماية " ، وهكذا أطبق الاستعمار على الصحافة والأهالى وسار بعد ذلك فى مخططه يضطهد ويصادر وينفي كما يريد ولا أحد يطيق الجهر بهذه الجرائم كأنما خيم السكون وساد الوجوم على أرجاء مصر.

(٣) ثالث هذه الحوادث هي الثورة المصرية عام (١٣٣٨/١٩١٩م)(١) رغم أن كبت الحريات والتضييق الشديد على الآراء والأفكار إضافة إلى تسلط الاحتلال على حكم مصر وشئونها العامة من أكبر بواعث هذه الثورة ، ورغم المظاهر السياسية والدينية والقومية التى ظهرت فيها ، فالذى يهم دارس الأدب أن لهذه الثورة أثر لا يمكن تجاهل مداه فى الحياة الأدبية والهامها بل لقد ظاهرها " الأدب لا من حيث مسايرته للثورة والتعبير عنها ولكن فى الارهاص لها " (٢) .

ورغم الكبت الشديد الذى فُرض أيام الثورة والرقابة الصارمة على الصحف(٣) فان الدلائل على أدب ألهبته هذه الثورة، وما أُخرج مما كان حبيسا فى إبان احتدامها، فضلاً عن الخطابة التى عجّت بها الثورة قوة وحماساً ، وما كان للنشرات والصحافة السرية(٤) ليؤكد بلا مراء الأثر الأدبي الذى رافق هذه الثورة ومكانته منها.

من خلال هذه الأحداث الثلاثة فضلاً عما سبقها يتجلى لنا كم كان الأدب الذى ألهمه احتلال الانجليز لمصر غزيراً وواسعاً ، وكيف كان متابعاً لمجرى الحوادث وراصداً لها ، فضلاً عما له من أهمية فى إيقاظ النفوس والهمم لمقاومة الغاصب ودحره وتطهير أرض النيل من جوره وعدوانه وشططه .

---

(١) انظر تفاصيلها فى كتاب : ثورة سنة ١٩١٩م- عبد الرحمن الرافعى .
(٢) الصحافة الأدبية بمصر والاتجاهات القومية ١/٧٥.
(٣) أنظر فى الأدب الحديث ٢/٧٦-٧٩.
(٤) انظر نماذج منه فى : الصحافة الأدبية بمصر والاتجاهات القومية ١/٧٦ وما بعدها ، ثورة سنة ١٩١٩م ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٥ ، ج ٢ ص ٤٤ ، الخطابة السياسية فى مصر - عبد الصبور مرزوق .

ب) الحرب اليونانيـــة :

لا تخرج هذه الحرب عن دائرة التآمر الأوروبى العام ضد الاسلام فــى مطلع هذا العصر، فاليونان في الحقيقة لم تكن لتجرؤ على محاربة العثمانيين لولا إيعاز دول أوروبا اليها ومعونتهم لها (١) ، وعندما نشبت هذه الحـــرب سنة (١٣١٥ / ١٨٩٧م) نجد الاهتمام الشديد بها فى مصر، فالشيخ علــى يوسف الذى كان عثمانى الـهوى آنذاك ، يدافع عن العثمانيين ، وكانـــت أخبار الحرب تحتل الصفحات الأولى من المؤيد ، وكان يهاجم انكلترا التى لها نصيب وافر فى بعث تلك الحرب ، ويعتبر نصرها نصرًا لمصر ، ويطالـــب بتدعيم روابط الولاء بين الدولة العلية ومصر ويقول (٢) " يعلم المصريـــون كافة أن فى سلامة الدولة العلية سلامة مصر ، وفى المحافظة على حياتهـــا صيانة مستقبل بلادنا المحبوبة . . . . ويعلم الناس كافة أن انكلترا أشد أعداء الخلافة . . . وعملوا ويعملون لتقويض أركان السلطة العثمانية وأنهـــم ما أشهروا عداءهم لها الا من يوم توثيق العلائق بينها وبين مصر . . . " .

واذ يقوم النزاع بين اليونان والدولة العثمانية حول جزيرة " كريـــت " ويتجه العثمانيون إلى تقوية أسطولهم البحرى ودعوة المسلمين جميعـــًا للمساهمة ، يتحمس الشيخ على يوسف لذلك ، ويقود الدعوات لهذا الاكتتـــاب ، وينشر يوميًا المتبرعين والمبالغ التى تبرعوا بها دعمًا للأسطول ليشجع غيرهـــم على التبرع ، وقال مشيدًا بهذه المعونات (٣) " لقد برهنت الأمة المصريـــة باقبالها الشديد على مشروع الاكتتاب الوطني لاعانة العسكرية الشاهانيـــة أنها تعرف مصلحتها الحقيقية المتوقفة على حفظ الدولة العلية وجامعـــة الخلافة الكبرى " .

وعندما عاد الزعيم الوطنى مصطفى كامل من باريس يونيو (١٨٩٧/١) ألقى خطبة فى الاسكندرية كان مما فيها أن نفى الخطيب تهمة التعصب الديـــنى

---

(١) انظر الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ١٩٢٩/٤ ، وما بعدها .

(٢) المؤيد ٢٣ مايو ١٨٩٧م نقلاً عن السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ص ١٣٣ .

(٣) المؤيد عشرين مارس ١٨٩٧م عن السلطان عبد الحميد والخلافـــة الاسلامية ص ١٣٣ .

الذى نسبه خصوم مصر الى المصريين بسبب اكتتابهم فى مساعدة الجيش العثمانى في هذه الحرب العثمانية اليونانية وقد سوّغ موقف مصر قائلاً [١]" إن مظاهرة الأمة المصرية نحوالدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى ، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراح عام ضد الانجليز فى مصر . . .

نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية لماذا غيّر الانجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣ ، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان ؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها ؟ أليس لأنه قدّر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها ؟" وتمضي الخطبة تبين أنه لو لم تكن بين مصر والدولة العلية أية علاقة ،أليس من الجميل والواجب أن تعترف مصر لدولة رفضت القضاء عليها ولم تساعد أعداء مصر عليها ، ثمضرب مثلاً بصداقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم لمجرد ايواء الأتراك لأحرار المجر فى بلادها .

ونظرًا للنصر الذى حققه العثمانيون على خصومهم فقد كانت هذه الحرب مبعث أمل واستبشار لنهضة الدولة العثمانية دولة الاسلام ، واستعادة قوتها كما يظهر فى صدى الأدب [٢] الذى ألهبته أحداث هذه الحرب اليونانية .

ج) حرب طرابلس الليبية [٣] :

عندما بلغ الاستعمار الأوروبى ذروة تسلطه ونهمه فى آخر القرن الرابع عشر الهجرى واحتوائه لكثيرمن البلاد الاسلامية لميكن لايطاليا شيء منها، ولذا أخذت تعد العدة لأخذ نصيبها أسوة بالدول الاستعمارية الأخرى، وليس هناك أقرب وأسرع لايطاليا من البلاد الليبية ، وقد أعدت بالطبع لذلك الغزو مايسبقه من شراء أراض وإرسال بعثات تبشير وشركات عاملة وخلاف ذلك،

---

(١) مصطفى كامل للرافعى ص٩٩ .

(٢) انظر الشوقيات ١ / ٤٢-٥٨ .

(٣) انظر فى تاريخها : حاضر العالم الاسلامى ٢ / ٦٤-١٢٨ .

مما يمهد الطريق ويدرس الوضع، ثم تقدم إيطاليا فى (١٢٣٨ / ١٩١١م) بضرب السواحل الليبية وإنزال قواتها واحتلال طرابلس وبنغازى وغيرها ، والذى يبدو من الدراسات التاريخية أن الطليان كانوا يتوقعون احتلال المناطق الليبية فى يُسر وسهولة دون عناء كبير، ولكن المشيئة خيبت ظن القوم وصُدوا صدًّا عنيفًا وانكسروا فى مواقع متعددة رغم البون الشاسع بين قوة الطرفين ،والتى تجعل من قوة الطرابلسيين الضئيلة خيالًا أمام قوة جيش الفاشستية العاتية ، لذلك ولغيره بدأ الطليان فى استعمال القوة بكل ما أوتوا ،وانهالوا على أهل البلاد بكل قسوة ووحشية ، لا يتورعون عن أقبح الأعمال وأفسد الأخلاق فى ما يتصل بالحرب ومالا يتصل بها ، بل إن المتأمل في جرائم هذه الحرب التى هي صفحة مجَلّلة بالخزى والعار لأوروبا كلها على مدار تاريخها ليقول :إنّ هذه إبادة ووحشية وليست غزوًا حربيًا ، وإن كل تلك العدوانية لتدل على الحقد المرير والرغبة الأكيدة فى محق أهل برقة وطرابلس وماحولها من الوجود ،وتعود بالذهن ليضيفها إلى حملات الهجوم والتخريب كما مثلها المغول والتتار فى ديار الاسلام بقيادة الطغاة هولاكو وتيمور لنك وسواها ، ولا أدل على هذه الحقيقة من قول من عايش أحداثها ورأى بأم عينيه أهوالها لمن يتساءلون أو يشكون فيها (١) :" ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيون بالمسلمين هناك ،ومالهم وللأندلس ولأمور جرت فى القرون الوسطى ،فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم فى هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس " .

واذا كان هذا الحقد وهذه الشراسة الحربية إنما ترجع إلى الروح الصليبيةالتى كانت واضحة فى ذلك النشيد الحماسى الذى كان يردده الطليان فى هذه الحرب كما أشير اليه فيما سبق ، ليبيدوا الأمة الملعونة ـ كمايزعمون ـ فلا داعى لتلمس الدوافع وقد قطعت جهيزة قول كل خطيب ؟ .

هذا المنفلوطى يصوّر بشعوره الرقيق مآسي أهل طرابلس فى تلك الأقاليم القاحلة والصحراء المحرقة لا يملكون حولا ولا قوة (٢) وارحمتاه لجماعة المسلمين فى طرابلس، إنّهم عاجزون عن أن يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل أشلاء مبعثرة تحت كل كوكب ،

---

(١) هذا من مقال كتبه الأستاذ : عبدالرحمن عزام : حاضرالعالمالاسلامى ٢ / ٦٥وكان عزاميدرسفى أوروبا فعندماقامتالحرب الطرابلسية ترك الدراسة وانخرط مع المجاهدين فى هذه الحرب.

(٢) النظرات ٢ /١٥٣- ١٥٦ .

وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيران ذلك الدخان في أجواء الفضاء.

وارحمتاه لهم ، إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثًا ، ويستصرخون فلا يسمعون مجيبًا ، وقد تقطعت بهم الأسباب وأعوزتهم الوسائل وسُدّت في وجوههم السبل فلم يبق لهم منها إلا سبيل الموت".

أما الكوارث والوحشية التي أنزلها بأهل طرابلس أولئك الأوغاد فهذه نتائجها ، وتلك عاقبتها الأليمة (١)" هناك تنوح النائحات ، وتبكي الباكيات ، وتطير النفوس ، وتصعق القلوب وترنّ المنازل والدّور بالنحيب والتعداد ، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم تر في حياتها وجه الشمس الا من كوة بيتها بَرْزَة الوجه ، عارية الرأس ، حيرى مولهة هائمة في الطرق والمذاهب ، تُسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها.."

وهناك ترى الشيوخ الكبار والأطفال الصغار ، والعاجزين والضعفاء لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون أن يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها ، فلا تقيهم ، أو عائذين بالمضايق والشعاب يفرون إليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم.." .

وبينما يستمر المنفلوطي يثير الكوامن ويبعث الشفقة لحال أولئك المنكوبين تجد ولي الدين يكن يتساءل في إنكار تغافل قومه عن استعداد الطليان للحرب ، ويذكّر بجرائم القوم وشراسة حربهم وانتزاع الانسانية من قلوبهم (٢) : " أكنّا نُرجّي أن تأخذ عدونا رحمة بنا . أم كنا نحسب أن سيقف أمامنا ويحيينا بالورد والآس ، إنا اذن مجانين .

قوم عبأوا فيالقهم واستجثوا ساحاتهم وجاءوا يمطروننا قنابل ويصلوننا نارًا طمعًا في أرض لا تربتها خصبة ولا ماؤها عذب ، نهبًا واغتصابًا . يطأون الخدور المعفرة ويمشون على العظام النخرة . لم تسترجعهم آداب القرن العشرين ، ولا نفذت إلى قلوبهم صيحات الساخطين من أبنائه . يستنيمون إذا عجزوا ويفتكون اذا قدروا . قد استحلوا بلادًا أغاروا عليها لأن أهلها عرب ولأن حكامها ترك ، فكانوا فيها أشد خشونةً من أهل القرون البائدة".

---

(١) النظرات ٢ / ١٥٣-١٥٦.
(٢) التجارب ٦٤- ٦٥.

واذ تترامى انباء هذا الاستعمار القذر الى بلاد الاسلام تتعالى الصيحات وتتجاوب النداءات غضبًا وحمية وإشفاقاً ، وتكثر الأحاديث والكتابات فى مصر لقربها وسرعة وصول الأخبار إليها ، وتأخذ هذه الحرب فى الصحافة المصرية مكانًا بارزًا مدويًا ، ويظهر الدفاع المجيد عن أهل طرابلس، وتخرج الدعوات لجمع التبرعات التى تُرسل إلى المجاهدين عن طريق الهلال الأحمر وسواه (١) ، ويظهر الميل إلى موءازرة الدولة العثمانية فى هذه الحرب ، كما تجد الاستنكار الشديد والسخط الحاد ينزله بعض الكتاب على من كانوا يهاجمون مساعدي العثمانيين فى هذه الحرب ، وهذا الشيخ عبد العزيز جاويش يقول لأحدهم (٢) : " أي عدوّ الإسلام نقمت منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين ، نستنفر الموحدين لإغاثة الموحدين فماذا كنت تريد ؟ أأردت منا أن نتقدم إلى البابا بيد مبسوطة وروءوس خاشعة وأبصار مغموضة وأدعية ضارعة أن يدفع عنا بلاء أمة تدين بصليبه وتدين بمذهبه . إذن لقد ضل عقلك وخطل رأيك فقد نشر أمام النصرانية (يعني البابا) ذلك المنشور الذى بارك فيه الحملة الإيطالية على طرابلس ثم دعا فيه أهل المسيح باسم المسيح وشفاعة المسيح - أن يستبيحوا المحارم وألّا يكون فيهم غير ظالم . "

واذ تتجلى الدعوات للنجدة فى هذه الحرب توءازرها الصيحات بالاستعداد للمقاومة والدفاع ، ومن هذه السبل الحيطة والحذر لتصرفات الطليان ، فهم حين دعوا للصلح ، حين اضطرتهم الحرب العالمية الأولى لذلك تجد التحذير من مكر هذا الصلح مغبة أن يتخذه الطليان أداة للتوغل والاستيلاء ، هذا كاتب يسخر ممن لا يعرفون من الصلح إلا مصلحته البسيطة الظاهرة ويدهش لكثرة الانشغال به ليقول (٣) " إنه اعجوبة بكل معانى الكلمة

---

(١) انظر المقالة الصحفية ٧ / ٤٠١ ، ٨ / ٣٣ حيث تجد الاشارة لبعض الكتاب كأمين الرافعي وعبد القادر حمزة ممن اهتموا بهذه الحرب فى جريدتى العلم والأهالى ، وانظر أيضاً : مجلة الهلال مجلد ٢٠ ص ١٨٨ (١٩١١ ، ١٩١٢) مقال نهضة العثمانية على أثر التعديات الإيطالية .

(٢) صحيفة العلم - ٣١ أكتوبر ١٩١١ م عن السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ص ١٤٩ ، والمخاطب فى المقال هو لطفى السيد الذى هاجم فى "الجريدة" الذين يدعون لهذه المساعدة .

(٣) الكاتب بن قدور الجزائرى من مقال نشره فى جريدة "الحضارة بالاستانة (١٣٢٩ / ١٩١١ م) عن مجلة الثقافة الجزائرية - العدد الاول محرم ١٣٩١ ومارس ١٩٧١ ص ٨٥ - ٨٩ .

ألا وهو الصلح ، الذى لم اختلقه ولكن جئت بها عن بينة ، لأن التهاون الذى انثال على المدارك انثيالاً من هذه الآوبة الصعبة جرنى إلى الاتيان بهذه التذكرة . . . إنني آسى أن تتشوف البصائر إلى الصلح ولا تتذكر أن الصلح عقده عار، وامضاؤه بوار ونتجته اندعار ، وحاصله وبال واندحار، وكيف لا ؟ والعدو لم يتمكن من شبر خارج منطقة حماية أسطوله ، والبراهين تتراءى منذ عام على شدة خموله وجموده ، وعلاوة على ذلك هل يعقل أن القوم ينصفوننا ؟ ومن يعقل ذلك فليأت برهانه إن كان من الصادقين . . . " .

أما الدكتور طه حسين الذى يرى أن ايطاليا لم تطمع فى طرابلس الا حين رأت فرصة سانحة وسبلاً ممهدة وأيقنت بحسن الظفر وسلامة العاقبة فانه يلقى بكلمات مرة تنفذ إلى القلوب ينعى فيها ضعف الأمة وتخلفها وفتور عزيمتها واستسلامها للحوادث، حتى أصبح المسلمون نهباً مقسماً بين أمم الغرب الحية التى مدت الأسباب والوسائل إلى القوة المادية والأدبية ويقول[1]: " ليس لهذا السقوط مصدر الا تعطل النفوس من العلم وامتلاء الرؤوس بالأوهام والاضعف الدين واضطراب اليقين وما كان من تساند المسلمين بعضهم على بعض لا يعرفون لأنفسهم قيمة ولا يحسنون عليها اعتماداً . . . فخليق بنا إن أحببنا أن نحيا حياة صالحة أن ننهض لاستقبال هذا العدو بعزم كعزمه وقوة كقوته . ألا وإن الغرب قلما يعتمد على السيف وانما اعتماده كله على سلاح أحدّ وأمضى منه و هو العلم والأخلاق والاقتصاد ، فلنحاربه بمثل سلاحه وإلا فلنعتقد أننا لم نُخلق إلا للقبور" .

رغم قوة جيوش الفاشيست الجبارة ، وأساطيلها الماخرة بقوة النار، ورغم قلة العدد والعدّة مع مجاهدى طرابلس وأخواتها ، فقد كان من الأعاجيب والخوارق أن تُزلزل هذه القلةُ تلك الجيوشَ الجرارة وتذيقها النكال الشديد ، فلقد أبدت قطاعات جيش العثمانيين وجماعات المجاهدين والمتطوعين شجاعة وبسالة فاقت كل تصور وأذهلت سائر الناظرين والخارجيين ، آنئذ يقوم الكُتاب يستحثون الهمم ويحثون المجاهدين على الصبر والثبات ، يحيون أولئك الأبطال ويقارنون بين مصيرهم وسوء مآل عدوهم ، تظهر هذه الكتابات حماسية كخطب الحرب ، دعوة الى الجهاد وبث للحماس فى النفوس لخوضه

---

(١) مجلة الهداية ـ مقال الحرب الحاضرة ـ السنة الثانية (١٣٢٩ / ١٩١١) ص ٨٣٣ - ٨٣٧ .

انذار بسوء العاقبة وبشارة بالنصر والفوز، وتذكير بالأمجاد والبطولات، وانظر إلى المنفلوطى كأنه منذر جيش يقول : قد صبّحكم ومساكم ، فياله من خطيب بارع أخذ نفسه لنصغي اليه فى خطبة الحرب[1]" يا أبطال برقة ، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، ذادة المعاقل والحصون ، صبرًا قليلاً فى مجال الموت ، فهاهي نجمة النصر تلمع فى آفاق السماء ، فاستنيروا بنورها ، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم . إنّ الله وعدكم النصر ووعدتموه الصبر ، فأنجزوا وعدكم ، ينجز لكم وعده ، لا تُحدّثوا أنفسكم بالفرار فوالله إن فررتم لا تفرون إلا عن عرض لا يجد له حامياً ، وشرفٍ لا يجد له ذائداً ، ودينًا يشكوا إلى الله أقواماً أضاعوه ، وأنصارًا خذلوه إنكم لا تحاربون رجالاً أشداءً بل أشباحًا تتراءى فى ظلال الأساطيل ، وخيالات تلوذ بأكتاف الأسوار والجدران ، فاحملوا عليهم حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها ، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ولا لأسيافهم ساعداً .

إنهم يطلبون الحياة وتطلبون الموت ، ويطلبون القوت وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم وتطلبون جنة عرضها السماوات والأرض ، فلا تجزعوا من لقائهم ، فالموت لا يكون مرّ المذاق فى أفواه المؤمنين . . ."

يمضى هذا الخطيب على هذا الأسلوب الذى يبعث على الشجاعة ويُنفّر من الذل والخوف من الأعداء ، انها لأحدى الحسنيين ، فاما حياة عزيزة ومقام كريم وامّا إلى جنات النعيم ، كيف تجبن النفس ويهدأ القلب وقد تمادى ذلك العدو ينتهك حرمة الأرض والدار ويملك النساء والأولاد ويطأ بقوته المقدسات ويقود الناس إلى مواقف الذل والهوان ؟ إنّ التاريخ لا يرحم أحداً فليكتب أهل طرابلس تاريخهم ولا ينسوا الصحائف البيضاء التى سجلها التاريخ لأبائهم العظام .

بمثل هذه الأساليب الحماسية كانت تسيل الأقلام حثاً على الصبر والجهاد فى هذه الحرب ، وتجد من يضيف إلى ذلك التذكير بمقاطعة الطليان [2] باعثى هذه الحرب والباغين فيها ، وليس ذلك بكثير فى جانب

---

(١) النظرات ٢ / ١٥٧ - ١٦٠ .
(٢) انظر : مقال : مقاطعة الطليان ، مجلة الزهور ، أنطون الجميل ، السنة الثانية ١٩١١م وكاتب المقال رمز لاسمه بكلمة " حاصد " .

هذه الحرب العاتية الغشوم، والتي بلغ مداها الآفاق، واحتشد لتسجيل أهوالها الكتاب والشعراء وصُفّت فيها التآليف .

د) الحرب العالمية الأولى :

رغم أن هذه الحرب في واقعها كانت بين المانيا والنمسا من جهة والحلفاء (انجلترا وفرنسا وايطاليا) من جهة أخرى ، ولا علاقة للدولة العثمانية بها مباشرة ، إلا أن محاولات الطرفين السابقين إلى اجتذاب العثمانيين إليهم أدت إلى ولوج العثمانيين في هذه الحرب التي كانوا هم الضحية فيها ، لقد جرّ الاتحاديون الدولة العثمانية بجانب ألمانيا رغم رفض كثير من الوزراء والقواد بل والخليفة (السلطان محمد رشاد) من الدخول في حرب لا مصلحة للدولة فيها ، واضْطُرّ السلطان تحت الضغط والقبول بالأمر الواقع على الموافقة وإعلان الجهاد المقدس ضد الحلفاء ، ونظرا لأنّ ألمانيا التي تُحالفها الدولة هي من دول النصرانية علاوة على ضعف المسلمين وتشكّكهم في حقيقة مايدور، إذ أن اتجاه رجال الاتحاديين للدفاع عن الاسلام كانت تدور حوله الظنون ، فقد ذهب إعلان الجهاد أدراج الرياح ولم يكن له صدى يُذكر في العالم الإسلامي آنذاك .

وعلى كل حال لقد أوجس العرب من سياسة الاتحاديين عدم الصدق معهم منذ سنواتها الأولى، ونظرا لظهور روح القومية الذى ظهر قبل خلع السلطان عبدالحميد، والتي كانت سياسة الاتحاديين السيئة مماأذكى روحها فقد كثرت الجمعيات والمنتديات السرية التي تطالب بحقوق العرب في الدولة العثمانية-كما سنرى في الباب الثاني بحول الله - وعندئذ شرع الاتحاديون يولون هذه الجمعيات والتحركات عنايتهم بل وقمعهم خوفا من أخطارها على الدولة ، ونظرا لمكانة العرب في الدولة العثمانية سعى الاتحاديون لاستمالتهم وإظهار المودة لهم قبيل هذه الحرب ، ففي الشام عمد الاتحاديون " إلى الايهام والتضليل . . وظهروا بمظهر من يُقرّ للعرب بكافة حقوقهم وبأنهم شركاء في إدارة دفةالمملكة .

وخطوا الخطوة الأولى في هذا المضمار - والحرب في بدايتها فعيّنوا الفريق زكى باشا الحلبي [1] وهو من كبار ضباط العرب قائدا على الجيوش

---

(١) لم اقف على ترجمته .

التى كانت مرابطة فى سورية ، وجعلوا معظم أعوانه ومساعديه والجنود التى يقودها من أبناء العرب ، وعاملوا السوريين والعراقيين أحسن معاملة ، فقلدوهم المناصب وتظاهروا بالاخلاص لهم وقالوا إنهم سيعملون معهم يدا واحدة للدفاع عن كيان الدولة المشتركة بينهم .

صدّق العرب هذه الأكاذيب واندفعوا بعامل الوطنية إلى شدّ أزر الاتحاديين وأجمعوا على وجوب تأييدهم وبذل كل غال ونفيس فى سبيلهم، فخاض جنودهم غمار المعارك فى معظم ميادين القتال ، وأبلوا بلاءً حسنا فى القوقاز والعراق والدردنيل وألغوا جمعياتهم وأحزابهم السياسية ، وتناسوا كل المنازعات الداخلية ، ودفعوا فى سبعة أشهر من الضرائب والاعانات الحربية أضعاف ما ضُرِب على الأمة التركية . . . " (١) .

وفى العراق مثلا تجد الدعوة إلى القومية والوطنية تُكبت أثناء هذه الحرب إكراما للدولة العثمانية المسلمة ، وتأثّراً بالجامعة الاسلامية حتى أُوقف الشعراء والأدباء أدبهم للدفاع عن هذه الدولة حامية الدين ، معلنين على صفحات الجرائد صيحاتهم للجهاد (٢) ، بل إنّ من أدبائها من لم يكتف بالصحف بل آزرها بكتابين فى إبّان هذه الحرب (٣) ، وسم الأول (بحبل الاعتصام) والثانى (بجنايات الانكليز) وهو فى الكتابين يحرّض الناس على حرب بريطانيا التى يرى انها ألدّ أعداء الخلافة ، كما يؤكد على ضرورة اتحاد العرب بالترك فى تلك الازمة ، كما أنه فى الكتاب الثانى يرى أن جنايات الانجليز عمّت البشرية جميعا ، ثم يعدد مثالبهم وخبثهم تجاه أُمته ، وأنهم يرمون إصابة كَبِد الهلال العثماني والقرآن المجيد .

أما مصر التى أعلنت بريطانيا فى مطلع هذه الحرب الحماية عليها وإزالة السيادة التركية عنها (١٣٣٢-١٩١٤م) كما لوحظ فى الحديث قريبا عن احتلال مصر ، ليس غريبا آنئذ ألّا يظهر شيء من الأدب يُمجّد تركيا ويؤيدها فى هذه الحرب ، رغم وجود المشاعر الكبيرة التى تحنو عليها .

---

(١) الادب والقومية فى سورية ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ص ٢٣٤ .

(٣) الكاتب هو الشاعر العراقى محمد حبيب العبيدى ، انظر : الشعر العراقى الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه ـ د . يوسف عز الدين ٨٩ ، ٩٠ .

وفى ضوء ماتقدم نجد الأدب الذى كان صدى لتيار الرابطة الايمانية فى ظل الخلافة ، فهذا كاتب فى صحافة العراق بعد ما هاجم الانجليزَ أعداء الخلافة يتّجهُ إلى الإشادة بالاتحاد بين وعدلهم وحريتهم رغم جبروتهم وسوء سياستهم ، ويقول : (١)

" يومٌ مبارك هو العاشر من تمّوز ، فيه انتقل الحكم من الفرد إلى الجماعة . . أمس حطّمنا أغلال الاستبداد الحميدي ، واليوم تُقوّض أركان الاستعمار الاوروبي . . دوّت كلمة أميرالمؤمنين بإعلان الجهاد فدوّت لها أرجاء الكون ، واهتزت لها العروش والتيجان ، لبّاها المسلمون فى أقطار الكرة شيوخا وشبانا ورجالا ونساء . . ثمانية أعوام بين صوت الحرية وبين صوت النفير إلى الجهاد . . فتباركتْ أمةٌ هذه جلائل أعمالها ، وعاشت رجال يعملون باخلاص وأمانة فى اعلاء شأن الوطن " .

بمثل هذه الروح التى تتخذ من الجامعة الاسلامية وسيلة لبث آرائها مع التنديد بالحلفاء وخداعهم وظلمهم اصطبغت صحافة العراق فى هذه الحرب ، وقد غذّى هذه النزعة تلك الفتاوى التى كان يذيعها أجلّة العلماء فى التحريض للثورة على أعداء الاسلام (٢) .

إنّ خير مايُتمثل به على روح الأدب فى هذه الحرب تلك المجموعة من الخطب والمقالات . والقصائد التى ضمها كتاب " البعثه العلمية إلى دار الخلافة الاسلامية " (٣) وهذا الأدب بلا ريب أدب سياسي قد لا يكون للعواطف الحقيقية حريتها فى تصويره ، إلا أنه لا مناص من الإفادة منه لما له من دلالة على ملابساته .

هذا أحد الخطباء يقول فى حضرة وزير الداخلية العثمانى (٤) :

---

(١) جريدة صدى الاسلام ـ العدد الاول ٢٣ تموز ١٩١٥م عن : اساليب المقالة وتطورها فى الادب العراقى الحديث والصحافة العراقية ، د . منير بكر التكريتى ص٢٣ .

(٢) أنظر : السابق نفسه ص٢٤ .

(٣) هذا الكتاب فى الأصل تدوين لرحلة وفد تكون من أكثر ثلاثين رجلا يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين ، نظّمه وبعثه قائد الجيش العثمانى فى سوريا أحمد جمال باشا وأرسله إلى دار الخلافة لعرض إخلاص أهل البلاد التى يمثلها الوفد نحوا لخلافة و لبثّ عواطف الأخوة نحو إخوانهم المجاهدين فى الحرب الاولى التى شبت نارها آنذاك .

(٤) البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية ص٥ ، ٤٦ .

" ان الانقلابات التى وقعت منذ نشرتم واخوانكم أحرار العثمانيين القانون الأساسي فى السلطنة قد علّمت الناس وولاة أمورهم تعاليم كثيرة فتعلمنا من الحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير فى داخليتنا وخارجيتنا ، حتى إذا نشبت الحرب العامة أثبتنا أننا أمة لا تزال حية .

كان أُناس قليلون فى ديار الشام يهمسون فى سرهم فى أوائل النفير العام بقولهم : مالنا وللحرب؟ إن الحياد أبقى علينا وأسلم لكياننا ، ولم تكن الآمُدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بأن الحرب مع دول الاستعمار كانت مُقررةً لحياتنا السياسية و المالية .

كانوا يقولون إنّ فى الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة لله قد عمرت بلادنا ومحّصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص والخامل من العامل والجاهل من العالم . ." .

والكتاب لا يخلو من الوصف الأدبي لبعض ماراه الوفد من عظمة دولتهم وقوة بأسها ، وفى كتابة عن أجمل ماشاهد الوفد كتب أحدهم (١)" أجمل مارأت العين فى دار الخلافة هذه الآونة معامل الأسلحة ومصانع الأسطول، زرنا الطوبخانة وريتون بروني ومعامل البحرية فتمثلت لنا عظمة الدولة الحقيقية وأطمأنت نفوسنا على مستقبلها . ابتهجنا ابتهاجا يتعاصى على الورق تسطيره لأننا رأينا فوق ماأملنا . رأينا دولتنا دخلت فى طور الجد حقيقة ومعامل اسلحتها ومدافعها وبارودها وسفنها وقذائفها ، وقنابلها وكل ماوصل إليه العلم الحربى والبحرى قد أصبح على أتمه كماهو عند أرقى الدول إلا قليلا .

ألوف من العملة تعمل النهار كله ومنها مايعمل فى الليل أيضا تخرج لنا بأحدث الآلات كل مانحتاجه للدفاع عن أرضنا وديارنا ، كل ذلك كان طي الكتمان بحيث توسط العدو فأقدم على ضرب (جناق قلعه) وهو يظن أن ذخائرنا وأسلحتنا ومدافعنا تنضب فى أيام قليلة فخاب ظنه وقد رأى أن معين قوتنا لم ينضب بعد أشهر ولن ينضب فى أيام ولو دامت الحرب سنين " ، ومع هذا السرور بعظمة صناعة السلاح تجد التحذير من الاتكال على الأمم الأخرى فى كل مايهم الأمة،وما العيب الا التخوّف دون أخذ بالأسباب وظن بعض الأمور والمخترعات من المستحيل وماهو منه بسبيل حين

---

(١) محمد كرد على ص ٨٣ ، ٨٤ .

تجدّ الأمة ولا تتكل على الأجانب الذين لا يريدون لهم صلاح تجارة ولا تقدم صناعة واختراع .

أما غاية الكتاب التى يفصح عنها فتتجلى فى خطبة أحد أعضائه وهو أحد الموفودين لدار الخلافة أمام وزير الداخلية العثمانى قائلا:[1] ياصاحب الدولة ، إن قدوم هذا الوفد العلمي المُنتخب من خيرة علماء الدين إلى دار الخلافة الإسلامية الكبرى والإمامة العظمى لأداء فروض العبودية وواجب الإخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدس وإهداء سلام الشعب السوري إلى الأبطال المجاهدين فى (جناق قلعه) وساحات القتال وإظهار مايُكنّه الشعب من عظيم الشكر لأولئك الأبطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعا مجيدا خلّده التاريخ لهم بأحرف من نوّر . . هو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمديّة وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذى سيخفق إن شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب فى ربوع قفقاسيا وفوق وادى النيل " .

واذا كان كتاب" البعثة العلمية إلى دار الخلافه" قد صوّر الولاء والإخلاص الى حكومة السلطان وخلافة الأمة بما ظهر فى ثنايا الأدب الذى احتوى عليه ، فالكتاب بعد هذا يصلح - فى تقديرى - أن يُعد فى زمرة أدب الرحلات ، ذلك أن ما اشتمل عليه من مقالات وخطب وقصائد ، وبما تضمنه من وصف شيق لعديد من المواضع والمناظر فضلا عما اصطبغ به ذلك الوصف من أحاسيس ومشاعر فياضة ، كل ذلك يجعل من الكتاب رحلة أدبية يستشعر خلالها المرء راحة ولذة ومتعة، وهو يمضى فى ثنايا أوراقه التى تدنو من ثلاثمائة صفحة .

هـ) أحداث أخرى فى الوطن العربي :

لا يخفى على دارس الأدب العربي فى العصر الحديث أن بعض البلاد العربية وقعت قبل الحرب الأولى تحت سيطرة الاستعمار الذى أطبق على أرجائها ، كما تسلط بعد ذلك على أهل البلاد الباقية وتحكم فى توجيههم

---

(١) البعثة العلمية إلى دار الخلافة الاسلامية ٠ ص ١٥

واستغلال بلادهم وممارسة شتى الضغوط عليهم. واذ أخذ الاستعمار يمعن في غيه ويأخذ في تحقيق مآربه الاستعمارية الصليبية ويستخدم القوة والعنف البالغين، ولا يتورع عن الوحشية والهمجية لتحقيق مآربه، عند ذلك كان العالم الاسلامي يضطرب لكل هذه الحوادث ويندّد بالاستعمار في خارج الاوطان التي ينزل كيده بها.

وحوادث العالم العربي التي نأتي إليها الآن تُعد من أشهر مايذكر في بلاد العرب في العصر الحديث من غير أن ننسى أن هناك حوادث أخرى متعددة ليس من وكد هذا البحث متابعة كل منها، وقد سبق أن اوردنا جزءاً منها أعني احتلال الانجليز لمصر، وحرب الطليان في إيطاليا، وسنُلحق بها ما يتعلق بقضية فلسطين التي اتخذت بُعدا آخر يجعل من المناسب أن تُفرد باشارة خاصة.

في شمال افريقيـة :

اتجهت فرنسا إلى وضع كل ما من شأنه تثبيت أقدامها ورسوخ قوتها حتى تأخذ أكبر فترة ممكنة للسيطرة على افريقيا، وقد كان التبشير بوسائله العديدة وصوره المختلفه خير مايُحقق لها هدفها هذا، وقد نبه أحد كتاب صحيفة (السياسة) على سياسة فرنسا هذه " التي تجرى على فصل البربر عن العرب وإخراجهم من العالم الاسلامي والشريعة الاسلاميه، وردّهم إلى ماتسميه "العرف البربري" وهي التي ألغت تدريس الدين واللغة العربية في مناطق هذه القبائل، وأخذت تشجع البعثات التبشيرية في كل مكان وتُخصص لإعانتهم من ميزانيتها مبالغ طائله بحجة نشر الثقافة الفرنسية . . ." (١).

وعند إثارة فرنسا لهذه الحملة على اللغة العربيّة والاسلام، لتصرف المسلمين عنهما لأنّهما وسيلتي ترابطهما ووحدتهما، يذيع شيخ الجامع الازهر بيانا (٢) يناشد فيه فرنسا معاملة المسلمين والبربر بالتسامح والحسنى ويُسائلها عن أعمالها الأُخرى، من إرسال ألف راهب الى تلك النواحي للتبشير،

---

(١) ملحق السياسة الأدبي عدد ٢٤ شوال ١٣٥٠ / ٢٦ فبراير ١٩٣٢م والكاتب هو الاستاذ محمد عبد الله عنان.

(٢) شيخ الجامع الازهر الشيخ محمد الاحمدي الظواهري، والبيان في مجلة نور الاسلام : المجلد الاول ص ٢٤٣ سنة ١٣٤٩، وانظر ص ٢٤٤ مقال قضية البربر بالمغرب الاقصى ـ محمد الخضر الحسين.

وماقيل من الغاء المكاتب القرآنية والمحاكم الشرعية وغير ذلك .

وتنشر مجلة " الرابطة الشرقية" مقالا خطابيا إلى العالم الإسلامي عن قضية البربر هذه ، وإذ تبسط سوء حال المسلمين فى مراكش تُنبّه إلى مكيدة الفرنسيين وسوء نواياهم ، ومما جاء فيه(١) " أيها المسلمون هل يرضيكم أن يُمحى دينكم من أرض المغرب ، الارض التى أنجبت رجالا عظاما وعلماء وقوادا وملوكا مخلصين ، الارض التى سار أبناؤها مع طارق بن زياد وعبد الرحمن الغافقى ، ففتحوا الأمصار ونشروا دعوة الإسلام ، الارض التى انتصر أبناؤها للأندلس فى أيام محنتها وأزمان بكائها .

أيها المسلمون يقول الله تعالى :" إنّهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يُعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا " ، واذا نجح الفرنسيون فى هذه التجربة فسيُفتح العالم الاسلامي فتحا دينيا لهم ، وهو أقبح وأنكي من فتحهم الاقتصادي والسياسي ، واذا سدّوا علينا طريق الدنيا بهذا الفتح فسيسدون علينا طريق الآخرة بذلك . ومابقى للمسلمين فى هذه الدنيا غير ايمانهم ورجائهم ، فخذوا حذركم أيها المسلمون ، وتبصروا ، واغضبوا لله ولدينكم ، وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والسلام عليكم أجمعين من أخوانكم المغاربة المسلمين" .

كان للاستعمار الفرنسى عملاء فى مصر ينافحون عن جرائمه ، وقد كانت جريدة "الأهرام " تتّهم المصريين الذين أخذوا فى معارضة أعمال فرنسا فى المغرب متذرعة بأن هؤلاء المعارضين لفرنسا إنما يريدون إشغال مصر عن قضيتها الحقيقية (أي الاستعمار الانجليزى) ولذا قامت الكتابات التى تحمل على " الأهرام" ومثيلاتها من الصحف التى تكيد للإسلام معتبرة ذلك ولاء للفرنسيين وعونا لشوكة الاستعمار.

فى الجزائر :

أما الجزائر التى احتلتها فرنسا مبكرا (١٢٤٦ / ١٨٣٠م) وبقيت فيها أكثر من قرن من الزمان فقد مكّنها ذلك من السير فى تنفيذ مآربها المتعددة

---

(١) مجلة الرابطة الشرقية - السنة الثالثة - العدد الثانى - جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ ص ٩ .

واذا كان التبشير الذى عمدت إليه في المغرب هو من أفضل ما رأته من وسائلها الناجعة فلا غرو أن تكون الجزائر هي موضع التجربة الأولى التى شجّعت فرنسا على مواصلة العمل به فى شمال افريقيا ، والذى يؤكده مؤرخو هذا الاستعمار أن سياسة الفرنسيين فى الجزائر من أولها إلى آخرها هي ملاشاة التعليم الإسلامي وطمس معالم الشريعة التى يظنّونها وحدها موقدا للحمية الأهلية ، ومنزعا للتخلص من الحكم الأجنبي ، وسياسة تساهل فى الظاهر ، مع التحامل فى الباطن "(١) .

من هذا المبدأ الحقيقي نُدرك كل جرائم هذا الاستعمار بمسلمي الجزائر ، فالحروب الطاحنة التى ساح بها الفرنسيون فى أرجاء الجزائر وما خلّفته من ضعف وتخلف ودمار ، أكثر من مائتى ألف جزائرى قتلوا فى الحرب الأولى فداءً لفرنسا التى ادعت الاستعانة بهم مع أمان كاذبه بالاستقلال ، هذا فضلا عن وسائل التنصير وهدم المساجد وسواها مما شهد به كتاب فرنسا وأوروبا (٢) .

واذ تدفع شراسة هذا الاستعمار بعض مسلمي الجزائر إلى الهجرة فرارا بدينهم تجد أحدهم يكتب فى عطف وحنين إلى وطنه الذى يكابد الشوق إليه ، ويناجيه مستهاما به فيقول (٣) تحت عنوان (الجزائر) : "كلمة بذكرها تسيل الدموع ، وتهلع القلوب ، وتضطرم فى الصدور نار الانتقام . وطن لا يذكره جزائرى غيور إلا ويشعر بآلام معنوية لا تزول إلا باستخلاصه من كل مخالب الذل الذى هو فيه .

مواطني ؟ هناك فى تلك السهول كنوز من عظام أجدادك ، وعلى تلك الصخور آيات المجد والشرف مرسومة بدماء أبائك . أما عار علينا بأن نكون نسلهم ولا نفعل مافعلوه ولا نظهر ما أظهروه من شجاعة وشهامة " .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ٢ / ١٧٨ .

(٢) انظر أخبار هذا الاستعمار وجرائمة : حاضر العالم الاسلامى ٢ / ١٦٦-١٨٧ .

(٣) مجلة الثقافة الجزائرية ، العدد الخامس ، رمضان ١٣٩١-١٩٧١م ص١١٩-١٢٠ نقلا عن جريدة المهاجر التى كان يصدرها بعض الجزائريين فى دمشق ، كما يشير الكاتب الذى اورد عدة نقول عنها وقد رمز الكاتب الذى نقلت عنه لاسمه بالحرفين (ح . م) .

ثم يتجه الكاتب الى أهل الجزائر ليطلب منهم النهوض لمقاومة الاستعمار ولا يتراجعوا في ذلك المرام العزيز رغم ضخامة التبعات "مواطني ؟ لا تظن أنك طلبت مستحيلا إذا نهضت لاسترجاع ما هضمه الأجنبي غاصب بلادنا فالتاريخ يظهر لنا وللعالم بأسره أن ما يُرى اليوم مستحيلا سوف يكون غدا هيّنا ، والاختراعات الأخيرة إثبات كاف لما نقوله . . فكم من بلاد غُصبت ثم استرجعت بجد واجتهاد وتضامن أبنائها .

واعلم أن الأمة التي تخضع للذل والاستعباد ولا تفكر في النهوض هي الأمة المعدودة في أسفل الخلق . . ." .

وعند ما مر قرن من الزمان لاحتلال فرنسا للجزائر (١٣٤٨ / ١٩٣٠ م) تقوم سلطات الاستعمار الفرنسي باحتفال كبير لهذه المناسبة ، وإذ تفتح الأبواب للأجانب وتُعلن على صفحات الجرائد والمجلات داعية ومرغبة في الحضور للاحتفال ، ويتبجح الاستعمار فيطالب الشعب الجزائري بالاحتفال معه أيضا حتى يظهر المستعمرون للوافدين كأنهم ليسوا محتلين بل أصدقاء متحابين ، ولا شك ان هذا الاحتفال باعث أسى وحزن لكل مسلم ، وحين يزيد الاستعمار في التمويه لذلك الحفل تجد من الكُتاب من يثور كمدا ليقول(١) " أما وقد أرادوا أن يكون احتفالهم بهاته الصفة وعلى هذه الطريقة ولهذا المقصد فإنّ ضمائرنا أوجبت علينا ان نقول كلمتنا ، وتاريخ مجدنا قضى أن لا نسوّد وجهه بالسكوت . . ألا فليعلم سكان المعمورة : أن الجزائري مهضوم الحقوق مداس الشعائر في وطنه ، مرموق بعين السخط والازدراء ، مستعبد في بلده الذي وهبته له الطبيعة وهو مسئول عنه أمام الله والناس والاجيال والتاريخ يرزح تحت أعباء الجور والعسف ، ويتكبد ضروبا من الإرهاق وشد الخناق ويذوق ألوانا من العذاب والهوان ، ليس لبشر كائن من كان يتحملها والعيش معها يدان " .

وبعد أن يعرض الكاتب مقاصد فرنسا التي لا تخرج سياستها عنها من تجريد الأهالي من سائر أنواع القوى المادية والمعنوية وإقصائهم إلى تخوم الصحراء ، وجلب أخلاط من المسيحيين ومنحهم الاراضي الخصبة ، يُذكّر المقالُ بشراسة استعمار فرنسا ، كما يبين حقيقة الجزائريين مع هذا الاحتفال:

---

(١) مجلة الرابطة الشرقية - السنة الثانية (١٣٤٨-١٩٢٩ م) ص٩-١١ .

" الا فليعلم أبناء القرن العشرين المتشيعون ديمقراطية : أنّ فرنسا تُحاكم الجزائرى بمحاكم لا يفي مقال مسهب بوصف مافيها من فظاعة ووحشية وجور وحيف ، يتربع على أرائكها أعضاء الثلثان منهم لم تمسسهم يد الثقافة وليس لهم بالتعليم قريب عهد ولا بعيده . . وأنّى لهم ؟ وهم من الخليط المجلوب وجلّه بل كلّه من أوباش الأسبان والطليان والمالطيين ، وهم هم ! الذين لفظتهم أوطانهم وأقصتهم محاكمهم . . والثلث الباقى وإن كان متعلما إلا أنّه يدين بقول السياسى الفرنسى المحفوظ : (الرأفة التى يجب أن يُعامل بها المسلمون هي السيف والنار) .

وأخيرا ، ألا فليوقن هوءلاء كلهم : أنّ يوم الاحتفال القَرني يوم حداد لدى الجزائريين قَضّهم وقضيضهم ، وأنّ فرنسا بسياستها الخرقاء ، وسلوكها المعوج لا يمكنها أن تُسطّر فى دفترها اسم واحد من المائة ألف يوليها ودا صحيحا . . وأنها لو أُوتيت علم ماتكنّ الأفئدة ، وتجن السرائر لهالها منظر قلوب تسوط سوط القدر حقدا ومقتا ، ولأدهشتها نار تضطرم من أكيد العروبة والبربر حنقا وسخطا " .

إنّ عدوان الفرنسيين فى الجزائر وتونس جعل الكتاب المسلمين ينهدون لمقارعة هذا البغي الآثم ، ويفنّدون دعاوى فرنسا الواهية لتبرير هذا الظلم ، وأنه ليس لها من هدف إلا التوسع والجشع ، هذا أحد الكتاب يقول : (ان لها (فرنسا) ممالك فى أوروبا هى بالنسبة لتلك البسيطة الفيحاء لا تطفىء غُلة ، ولا تشفى عِلة ، ثم إنها كبقية البلاد الاوروبية نهارها ليل ، وليلها ويل ، ومُزنها سيل ، وصيفها شتاء وشتاؤها شقاء ، وجميع لياليها كليلة من جمادى ذات أندية ، لا يبصر الكلب فى أرجائها طُنُبا ، فرمقت فرنسا ذلك السرّ المصون ، وجعلت تلك القارة نصب عينيها ومطمح أنظارها ، فوجّهت لها سياستها ولوعا بتقليد انجلترا فى الهند ، وكانت ولاية الجزائر هى فاتحة الباب الذى كان مُغلقا . . ولم تلبث أن أعقبت تلك الولاية بمملكة أخرى تماثلها أو تفوقها ، ألا وهى المملكة التونسية التى لم يُرزأ العرب . . . بأعظم منها مصابا نَعبَ به الناعب " (١) .

وبمثل هذه الكلمات والكتابات عن أبناء الجزائر المدنفين بوطنهم أو

---

(١) البرهان عدد ٣٤ فى ٢٢ صفر ١٢٩٩ - مقال : الهند الفرنساوى للشيخ حمزة فتح الله .

غيرهم من أبناء أمتهم الاسلامية تطالعنا تلك الأصوات لتترجم عن كراهيتها وحقدها لذلك الاستعمار البغيض وأعوانه ، ممن شايعوه وناصروه .

ومن العجب العجاب أن فرنسا التى قامت بتلك الأفاعيل النكراء للنكاية بالمسلمين ومحو الإسلام فى شمال أفريقيا وغيرها تجد من أبناء الأمة العربية من يرحم مصابها، ويتأثر لما نزل بها حين أنزل بها الألمان هزيمة وساموها خسفًا(١)، فقد زعم دعاة الرحمة هؤلاء أن هناك فرقًا بين فرنسا السياسية وفرنسا الأدبية والروحية، إلا أن هذا الاتجاه المداهن لم تقبله الأمة التى عرفت حضارة فرنسا وروحها ، من خلال مسلكها معها ومافعلته فيها، فتطالعنا مجلة الرسالة بمقال ساخر يتعجب ممن يترحمون على فرنسا ، وتكتب بصراحة عن " مقتول يبكي على قاتله وفى غير الحب "(٢) واذ يبدأ المقال بتذكير محبي فرنسا أن فى موروث أمتنا الروحي والأدبى ثروة ثمينة تستحق الإبقاء والاحتفاء بها ، ثم الإشارة الى جرائم فرنسا فى كل ديار الاسلام التى وقعت تحت سلطانها يقول" الأدب والفلسفة والفن فى فرنسا زور وبهتان وهذيان ، لأنه لم يرفع النفس الفرنسية إلى درجة الوصاية الرشيدة ، على ميراث الفضائل الانسانية ، ولم يجعلها نفسًا رحيبة سمحة مع من اغتصبت حرياتهم وحقوقهم ، بل لم يجعلها نفسًا سمحة مع ذاتها هي ، وأكبر دليل على ذلك تلك الأسس الاقتصادية الفاسدة والبراكين الداخلية والانحلال والتفكك الذى انتهى بها إلى نهايتها العجيبة " .

أمّا الذين ينافحون عما وقع بفرنسا فيقول لهم " ليس لنا أن نقول: إنّ لهم روحًا تُحب وسياسة تُكره ، لأن التفريق بين الفضيلة والسياسة إلى هذا الحد الفاحش لا يستقيم فى معرض انتحال الأعذار وتلمّس المنادح إلا إذا حرفنا القلب الانساني عن موضعه الإلهى . ليس لنا أن نقول فيهم غير نتيجة أعمالهم" .

بهذا الحوار والتحليل الدامغ بالحجة والبرهان يمضي الكاتب فى غير شماتة ولا صوفية بلهاء فى حب الوطنية والجنسية ، بل ان ذلك منطق المزاج الصحيح ، الخالى من التدليس والخداع ، أما عالم الفن والأدب فإذا

---

(١) فى مطلع الحرب العالمية الثانية .

(٢) الرسالة ـ السنة الثامنة ـ المجلد الثانى ص١٢٨٣-١٢٨٤ ، كتبه عبد المنعم خلاف .

لم يؤثّر فى النفوس ويدفعها الى الخير والبناء فلا غرو أن يكون فنًّا فاسدًا يجب تصحيحه وعدم الدفاع عنه .

فى بلاد الهلال الخصيب :

العراق : وإذا تركنا شمال أفريقيا إلى بلاد الهلال الخصيب، فانّ المأساة تتكرر فى وجود الاستعمار، ومن ثم اتجاهه إلى مايثبت به أقدامه وتمكين مقامه واستقراره .

فبلاد العراق التى كانت ولاية عثمانية يحتل الانجليز منها البصرة فى مطلع الحرب الأولى ،وبعد انتهائها (١٣٣٦-١٩١٨م) يُطبقون على بغداد وسائر الأجزاء الأخرى ، ثم عمد الانجليز كما هي سياستهم إلى استمالة الناس نحوهم،وتظاهروا بانقاذ العراق من بغي الأتراك الذين فُتِحت الأبواب لقذفهم بكل نقيصة ورميهم بكل منكر وزور، لكن الأيام تكشف الحق جليًا،فما المستعمرون أصدقاء ،ولا يجتمع سيفان فى قَرَن ،وبذا يَجِدّ أهلُ العراق فى التخلّص من الاحتلال ،وكانت ثورة العشرين" (١٩٢٠م) [١] كما يسمونها ضد الانجليز ، ولا غرو أن يكون الأدب سبّاقًا لهذه الثورة فى بث المفاهيم وتهيئة الأذهان وإذكاء روح الحماس والدفاع عن الوطن ،فها أحد كُتاب العراق يبيّن أسباب هذه الثورة فيقول : [٢] " الثورة العراقية . . . فجّر بركانها الضغط وأضرم نارها الاستبداد ووسّعها القضاء على الحرية . . فصُمّت الآذان عن سماع الحق ،وسُدت المحاكم أبوابها وأصبح الحق للقوة . . ورُدت الأمة العادلة وظهرت ميول الفتح والانتقام " .

وهكذا يمضى العديد من كتاب العراق فى كفاح الاحتلال وبث الشكوى منه وإظهار ظلمه واستبداده علاوة على مباركة تلك الثورة المناضلة وموآزرتها [٣]، ولا تلبث أحداث هذا الاحتلال أن تجد من المشاعر فى البلاد العربية الأخرى ما يُوحى بالتبرم من هذا الاحتلال ويظهر السخط والنقد على

---

(١) انظر فى تاريخها : يقظة العرب، جورج أنطوينوس ص ٤٢٩ ،القومية العربية - الأمير مصطفى الشهابى ص١٩٣ .

(٢) جريدة الفرات - العدد الثانى ١٩٢٠م نقلًا عن أساليب المقالة وتطورها فى الأدب العراقى الحديث والصحافة العراقية ص٣٠ .

(٣) انظر : أساليب المقالة وتطورها فى الأدب العراقى الحديث والصحافة العراقية ص ٢٨-٣١ .

ما أقدم عليه (١) ، وفى ذلك بلا ريب أصدق مظاهر الإخاء والتعاطف ، وأظهر لمشاعر الألم والبغضاء لما نزل بقطر من أقطار العالم الاسلامى والتى هى كالقطر الواحد فى حقيقة الأمر.

فى الشام :

وفى بلاد الشام التى أقام فيها الانجليز حكومة فى سورية تحت حكم فيصل بن الحسين (٢) لم تستقر بعد هذه الحكومة حتى أقدم الفرنسيون بجيشهم متغلبين على كل قوة أمامهم حتى احتلوا دمشق (٣) (١٣٣٨-١٩٢٠م) ومن ثم أقدم الفرنسيون على أخذ الناس بقوة ووحشية لم يرحموا فيها أحداً ، بل الضعفاء قد امتدت يدُ البطش إليهم ، ولم يتورّعوا عن قذف المدن والقرى بحمم النار التى تطلقها الطائرات لتحرق الحرث والنسل ، ومن كل جرائم هذا الاستعمار ومن المقاومات البطولية التى أبداها شعب سوريا وقواده كان صدى هذه الحوادث قد دَوّى فى الأفاق ، واشتغلت به بلاد العرب ، وأهتم بَنُوها بملاحقة أخباره ، وقامت الكتابات تصب حممها على هذا الاستعمار مشجعة أبطال سورية على المضى فى صده ومقاومته ، بل لقد كانت طائفة من الكُتاب تجمع التبرعات وترسل المعونات إلى ضحايا هذا العدوان من جهات شتى (٤) .

أمّا روح الجهاد والتضحية التى بعثها هذا الاحتلال فحسبنا أن نرى منشور الثورة العارمة التى سُعّرت لكبح جماح هذا الاستعمار ، وأوقدت الوهاد والأنجاد ناراً على الطغاة والطامعين البغاة " (٥)" باسم الوطن السوري المقدس ، وباسم استقلاله المبارك أحييكم وأحيي فيكم العروبة الصادقة ،

---

(١) أنظر ـ المنار ـ المجلد العشرون ص ١٦٦ ، ٢٠٦ .

(٢) هو ابن الشريف حسين بن على قائد الثورة العربية الكبرى على العثمانيين ، حُكّم ملكاً على سوريا بضعة شهور ١٣٣٨ ثم احتلها الفرنسيون ، وبقى فترة ثم عينه الانجليز بعدها ملكاً على العراق ١٣٣٩ هـ وبقى يحكمها إلى وفاته ١٣٥٢ ، انظر سيرته ـ كتاب: فيصل الأول لأمين الريحانى .

(٣) أنظر التفاصيل : يقظة العرب" جورج أنطونيوس ، ص ٤٢٣ جيل الفداء قدرى قلعجى ص ٣٨٣ .

(٤) انظر الشعر والوطنية لبنان والبلاد العربية ص ٨٧ ، الشوقيات ٢ / ٧٤

(٥) منشور الثورة التى قادها سلطان الأطرش زعيم ثورة الدروز ضد الفرنسيين فى صيف عام (١٣٤٧ / ١٩٢٥م) نقلاً عن النثر الأدبى الحديث فى سوريا د. نشأة طبيان ص ١٠٩-١١٠ .

والأنفة القومية ، واستصرخ منكم أمة عربية ، مشت على مناكب الدهر محمية الذمار ماحملت عارًا ولا كان بحماها شنار ، واستنصركم بحومة الجهاد الوطني يا خير من حمى الوطن ، وكنتم ذادة أبطالاً ، ونفرتم إلى مواطن الشرف القومي خفافًا وثقالاً ، وأناديكم من معاقل الجبل المنيع ، وهو داركم ، وسلاحكم وحرزكم ، وملاذكم ، أن هبوا للمنافحة عن أوطانكم ، وأوطان آبائكم وأجدادكم وحطموا أغلال الاستعمار فى دياركم فقد هبت رياحكم فاغتنموها ، ودرت ضروع أيامكم فاحتلبوها " .

جزيرة العرب :

أما جزيرة العرب فان من الضرورى الإشارة إلى أهم ماتعرضت له من الحوادث الكثيرة ، والصراعات المتعددة التى احتدمت فيها قبل انهاء حديثى عما تعرّض له الوطن العربى من صراعات بها ، فاذا تذكرنا القيادات والحكومات التى كانت تصطرع فيها فان ذلك يعكس أمامنا ماكان من الفتن والحروب التى اشتعلت فيها ،(1) فإذا تذكرنا أن الدولة العثمانية كان لها سلطان على الحجاز تحت حكم الأشراف ، وتمثلها حكومة ابن رشيد فى نجد وما كان من صراع بين هذا السلطان فى نجد وبين ابن سعود الذى خلّص نجد والاحساء بعد صراع طويل لتخضع لحكمه ، ثم ماكان من صراع فى الحجاز بين الأشراف وبين العثمانيين عندما أعلن الشريف" حسين بن على " الثورة العربية على الأتراك (١٣٣٤ / ١٩١٦م) ثم الصراع الذى قام به بعد ذلك بين السلطان ابن سعود (سلطان نجد) وبين الأشراف حتى أجلاهم عن الحجاز واذا تذكرنا أن الأدارسة فى عسير وأئمة اليمن فى صنعاء كانت لهم أيضًا صراعات مع كل من العثمانيين والأشراف وابن سعود ، ذلك فضلاً عن التحرشات والمؤامرات التى كان الاستعمار الانجليزى يحيكها من وراء قواته التى كانت تتمركز فى منطقة الخليج العربى وخليج عدن ، مما كان له أسوأ الأثر على اتساع هذه الخلافات واستمرار النزاع ونشوب الخلاف ، كل ذلك أنهك أهل الجزيرة وأهدر كفاحهم وقعد بهم عن العناية بشئونهم المختلفة ، مما مكّن الاستعمار من أن يبسط سلطانه فى الاستيلاء على كثير من الممالك الأخرى ، ويعيث فى ديار الاسلام طغيانا وفسادا .

---

(١) انظر فى تفاصيل أحداث الجزيرة العربية : جزيرة العرب فى القرن العشرين حافظ وهبة .

هذه الحوادث الكثيرة التى يمكن تلمس صداها فى صحافة الحجاز التى واكبت كثيراً منها تجد رجعًا لها - على سبيل المثال - فى ذلك الخوف الذى أبدته حوادث الحجاز بين الأشراف وابن سعود عندما فتح الحجاز ولم يبق أمامه إلا (جدة) التى طال مكث المفاوضات حولها وحال دون فتحها ، ولذلك فطن بعض الكتاب وتوجّس فى الأمر دسيسة انجليزية (١) ، وقد كان الانجليز وراء المفاوضات وتوجيه الأحداث من جهة الأشراف ، وليس عجبًا أن يظهر هذا الخوف على الحجاز ، كيف وهو أرض الحرمين وقبلة المسلمين فما الداهية الدهماء التى ستقع لو قُدّر للانجليز سلطان على منافذ هذه الديار ؟ ! ،

وقد كان الشيخ حمزة فتح الله يراقب الأحداث التى تُحدق بجزيرة العرب ويتألم لنزول الانجليز فى ساحل عدن جنوب الجزيرة" لأن هذا الحادث من شأنه أن يثير الخواطر الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، لكونه مما يهم عموم المسلمين بسبب شرف تلك الجزيرة ، لما تحتوى عليه من الأماكن المقدسة لاسيما وأن تلك النازلة ليست أول صالح عبثت به أيدى ساسة انجلترا فى ضواحي تلك الجزيرة " (٢) ، ثم يضطرب الشيخ ويهدر لهذا الأمر بنشيج حار لأن الصبر لم يعد له مكانًا، ولا إهانة مُنزلة أكبر مما وصلت إليه فيصيح قائلا " فيا حماة السلم ويانصراء الأمن ، ويا أحزاب الحرية ، هل تأمنون غائلة المغلوب إذا أثخنته الجراح ، وأعنته الاقراح أن يفضى به الحال إلى أن يتخذ القنوط شعارًا ، واليأس دثارًا ، وأن يقتدح ذلك التعسف من فوءاده زند الضغينة ، والأحقاد الكمينة ، فيهب من رقدته ، ويفيق من نومته ، ويصحو من سكرته ، ويثب وثبة يعم ضررها ويتعاظم خطرها، ويستطير فى عموم البسيطة شررها ، تكون إمّا له فيعيش سليمًا ، وإما عليه فيعيش كريمًا" .

أما حين استولى ابن سعود (سلطان نجد آنذاك) على الاحساء (١٣٣١ هـ) وكانت تابعة لولاية العثمانيين فقد آلم ذلك العراق التى لم تزل آنئذ تحت السيادة العثمانية ، وهذه مجلة (لغة العرب) تنعى هذه الهزيمة بأسف ظاهر وتقول : (٣)

---

(١) انظر : المنار - مجلد ٢٩ ص ٤-٧

(٢) البرهان عدد ٢٣ فى ١٣ ذى القعدة ١٢٩٨ - مقال انجلترا والباب العالى فى جزيرة العرب .

(٣) لغة العرب (١٣٣١ - عدد يوليو ١٩١٣ م)

" ان عبد العزيز استولى على مدينة الاحساء والقطيف، ننشر هذه الأخبار آسفين على أن العلم العثمانى قد طُوى من الخليج ولم يبق للدولة العثمانية مقدار شبر من الأرض على ضفافه ولا حول ولا قوة إلا بالله، من حقّ مجلة العرب أن تكفكف دموعها فإن هذه الاحساء التى سقطت عنها الراية العثمانية ظلت وحدها المنطقة المستقلة التى ترفرف عليها راية مسلمة على الشاطئ العربى للخليج".

واذ تمضى هذه الأحداث إلى هنا فى بلاد العرب لا تكتمل معالمها الا بالحدث العظيم الذى لا تزال الأمة تعايشه - مع الأسف إلى اليوم - تلك فلسطين التى خيم عليها الاحتلال، وتلك أحداثها فى جملة الحوادث التى مضت، وأحداثها التى لحقت فلنيمم الوجهة إليها.

و) حوادث فلسطين :

لم تكن قضية فلسطين المسلمة التى نعيش مأساتها اليوم جديدة أو غريبة على العالم الاسلامي، ورغم أن هذا - بطبيعة الحال - يفرض الحيطة والحذر نحو كل مايُدبرّ حولها، فمن عجب أن يتمكن أعداء الاسلام فى مطلع هذا القرن بعد محاولات شتى أن يُسلموها لعصابة من اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للمسلمين.

لقد برزت قضية فلسطين عندما أعلن وزير خارجية بريطانيا (بلفور) سنة (١٣٣٥/١٩١٧م) أن حكومة بلادة تنظر بعين الرحمة الموافقة لانشاء وطن قومي لليهود فى فلسطين (١)، بيد أن الاعلان قد سبقته الحركة الصهيونية بالجد والعمل لإنشاء وطن لها بأكثر من قرن من الزمان، ولما يأت هذا الإعلان الا ولليهود وجود ومصالح فى فلسطين لا تُنكر (٢).

ورغم المهمة الكبرى التى قامت بها بريطانيا لزرع جذم اليهود فى فلسطين، فقد كان أظهر صراع بدأ عندما نشب القتال بين عرب فلسطين واليهود حول حوادث البراق " حائط المبكى " (١٣٤٧/١٩٢٩م) فحينئذ حمي الأمر وارتفع نداء الجهاد وتعالت الصيحات لهذه الكارثة الكبرى، وحسب المرء أن يرى

---

(١) انظر فى تفاصيل حوادث فلسطين : الدولة العربية المتحدة - أمين سعيد ٣/١٨٥ ومابعدها.

(٢) انظرمقال الحركة الصهيونية - مجلة الزهور - السنة الرابعة ص ٢٤١ - ٢٤٧.

موقف مجلة " الفتح " (١) التى كانت فى طليعة الصحف التى احتشدت لهذا الحدث " اذ جعلت من صحائفها سجلاً أدبياً للجهاد ، ومقاومة الخطر الصهيونى ، سواء بماكتبه صاحبها " محب الدين الخطيب " الذى توّجت مقالاته صدر الفتح ، تبثّ الحمية فى الصدور ، وتروى للقراء غدر اليهود والانجليز ، وتبارك الدماء العربية المراقة ، أو بما نظم شعراء الفتح وكتابها . . . أوشكت كلمات الفتح فى هذه السنين تقطر دمًا ، تبعث الأسى ، وتطلب الغوث . . " (٢) .

هذا أحد مقالات " الفتح " يحي أبطال الصراع مع اليهود ، وتتطلع الخير والعزّ وراء تلك الأنفس الشهيدة والدماء الزكية وتقول مخاطبة لها (٣) :
" التحقت أرواح أصحابها بالملأ الأعلى ما لو وزناه بالتبر والدُّرّ وبكلّ ثمين ، لرجح بقيمته وبثمرته على كل ثمين . . . . نزيلان أحدهما وراثة قوة الدنيا وسياستها والثانى من وراثة أقوال الدنيا ودعايتها " يريد الانجليز واليهود " ينزلان بين ظهرانى عرب فلسطين ، فيجد عرب فلسطين من وقتهم متسعًا للتنافس على منصب ، والتعادى من أجل وظيفة ، ويتنكر بعضهم لبعض تزاحمًا على صغيرة من صغائر هذه الدنيا التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ويظلون سادرين فى هذه الغفلة ، محولين وجوههم عن مواطن الخطر ، إلى أن سُفكت هذه الدماء المباركة فغسلت مافى قلوبهم من عداوة ، وأزالت ما على عيونهم من غشاوة وعادت بهم إلى ماكانوا عليه من وحدة الصفوف ووحدة المطمح ، هنالك لاح على وجوه عدوهم معنى احترامهم ، وهنالك جعل الأغيار يذكر بعضهم بعضًا بحقهم ، وهنالك أيقن الطامع فى ازدراء اللقمة أن فى اللقمة حسكًا ، وأن فيها سمًّا قاتلًا وأن الأمر ليس بالمنزلة التى كان يظنها . . .

ألا بارك الله بدماء عاد بها اليهودى الكاذب فى عداوته صديقًا صادقًا فى صداقته ، وما كان هذا الانقلاب ليتم ببلاغة أبلغ البلغاء ، ولا بنصيحة أخلص النصحاء ، ولكن تمت مشيئة الله بتحقيقه فوق هذه الدماء المراقة من جسم الامة ، فكانت أبلغ من كل بليغ ، وأخلص من كل ناصح . . " .

---

(١) أصدرها الشيخ محب الدين الخطيب فى القاهرة ١٤٤٨/١٩٢٦م)

(٢) الصحافة الأدبية فى مصر جـ ١/٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣) الفتح عدد (١٦٧) ٢٠ ربيع الثانى ١٣٤٨-١٣ أكتوبر ١٩٢٩ - مقال : الدماء المباركة فى فلسطين وانظر أيضًا الأعداد (٥٢٢ ، ٥٣٤) مقال : يوم العروبة فى لندن ، مقال : مستقبل اليهود فى فلسطين .

ورغم دوى هذا الحدث فى مصر التى تأججت بها المشاعر بالحسرة والألم لحال الأخوة فى فلسطين كانت ثَمَّ أصوات ناشزة تنفى على المصريين تعاطفهم مع إخوانهم وتبدى التنصل من هذا العمل الذى تعاديه، ولا تخجل أن تستثير الوزارة المصرية لكبته والحيلولة دون ظهوره، وكان ذلك مدعاة لردود عنيفة واستهجان لهذا الاتجاه الذى انبرى لنقض أضاليله بعض الكتاب الغيورين [1].

لقد احتفى الكتاب الغيورون برصد تطورات قضية فلسطين[2] منذ أن كانت أحلامًا تعيش فى خيالات قادة صهيون ورجالاتها، فكانت الانذارات المبكرة من شرّ وجود اليهود فى فلسطين تسيل على أسلات الأقلام، وتكشف عن المستقبل الذى يخططه اليهود لإخراج السكان من فلسطين، وكانت المناقشات الحادة فى تلك الكتابات تُوجّه إلى الاتحاديين الذين كانوا ضالعين فى القضية مع اليهود، حيث يسّروا لهم كثيرًا من الوسائل وسكتوا عن الجرائم التى كانت تتزايد فى فلسطين حتى كان موقفهم المشين هذا، من أعظم بواعث حقد الوطنيين العرب للدولة العثمانية، كما أن بريطانيا التى أصبحت فلسطين تحت إشرافها بعد الحرب الأولى قد فاقت الاتحاديين فى فرض وجود الصهاينة، وتأييدهم حتى يتم لهم التمكن، قد جعلت الكتاب - كشأن أمتهم - يحسون بالظلم والاضطهاد الذى يُكال لهم، وأنه قد أُحيق بهم فانبروا فى كثير من المقالات يدافعون عن فلسطين فى الداخل وفى منتديات الأمم فى أوروبا وأمريكا، واتجهوا إلى الأدلة التاريخية والأقيسة المنطقية يثبتون بها حق أمتهم العربية الإسلامية فى فلسطين، ويدحضون افتراءات الصهاينة وتخرصاتهم فى أرض الموعد التى يتطلعون إليها، أما الحماس وعدم التنازل عن تسليم هذه الأرض لليهود فذلك ميدان رحب للقول فى هذه القضية الكبرى، ذلك ما نجده على شاكلة هذه الصرخة التى تقول[3] : "أُفكّر فى فلسطين هذه البلاد العربية التى يريد اليهود إخراج أبنائها منها باغراء المال ثم بتكاثر الرجال.

---

(١) انظر: مجلة الهداية الاسلامية "محمد الخضر حسين" المجلد الأول ص ٥٣١، مقال: فى مصر روح قومية وفيها ايضا غيرة اسلامية.

(٢) انظر: النثر الأدبى الحديث فى سوريا ٢٠٩-٢١٥.

(٣) السابق نفسه ٢١٤، من مقال: ويل للصهيونيين للدكتور منير العجلانى، كتبه فى صحيفة القبس (سوريا) ٥ صفر ١٣٥٥.

أفكروأقول فى نفس ويل للصهيونيين أفلا يد ركون وبينهم أد باء وشعـــراء تُهد هد هم العاطفة، أية جناية يرتكبون !!

أفلا يُد ركون . . أنّ فى كل شبر من أرض فلسطين قبرًا رطبًا، ترفـرف فوقه روح صاحبه وتقول أنا عربية ، أفلا يد ركون أنهم قد ينتصرون على الأحياء لكنهم سيسقطون صرعى أمام الموتى ،أفلا يد ركون ؟ أن صور الانتقام تخـرج عليهم من الزهرة التى ينشقونها والأرض التى يحرثونها والسماء التى يتأملونها ؟ ! ويل للصهيونيين !

أفلا يد ركون أن فلسطين قطعة لا تتجزأ من وطننا العربي ،وإرث لا يبلى من مجد نا العربي ،وأمل لا يضيع من مستقبلنا العربي ؟

كلا ! لن يأخذوها ولو دفعوا ثمنها قناطير الذهب . . فان الرجـل يشترى أرضًا ولكنه لا يشترى تاريخًا ،والحي يُرضى الحي ،ولكنه لا يُرضي الموتـى الذين ترفرف أرواحهم فوقنا وتدعونا إلى ضروب من العبادة يجهلها اليهـود الأغـراب !

لو سكت الأحياء فى فلسطين لتكلم الموتى ، وملأ كلامهم جوانـب الليل وأحس كل عربي ، فى أى بلد مقيم أن صوتًا يُمزّق صد ره ويهزه إلى التضحية"

وعند ما تزداد المسألة خطورة بتلك الهجرات الكثيرة التى تدفقـت الى فلسطين، والعرب مشغولون عن تلك الألوف التى جاءت من أقطار الأرض ، كان ذلك حافزا لاجتماعهم وباعثًا لتحركهم للعناية بأمر بلد هم . فلسطـين ، وحين انشأوا " اللجنة العربية العليا" عام (١٣٥٤ / ١٩٣٦م) شرعوا فى جمـع التبرعات وانهالت الكتابات تبعث فى الأمة روح السخاء والبذل ، ومن خـير مايصور ذلك ماكتبه مصطفى الرافعى حين قال (١) :" نهضت فلسطين تحـل العقدة التى عقدت السيف ،والمكر، والنصب ،عقدة سياسية خبيثة" ، فيهـا لذلك الشعب الحرّ قتل ،وتخريب ،وفقر .

عقدة الحكم الذى يحكم بثلاثة أساليب : الوعد الكذب ،والفنـاء البطيء ،ومطامع اليهود المتوحشة .

أيها المسلمون أليست هذه محنة فلسطين ،ولكنها محنة الإسـلام

---

(١) الرسالة عدد (١٥٤) ٢٥ ربيع الأول ١٣٥٥ - السنة الرابعة ص ٩٦١ .

يريدون ألا يثبت شخصيته العزيزة الحرة .

كل قرش يدفع الآن لفلسطين يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضًا .

أولئك إخواننا المجاهدون ، ومعنى ذلك أن أخلاقنا هى حلفاؤهم في هذا الجهاد .

أولئك اخواننا المنكوبون ، ومعنى ذلك أنهم فى نكبتهم امتحان لضمائرنا نحن المسلمين جميعًا ، أولئك كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك فافتحوا أنتم أيديكم .

كانوا يرمون أنفسهم فى سبيل الله غير مكترثين ، فارموا أنتم فى سبيل الحق بالدنانير والدراهم " .

وهكذا بمثل هذا المقال الرائع وما يضارعه من بيان سالت أسنة الأقلام على صفحات تاريخ نكبة الأمة الاسلامية فى فلسطين ، تعالج أبعادها وتستشرف مستقبلها ، ولا تعدم التشهير بانجلترا التى تتبجح بالانسانية والمدنية" ولم يمنعها عرفها الموروث ولا شرعها القائم أن تبيع فلسطين العربية ، لنفايات اليهود ، وليس العرب من مماليكها ولا فلسطين من أملاكها ، ثم تُسخّر لضمان هذا البيع الباطل قوة الحكومة وسلطان الدستور وتمثل تحت العلم البريطانى على موطن المسيح أروع مآسى العدالة"(١) .

إن فلسطين أرض الأنبياء وحرز المسجد الأقصى الذى باركت عناية الله ما حوله ، وما حرص أمة الاسلام فى حفظها بنافلة ولا بدع عاجلًا ، قليل كل ما يبذل فى سبيلها من جهد وجهاد ، وقليل أيضًا كل ما يقال ويكتب حتى ترجع كما كانت ، بلد القداسة فى أيدى المسلمين وتحت شريعة الله .

هذه الحوادث التى اتخذت بلاد العرب مسرحًا لها ، وهذا الاضطراب الذى أضرم الحياة فى الأمة جعلها تنهض من غفوتها وتفيق من سباتها ، ومع ما صاحب أكثر هذه الحوادث والثورات من نزعة قومية وما اصطبغت به من عوامل اقليميه ، كانت روح الاسلام هي المهيمنة عليها ، وحمية الدين هي التى تضرم وقودها ، حتى ألهبت المشاعر ، وتجاوب لأصدائها

---

(١) الرسالة عدد (٣٣) ١١ ديسمبر ١٩٣٣م مقال فلسطين للزيات ، وانظر : النثر الأدبى الحديث فى سوريا ص ٤٢٠٤١ .

أخوة الدين فى أقطار العروبة وخارجها .

وخير ما نُختم به هذه الحوادث ماكتبه (الزيات) وأحداث العروبة تضطرم نارها فى أكثر البلدان ، لقد رأى فى تلك الحوادث والثورات العارمة والدفاع الباسل تاريخ يثور، وأمة لا تلين للظلم والعدوان (١) .

"على ضفاف الوادى ، وهضاب فلسطين ، ورياض سورية ، يثور تاريخ ويغضب مجد ، ويستغيث مظلوم . . على الوطن الذى ورفت على نيله أول حضارة، والبلد الذى هبط على طوره أول دين، والقطر الذى انبثقت من ساحله أول ثقافة. تمتحن الحرية بمن فرضوا على الملك أول دستور (يريد الانجليز) وتمتهن العدالة ممن حملوا للبه أول كتاب (أى اليهود) وتبتلى اليهودية بمن أعلنوا للانسان أول حق (أى فرنسا) .

على هذه الأقطار . . يستكلب الطمع، ويشتجر الهوى ، وينفجر البغي ، فالمفاوضات وعيد ، والاحتجاجات حديد ، والمواعيد مراوغة . . . " .

أمّا عزم العرب على دفع الاعتداء فهذا مايؤكده الواقع " شباب يحمى على لذع البنادق ، ودم يفور على مسّ الأسنة وأمل يشرق فى الوجوه الوضيئة وطموح يومض فى العيون الرغيبة ، وماض تميّز فى ابهام الدهر يتمثل فى الأذهان الصافية ، ومجد تأثّل في أربعة عشر قرنا يعصق بالنفوس الفتية فما تصنع مدية اللص فى قلب تدرّع بالايمان ؟ وماذا تبلغ سطوة الباطل من حق تسجل فى لوح الزمان " .

إنّ الامة الاسلامية اذا ابتليت بكل الأحداث والمكائد الخبيثة ، وان فتنت بالاستعمار الماكر الخبيث ودالت عليها دول الأعداء فلن يفتّ فى عضدها ولا تلين قناتها ، بل إنّ ذلك باعث نقمتها وظهور نخوتها ، وسوف تمضى فى سبيل الجهاد مرفوعة الرأس ومحفوظة الحقوق ، وفى هذا سبيل الخير وطريق السعادة فانما هي احدى الحسنيين : عيشة الأعزاء أو موت الكرماء الشهداء وبهذا يُدفع الباطل وتحيا الأمة " ولينصرن الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز " .

---

(١) الرسالة - عدد ١٣٦ - ١٧ ذو القعدة ١٣٥٤ فبراير ١٩٣٦ - مقال تاريخ يثور.

هكذا بكل هذه الالمامات الخاطفة والاشارات الموجزة عن حوادث العالم العربى التى كانت فى مطلع هذا العصر ومارافقها من أثر أدبى كان صدى لها ، اضافة الى ماسبقها من حوادث مشهورة أخرى، تتجلى لنا أهمية هذه الحوادث ومكانتها فى المشاعر الأخوية الايمانية ، فقد ألهبت العواطف وأذكت روح الإخاء والتضامن ، وأخرجت على أسلات الكُتاب ويراع الأدباء عبيرًا ينفح بشذى الشجاعة ويتلفع بمشاعر الحنو والرحمة ، نحو أخوة استبيحت كرامتهم وديست حقوقهم، وتطلعوا إلى مَن يُشارك مصابهم ويُخفّف لوعتهم ، وذلك ما أسهمت فيه هذه الكتابات بما رسمته من أحاسيس وعواطف وبما دلّت عليه من الاحتفاء بهذه النوازل والمصائب، والتى نال العالم الاسلامى من ويلاتها أذى كثيرًا وكانت عليه شرًّا مستطيرا .

الفصل الرابع

أشهر كتاب الوحدة الإسلامية
وجهودهم في هذا الاتجاه

(١) جمال الدين الأفغاني (١):

يتمتع جمال الدين الأفغاني بالخصوبة والثراء والشمول ، وتتسم جهوده وحركته الإصلاحية بكثرة اتجاهاتها وتعدد أبعادها ، فإذا أضيف إلى ذلك كثرة الشكوك والاضطرابات التي اختلفت في تفسير بعض أفكاره وسيرته ومنهجه ، تجلى لنا - فيما يبدو لي - السرّ وراء كثرة الكتابات

---

(١) اسمه محمد جمال الدين صفدر ، ولد على ماتؤكده آخر الدراسات المحققه عنه في أسداباد قرب همذان من بلاد فارس سنة ١٢٥٤ ، انتقل مع والده صغيرا إلى بلاد الأفغان وأهتم والده بتعليمه في صغره فدرس العلوم الشرعيه والعقليه والعربية وألمّ بفنون من علوم أوربا الحديثه وقصد الحج سنة ١٢٧٣ بعدما قضى عاما في الهند ثم قفل من مكة إلى بلاد الافغان حيث انتظم في خدمة أميرها ، وبسقوط حكومة الافغان بيد الانجليز اتجه جمال الدين إلى الاستانه بعد أن مرّ بالهند ومصر ، وحين وصلها سنة ١٢٨٧ نال مكانة طيبة وعين عضوا في مجلس المعارف ، ولكن خلافا نشب بينه وبين بعض العلماء أدّى إلى نفيه ، فاتجه إلى مصر وحل فيها بأول سنة ١٢٨٨ وهناك لقي الحفاوة والعناية من الحكومة المصريه ، وبدأ يتوافد عليه الطلاب حتى التفّ حوله كثير منهم ، ولم تكن له مدرسه ولكنه كان يُلقى دروسا في مختلف العلوم في شكل مسامرات ومناقشات ، وقد بعث في طلابه النزعه إلى الحرية والمطالبة بالاصلاح واستحثهم على تحبير الرسائل والكتابة في الصحف في مختلف المواضع

وفي سنة ١٢٩٦ أخرجه الخديوي توفيق من مصر فاستقر في الهند بضع سنوات ثم رحل إلى أوروبا وتنقل بين عدد من بلدانها ومنها فرنسا التي وافى بها تلميذه محمد عبده ، وأصدرا منها جريدة العروة الوثقى عام ١٣٠١ ، وفي تنقلاته هذه زار إيران مرتين بدعوة من حاكمها الشاه ، ولكن الشاه لم يرض عن مسلك الأفغاني فطرده حيث غادرها إلى أوروبا ثانية ليظل بها إلى أن استدعاه السلطان عبد الحميد للإقامة في عاصمة الخلافة والتي قضى بها خمس سنين كانت بها نهاية حياته سنة ١٣١٥ .

انظر تفاصيل ترجمته : تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ / ٢٧ محمد رشيد رضا ، حاضر العالم الاسلامي ج ٢ / ٢٨٩ بقلم شكيب ارسلان ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، أحمد أمين ٦٣ .

التي تناولته ودرسته في البلاد الإسلامية والبلاد الغربية[١] .

بيد أن هذا الفكر المتشعب المناحي، وهذه الدراسات المتعدده حوله تبعث على المزيد من القراءة الفاحصه وبذل الكثير من الجهد للإفاده والتعرف على جوانب هذه الشخصيه ، إلا أن ما يعنينا هنا في هذه الترجمة لا يعدو جهود الأفغاني وآراءه في الوحدة الإسلامية فقط وفي صورة موجزة ، أمّا ماعدا ذلك من جوانب فكره واتجاهات أعماله فيُمكن تلمّسها في عديد من الأبحاث المتعدده التي أفردت لذلك.

أ) اساس الوحدة الاسلامية :

وإذا كانت الدراسات التي تعرضت للأفغاني تتفق على أنه أحد رجال الإصلاح وزعمائه في العصر الحديث فإن دعوته إلى الوحدة الإسلامية لم تكن هي كل همه الإصلاحي ، بل قد كان تخليص العالم الإسلامي من التبعيه الأجنبيه ، وتحريره من الجمود الفكرى وإبعاده عن التعصب المذهبي وسواها من أسس دعوته الإصلاحيه أيضا ، وقد بذل في ذلك جهدا واضحا إلا أن الأهمية الكبرى التى علّقها على الوحدة الاسلامية ربما جعلته يرى سهوله تحقيق إصلاح تلك الجوانب عندما تقوم وتتحقق هذه الوحدة العظيمة.

ولهذا فان هذا الإصلاح العام الذى كان العالم الاسلامي بحاجة شديدة إليه لا يراه الأفغاني يقوم إلا عندما تقوم فى العالم الاسلامي حركة دينية قوية ، حركة تُبنى على الفهم الصحيح للاسلام وترتكز على قواعد الدين وتهتم باقتلاع مارسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد والطقوس الشرعية على غير وجهها القويم ، ولذلك فلا بد من بث العقائد الدينية الصحيحة الحقه بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على وجوهها الصحيحة ، ولا مندوحة من "بعث القرآن وبث تعاليمه

---

(١) انظر قائمة من هذه الدراسات العربية : جمال الدين الافغانى والاتجاهات الاسلامية فى أدبه - د . على عبد الحليم محمود ص ٦٢٨ ٦٣١ ط دار عكاظ ١٤٠٠- جده .
وانظر بعض الدراسات الغربيه : جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الاسلامي الحديث د . عبد الباسط محمد حسن ص ١١-١٢ .

الصحيحة" بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى مافيه سعادتهم دنيا وأخرى ، ولا بد من تهذيب علو منا وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات قريبة الماخذ سهلة الفهم لنستعين بها على الوصول إلي الرقي والنجاح"(١) .

إن حال المسلمين الذى قعد بهم عن معارج الرقي والمجد والقوة كما يراه الأفغاني هو بعدهم عن حقيقة الدين التي تدعو إلى كل سبل النهوض والعزه ، بل إنه يرى أن أوروبا وأمريكا مستعده لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه لولا حالة المسلمين السيئه التي ينظرون إليهم من خلالها وعلى ذلك فاذا كان المسلمون يطمعون في دخول الناس في الإسلام فعليهم قبل كل شيء أن يُبرهنوا على تمسّكهم بالاسلام ، وأخذهم بحقيقة القرآن ، أمّا ماقد يظهر من بوادر الرقي والتمدن في البلاد الإسلامية فليس نهوضا ولا إصلاحا ، بل إنه يقود إلى التقهقر والانحطاط لانه يقوم على تقليد الأوروبيين ، لذلك يصرخ الأفغاني بوضوح " إنا معشر المسلمين إذا لم يُؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلّا من هذا الطريق"(٢) .

هذه الركيزة" الإسلامية التي اتخذها الأفغانى قاعدة تقوم عليها طرق الاصلاح ومناهجه هي معلم أصيل في فكره ، ونبراس مضيء فى دعوته ، ومع مادل عليه من الروعة والعظمة فانها تسلمنا في الواقع إلى فهم كثير من أقوال الأفغاني وتوجهاته التى تحتدم حولها الفهوم .

والذى يعنينا من هذه القاعدة" أنه اتخذها منطلقا في دعوته إلى الجامعة والوحدة الإسلاميه واعتبرها الأساس الذى لاتقوم بدونه .

لقد تجول الأفغاني في كثير من البلاد الاسلامية ودرس حال الأمه ورأى ماتعيشه من التخلف والاضطراب، ورأى أن أكبر داء تعاني منه بلاد الاسلام داء الفرقة والانقسام ، وتشتت الآراء وتنافر الأهواء وانقسام الأهل والممالك ، ولإذ تيقن من ذلك عزم على الدعوة إلى وحدة جامعة

---

(١) الاعمال الكامله لجمال الدين الافغاني ص ٣٢٨ .
(٢) السابق نفسه ص ٣٢٧ .

لهذه الأمة المتفرقه ،ورأى أنه لا مناص من قاعدة يُمكن أن يتفق عليها الجميع، ولا محيد من الركون إلى أصل يُجمعون على الاعتماد عليه ،ويرضونه على اختلاف مذاهبهم وآرائهم ،هذا الأصل المكين الذى يجب أن تجتمع حوله الآراء والمذاهب الإسلاميه هو دينهم الاسلامي الذى يجتمعون على ديانة الله به ،فنبههم الأفغاني أنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، ولا جنسية لهم إلاّ في عقيدتهم ،ولا رابطة لهم إلاّ الرابطة الدينية التي هى أحكم الروابط، يجتمع عليها التركي بالعربي ، والفارسى بالهندى والمصرى بالمغربى ، كما أنها تغنيهم عن الروابط الجنسية بل وتتغلب على الرابطة" النسبية" الحميمة (١)

ويضيف إلى هذا الأصل العظيم أصلا آخر مرتبطا به بل يقوم هذا الأصل الأول عليه ، ذلك هو القرآن الذى يأسف الأفغاني لإهمال المسلمين له وإعراضهم عن هديه وتلمس النور من مشعل سواه ، كيف وهو كتابهم المنزل يتلى عليهم بكل حكمة ،ويؤمهم بكل حق ، يامرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ،ويطلب منهم المنعة والقوة من كل سبيل ،فلو رجعوا إليه لنهض بهم إلى الرفعة والمنعة،ولربأ بهمعن الذل والضياع (٢) .

ب) جهوده فى سبيل الوحدة الاسلامية :

إذا أتينا إلى الجهد الذى بذله الأفغاني ودعوته إلى الوحدة الإسلامية فضلا عما سبق أن رأيناه من تصوره لهذه الجامعة وكيفيتها (٣) وهو من صلب هذا الجهد - فإن الأفغانى كما يُفهم من مجمل أحواله وكما اشتهربه وأكده ألصق الناس به ،إن الذى كان يصوّب نحوه أعماله والمحور الذى كانت تدور عليه آماله هي وحدة العالم الاسلامي " وسعيه الحثيث لجمع شتات أهل الشرق ،وإيقاظ الهمم من أهله ،والإشراف بهم على الخطر الداهم الغربي المحدق بكيانهم ،والأخذ بخناقهم ،ليعملوا على جمع كلمتهم ويأخذ كل ملك ،أو أمير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه

(١) انظر الفصل الاول من هذا البحث: (جمال الدين الأفغانى والجامعة الإسلامية) ص : ٩٥ .

(٢) انظر: خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٢٣٠ .

(٣) انظر الفصل الأول من هذا البحث: جمال الدين الأفغانى والجامعة الإسلامية ص: ٩٥ وما بعدها

وتحصينه بالحكم الشورى الدستورى ، وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب ، ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل إلى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى".(١)

هذه الغاية العظيمة النبيلة ، بذل فيها الرجل جهده ، وسعى فى تحقيقها سعيا متواصلا ، وتحمّل في سبيلها الصعاب والمكاره ، وقضى عمره متنقلا مهاجرا ، يغرس بذورها ، ويتطلب القاده الذين يعملون لها وعلى رأسهم الخليفة العثماني سلطان المسلمين .

ج) أبعاد الوحدة ومراميها :

والوحدة هذه ذات أبعاد وأهداف كثيرة لعل أظهرها بعدها الديني والسياسي ، كما كان يراها الأفغاني ، أما بعدها الديني فمع وضوحه وهو ماتشير إليه الآية الكريمة " إنما المؤمنون إخوة " (٢) ويدل عليه قوله سبحانه " وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" (٣) فإنه يقضي على معالم الخلاف وسبيل الفرقة الكثيرة فى اتجاهات الحياة ومشاربها المتعددة للأمة ، ويصل مابين الجميع في المقاصد والعزائم والأعمال ، بل يتعدى إلى نبذ المنافرة بين القبائل والعشائر ، ويذيب الفوارق بين الأجناس المختلفة فى العادات واللغات ، ويجعل من الأهواء والمنازع المتعددة ميلا وقصدا واحدا ، هذه الرابطة هي التى تمحو الجنسيات والعصبيات حيث لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، ولذلك لا فرق بين الأسود والأبيض ، ولا فضل لعربي على أعجمي ، هم سواسية كأسنان المشط ، بل هم جسد واحد ، يتألّم المرء لما ينزل بأخيه وإن نأت به الدار وشط به المزار ، ولا يسكن روعه حتى يزول ما حل بأخيه المسلم فيشاركه فى السراء والضراء .

أما البعد السياسي للوحدة فهو ذلك الوفاق والتآلف والترابط الذى يحس به كل فرد نحو أمته ، يفرح لما تناله من مجد وسلطان ، ويألم لما يصيبها من ضعف وهوان ، وهي ماثلة أمام فكره فى مختلف الأحوال

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني ص٨٤ .
(٢) سورة الحجرات ٩ .
(٣) سورة الانفال ٤٦ .

ذلك الوفاق والتآلف تنمو بهبنية الأمه ويشتد به بناؤها ، وهو مايشد أزرها ويُوجّد به بين أبنائها وشعوبها ، فينشأ من ذلك أمة واحدة قوية ومتماسكه بين الأمم ،وحينئذ يتم لها السلطان العزيز في الأرض ، وتتحقق لها السيادة العليا والغلبة على مختلف الأمم .

إن الوحدة هي قوة لإعلاء كلمة الحق وسعي لبسط سيادة المسلمين وسلطانهم في الأرض،وبذلك يواصلون رسالتهم إلى شتى الأمم كما يطالبهم دينهم " وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كلّه لله "(١) وكيف يتحقق لهم ذلك بدون هذه الوحدة والسيادة ،بل كيف يقوم لهم دينهم قويما بغيرها ، ومعظم أحكام شريعته موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعيه(٢).

إن هذا البعد السياسي للوحدة هو ذلك الواقع الحقيقى الذى عاشته الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ، في ظل ولاية الاسلام قامت أمة واحدة من المغرب الأقصى إلى حدود الصين ،أقطار متجاورة وأرجاء واسعة وعمران وحضارة وازدهار،وجيوش ظافرة في البر والبحر وسلطان لا يُغالب في الأرض ، هذا البعد للوحدة ما برح الأفغاني يذكره ويذكّر الأمة به مرارا، بل يأسى لما حل بالأمة حين نسيته وأُشغلت عنه ، بل إنه يرى أنّ تفرق الأمة وانصداع وحدتها هو الذى جرّ عليها البلاء وسلّط عليها الأعداء " كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا ،ووضعت من أقدارنا ،ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه" (٣).

هذه الوحدة العظيمة الماثلة في ذهن الأمة يثيرها الأفغانى عندما يقارن شأن الأمة في عز وحدتها وما آل إليه أمرها في عصره ، إذ وقفوا في سيرهم ،تأخروا في المعارف والعلوم ،وسبقتهم الأمم فى معارج القوة والرقي بل بدأت تنقضّ على ممالكهم وتنقصها من أطرافها وتمزّقها حين أضحوا أوزاعا وفرقا . هذا البعد السياسي للوحدة يذكرنا بما سبقت الإشارة إليه من

---

(١) سورة الانفال ٣٩ .
(٢) انظر الاعمال الكامله للافغانى ص ٣٥٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥٦ ، وانظر ص ٣٤١-٣٤٣ ، ص ٢٠٤-٢٠٦ .

اضفاء الأفغاني على هذه الوحدة مدلولا تحرريا ضد الاستعمار[1] فالتسلط الأوروبي الذى أقدم على ازدراد البلاد الإسلاميه وأخذ يحكمها لا يصح اقراره والسكوت عليه، بل كيف يتحكم في أمة مسلمة ويسوسها ويسكت المسلمون على ذلك؟ لا ترضى الأمة المسلمه بسلطة غير سلطة الإسلام، ولا يخضع أفرادها لسلطة أجنبيه مهما بلغت من القوة والجور، ذلك مايُذكّر به الأفغاني أمته فيقول: " الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته.." [2] وأن إخاء العقيده يُشعر كلّ واحد من المسلمين أن سقوط طائفة من أمته تحت سلطة الأجانب والمستعمرين سقوط لنفسه، وشعور يتألم به وجدانه حتى يزول عنه.

إنّ أهمية هذه الوحدة في الأمة جعلت الأفغانى يصوبها سهاما مُصمية في وجوه المستعمرين، وهي ما تطالبنا به كلمة الاخلاص والتوحيد، والتى " لو أدينا حقوقها وما تطالبنا به تلك الكلمه التي تهل بها ألسنتُنا وتطمئن قلوبنا بذكرها وهي كلمة الله العليا، هل كان يمكن للأغراب أن يُمزقوا ممالكنا كلّ ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا وهل كنا نشم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيهم وأيدينا على نواصيهم،.. أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تُضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا مَن لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يحترم شريعتنا ولا يرقب فينا إلاّ ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته " (٣).

وهكذا تجعل الجامعة الإسلاميه كما يرى الأفغانى من المسلمين قوة تقف سدا منيعا يحوّل عنهم سيول الإستعمار المتدفقة من مختلف الأرجاء بعد أن خلقت منهم أخوة متآزرين فى كل حال.

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث: الأفغاني والجامعة الاسلامية ص ٩٥ والاعمال الكاملة للافغاني " الافغانى المناضل ضد الاستعمار " ص ١٩-٢٨.

(٢) الاعمال الكامله لجمال الدين الافغاني ص ٣٤٢.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٦.

د) معالم مهمة فى سبيل الوحدة الاسلامية :

إنّ الذى يظهر من فكر الأفغاني وجهوده في الوحدة الاسلامية أن هناك ركائز أو معالم مهمة نبّه الأفغاني وأكد على عظم مكانتها فى سبيل الوحدة كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين (١) ، هذه الركائز الجامعة هي رابطة الدين ورابطة الحج ورابطة الخلافة .

أما رابطة الدين فحسبنا ماتقدم عنها قبل قليل ، وأما رابطة الحج فهي فرصة عظيمه تُتاح للأمة الإسلامية أن يجتمع فيها عدد كبير منهم من مختلف أرجائها، ويجتمع فيها علماء الأمة ومفكروها ومَن يُعنون بقضاياها ويتبادلون الآراء ويناقشون مايجدّ من الأحداث، إن الأفغانى وقد قصد الحجاز أُدرك من مغزى الحج فوائد عظيمة تحققها الأمة الإسلامية وتأتي هذه الوحدة على رأسها، ومع أن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام مغروسة في نفوس المسلمين إلا أن هناك مايحيى هذه الوحدة ويبعثها في شعيرة الحج كما يرى الأفغاني ، ذلك أن " العلماء العاملين لو وجّهوا فكرهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت. وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفي تلك البقعة يحشر اللهُ من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم ، فما هي إلا كلمة تُقال بينهم من ذي مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب " (٢) .

هذه الفرصة التى تُتيحها هذه الشعيرة في الديار المقدسة يضيف إليها الأفغاني فكرة ناضجة ترفد وحدة الأمة وتشد جامعتها ، فهو يُطالب العلماء بان ينهضوا لإحياء الرابطة" الدينية ويتداركوا الإختلاف الذى وقع ويسعوا لإظهار الاتفاق الذى يدعوا إليه الدين ، بل ويجعلوا ذلك في مدارسهم ومساجدهم حتى تكون مهبطا لروح حياة الوحدة ، وأن يرتبط "العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم

(١) جمال الدين الافغاني وأثره فى العالم الاسلامي الحديث ص ٩١ .
(٢) الاعمال الكامله لجمال الدين الافغانى ص ٣٥٧ .

ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة، وأشرفها معهد بيت الله الحرام " (١) .

بهذا الفهم لأهمية الحج في تحقيق الوحدة أدرك الأفغاني أثره الكبير في شد أزر الدين وحفظه وبث معالمه الصحيحة، وقيامه بدراسة حال الأمة وتنبيه شعوبها إلى مايحدث لكل قطر منها فلا يكونون فى عزلة عن أخوانهم في مختلف الأرجاء .

أما رابطة الخلافة ففضلا عما سلف من قول عنها فى مكانتها من الجامعة الاسلامية (٢) عند الأفغانى ، حيث كان يحث شعوب الإسلام على التآلف والوحدة ويرجو ويُحبّذ لو توسّط ذلك الاتحاد جلالة السلطان خليفة المسلمين، فانه لم تكن لتخفى عليه مكانة الخلافة وشأنها الكبير فى الجامعة والوحدة الاسلامية واحباط مؤآمرات الأعداء كما قال : " كنا على يقين ولانزال عليه ، ان الذات الشاهانيه ، وهي الأب الاكبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الأعداء فى البلاد الاسلامية وهي لا تألو جهدا فى تعويق سيرهم واحباط أعمالهم" (٣) .

إن الذى يتبادر للذهن مادام الأفغاني يسعى جاهدا لوحدة الأمة الاسلامية ولم تخف عليه مكانة الخلافة منها أن يتجه بسرعة إلى الخليفة لأنه أولى وأفضل بل وأصلح من يقوم على مباركة هذه الدعوة حتى يستجيب العالم الإسلامي لها وتؤتي ثمارها ، لكن الذى يبدو لي أن الضعف والخلل والاضطراب الذى كان ينخر في كيان السلطنة العثمانية ، والتآمر الصليبي الذى كان يقف لإحباط كل مامن شأنه إصلاح السلطنة وتقويتها ، ثم ضعف الخلفاء الذين استحوذت عليهم المحن والفتن التي لم ينجحوا كثيرا في وقاية الدولة منها، فضلا عن العمل فيما هو أبعد وأعظم ، كل هذه العوامل لعلّها هي التي صرفت الأفغانى عن الاتجاه إلى الخليفة بدعوة الوحدة ، وانصرف يضع بذورها في أكثر البلاد التى مرّ بها .

---

(١) الاعمال الكاملة للافغاني ص ٣٦٣ .

(٢) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ٩٩ .

(٣) انظر الاعمال الكاملة للافغانى ص ٢٤٥ .

أما حين تولى الخلافة السلطانُ عبد الحميد وقد كان حريصا ومُصمّما على إحياء الجامعة الإسلامية، ثم أخذ يدعو لها فلا عجب أن يقبل الأفغاني دعوة السلطان عبد الحميد ويترك أوروبا إلى القسطنطينية عاصمة الخلافة ومقر السلطان، وعندما قابل السلطان وتحدث معه ورأى منه الذكاء والدهاء والسياسة، وعلم منه اليقظة والحذر لكل مايُدبّر من حوله، وما اتخذه من خفي الوسائل وامضى العوامل كي لاتتفق أوروبا على عمل خطير في الدولة العثمانية(١) كل هذه القدرات والكفاءات المدهشة جعلت الأفغاني يتجه إلى السلطان ويقول (٢) : " أمّا مارأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذى فيه نهوض للمسلمين عموما) فقد دفعني إلى مدّ يدى له، فبايعته بالخلافة والملك عالما علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لاتسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وإنتباه عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم " .

كاشف الأفغاني السلطان عبد الحميد في كثير من المسائل التى تهم الأمة، واجتهد فى بذل النصح والإخلاص، وكانت وحدة الأمة وجامعتهم كمايراها الأفغانى مما أظهره وعرضه للسلطان، غير أن السرعة التى كان يرجو الأفغانى أن تأخذ مجراها في تنفيذ وجوه الإصلاح وتريّث السلطان فى دراستها وتطبيقها لم تُرض الأفغانى من هذا السلطان، فساء ظنه، واعتبر ذلك إنصرافا من السلطان عنه وعدم قبوله النصح وقلة احتفائه ببعض ما كان يقوله (٣) الافغانى، وزاد الأمر سوءا حين كثرت الرقابة على جمال الدين في الاستانة، ولم يسمح السلطان لأحد بزيارته إلا باذن خاص مما حدا بالأفغانى أن يُفكر في الخروج من الأستانه لولا طلب السلطان منه العدول عن ذلك(٤) .

إن الذى يبدو لي أن جمال الدين قد خاب ظنه في تحقيق

---

(١) انظر الأعمال الكاملة للافغانى ص ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٧ ، ٢٤٠ .

(٤) انظر حاضر العالم الاسلامى ٢ / ٢٩٦ .

الوحدة عن طريق السلطان ولكنّ هذا لم يكن ليبلغ به من العداء للسلطان على نحو مايصوره أحد دارسيه وأنه أخذ يجاهر بعدائه ولا يتحرز في توجيه اللوم له أو الهجوم عليه، ويطلب منه اقالته من بيعته للسلطان بالخلافة والملك (١) .

فمع الإقرار بعد مرضى الأفغاني عن بعض جوانب سياسة عبد الحميد ووصفه له بالطاغيه أحيانا (٢) ، إلا أن مايستدل به هذا الدارس لا أراه في محله كما يُفهم من خاطرات جمال الدين التي تدل على موقفه ورأيه الأخير في الخلافة العثمانية (٣) .

إنّ ماجاء من قول للأفغاني في الخاطرات عن الخلافة وضعفها حيث وصفها بقوله :

لقد هزُلت حتى بدا من هُزالها . . كلاها وحتى سامها كلُّ مفلسِ

ورد ذلك في معرض دفاعه عن التهمة التي وشى بها الوشاة إلى السلطان عنه، عندما قابل خديوى مصر في الأستانة وأنه بايعه بالخلافة ، فهو يدافع عن هذه التهمة ويبرئ نفسه منها فيقول (٤) :" أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ،وأن أفعل ما أُنكره على الغير، وأن أكون همازا مشاءا بنميم ، ماهذا الهذيان في هذا الزمان ؟ وفي أي مقام جليل خطير، هم يتلاعبون خلافة عظمى ، وإمامة كبرى ، (ثم أورد البيت المذكور) " .

ثم ها هو يؤكد حقيقة الخلافة العظمى وما تتطلبه من الواجبات والشروط التى لاتتوفر في خديوى مصر " الخلافة كفالة الله فى خلقه ، فأين أحلام أُولئك العجزة من مقام الإمامة والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط والصفات أين ؟ الخديوى (عباس حلمي الثاني) بظروفه وما أحاط بعصره هو عندي أعجز من السلطان عن تعريف أمور الخلافة والقيام باعبائها على مايلزمها من مزايا وشروط أهمها الاستقلال" .

---

(١) الاعمال الكامله لجمال الدين الافغانى ص ٥٣ .
(٢) انظر خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٤-٧٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٧٩ .

إن ما يفهم من هذا القول إلى آخره كما فى خاطرات جمال الدين[1] وإن كان فيه تعريض بضعف الخلافة من عدة وجوه، إلا أنه ليدل أيضا على ان الأفغانى لا يزال على ولائه للخليفة ولا يريد به بديلا ، حيث أقسم للسلطان أنه لم يدُر بينه وبين خديوي مصر ما أشيع عنه زورا . أمّا مطالبته السلطان باقالة بيعته فمع مافيها من جُرأة على السلطان فالواقع أن ذلك كان في أمر وعده السلطان بامضائه ولكن تأخر فيه فأغضب ذلك جمال الدين فاحتدّ كعادته وصرّح بطلب الإقالة ، والمفهوم مما جرى بينه وبين السلطان عندما قال ذلك أن السلطان لاطفه وأزال موجدته حتى هدأ وسكن ، والذى يبدو لي أن عبارة الافغاني في طلب الإقالة هي للإثارة فقط وليست مقصودة بمضمونها ، ويعزز ذلك أن الافغاني قد عوّده السلطان أن يتناقش معه في أدق المسائل ويصغي إليه ويقول رايه بكل حرية[2]، فليس غريبا أن يقول الأفغانى ذلك لو لم يكن قد عرف أو ألف حقيقة هذا السلطان الذى يقبل الرأي والمناقشة ولا يصادر آراء غيره ليستبدّ بالأمر ، ولو كان السلطان عبد الحميد طاغية مستبدا كما يشيع عنه خصومه - ومنهم بعض تلامذة الأفغاني لما بقي الأفغاني على قيد الحياة بعد مقولته هذه ، ولعل في هذا تذكيرا وإنصافا لهذا السلطان الذى يتطوع بعض الكتاب برميه بالظلم والتقصير حين يتحدثون عن جمال الدين وصلته به في السنوات الاخيرة من عمر جمال الدين فى عاصمة الخلافة .

وهكذا يمكن القول : إن الأفغاني الذى أدرك جيدا مكانة الخلافة فى تحقيق جامعة المسلمين قد تقدم إلى الخليفة وعرض عليه ناصحا خلاصة آرائه الإصلاحيه التي تشد من أزر الخلافة لصد مطامع الاعداء، لكنه لما لم يتحقق له ذلك ساء ظنه بالخليفة ولم يعد يعلّق على الخلافة ما كان يجنح إليه خياله فى قدرتها على النهوض بالعالم الإسلامي وربط أواصره الضعيفه والممزقة .

---

(١) ط٧٩، الاعمال الكامله لجمال الدين ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) خاطرات جمال الدين الافغانى ص

ومن هذه المسائل على سبيل المثال : الحكم الدستورى ومحاسنه . الأعمال الكامله ص ٢٤٥ ، وقبول الأتراك اللسان العربى ليكون لسان دولتهم . الأعمال الكامله ص ٢٣٦ ، وخطأ توغل العثمانيين فى أوروبا الأعمال الكامله ص ٢٣٧ .

هـ) عوامل اخرى في سبيل تحقيق الوحدة الاسلامية :

لم يكن ماسبق من أسس وركائز للوحدة كافيا في نظر الأفغاني لتحقيقها ولذلك بذل جهودا أخرى ونبه إلى أمور تعد في الحقيقة متممة لهذه الأسس، هذه الأمور يمكن النظر إليها باعتبارها عوامل مهمة في تحقيق الوحدة، وهي البعد والحذر من الفرقة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة .

فالتحذير من الفرقة والابتعاد عنها أخذ جوانب مختلفه يمكن أن تعد أنواعا لهذه الفرقة ، ومن هذه الانواع فرقة الحكومات والشعوب، وفرقة المذاهب الدينية ، وفرقة العصبية الجنسية ، كل صور هذه الفرقه أولاها جمال الدين عنايته ،وأكد على اعتبارها من أهم العوائق التي تحول دون قيام الوحدة ،وهي أعظم أسباب فشلها واضمحلالها .

أما فرقة الحكومات الإسلامية وتعددها ثم تناحرها فقد رأى الأفغاني أن ذلك هو الذي جلب التنازع في الأمة الاسلامية وأدى إلى تفرق الكلمة وانشقاق العصا (١)، ذلك أن كثرة الرؤساء والسلاطين مع تباين الأغراض وتعارض الغايات قاد إلى اشغال الأفكار بمظاهرة كل خصم على خصمه واعداد العدة لمغالبته ، فألهيت الشعوب الإسلامية عن إنماء العلوم وتطويرها والاستفادة منها ، مما قاد إلى ضعفهم ونهضة سواهم، ثم إن هذه النزاعات الداخلية ألهت المسلمين عن اعدائهم المتربصين بهم حتى تمكنوا منهم. هذه الفرقة قادها وبعثها في الأمة حكام وامراء يسميهم الأفغاني وقد صدق " طلاب الملك " و" طلاب الشهوات " والذين قد يبلغ بهم الفساد إلى الإستعانة بالأجنبي من اعدائهم وموالاتهم على إخوانهم المخالفين لهم ،هؤلاء الأمراء الطامعون هم الذين بهم أخرج الاسلام من الأندلس وهدم ركنه في الهند . لقد ضاق الافغاني بهؤلاء المنتفعين واحتد في تجريحهم وكشف خطرهم " أولئك اللاهون بلذاتهم العاكفون على شهواتهم هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها وأوقفوا سير العلوم فيها . . . ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ما أشد ضرهما وأسوأ أثرهما نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من أعظم فروضه فاختلفوا والعدو

---

(١) الأعمال الكاملة للافغاني ص ٣٤٣ ،وانظر ص ٣٦١ .

على أبوابهم وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم ثم لهم أن يعودوا لشئونهم ، ماذا أفادتهم المغالاة في الطبع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياه ، وشقاء أبدي بعد الممات ، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام (١) .

أمّا فرقة الشعوب فقد لمسها الأفغاني واضحة وقد طاف في عدد من بلاد المسلمين، وهذه الفرقه هي تفكك عرى الإتصال بين الشعوب الإسلامية وجهل بعضهم اخبار بعض رغم اتصال أقطارهم ، وتجاور أمصارهم (٢) ، فالأفغاني مثلا لا يعلم ولا يهتم بحال أخيه الإيراني ، وكلاهما لا يعرف من حوادث الهند الا النزر اليسير ، هذا وهي بلاد متقاربه ، أما أهل المغرب فلا يعلمون إنّ في الدنيا مقاطعة تُسمى الهند وفيها ملايين من المسلمين ، والهنود لا يعرفون أن في المعمورة دولة عثمانيه تخفق قلوبهم لاخبارها . وهكذا يجهل أبناء كل قطر ما ألمّ بالآخر ، وأنّ هذا الجهل كم يضيّع على الأمة من فرص سانحة وصفقات رابحة ، لو استغلت لعادت على الأمه بفوائد لا تُحصى .

اما فرقة المذاهب الدينية : فقد وجدت في الأمة من قديم ، وبقيامها افترق الناس شيعا وأحزابا ، وكل منها يدعو إلى ملك أو إلى مذهب ، وكان من ذلك أن ضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحده (٣) ؛ لقد عجب الأفغاني من هذه الفرق في الأمة ، وكيف سهّل وجودها جهل الأمة ، وبارك قيامها الملوك الطامعون في توسيع ممالكهم ، فالسنة والشيعة عندما يتأملها يجدها تؤمن بالقرآن وبرسالة محمد عليه السلام ، وأما مسائل الخلاف بينهم فانها انقضى أمرها مع أمة قد خلت ، وليس في مناقشتها رقيا وحفظا لكيان الأمة ، بل تفكيك لعرى الوحدة الإسلامية ، لقد صاح الأفغاني في الطائفتين " ياقوم ! وعزة الحق ، إن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعه إذا هم قاتلوا أهل السنه ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم " والناس

---

(١) الاعمال الكاملة للأفغانى ص ٣٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٠٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

أبناء مايحسنون" وكذلك أبو بكر فلا يُرضيه أن تُدافع أهل السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة لاجل تلك الأفضلية التى مرّ زمنها ، والتى تُخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا " كالبنيان المرصوص"(١) لقد حرص الأفغانى على تناسي هذه الفرقة المذهبية بين أبناء البلاد الإسلامية ، وحين يدعو الفرس إلى الاتحاد مع إخوانهم الأفغانيين (٢) يذكّرهم أن رابطتهم الحقة التى تجمعهم هى الديانة الإسلامية ، أمّا الخلاف الجزئي بينهما لاختلاف الفرق التى يرجعون إليها فهو خلاف نسبى لا يدعو إلى الشقاق ولا إلى التخالف العنيف أو تمزيق نسيج إتحادهما .

لقد كان الأفغاني بِنَهيِه عن تعصب المذاهب وتأكيده على تآلفها ووحدة أصلها يلتمس أن تكون الأمة أمة واحدة ، لا سُنّة ولا شيعة ولا ما شابههما .

أما الفرقة بالعصبية أو الجنسية : فإن دارسيِ الأفغاني يقعون في صعوبة بالغة واضطراب شديد حين يريدون تحقيق موقفه من نزعة العصبية الجنسية ومثلها الدعوة إلى الوطنية ، وقد كان المتبادر إلى الذهن أن أُعوّل على أرجح آراء دارسيه ـ وهم كثر ـ فى هذا ، بيد أن الأمر اقتضى جهدا رأيت ان أخرج فيه بما أرى من غير تنكّر لفضل الدراسات التى وقفت لدراسته . وباختصار فإن الأفغاني الذى يجمع دارسوه على سعيه الحثيث بالدعوة إلى الجامعة والوحدة الاسلامية ، بل كانت من أكبر آماله وأمانيه ، من الطبيعي أن يُتصوّر نفوره من وحدة الأمة تحت أي جامعة أخرى غير هذه الجامعة كالجامعة الوطنيه أو الرابطة القومية ، ذلك أن هذه الروابط الأخيرة تُخالف رابطة الجامعة الإسلامية بل تعمل على إضعافها وتقويضها .

بيد أن الذى يُؤثر عن الأفغاني وجود الدعوه إلى هذه الروابط وعدم تنكّره لها ، وهذا ما أوقع دارسيه فى حيرة من تفسير ذلك ، وخصوصا بعد التأكد من نسبتها إليه . فكيف يكون داعية إلى جامعة إسلاميه ملّية ، ويدعو إلى روابط وجامعات قوميه أو وطنيه ؟!

---

(١) الاعمال الكامله للافغاني ص ٣٢٦

(٢) المصدر السابق ص ٣١٦ .

لقد رأى أحد الباحثين المتعمقين في هذه الإزدواجيه أن فكر الأفغاني بوضوح وجلاء - في رأيه - قد مر بفترة" زمنية كانت تشوب أفكاره القومية" أفكار عن الوحدة الملية" وغناء الروابط الاعتقادية" عن الروابط الجنسيه" ثم تطور فكره بعد ذلك ليكون في حسم ووضوح فكرا قوميا ناضجا وذا روح عربية" على وجه التحديد (١) .

وقد بلغ من قناعة هذا الباحث برأيه في نضوج فكر الافغاني إلى فكر قومي وأنه هو الذى استقر عليه في آخر حياته ، بلغ بالباحث أن عقد فصلا إضافيا أكد فيه نزعة القومية" لدى الأفغاني وأنها ذات روح عربيه(٢). إن الذى يبدو لي أن القول : إن فكر الأفغاني في نهايته كان فكرا قوميا ليس صحيحا ، ولا أدل على هذا من أن هذا الباحث يقرر حقيقة في هذا الفكر القومي ، فيقول إن " فهم الأفغاني المستنير لمبادئ الإسلام وأفكاره ، جعله يرفض التناقض المزعوم مابين الاسلام والقوميات ، ومن ثم فإن نضوج الفكر القومي لديه لم يكن يعني إدارة الظهر للتضامن الإسلامي ، بل ولا الرفض للجامعة الإسلاميه والخلافة الاسلامية " (٣) . وقد جعل التزاوج بين فكر الإسلام والتفكير القومي هو الأمر المناسب لصالح الشعوب وآمال المسلمين .

ومع إعجابي بدقة هذا الباحث إلّا أني أرى أنه عكس الأمر هنا ، فالنزعة إلى الرابطة الملية" هي المهيمنه على فكر الأفغاني، ثم إنه أخضع النزعة القومية والدعوة إلى الوطنية تحت مظلة الجامعة الإسلاميه ولم ير تعارضا بينها ، ولو كان فكر الأفغاني في نهايته فكرا قوميا لما صح وشاع بين الباحثين ربطة بالجامعة والوحدة الإسلاميه التى اشتهر أمره بها ، اذ ان القومية" تجعل " الجنس " هو أهم عناصرها وأولاها ، والجامعة الاسلامية تجعل الدين هو الأساس الذى تقوم عليه مع افادتها من الروابط الاخرى بعد ذلك . ثم إن المرء ليعجب كيف يكون رجل داعية" إلى الوحدة الاسلامية" وجمع شمل المسلمين كالافغاني ، والذى تواترت الدراسات قديما

---

(١) هذا راى محمد عماره. أنظر الأعمال الكامله لجمال الدين الأفغاني ص ٤١ - ٥١ .

(٢) المصدر السابق فصل" الافغاني والقوميه والعروبه .

(٣) المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ .

وحديثها على جهودها لكبيرة من اجلها - مع ما كشفت عن حقائق عنه[1] - كيف يكون مع ذلك قوميا ، وكيف تهيمن النزعة القومية على فكره ونضاله ؟ إن الميل والهوى للقومية العربية هو الذى دفع الباحث فى تقديرى إلى ذلك ، ومع الإقرار بوجود النعرة الجنسيه والوطنيه فى فكر الافغاني ، إلا أنها لا تخرج ولا تحتوى الرابطة الدينية بل العكس من ذلك ، والأفغاني عندما ذكر خواص الأقاليم الخمس التي بها تتميز الشعوب بدأها بالدين ثم جعل اللسان والأخلاق والعوائد والإقليم تاليه[2] ، وهذا مخالف لقول الباحث عن الخصائص التي اعتمدها الأفغاني للجماعه الجنسية (١- دائرة الأمة التى ينتسب إليها ، ٢- دائرة الملة التى تعتنق ذات الدين الذى يؤمن به ، ٣- دائرة النوع الانساني)[3] .

وأن فهم الأفغاني للوطنيه هو " الذى يجعل منها دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية التي تعقبها فى الاتساع الدائرة الانسانية الشاملة[4] ".

والذى لابد من فهمه هنا حتى يتأكد لنا أن الرابطة الدينية هي الغالبة على فكر الأفغاني لا رابطة سواها حتى فى الآونة الأخيرة من عمره إن فى " الخاطرات " التي جمع فيها خلاصة فكره وتوفى بعدها بقليل ، مايؤكد أن وحدة المسلمين هي غايته واعظم آماله التى كافح وكابد فى سبيلها ، ولأجلها هاجر وجاهد حتى تنهض الأمة الاسلامية من وهدتها[5] ، وهذه وحدة غير الوحدة القومية وخلاف الوحدة الشرقية .

---

(١) ظهر فى أحدث دراسة عن الافغاني مجموعة من الوثائق والمذكرات الخاصة التى عثر عليها أن الأفغاني فى الحقيقه (ايراني الاصل شيعي المذهب وليس سنيا حنفيا كما عرف عنه ومع ذلك فهى تؤكد انه من المصلحين العظام لانه كان يدعو الى توحيد الدول الإسلامية وجمع شمل المسلمين فى وحدة شامله ترفع قدرهم وتعلى شأنهم .
انظر: حقيقة جمال الدين الافغاني (الجزء الثانى) د . عبد النعيم حسنين

(٢) انظر خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٥٤ .

(٣) الاعمال الكامله لجمال الدين الافغاني ص ٦٢

(٤) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٥) خاطرات جمال الدين الافغانى ص ٤٨ .

ثم إنه عندما ذكر الشرق فى مطلع خاطراته (١) ، وأنه الذى خصص دماغه لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، وهو يذكر الشرق فى مواطن كثيرة إنما يعنى الشرق الإسلامي وكل صقع ودوله من دول الاسلام فى الشرق كما هو واضح من قوله ، وكما هو فى البلاد التى ذكرها ، وهذا لا يعنى أن الأفغاني لم يلتفت إلى غير أهل الملة الاسلامية ، بل نظر اليهم نظرة لا تخرج عن روح الإسلام فى تحديد العلاقة بهم ، ولما كان الأفغاني من رجال الإصلاح فقد حدد الأساس الضرورى للاصلاح والنهوض والتمدن على قواعد الدين الإسلامى وماجاء به القرآن الكريم (٢)، ولاشك أن هذا الأساس ليس ضروريا لو كان الإصلاح لأمم الشرق المسلمة والوثنية ، وهو كذلك لو أن الإصلاح لقومية معينة .

لقد جعل الأفغاني هذا الأساس كما رأينا قبل قليل القاعدة التى إنطلق منها فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية ، وإذا تذكرنا كثيرا من أقوال الأفغاني التى تدعو إلى الرابطة الدينية التى هى أحكم الروابط ، وأنه لا جنسية للمسلمين لا فى دينهم ، وأنهم لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس التى أغناهم الإسلام عنها (٣)، ثم تأكيده على أن السبب الأعظم والفاعل الأكبر في انحطاط المسلمين وسقوطهم وتقهقرهم هو إهمال ما كان سببا في النهوض والمجد وعزة الملك ، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها ، وهي التى جمعت الأهواء المختلفة ، والكلمة المتفرقه وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته (٤) ، وكيف تنبه أن الافرنج لما علموا قوة الرابطة الدينية سعوا إلى التنفير منها لتمزيق الأمة شيعا وأحزابا (٥) ، كيف يكون صاحب هذه الافكار مغلبا للخصائص القومية على وحدة الاعتقاد الديني ، كل هذه الحقائق والمعالم فى تقديرى تجعلني لا أطمئن إلى القول بتطور فكر الأفغاني حيال دعوته إلى الوحدة الاسلامية التى بذل كل الوسائل فى تحقيقها والتذكير بها ، بل بقيت غالبة على كل فكر قومي ووطنى ومهيمنة عليه .

وفى ضوء هذه النتيجه التى وصلنا إليها مع ما أقررنا به سابقا من

---

(١) خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٩٩ ، الاعمال الكامله للأفغانى ص ٣٢١ ، ٣٢٨ .
(٣) الاعمال الكامله للافغانى ص ٢٢٥ ، ٢٥٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٢١٨ ، ٢١٩ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

وجود النزعة القومية والوطنيه في فكر الافغانى فيلزمنا أن نعطي تفسيرا وتوضيحا لذلك. إن الأمر هنا لا يعدوا التذكير بموقف الإسلام من العصبية وأهل الذمة وإذا كان الاسلام قد ذم العصبية ودعاتها فالمراد العصبية التى تقدم على الدين وتفضل عليه، وهي التى بالطبع تجعل المرء يخرج على بعض أحكام شريعته، وأما العصبيه التى لا تخرج عن أحكامه وتدور في كل خير ومعروف يدعو إليه فلا يتنكر لها إن لم يحبذها. أما أهل الذمة الذين يتعايشون مع المسلمين تحت حكومة الإسلام فلا منافاة بين الجامعة الإسلامية واخائهم الوطني، وهذه الجامعة ليست عداء دينيا بل تجعل لهم من الحقوق مايعيشون به مع المسلمين فى تآلف ورحمة وإحسان. إذاً في ضوء هذا التصوّر يمكن أن نفهم أقوال الأفغاني الداعية إلى الجامعة الإسلامية، والتى لا تتنكر لقيام دويلات وحكومات، ولكل منها نزعة عصبية ووطنيه ولكنها لا تقعد بها أو تقف عليها بل تتجاوزها الى التآلف تحت مظلة العقيدة ودستور القرآن مع سائر الشعوب والحكومات الاسلاميه فى الأرض.

أما النزعة العربية في فكر الأفغاني فهي لا تعدو تعزيز هذه الوحدة التى سعى إلى تحقيقها، وإذا كان من البديهى أن رابطة العقيدة إذا جمعت معها رابطة اللغة فان ذلك يزيد قوة هذه الرابطه متانة وتماسكا، وقد علمنا مما سبق أن الجامعة الاسلاميه إنما تقوم أساسا على الدين الاسلامي وفهمه، ولأن أصول هذا الدين من قرآن وسنة هي باللسان العربي فلا ريب أن لا يتم فهم أحكامه والعمل بادابه ومعرفة أسراره وكنوزه إلا بهذا اللسان الذى لا تُنكر مكانته فى الاسلام. في ضوء هذا يتسنى لنا فهم تلك النزعة العربية عند الافغاني، وكيف كان يتمنى على الدولة العثمانيه لو تعرّبت كما فكر في ذلك بعض خلفائها العظام[1]، لو أخذ العثمانيون بذلك لأعادوا للدولة الاسلامية وحدتها العظمى، ولجعلوا منها أعظم مملكة فى الأرض وأعزها جانبا.

بعد هذا التوضيح فانه يمكن القول: إن الباحث الذى ناقشنا آراءه قد جعل ثمار فكر الأفغاني كالنتيجة لنضوج فكره القومي الذى يزاوج بينه وبين الإسلام[2]، أما أنا فاني لا أرى آثار فكر الافغاني وثمراته

---

(١) الاعمال الكامله لجمال الدين الأفغانى ص ٢٣٣، ٢٣٤.
(٢) المصدر السابق ص ٧١.

الناضجة إلا نتيجة لمبادئ دين الاسلام وروحه والتى كان للافغاني منها حظ كبير من الفهم والتصور ودقة الإدراك، وهذا لا يقلل من إعجابى بدقة وعمق تلك الدراسة التى خالفتها وموضوعيتها .

وهكذا كانت وحدة المسلمين وجمع شتاتهم من أعظم المهام التى تقف أمامها قدرات الدول وطاقات عظماء البشر، وإنّ سعي الأفغانى لإنمائها إبان تلك الأوقات العصيبه في واقع الأمة الإسلامية رغم أنه أمر في غاية البعد من المنال ، وفي أعتى درجات الصعوبة بين بقاع العالم الإسلامي المتجاورة فضلا عن أصقاعه المترامية لجهد عظيم لا يُنسى ، فقد نهد الأفغانى نفسه في إباء ، وأقدم فى جرأة نادرة ،بل عمل في دأب لا يعرف الكلل والهزيمة وكان يتوثب لإيقاد نار هذه الوحدة بعدما قدح شرارتها ، وسعي لإيجادها في أرجاء بلاد المسلمين المترامية يبحث عن من يجاهد معه لتحقيقها ويستحث الزمان والأحداث لسرعة قيامها ، كي تعود لتؤدى رسالة الخير التى تحملها هذه الأمة إلى الإنسانية جمعاء .

ولعلي بعد كل هذه الإشارات الدالة على حرص الأفغاني على إقامة الوحدة الإسلامية ،ومابذله من جهود عديدة فى سبيلها ، ألاّ أكون بعيدا عن الصواب حين أعده من دعاة هذه الوحدة اللامعين .

(٢) الأمير شكيب أرسلان (١) :

تمهيـــد :

لو لم يكن لهذا البحث سوى بعض اللحظات الممتعة مع هـؤلاء الجهابذه الفحول لكانت وحدها حسنة تبعث السرور وتقود إلى الاستئناس بالهمم العالية ، وتنبىء عن عزمات الرجال كيف تكون .

---

(١) ولد الأمير شكيب بن حمود بن حسن سنة ١٢٨٦ في بلده الشويفات قرب بيروت من أسرة الأمراء الأرسلانيين العريقه ، عُنى والده بتربيته وتعليمه ، فحفظ القرآن وتعلم العربيه وأخذ بالثقافة العصرية من المدرسة الامريكانيه إحدى مدارس الارساليات المنتشرة فى بلاد الشام انذاك ، اتصل فى بيروت مبكرا بالشيخ محمد عبده عندما كان منفيا بها عقب حوادث الثورة العرابيه (١٣٠٠ / ١٨٨٢م) وكان ذلك باعثا لهمته وانطلاق عزيمته فى المجد والنضال ، كما رحل إلى مصر واتصل بزعمائها السياسيين وبخاصة تلاميذ الشيخ محمد عبده ، كما سافر إلى الاستانه وادرك جمال الدين الافغانى قبيل وفاته .

نالت أسرته ثقة العثمانيين فكان سنة اعلان الدستور (١٣٢٦ / ١٩٠٨م) قائممقام مقاطعة الشوف بلبنان ثم عين نائبا فى مجلس المبعوثان العثمانى بالاستانه وحين رأى تكالب الاستعمار على دولة الخلافة أخذ بعزيمة فى مولاة الخلافة ومناصرة الحكومة العثمانيه إلى آخر الحرب العالمية الاولى .

ولما انتهت هذه الحرب بانفصال العرب عن العثمانيين اتجه الأمير الى أمته العربية يدعو لوحدتها ونهضتها ، لكن الاستعمار لم يلبث أن أنشب أظافره فيها وعندها ترك الأمير موطنه ومضى فى رحلات ، وضع عصا التسيار بعدها فى جنيف وبرلين ، وبقى بها يدافع عن قضايا أمته إلى أن نال لبنان استقلاله (١٣٦٤/ ١٩٤٦) فعاد إليه ولم يلبث الا قليلا حتى توفي .

والامير شكيب مع ذلك عالم بحاثه مؤرخ جليل وخطيب وصحفى بارع فوق ذلك فهو أمير البيان فى أدبه العربى الفصيح ، انظر تفاصيل ترجمته :

ذكرى الامير شكيب ارسلان محمد على الطاهر القاهرة ١٩٤٧م ، مجلة الرسالة مجلد ١٥ ص ٤٦ ، ٢٠٧ رفائيل بطي ، مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ١٥ ص ٣٩٦ بقلم محمد بهجت البيطار .

والأمير شكيب أرسلان من أفذاذ مدرسة الرجال الذين انجبتهم فى العصر الحديث، والذى يجمعه بهم الطموح الكبير والجد العظيم للنهوض بالأمة، والسعي فى إصلاحها وإعادة قوتها والعمل على وحدتها وتضامنها وكل مافيه مجدها وعزها.

ومع ماتزخر به سيرة هذا الأمير من حياة حافلة بجلائل الأعمال، فله إسهامات عديدة فى ضروب من العلوم والمعارف، وتسنّم عالٍ فى دروب السياسة ومعارجها، إذ نجد فيه الأمير والوزير والوالى والسفير، ونجده العالم النحرير والمدقق الخبير، حيث يؤلف فى التاريخ القديم والمُحدَث الذى يعيشه، وتجد النزعة الاجتماعية فيما يكتب، والبحث والتحليل فى سير الرجال الذين تعرض لهم، فضلا عن أنه المترجم إلى العربية من لغة أخرى، فى ترجمة سليمة شيقة.

أمّا الأدب والبيان فقد أحرز فيه قصب السبق، وسهل له حتى لتحسه فى تآليفه الرصينة التى يفوح عبير الأدب من جنباتها، ولا أدل على ذلك من شهرته الذائعة حيث عرف (بأمير البيان)، فهو الشاعر المُحلّق والناثر المبدع.

مع كل هذه المنابع الثرّة المتعددة عند شكيب ارسلان، إلى غيرها من نواحي فكره وجهوده المتعددة، يضطر المقام إلى التذكير - كما سبق مع غيره - أن مايعنينا منه فقط هو جهود شكيب المبذولة فى سبيل الوحدة الإسلامية - موضوع هذه الدراسة - وتذكير من يريد ماعداها من جوانب شخصيته الأخرى، بالاتجاه إلى الدراسات المتعددة التي دارت حول هذه الشخصية اللامعة.(١)

أمّا جهود الأمير شكيب فى سبيل الوحدة فهى واضحة وجلية وبيضاء ناصعة تجعله جديرا أن يُضم بحق إلى دعاة الوحدة والتضامن وكتابها الأعلام، وذلك رغم مايجده المرء من تغليب روح النزعة العربية القومية حتى كأنها المهيمنة على فكره عند بعض دارسيه الذين لم ينكروا دعوته إلى

---

(١) انظر: قائمة من هذه الدراسات التى دارت حول شكيب ارسلان فى كتاب: شكيب ارسلان حياته وآثاره - سامى الدهان، ٣٧١.

التضامن وإلى الخلافة العثمانية (١)

ومابذله هذا الأمير فى سبيل الوحدة الإسلامية يظهر على امتداد حياته ، ويتجلى واضحا فى كفاحه ونضاله ، وبجانب ذلك يلمسه المرء فى كثير من تآليفه التى لاتخفى فيها ، ولقد ارتأيت أن أناقش ذلك من خلال ثلاث مسائل أعدها كافية لإسهام الأمير شكيب فى وحدة الأمة وتضامنها ، وتلك المسائل هى ولاءه للخلافة العثمانية ، ثم اتجاهه إلى الوحدة العربية، إلى جانب جهود أخرى فى خدمة الإسلام وأمته .

أ) الولاء للخلافة العثمانية :

يأتى اتصال الأمير شكيب بالدولة العثمانيه من من جهة أسرته التى كانت تحظى بمكانة مرموقة لدى سلاطين العثمانيين ، مما جعلها تكل إلى هذه الاسرة بعض أعمالها فى بعض أقاليم بلاد الشام ، ومضى هو فى خدمة بعض هذه الوظائف ، لكن هذا لم يكن هو كل ماحدا به لنصرة الخلافة والذب عن الدولة العثمانية ، اذ الواقع أنّ شكيبا قد حصل على قسط عال من الثقافة والتعليم مع إلمام بما يدور فى عصره من أفكار ، وكان له اتصال بمحمد عبده وجمال الدين الأفغانى من خلال رحلاته فى مطلع حياته إلى مصر والأستانة ، فأفاد من أفكارهما ومنها الاهتمام بوحدة الأمة والنهوض بها ومآزرة الدولة العثمانية ضد الاستعمار الطامع فى افتراسها .

لقد كان شكيب أرسلان من أشدّ المخلصين للدولة العثمانية محبا لها ومبغضا لأعدائها ، فهى دولة الاسلام ، لذلك تعلق بالوطن الإسلامى ودولته العلية الكبرى ، وجعل سلطانها العثماني خليفة المسلمين وإمامهم ، ورنا ببصره إلى الاستانة عاصمة الخلافة ودار السلطنة ، ولاغرو حينئذ أن يدافع وينافح عن بني عثمان ودولتهم اذ هم مركز وحدة الأمة وقوتها آنذاك وينشر أمجادهم ويشيد بقادتهم وجيوشهم ، وهو فى ذلك ككثير من معاصريه الذين لايجدون أدنى غضاضة فى ذلك ، بل يعدونه قربة وعملا صالحا مرضيّا .

---

(١) هذا مانجده ونشمه مباشرة فى ثنايا كتاب : شكيب أرسلان حياته وآثاره د . سامى الدهان ، وكذلك بحث الاستاذ أحمد الشرباصى الذى يدل عنوانه على ذلك (شكيب ارسلان داعيه العروبة والاسلام) .

هذا الولاء العثماني في أدب شكيب أرسلان على شاكلة قوله في السلطان [١] :

فحبك ذا شرعي وعرفي ومذهبي . . ومدحك ذا فرضي ووتري وواجبي

تجده أوضح ما يكون في ديوانه الذي جعل فيه قسما خصه (بالمدائح السلطانية وشئون السياسة العثمانية) بل إنه يقول في صدر هذا القسم من هذا الشعر السياسي [٢] : " لي عدة قصائد سلطانية كنت أمدح بها السلطان عبد الحميد ، ولم أكن أقدّمها لحضرته السلطانية ، وإنما كنت أنشرها في الجرائد تعظيما لمقام الخلافة وتأييدا لوحدة الأمة " .

ومع أن الامير شكيب لم يكن يمدح الخليفة للنوال والتكسب شأن كثير من الشعراء [٣] ، الا أنّ إيمانه بمقام الخلافة ومكانتها في حفظ الأمة ورعاية الملة هي دافعة إلى ذلك ، وهو يرى أنه بذلك إنما يوافق المألوف مما اتفقت عليه الأمم ، كما قال [٤] : " جرت عادة الملوك والأمراء سواء في الشرق أو في الغرب ان ينتدبوا لأنفسهم رهطا من الفصحاء من شاعر مُفْلق وكاتب مبرّز وخطيب مفوّه ، ونديم مطرب ، وأمثال هذا الضرب من ذوي المواهب العقلية الوافرة ، والحظوظ الأدبية الراجحة . يشيدون بذكرهم في المحافل بالقصائد والشوارد ، أو بالخطب الأوابد أو بالمناشير الصادرة . . . فالشاعر الذي يتصل بملك من الملوك أو أمير من الأمراء في شرق أو غرب لم يكن يجد من الغضاضة في شيء التغني في مدح سيده حتى لو لم يكن أهلا لكل هذا الاطراء لأن الكلام إنما هو للمَقام لا للمُقام ، وأنّ المُقام إنما هو رمز الأمة وعنوان الملة " .

ويمضي الأمير شكيب في ولائه للخلافة رغم ظهور بعض النزعات التي كانت تريد الاستقلال عن الخلافة ولم تكن خافية عليه حتى من أبناء أمته العربية .

وعندما أقدمت ايطاليا على غزو طرابلس الغرب من الساحل الليبي

---

(١) ديوان الامير شكيب نقلا عن : شكيب ارسلان حياته وآثاره ١٥٠ .
(٢) السابق نفسه ١٤٩- ١٥٠ .
(٣) " " ١٥٠- ١٥١ .
(٤) شوقي أو صداقه أربعين سنة ـ شكيب أرسلان ٢٤ .

تجد نخوة الأمير وعثمانيته الأصيلة لا تجعله يكتفي بعداوة ايطاليا وبيان جرائمها الشنعاء ، لكنه يذهب بنفسه مع بعض القواد العثمانيين ليصطلي بهذه الحرب الضروس وينافح عن وطن أمته بالسنان كماحماه بروائع البيان .

وفى هذه الحرب التي فصّل كثيرا من أهوالها وعرّى همجية الطليان وبُعدهم عن الروح الانسانية فيها [1] ، نجده يكتب فى إحدى الرسائل الكثيرة التى بعث بهاإلى رجال الأمة فى مصر يستجيش بها المصريين لمعونة إخوانهم الطرابلسيين ، وقد بعثها إلى صديقه رشيد رضا فى أُثناء حوادث تلك الحرب ، وبعد أن يذكر فى بدايتها فضل جهاد الشيخ رشيد فى تهذيب النفوس وإقامة الشريعة وبيان حقيقةالدين ، يشير إلى هول ماهم فيه ومايجب من السرعة فى تدارك الأمر ، ويقول [2] :" نحن الآن فى خطب مُستعجل الرأب وفتق مستلزم سرعة السدّ ، ولا يفيدنا فيه تعنيف مُفرّط ، ولا لوم مقصّر ، ولا جزاء خائن أو مستهتر ، ولا يغنينا مع إلحاح وافد الشر ، وإطلال نازل البأس ، إكبار الاهمال والوقيعة بمدبري هذه الأعمال ، بل علينا قبل ذلك واجب أعجل ، وهو تلافي مافرّط فيه غيرنا ، وإبلاء العذر فيما يطلبه الرأي العام منا . . " .

وبعد أن يشير إلى الطريق التى ينبغى أُن تسلكها قوافل المدد ، وما يجب على المصريين من إرسال جنود منظّمة أو متطوعة أو ذخيرة ، وما يجب عليهم أن يعملوه بكل استطاعتهم ، تراه يستنهض الهمم لإغاثة الطرابلسين فى هذا الهول " أفلا ينهض الإسلام فى كل هذه الممالك إلى اغاثتهم بما يمسك أرماقهم على الأقل ، حتى تطول الحرب ، ويستمر الدفاع ، فإنّ طول الحرب يستدعى تدخل الدول ، ويفتّ فى عضد تجارة ايطالية ، ويثير عليها سائر سكانها ، فتنتهي النازلة بصورة ليست فيها هذه الغضاضة وهذا الذل ولا يُطأطأ الرأس أمام الطليان [3] . .

لا جرم أنّ حسن الدفاع عنها (طرابلس) ليقف بالطامحين عن سائر

---

(١) أنظر : فصل : حوادث العالم الاسلامى (حرب طرابلس) من هذا البحث.

(٢) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ٣٠ ، ٣١ .

(٣) السابق نفسه .

حوزتنا ، ويحفظ علينا هذا النزر الباقي من كرامتنا ، وان التخاذل عن هذه النجدة يكون إلاجهاز على مهجتنا العمومية ، إذ تعلم أوروبا أنه ليس من حياة ولا من أحياء ، وأن هناك إلا أعداد بدون اعتداد".

و الضغوط التي اضطرت السلطان عبد الحميد إلى تقييد كثير من الحريات وبث الجواسيس مع ما صاحب ذلك من خلل في النظام والإدارة العثمانية ، إضافة إلى تأثر بعض الشعوب العثمانية بالنزعات القومية التي قامت في بلاد الغرب ، كل ذلك كان مبعث التفكير والعمل لدى بعض الأفراد والجماعات العربية في المطالبة بحقوقها لدى السلطنة العثمانية ، وعندما جاء الاتحاديون إلى السلطة كانت النزعة القومية عندهم غير خافية على كثير من مفكري الأمة العربية ، وكان هذا مما حفزهم إلى التفكير في الانفصال عن الدولة العثمانية ، وكان بعضهم لايريد الانفصال الجدّي ولكنه يدعو إلى سلطة غير مركزية تأخذ البلاد العربية فيها حقها من القيام بأمرها وتعترف بالسيادة العثمانية عليها ، وأظهر ما كان ذلك ، في المؤتمر العربي الذي عقده بعض دعاة الحرية في باريس (١٣٣٥/١٩١٣م).

كانت هذه التيارات والحركات معلومة لدى الأمير شكيب ارسلان ، وهو لم يتفق مع أصحابها ، ومضى في ولائه العثماني جنديا مناضلا في حرب البلقان (١٩١٢ ، ١٩١٣م) كما كان قبلها في حرب طرابلس الليبية [1] ، ومع ماكان يبثه الاتحاديون من تظاهر بأنهم سيعطون العرب حقوقهم وما أشاعوه من أمان معسولة لم يطمئن أكثر دعاة التحرر في البلاد العربية لوعودهم ، وقام الظنّ السيء في النفوس ، كان شكيب أرسلان يسعى جاهدا لإزالة هذا الخلاف ليلتحم العرب بالعثمانيين.

ولما شبّت نار الحرب العامة (١٣٣٦/١٩١٤م) وانضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا ضد الحلفاء ، ورأى بعض متحرري العرب الاتفاق مع الحلفاء والحصول على وعود باستقلالهم ، نجد شكيبا لم ير أكثر ما رآه هؤلاء المتحررون وعلى رأسهم الشريف الحسين بن على ملك الحجاز ، وكان يرى الواجب أولا في نصرة الدولة العثمانية ثم المطالبة بعد ذلك بالاستقلال ، وجاهر بصراحة أنه لن يقف في صفّ الدول الاستعمارية ، ضد العثمانيين ،

---

(١) انظر: السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة ١٥٢.

ولمّا أعلن الشريف حسين ثورته العربية على الأتراك (١٣٣٨/١٩١٦م) عارض شكيب سياسة الشريف واستنكر طعنه للدولة العثمانية وسط محنتها، ولما شاع في الشام أن جيش الحسين سيجيء إلى الشام لقتال عسكر العثمانيين كتب شكيب ينصح قائد الجيش -ابن الشريف حسين- بالرجوع عن ذلك ويقول[1] : " ماذا تصنع أيها الأمير ؟ تقاتلون العرب بالعرب، وتسفكون دماء العرب بأيدي العرب، حتى تكون نتيجة ذلك استيلاء الأجانب على بلاد العرب وتقسيمها بين دول الحلفاء، واعطاء فلسطين إلى اليهود .. " .

وفي غضون هذه الحرب أحس الأتراك بانفصال العرب عنهم فشدّوا الوثاق على الولايات العربية، وحاكم الوالي العثماني جمال باشا السفاح دعاة التحرر العرب وأعدمهم فكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس العرب من الترك والميل إلى الحلفاء، ومع ذلك فقد كان الأمير شكيب يسعى جاهدا لردم هذه الهوّة الكبرى، ويُحب البقاء للخلافة العثمانية ويريد للعرب الكرامة والحرية حتى ناله من جراء ذلك أذى كثيرا[2]، إذ اتهمه العرب بحب الاستعمار ومواطأة الأتراك ضدهم، حيث أنه كان يرى أن في موالاة الحلفاء على العثمانيين خطة استعمارية للقضاء على الدولة العثمانية القوية ثم الاستيلاء بعد ذلك على العرب .

زكت قريحة شكيب وعظمت فراسته وفطنته ، فما انتهت الحرب وانتصر الحلفاء، وظن العرب الذين والوهم أُنه تحقق استقلالهم، وما إن خرجت الراية العثمانية من ربوع الأقطار العربية إلا وقد حل محلها راية الاستعمار الانجليزي والفرنسي والايطالي، وضاعت مع أولئك الحلفاء حقوق العرب والأماني العذاب التي كانوا يحلمون بها ، ووقع ماكان يخشاه هذا الأمير السياسي الأريب .

بانتهاء هذه الحرب تمزّقت الدولة العثمانية وأحكم الحلفاء القبضة عليها ووقعت المعاهدات الجائرة ضدها ، ولم يبق لها نفوذ على بلاد العرب، وهنا تجد الامير شكيب يكاد ينسى ولاءه العثماني ويتجه إلى العمل لوحدة بني قومه العرب، بعد ما رأى حكام تركيا يديرون ظهورهم للإسلام وللعرب،

---

(١) السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة ٣٨١، ٣٨٢ .
(٢) انظر : شكيب ارسلان ، حياته وآثاره ٦٩-٧٨ .

ولا شك أن الأمير فى ذلك موافق لمنطق الأحداث والواقع بعد أصبح جمع العرب والأتراك بعدها شيئا فى حكم المستحيل .

ولا يعنى هذا انتهاء ولاء الأمير للخلافة التى تجمع المسلمين ، كلا ، فهو لا يفتأ يتحدث عنها ويتعرض لها بعد ذلك ، فهو يكتب فصلا مطولا عنها (١) يتعرض فيه لاهميتها وحكمها وشروطها وقضية القرشية فيها . أما حين تسنم مصطفى كمال الأمر فى تركيا وألغى الخلافة وجعل من تركيا دولة غير دينية ، آنئذ كان الأمير واضح الكره والعداء لهذا الحاكم العلماني الذى أتى على الإسلام من قواعده ، وجعل يُعرّض به وبسياسته الخرقاء (٢) ، فتارة يعرّض به حين كان يستعين بالقوة الدينية فى تحريره لتركيا ، فلما قرّ قراره قلب ظهر المجنّ ونسي ما كان يقوله ، ويصف هذا الحاكم وأعوانه" بأنهم أولئك المسلمون الجغرافيون الذين تواطأوا مع الاجانب فى (لوزان) على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم ، أملا فى الحظوة عند الأوروبيين ، وطمعا فى الاندماج فيهم ، ثم لبسوا بعد ذلك القبعة تأكيدا لاندماجهم فى الأمم الافرنجية" .

والأمير يسخر من انصراف هؤلاء الأتراك عن الدين بحجة الرقى والمدنية ، كما لا ينى يفضح تقليدهم الأعمى للإفرنج فى الزواج واللباس وسواها . إلا أنه مع كره الأمير الشديد لهذه الشرذمة فإنّه لا يرضى أن تُقال كلمة سوء بحق الأمة التركية ، والتى لا يُجَوِّز العدل مؤاخذتها بأعمال حكامها الطائشين .

وبعد إلغاء الخلافة بأكثر من عشر سنوات نلحظ الأمير يدافع عن الخليفة العثمانى (وحيد الدين) الذى حكم بين (١٣٣٨ - ١٣٤٠) ويسوّغ صلته بالانجليز وعدم انضمامه لمصطفى كمال وحركته (٣) ، ويذكر الخلافة وعاصمتها المنقطعة النظير ، ويتخوف من خروجها من يد الإسلام ، ولا ينسى أن يُذكّر بتمسك الشعب التركى حتى ذلك الحين بآل عثمان رغم مخادعة الحركة الجديدة بقيادة مصطفى كمال لهم ، وهكذا كان شكيب ارسلان الرجل

---

(١) انظر : تعليقات الأمير شكيب على تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٣

(٢) انظر : السيد رشيد رضا أو إخاء اربعين سنة ٣٤ -٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٣) انظر : شوقى أو صداقة اربعين سنة ١٢١ - ١٢٤ .

العثمانى المخلص، والرجل المؤمن بقوة الخلافة التى لا تُحدّ فى حفظ الأمـة الاسلامية وصيانة كيانها من الذل والشتات .

ب) الاتجاه إلى الوحدة العربيـة :

لئن كان الأمير شكيب عثمانيا فى شبابه ومطلع سياسته ، فان ذلـك تعبير عن ولائه الإسلامي ، فدولة الخلافة عنده هى الذائدة عن الاسلام والمسلمين وفى مقدمتهم العرب ، بيد أنه مع ذلك لم يكن ليغفل عن عروبته وأصالة محتـده ، وسعيه فى رأب الصدع بين العرب والترك إبّان الحرب الأولى كان فى خدمة الخلافة وخدمة العرب على حد سواء ، ولعل فى أبياته التى خاطب بهـا الأتراك آنئذ مايشهد لذلك حيث يقول [١] :

مهما يكن من هِنات بيننا فلنا .·. معكم على الدهر عهدٌ غير منقضبِ
كفى الشهادة [٢] فيما بيننا نسبـا .·. إن لم تكن جمعتنا وحدة النسـبِ
مجدى بعثمان حامي ملتي وأنا .·. لم أنس قحطان أصلي فى الورى وأبي

وإذا كان شكيب يذيب عروبته فى وحدة الأمة تحت راية الخلافة فـان تلمس اهتمامه بالعرب قد يجده من يبحث عنه فى عهد ولائه العثمانى السابق [٣] ونظرا لضيق المجال فحسبنا متابعة مسيرته فى مجال الوحدة العربية بعـد ما يئس من تركيا التى تنكرت للإسلام فى زعامة حكامها العلمانيين .

وقف الأمير ضد ثورة الشريف (حسين بن على) على العثمانيين ـ كما ذكرنا ـ فى أثناء الحرب الأولى ، لكن ما إن انهت الحرب وتمزّق شمل الدولة العثمانية وقامت للعرب دولة فى الشام تحت قيادة فيصل بن الشريف حسين الا والأمير يأمل لهذه الحكومة مستقبلا مشرقا ، ويتجه إلى تأييدها كما قال [٤] :

---

(١) ديوان الأمير شكيب نقلا عن شكيب ارسلان : داعية العروبة والاسلام ١٠٥
(٢) أى شهادة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .
(٣) يمكن تتبع ذلك فى مؤلفاته الأولى ومنها (باكورة نظم الامير شكيب أرسلان ط ١٨٨٧م ـ بيروت ، المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى ـ تحقيق الأمير شكيب جـ١ ط ١٨٩٨م بعبدا ـ لبنان ، آخر بنى سراج ، ومعـه خلاصة تاريخ الأندلس ، وانقضاء العصر فى دولة بنى نصر ط١ ـ ١٨٩٧م مطبعة الاهرام ـ الاسكندرية ، ط٢ ـ ١٩٢٥م مطبعة المنار ـ القاهرة .
(٤) الأمير شكيب ارسلان . حياته وآثاره ٨٢ .

" إنّنا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا الى إيجاد الوحدة العربية تدريجيا . ." وأصبح ينادى بأنه جندى من جنود الأمة العربية يريد لها الاتحاد والتحرر والسير فى موكب النهضة والعلم، وكان هذا العمل من الأمير شكيب مُزيلا لكثير من الظنون والريب التى حاقت به - حتى من بعض أصدقائه - من وراء إخلاصه للعثمانيين بعد قيام ثورة الشريف ، ويقول الأمير بصدد هذه الحملات موضحا موقفه فى العهدين العثمانى والعربى [1] :" ولم يكن بينهم (اى أنصار الشريف حسين) من هو عفّ اللسان بحقي غير الملك فيصل وكنت أحبه منذ كان زميلا لى فى مجلس الأمة بالأستانة ، وانتهت الحرب العامة وتقاسمت دول الحلفاء البلاد العربية، وظهر ما ظهر من نكث الانجليز بعهودهم، وبقى الملك حسين - عفا الله عنه - مستمرا على الوقيعة بي بالرغم من أني عند تأسيس الحكومة المستقلة فى دمشق أعلنت وجوب تأييد فيصل والانضواء تحت لوائه، وكتبت إلى الصحف وإلى أصحابى بأننى ضد الملك حسين وأولاده فى خروجهم على الدولة لأسباب يعرفها الخاص والعام، ولكن متى صارت المسألة بينهم وبين الأجانب فلا سبيل فى التردد فى الانتصار لهم لأنّ القضية تكون حينئذ بين عربى وأُجنبى . . " .

اتجه الأمير اذن إلى أمته العربية بعد الحرب الأولى ولكن الاستعمار الذى تقسّمها جعله يُصرّ على عدم الإقامة تحت حكمهم فيها ، فاختار أوروبا حيث أقام فى برلين ثم جنيف .

بيد أن هذا النزل الجديد لم يكن للاستجمام وطلب الراحة ، ولكنه للجهاد والنضال الذى قلّ أن تراه فى عزائم الرجال ، انصرف الأمير إلى نصرة العرب والدعاية لهم والدفاع عن قضاياهم وكشف الظلم الذى أنزله الاستعمار بهم فهو فى سنة (١٣٤٣ / ١٩٢١م) يحاول التفاهم مع زعماء إيطاليا لمعاونة العرب ضد المحتلين لأوطانهم، وعندما تألّف الوفد السورى الفلسطيني للدفاع عن قضيتهم أمام جمعية الامم بجنيف (١٣٤٠ / ١٩٢٢) كان الامير أبرز أعضائه وأنشطهم، ويترأس موءتمر العرب المهاجرين فى أمريكا الشمالية (١٣٤٩ / ١٩٢٧م) حين دعوه لذلك، ويحج إلى مكة (١٣٥١ / ١٩٢٩م) فتكون فرصة للقاء بعض زعماء العرب وسياسييهم فى هذا الجمع وبخاصة الملك

---

(١) السيد رشيد رضا أو إخاء اربعين سنة ٣٦١ ، وانظر ص ١٦٠ ، ١٦١ .

السعودى - عبد العزيز آل سعود - الذى أقام دولة لا سلطة للمستعمرين عليها ، ويطلبه المؤتمر الاسلامي بالقدس (١٣٥٦ / ١٩٣٤م) للاشتراك في وفد الصلح الذى أرسله لحل النزاع الذى احتدم بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى ملك اليمن . وبمشاركته نجح الوفد وتم الصلح وحُسم الخلاف (١)

وهو إلى جانب كل هذه الجهود العظيمة يُحرّر صحيفة بالفرنسية تُدافع عن حقوق العرب وفق فكر الأمير وسياسته ، ولا يني الوقوف عن الرحلات العديدة والمشاركة فى اللقاءات والمؤتمرات الرسمية والفردية ، ذلك فضلا عن التأليف والكتابة التى كان بحق - مع زحمة هذه الأعمال والأعباء - آية فى غزارة مادتها ودقتها العلمية (٢) .

هكذا مضى الأمير مناضلا عن أمته إلى نهاية عمره ، وطار صيته فى الآفاق ، وعرفه سياسيوا الأمة العربية و مدّوا أيديهم إليه ، وأولوه ثقتهم وتقديرهم العظيمين ، وكان لدعوته إلى الوحدة أثر فى تحقيق الجامعة العربية. ولا مندوحة هنا من إيراد بعض أقواله وهو يدعو لوحدة العرب ، فأمته العربية قد فرقها الاستعمار ، وأضاعها طمع الأمراء فى الجاه والسلطان ، لذلك يجب ان تقترب ساعة الاتحاد " فالقضية ليست قضية تاج ولا صولجان ، وإنما هى قضية الأمة العربية التى ينبغى أن يكون أمرها فوق الإمارات والولايات ، وأنه خير للمرء أن يكون راعي ضأن فى عزّ قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء . . . وهل من سلطان - عظم أو صغر - لمن سيطر الأجنبي عليه وقاده كما يُقاد البعير (٣) . . " .

وتعظم نزعة العروبة فى نفس شكيب حتى نجده يبحث فى أصل العرب وسبب تسميتهم بذلك (٤) ، فضلا عن مؤلفاته التى توحى بعظمة العرب ومجدهم

---

(١) انظر فى تفاصيل هذه الجهود : الامير شكيب ارسلان حياته واثاره ٨٣-٩٨
(٢) يقول شكيب عن نفسه : انه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب فى دور السنة ، ويجيب عليها كلها ، ويكتب زيادة عليها مائتين إلى مائتين وخمسين مقالة فى دور السنة ، وينشر من التآليف بضعة الآف من الصفحات المطبوعة تأليفا . انظر : السيد رشيد رضا أو اخاء اربعين سنة ١٦٤ .
(٣) شكيب ارسلان داعيه العروبة والاسلام ٤٣ .
(٤) انظر : تعليقات الامير شكيب ارسلان على تاريخ ابن خلدون ١ / ٨٦ .

التالد كمافى (تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط) و(الحلل السندسية فى الاخبار والاثار الاندلسيه) .

إن سبب تغلب المستعمرين هو تفكك العرب وتمزقهم كما يرى الأمير شكيب " وأما سبب استخفاف الانجليز بالعرب فيرجع إلى أمور كثيرة يطول شرحها . فهى تجد أمة كثيرة العدد شديدة البأس متوقدة الذكاء ، الا أنها مع كثرة عديدها مفككة الأجزاء مقطعة الأوصال ، حتى أنه لاعلم لبعضها ببعض وهى تجد أمة شديدة البأس لكن بأسها واقع فيما بينها ، وشاغل لها عن الخارج بالكليه[1] . . " .

ويلوم العرب عن تقاعسهم عن وحدتهم بأسلوب ساخر فيقول[2] :" لو ندبنا المسلمين إلى البذل فى سبيل أقدس قضية وطنية أو قومية لامتنعوا أو تثاقلوا ، ولكنهم إذا قيل لهم إنّ هنا مزار الولي أو قبر أحد الصالحين لتسابقوا الى التبرع لأجل بنائه ، فحبذا لو جعلنا لمشروع الوحدة العربية قبة أطلقنا عليها اسم أحد المشايخ فكانت تجمع إعانات كثيرة . . " .

وهو لا يني يكرّر الدعوة لهذه الوحدة التى كان يظنها بعض الناس أوهاما أو خيالا ، ويتلمس لها الأمير كل طريق وأسلوب لوجودها ، ويصور جهده وتعلقه بها كما قال[3] :" بكينا حتى عمينا على أن نرى تحقيق مشروع الحلف العربى ، وأجمعنا كلنا على أنه لاحياة للعرب فى هذا العصر ومايليه إلا به ، لأنه الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذى أنشب براثنه بقسم من بلداننا ، وهو يتهدد القسم الثانى منها ، فإذا نشبت براثنه بجزيرة العرب ، كما أنشبها بسورية والعراق وفلسطين و الكويت والبحرين و حضر موت وعدن الخ . . لم يبق عربى على وجه البسيطة حرا " .

وبعد أن يرد على الشكوك التى تُثار حول هذا الحلف يقول :"الوحدة العربية يجب تأسيسها منذ الآن ، وإلا ندم جميع العرب ، ولات ساعة مندم" .

---

(١) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ١١٣ .
(٢) السابق نفسه ١١٤ .
(٣) السابق نفسه ١١٩ ، والمقال كتبه الأمير فى (١٣٥٣ / مارس ١٩٣١ م)

وعندما حاضر عن الوحدة العربية بدمشق (١٣٥٩ / ١٩٣٧م) [١] ورأى هذه الوحدة ضرورة، وأن جشع الأمم القوية لن يترك الأمم الضعيفة فى اطمئنان ولا أمل فى ثبات أمام هذه الأمم إلا بالاتحاد ، يرى أن يكون هذا الاتحاد عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، ولا يمكن أن تقع هذه الوحدة دفعة واحدة ، بل هى تسير إلى التمام بالتدريج كسنن الحياة ، ثم ينهى محاضرته بقوله : " أختتم كلامى راجيا أنّ هذا المشروع المقدس الذى نحن فى صدده يتم حسب برنامجنا المرسوم من قبل ، وتقر به عيوننا ونحن فى هذه الحياة ، وإذا لم أعش حتى أراه حقيقة مجسمة ، فيوشك أن أُبَشَّر به وأنا تحت التراب ، فليست العبرة فى حياة الأفراد إذا كانوا ، وإنما العبرة هى فى حياة الأمم ، فلتكن اذن كلمتنا دائما لتحيى أمتنا العربية " .

بهذه الاشارات التى تدل على اهتمام الأمير شكيب بوحدة العرب وكثير مما لا يتسع المقام له ، مضى الأمير بجد وبدأب فى هذا السبيل حتى ذرّف على السبعين ودنا أجله .

بيد أنّ هنا أمرا لا مندوحة من التعرض له ولو بايجاز شديد ، ذلك هو مراد شكيب بهذه الوحدة وتحديد هدفها عنده ، وما موقفها من المسلمين من غير العرب ، وما علاقتها بغير المسلمين من العرب ؟

وقبل الاجابة لو نظرنا فى بعض أقواله التى لها دلالة هنا حتى نخلص الى المراد منها [٢] ، فهو يؤمن بالارتباط الوثيق بين العروبة والاسلام ، وفى إحدى رسائله إلى رشيد رضا عن مآسي الاستعمار فى افريقيا يقول : "فليس الاسلام مهددا بل العربية ، ولعمرى هل يعيش هذا بدون هذه ؟" .

ويخاطب الذين يتنكرون للقومية العربية من أبناء شمال أفريقيا ويسمون أنفسهم (المسلمين الإفرنسيين) ويقول : " فعساهم . . ينيبون إلى الصواب ويعلنون أن البراءة من العربية لا تلتئم مع الاسلام الذى يظهرون الانتساب إليه" .

ومع ادراكه لفضل الإسلام على العرب فى توحيدهم وعزتهم التى لم

---

(١) انظر : شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ١١٥-١١٧ .
(٢) أخذت هذه الأقوال من المرجع السابق ١٤٢-١٥٥ .

يبلغوها إلا به ، فإنه لا يرى تعارضا بين الوحدة العربية والأخوة الاسلامية ، بل يقول : " أمّا اتحاد العرب والجامعة العربية فليس في ذلك إلا مايزيد الشرقيين عموما و المسلمين خصوصا قوة ومُنّة ، . . ولن ينهض الشرق ، لاسيما الشرق الأدني - بدون النهضة والمدنية العربية - بواسطة الدين الاسلامي العربي - واشجة العروق في النصف من آسيا وفي أكثر افريقيا وفي جزء من أوروبا ، وإذا نهض العرب نهض الأرخبيل الاندونيسي بطبيعة الحال ، فهما من قبيل اللازم والملزوم . . " .

أمّا مكانة العرب في الشعوب الاسلامية ورابطتها فانها " ترى في الأمة العربية المُعلّمة المُهذّبة التي هي لهم بمقام الأستاذ ، فإذا كان الأستاذ راقيا كاملا سار التلميذ على أثره ، واقتبس من أشعة علمه ، واقتدى به ، في كماله ، واذا كان مُقصّرا متأخرا متقهقرا كان نصيب تلاميذه التأخروالانحطاط . "

واذا كان هناك عدد من النصارى وغيرهم ممن يعيشون في الوطن العربي الذي يضمهم هم والمسلمين فإن الأمير شكيب لا يرى في جامعتهم العربية مايبعث بعضهم على النفور من بعض ، وماحدث من تعاون بين هذه الطوائف وما كان من إخاء وتناصر في سوريا أيام الاستعمار الفرنسي فإنه عنده خير شاهد على ذلك ، فالأخوة بين المتحدين في العقيدة أمر طبيعي ، لكن هذا لا يؤخذ منه" أن الأخوة بين المسلمين حاجزة دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يتوهم البعض ، أو كما يفتري آخرون ، كلا ، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة الإنسانية ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال :"الناس عيال الله وأحب الناس الى الله أنفعهم لعياله" ولم يقل : المسلمون عيال الله " .

والجامعة الاسلامية " ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هي عضد للشعب العربي بأسره ، فلماذا يعطف مثلا مسلموا الهند والجاوة والفرس والترك والبشناق والارناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة لا لأنها عربية" .

وأخيراً ما علاقة الدين بالقومية عند شكيب ؟ إن الدين في رأيه إنّما جاء لخدمة الإنسانية ، وهو ليس ضارا بالرقي المادي بل ضروريا ونافعا ، وأي اجتماع محتاج إليه ليوازن به بين المادة والمعنى ، ثم يقول مطالبا

بالتربيه الدينيه أثناء النهضة القوميه" يقول بعض الناس مالنا والرجوع الى القرآن فى ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم ، فإن النهضة لاينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هى نهضة أوروبه ؟ . . . نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تقضى إلى الاباحة والالحاد وعبادة الأبدان واتباع الشهوات مما ضرره يُفوّت نفعه ، فلابد لنا من تربية علمية سائرة جنبا إلى جنب مع تربية دينيه ، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوروبه جرت بدون تربية دينيه" .

بمثل هذه الاقوال وبما جاء في مقالة" العروبة جامعة كليه (١) "للأمير شكيب يمكن القول: إن هذه الوحدة العربية قائمة على الدين الإسلامي ولا انفكاك لها عنه ، وهي بهذا لا تتنكر للمسلمين من غير العرب ، بل تشد أزرهم وتتكاتف معهم لأنهم إخوة في العقيدة ، وهي أعظم الروابط بين البشر ، بيد أن هذه الأساس الدينى لا يعني التعصب على غير المسلمين الذين يعيشون بين أبناء الأمة العربية ، بل هم مواطنون لهم حريتهم الدينية ولكنهم يسعون فى خدمة هذه الجامعة العربية والمصلحة الوطنية مثل المسلمين على حد سواء ، وهم فى إطار هذه الجامعة مرتبطون مع المسلمين بروابط قوية لا ينكر فضلها ، وهى الدم والأصل واللغة والمصالح ، فلا تعارض بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية بل هما متلازمان في وحدة جامعة ، وحرية الاديان لا تعنى الحرية المطلقة بلا حدود أو قيود ، ولا مناص لوجود العلاقة المتينة بين العقيدة والحكم والدين و الدوله ، فالوحدة العربية كما يأمل الأمير شكيب ، جامعة كلية لا بين المسلم والمسيحى فقط ، بل بين أبناء الفرق الاسلامية من سنيين وشيعه ودروز - وعلويين و اسماعيليين ، وبين الفرق المسيحية من اتباع الكنيسة الشرقيه أو الغربية وليس ثمة عداوة بين المسلمين والنصارى وإنما الحروب الصليبية هي التى خلقت هذا العداء ، والعقيدة الإسلامية التى تقوم عليها جامعة العرب المسلمين مع من معهم من المسيحيين هي التى جعلت خلفاء المسلمين من بنى أمية وبنى العباس وبنى عثمان يعاملون المسيحين كما يعاملون بعض المسلمين ويعوّلون عليهم في بعض المهام ويحفظون لهم حقوق الذمة والبر والوفاء .

---

(١) انظر: شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ص١٦١-١٨٨ .

ج) جهوده في سبيل الاسلام مما يرتبط بالوحدة :

ورد في بعض المواضع من الفقرتين السابقتين إشارات إلى بعض جهود الامير شكيب في خدمة الإسلام، والواقع أننا لا نكون مخطئين لو اعتبرنا جهود الأمير في ولائه للخلافة وسعيه للوحدة العربية من صميم عمله للاسلام وجهاده فى سبيله والانتصار له ، ومع غناء تلك الجهود في الدلالة على سعي الأمير لإعلاء منارة الإسلام إلا أن ثمة جهودا أخرى ترمي إلى نفس هذه الغاية الشريفة، وقد بذل فيها الأمير من وقته وكفاحه مالا يُقلّل من الإشارة العابرة إليها .

ومع احتفاء دارسي الأمير شكيب بابراز مآثره وآرائه وعنايته العظيمة بالاسلام(١) ، إلا أن المتدبر لتآليف الأمير الكثيره التى تركها لا تخلو من ذلك ولو على وجه الاجمال ، وبجانب ذلك فقد كان يعمل للاسلام فى معترك الحياة ، فهو عندما عزم على الاقامة في أوروبا ظل يكتب عن قضايا الإسلام ويجاهد فى سبيل التعريف بها فى المحافل الأوروبية ، ويقابل السياسيين والصحفيين وعلماء المستشرقين ويناقشهم ويتباحث معهم ، ويرأس المؤتمر الاسلامي فى أوربا لجمع المسلمين فيها وبحث مايتعلق بهم ، ويفتتح في برلين المعهد الاسلامي "١٣٤٩/١٩٢٧م" كما يتخذ من بيته منتدا يلتقي فيه بكثيرمن المسلمين والزوار(٢) ، ويَكْثُر فى كتابات الأمير صور الدفاع والرد والمساءلة ، ولا غضاضة فى ذلك ، فالعصر والظروف التى كان ينافح فيها تستدعي هذا اللون من الكتابة ، والاستعمار الذى جثم على أكثر بلاد الاسلام استخدم الدسائس الفكريه للصد عن الاسلام والتعريض به ، والهجمة الاستعماريه التى بهرت بعض المسلمين ، بل بعض القادة والمفكرين منهم جعلتهم ينساقون بغير روية إلى تقليد الغرب والتشبه بهم ، ولننظر على سبيل المثال حماسة الأمير واسلوبه وهو ينافح عن نفي التعارض بين الدين والعلم وعن عدم فصل السياسة عن الدين لأن خصوم الاسلام أدركوا تأثير الدين على الحياة فعملوا لإيجاد هذا الفصل حتى يتزعزع سلطان الدين ويقل نفوذه فى الحياة لينفتح الباب لتقليد الغرب في نظمه واحكامه ، آنئذ أخذ الأمير يُندّد على

(١) انظر الأمير شكيب ارسلان حياته وآثاره فصل : دفاعه عن المسلمين والاسلام شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام فصل : شكيب والاسلام

(٢) المصدر السابق ص ١٩٦ .

مغبة ذلك الفصل ، ويدل على الصلة الوثيقة بين الحكم والدين ، ثم ينبه على خطورة مهاجمة الدين التي أُشيع آنذاك أنّها هي الحرية والمدنية ويقول [١]: " إنّي آليت على نفسي الاّ احاكم ملاحدة العالم الإسلامي إلا إلى أوروبا ومآخذها ومتاركها ، إني لا أقول لهم قال الله تعالى ولا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم لا يعتقدون بالله ولا بالرسول ، ولا أقول لهم قال جمال الدين الافغاني أو قال محمد عبده فانهم لا يأخذون باقوالهما ، بل يحتقرونهما ويحتقرون كل شرقي . . . بل أقول لهم : قال المسيو فلان ، والمستر فلان ، والهر فلان ، والسينيور فلان ، وهؤلاء هم أئمة الأمم التى أنتم تدعون إلى الاقتداء بها " ثم يضرب الأمثلة الكثيره التى تدل على تمسك الدول الاوروبية بالدين .

والأمير يعجب كيف لا يكون للمسلمين جمعيات ودعاة مبشرون بالاسلام يعملون لنشره في الآفاق كما كان سلفهم يركبون لذلك الجبال والبحار [٢] ، كما أنّ من الأمور التي يؤكد عليها الاهتمام بالتعليم ولتكن أسسه على مبادئ الاسلام ، فكيف يُطَالب من أُناس شيئا لم يُرَبّو عليه ، وأن يكون مايتلقوه من منبع صاف لاكدر فيه ولا تحريف [٣] .

ويدعو إلى وضع " معلمه إسلاميه " وافيه [٤] ، شبيهة بالموسوعات تحوى جميع الموضوعات المتعلقة بالإسلام والمسلمين . ذلك كله مع إيمان واقتناع راسخ بأنّ المستقبل للاسلام وأنه سبيل العزة لمن ينشدها .

والأمير شكيب فى تعليقاته الضافيه على كتاب " حاضر العالم الاسلامى " يقود قارئه إلى أفكار عديدة وعميقه ، وإلى بقاع من الارض نائية عن المسلمين ومجهولة فضلا عن حديث وترجمات عن عديد من الرجال البارزين فى تاريخ الاسلام ، وهو في كل ذلك داعية للاسلام وناشر لدرره ومفاخره ، ومُدقّق فى انتشاره من الصين فى الشرق إلى المغرب الاقصى في الغرب ، ومن أقدم العهود إلى عصر الأمير الذى يعيشه ، وبين ذلك يناقش ماتعاقب على هذه

---

(١) الفتح ـ عدد ٢٧ محرم ١٣٥١ هـ
(٢) المصدر السابق عدد ٧ رجب ١٣٤٩ هـ
(٣) المصدر السابق عدد ١٧ ابريل ١٩٣٠ م
(٤) انظر حاضر العالم الاسلام ١/د ، هـ .

الاقطار من الحكومات وما تناوب عليها من النُّوب ، ويقف وقفات طويله أمام حملات الاستعمار واستيلائه على بلاد الاسلام وتآمر أعداء المسلمين وتربصهم بهم ، وفي أثناء ذلك يدل أمته على الأخطاء والمزالق التي وقعت فيها ويُبيّن الأُرزاء ، والعلل التي قعدت بها عن معارج الرقي والنهوض ، ويدلّها على الثغرات التي نفذ منها خصومها وتحكموا فيها .

ومع هذا القلب الكبير الذى اتسع لحمل هموم سائر البلاد الاسلامية في تلك التعليقات النفيسة" لايتوانا الأمير أن يكتب رسالة صغيرة رغم أنّها عظيمة المعاني وبالغة الأهمية للأمة حتى يومنا هذا سماها " لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ (١)" هذه الرسالة العظيمة والتى قد يكون الشقاق بين المسلمين الباعث لتأليفها ، يوم أن وعد الأمير بتآليف كتاب يسميه " الفوضى الاسلاميه وما جنته على المسلمين ، والوحدة الاسلامية وماجنته على المسلمين " (٢) ، هذه الرساله وإن أفاضت فى ذلك (٣) إلا أنها ترسم الطريق الموصل وتعطي الدواء الناجع لتأخر المسلمين .

واذا كان الاسلام هو سبب رقي المسلمين وسيادتهم فى الماضي ففقد هذا السبب أو ضعفه عما كان عليه هو الذى قعد بالخَلَف إلى الوراء كما فى أول الرساله ، وبجانب ذلك هناك العديد من الاسباب العلمية والخلقيه كالجهل وفساد الاخلاق والجبن والقنوط ونسيان الماضى المجيد ، إضافة إلى الفهم السيّئ لبعض شرائع الاسلام وانعدام الثقة من المسلمين بانفسهم مما هوى بهم إلى الحضيض ، كما جاء فى ثنايا الرساله ، كما أنها ترشد إلى وجوه الإصلاح المعنوية والمادية وطرق الأخذ بالاسباب التى أخذت بها الأمم الاخرى فرفعتها من وهدتها وارتقت بها فى سُلّم النهضة والرقي .

بكل هذا الجهاد وتلك الجهود المتعددة المناحي ، الا يحق لنا أن نعد الأمير شكيب علما من أعلام الاتحاد الاسلامي ؟ ذلك ما أرجوه .

---

(١) ظهرت طبعته الأولى ١٣٥١ / ١٩٣٩ م بمطبعة المنار بمصر .
(٢) انظر شوقي أو صداقه اربعين سنة ص ١٩٦
(٣) انظر لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم شكيب ارسلان ص ٥٤ ، ٦٧ ، ٧١ .

(٣) مصطفـــى كامـــل (١)

ذاعت في مصر صيحات المطالبة بالحرية والدستور ، ووجدت الدعوة إلى الوطنية قبل الثورة العرابية (١٣٠٠ / ١٨٨٢ م) ببضع عشر من السنين،

---

(١) ولد مصطفى كامل لوالده على افندى محمد (١٢٩١ / ١٨٧٤ م) الذى كان ضابطا مهندسا بالجيش المصرى، وتلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بالقاهرة ، والتحق بكلية الحقوق فى مصر مع مدرسة الحقوق الفرنسية التى كان يسافر لاداء امتحانها كل عام حتى حصل على شهادتها ١٨٩٤ م وسنّه عشرون عاما .
لم يشتغل بعد ذلك بمنصب حكومى ولكن اتجه إلى المحاماة ، ولكنها محاماة عن الأمة ودفاع عن الوطن ، ومضى يعمل لاستقلال مصر وكرامتها ، وجاهد لا يفتأ فى ذلك يكتب ويخطب ويؤلف ويجوب الديار ، ولم يقتصر على الجهاد فى الداخل بل دعا لقضية بلاده فى الخارج وفي المحافل الدولية حتى ذاع أمرها ووقف عليه أكابر السياسيين فى أرجاء العالم .
مال فى أول جهاده إلى فرنسا ليعارض بها النفوذ الانجليزى فى مصر ولكن اتفاقهما - فرنسا وانجلترا - وإبرام (الاتفاق الودى) ١٩٠٤ م جعله يلغى التفكير فى الاعتماد على فرنسا ، ومع ما مُنيت به الحركة الوطنية من صدمة بسبب هذا الاتفاق ودخول اليأس على بعض الوطنيين ، مضى هذا الفتى غير يائس ولا خائر العزم ، واستمر يحمل علم الجهاد والمطالبة بحق أمته في الاستقلال مما دفع صفوة الشبيبة المصريه المناضلين عن الوطنية لتأسيس نادى المدارس العليا ١٩٠٤ م وبذلك سرت روح المبادىء الوطنية وخدمة الوطن إلى الطبقة المثقفة من الأمة .
وفى نفس العام وقعت حادثه (دنشواى) فحمل فيها مصطفى كامل علي الانجليز وسياستهم حملات ثائرة فى داخل مصر وخارجها مما كان له أعظم الأثر فى إحياء المطالبة بالاستقلال وتعديل السياسة الانجليزية ، استمر هذا الفتى يتدفق نشاطا وحيويه فى سبيله الواضح فأنشأ سنة ١٩٠٧ م جريدتين يوميتين إحداهما بالفرنسية (ليتندرا اجبسيان) واخرى انجليزيه (ذى اجبشيان استاندرد) تدافعان عن حقوق مصر فى بلاد أوروبا فضلا عن (اللواء) التى أصدرها ١٩٠٠ م وكانت أعظم مشعل لروح الوطنية والنضال ، وكان تتويج هذا النضال تأسيس حزب يحمل أفكار هذا الفتى ويقوم برسالته فى مناوأة المحتل ، ذلك هو الحزب الوطنى المؤسس ١٩٠٧ م وكان هو أول رئيس له ، واستمر - وقد دب المرض فى جسمه - فى جهاده ورئاسة الحزب =

الا أن هذه الثورة التى انتهت بدك حصون الاسكندرية وهزيمة الجيش المصرى وتمزق قياداته فى معركة التل الكبير واحتلال الانجليز لمصر كادت تقضي على هذه النغمات، حيث كُمّمت الأفواه و ذُهِلَت العقول وسرى روح اليأس والقنوط إلى النفوس .

وبعد بضع عشرة سنة من هذا الذهول والسكون المهيب يفاجىء الشاب مصطفى كامل الأمة المصرية بصوته ودعوته إلى الحرية و الاستقلال، فدعا الى إعادة الثقة بالنفوس والمطالبة بالحق المسلوب ، ظهر هذا الشاب فكان دافعا للنهوض ومحركا للعزائم وكان كما عرف واشتهر عنه (باعث الحركة الوطنية) فى تاريخ مصر القومي الحديث .

بالكلمات الوطنية الخالدة التى كان يطلقها ، وبتلك الحرارة المفعمة بالحب ، وذلك الهيام بمصر كان مصطفى كامل يقول [1]: " بلادى بلادى ، لك حُبي وفؤادى ، لك حياتي ووجودى ، لك دمي ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لُبي وجناني ، فأنتِ أنتِ الحياة ، ولا حياة إلا بك يامصر .

إنّ روحي تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا أستطيع الحياة ، إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه ، وبخاصة فى الشقاء حيث لا يجد الإنسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب .

سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، إذ أجد حياتى فى هذه العقيدة ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة " .

هذه النغمة الوطنية الصارخة عند هذا الفتى نجد معها وفى ثناياها روحا إسلامية ودعوة لتآلف إسلامى وتشجيع واهتمام بالجامعة الاسلامية ، فماذا يكون من هذا ؟ دعوة إلى الوطنية ، ودعوة إلى الجامعة الإسلامية وهما فى الظاهر على طرفى نقيض ! أم أنّ لكل منهما معنى خاصا عند هذا الفتى حتى جمع بينهما ؟

═══ حتى حان أجله فى مطلع عام ١٩٠٨م .
انظر تفاصيل ترجمته : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ـ عبد الرحمن الرافعى ، أدب المقاله الصحفية فى مصر ـ الجزء الخامس ، د . عبد اللطيف حمزة .

(٢) مصطفى كامل ـ عبد الرحمن الرافعى ص ٤١٤-٤١٦ .

وقبل الاجابة لابد أن نرى شيئا من أقواله أو كتاباته التى تدل على أخذه بالجامعة الإسلامية أو مايدل عليها ، فالدولة العثمانية التى كان الارتباط بها هو ارتباط بوحدة الاسلام والجامعة الاسلامية تجده عند مصطفى كامل ، وهوعندما يرى المسألة الشرقية من بعض نواحيها أنها النزاع القائم بين انجلترا وبعض الدول الأوروبية بما فيها الدولة العلية يقول بعد ذلك[1] : "فواجب المسلمين أن يلتفّوا جميعا حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة ، وأن يُعزّزوها بالأموال والأرواح ، ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية ذاتها " .

ويقول مُبيّنا أهمية علاقة مصر بالدولة العلية وضرر الخلاف بينهما[2]: فإذا كان الخلاف القديم قد جرّ على الدولة وعلى مصر المصائب والبلايا ، فواجب ، على بني الدولة وبني مصر أن يعتبروا به وأن يجعلوا الوفاق والاتفاق رائدهم فى كل أعمالهم ، فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها ، ولا حياة لهذا الجسم العظيم إلا بالاتفاق بين أعضائه فى العمل ، وإذا كانت دول أوروبا تتّحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عندما يهم المسيحية أمر ، فكيف لا نتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة فى أشد البلاء ، والأخطار محدقة بها من كل جانب ، واعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم الفرص" .

كمايوضح بجلاء سبب هذا الميل والاتجاه إلى الدولة العليه[3] :"إنّ اتفاقنا مع تركيا كان دائما أساسا من أُسس سياستنا ، وإنّ الخلاف الذى كان مستحكما بين قصر يلدز وسراى عابدين إبّان الحركة العرابية كان السبب فى مصابنا وفى الاحتلال البريطانى ، ولما كانت تركيا هى الدولة صاحبة السيادة على مصر فان عملها وشأنها فى المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران ، وإنى أسأل الذين يُنكرون هذه الحقيقة أن يُفكروا لحظة فيما يئول إليه حال مصر لو عقدت تركيا فى يوم من الايام اتفاقا مع انجلترا مشابها الاتفاق الودى الفرنسى الانجليزى؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التى تربط مصر بتركيا ، أوليس هذا الارتباط فى ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق ؟ إنّى أسأل الذين

---

(١) المسألة الشرقيه ص٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤

(٣) مصطفى كامل للرافعى ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لا يكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا ان يجيبوني : لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا واتفاقها مع انجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا " .

بهذه الاقوال وكثير من مثيلاتها يلحظ المرء تعلق مصطفى كامل بالدولة العثمانية وحرصه الشديد على حسن العلاقة والتضامن معها ، وهو وإن برّر علة ذلك التعلق كما يُلاحظ في هذه الأقوال السابقة هنا، فإنه في مواطن أخرى لا يكتم هذه المحبة والميل، بل تأخذ مظاهر أخرى ، ومن ذلك المجاهرة بمعاهدة لندن (١٢٥٧/١٨٤٠م) الدولية ، والتى اعترفت باستقلال مصر وضمان عرشها في أسرة محمد على مع بقاء السيادة العثمانية عليها ، كما قد تكون موازرة للسياسة العثمانية في الشئون المصرية التى تخالف سياسة الاستعمار الانجليزى ، إضافة إلى الاكتئاب في الجيش العثمانى والابتهاج والسرور بنصره كما حدث في الحرب اليونانية التركية [١] (١٣١٥/١٨٩٧م) .

بجانب هذا الميل العثمانى والتقرب إلى الخلافة كان ثمة جهود واهتمام بتوثيق عرى الروابط والتآلف بين الأمم الاسلامية الشرقية ، ومصطفى كامل يَعُدّ ذلك من الرابطة الدينية التى لا تعارض الرابطة الوطنية ، وهو في ذلك مؤمن بقوة الإسلام الكامنة في هذا الاتحاد ، ويؤكد ذلك إصداره جريدة اسبوعية باسم (العالم الاسلامى) ينشر بها كل مايهم العالم الاسلامى من المقالات والأنباء [٢] ، فضلا عن ذلك العمود الذى يعالج (أوروبا والاسلام) في صحيفة (اللواء) حتى لا يكاد ينقطع منها .

بل إنّ حرصه على الجامعة الاسلامية جعله يكتب مدافعا عنها ومفسرا لها ، وذلك عند ما صوّرتها جريدة فرنسية بأنها حرب دينية ضد المسيحية ، ردّ عليها قائلا [٣] : " لقد فُسِّرت الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيرا لا يتفق ومعناها الحقيقى . . . إنّه لا يُوجَد مسلم متنوّر يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا . وإننى أتساءل مَن الرجل العاقل السليم الإدراك الذى يُصَدِّق إمكان تغلب الشعوب الاسلامية على كافة الدول

---

(١) انظر: مصطفى كامل لزافعى ص٣٠-٣٥٤ ، الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل - محمد عمارة ص٧٣-٨٠ .

(٢) مصطفى كامل للرافعى ٤٢٣ .

(٣) المصدر السابق ٤٢٣ ، ٤٢٤ وكان ذلك في سبتمبر ١٩٠٦م .

الأوروبية ، ان الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء ، إنّ حركة الجامعة الاسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا - أي الحرب الدينية - لا وجود لها بالمرة ، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنّه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم ، وأنّ الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالزوال ، أمّا الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الاسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه مُعَاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل انسان ، وإنّه لما كان لتأخر الشعوب الاسلامية أسباب واحدة فان نهضتهم تكون بوسائل واحدة ، وإنّ هذه النهضة لا تصير حقيقة تُشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية ، بل بالتعليم والنور ، وبما أنّ الاسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعي ، فان إحياء الافكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته ، وإن ميل كل مسلم لابناء دينه أمر طبيعي وشرعي ولا يُوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل ، أمّا عن تهمة التعصب الاسلامي المزعوم في مصر فاني أؤكد أنّ بلادا كثيرة في أوروبا تعرف التعصب العنيف الممقوت ، في حين أنّ مصر لا تعرفه ، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود ولا اشتراكيون ولا فوضويون ولا شيئا من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضا" .

هذا الاهتمام بالجامعة الاسلامنية وعدم التنكّر لها تجده واضحا ايضا في ثنايا أعداد صحيفة (اللواء)(١) إلى وفاة مصطفى كامل ، وهناك اهتمام بالمواضيع والشئون الاسلامية في (اللواء) وان كان بصورة أكبر في سنواتها الأولى(٢) ، الا أنه لا ينقطع أيضا مما يدل على روح واتجاه إسلامي ، وهو ماعُرف عن مصطفى كامل مما يعزّز - بلا ريب - قوة اتجاهه إلى الرابطة والوحدة الاسلامية .

في ضوء كل هذه الاهتمامات والجهود التي لمسناها عند هذا الفتى ، والتي إخالها كافية لأن نعدّه من الأدباء الذين آزروا الاتحاد الاسلامي ، لا ننسى الكيفية التي كان يريدها لهذا الاتحاد أن تكون ، فلقد

---

(١) انظر : ادب المقالة الصحفية في مصر - الجزء الخامس - د . عبد اللطيف حمزة ص ١٣٦ - ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣٦ - ١٤٠ .

كان اتجاهه الى هذا الاتحاد مطعنا عليه من كثير من خصومه وممن لم يدركوا أبعاد فكرته عنه ، فلقد اتُهِم أنه إنّما كان يعنى بشعار الجامعة الاسلامية العودة بمصر إلى حظيرة الحكم العثمانى فلذلك سعى لهذه الجامعة ، ثم ان هذه الدعوة أيضا كانت ذا مضمون طائفى ، لأن حديثه فيها عن المسلمين دون الأقباط ، ودعوته أيضا هى لمواجهة بين إسلام الشرق ومسيحية الغرب (١) .

ومع أن هذه الاتهامات تدلنا على العظمة والروعة التى كان يعمل فيها الرجل تحت هذا الشعار إلا أنها تبيّن لنا كيفية تصوّره لهذه الجامعة مما نحن هنا بحاجة إلى الوقوف عليه .

أمّا أنّ دعوته لهذه الجامعة تعصب للاسلام على مسيحية الغرب ففى آخر أقواله التى وردت آنفا مع أقوال أخرى مثلها (٢) مايكفى للرد على هذا الادعاء .

أمّا اتهامه باستخدام هذا الاتحاد للعودة بمصر إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية فالحق أنّ الرجل أبان ذلك أتم بيان . فهو يقول رادا على متهميه (٣) : " أمّا دعواكم أنّ الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم إنّما يُطالبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهى دعوى لا يقبلها ذو لب ، ولا يُسَلِّم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة " .

فهو إذن لا يريد الحكم العثمانى أن يقوم على مصر ، وذلك الميل العثمانى الذى رأيناه لا يسوّغ عند مصطفى كامل أن تبقى مصر خاضعة لتركيا فلمن يريد مصر اذن ؟ انه يجيب (٤) : " قد صرّحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا او نفورنا من دولة لا يؤثر شيئا على هذا

---

(١) انظر : مصطفى كامل للرافعى ص ٣٤٦ ، الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٥٨ .

(٢) انظر : مصطفى كامل للرافعى ص ٢١١ ، ٤٤٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ .

(٣) اللواء فى ٢ مايو ١٩٠٦ م نقلا عن الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٦٠ .

(٤) اللواء ٦ أكتوبر ١٩٠٧ م نقلا عن الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٨٨ .

المبدأ الرئيسي لحياتنا وأفعالنا " ولا يريد استبدال احتلال باحتلال "لأننا نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان أقرب الناس إلينا ، لأننا أمة حية متمدنة ، نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى مصرا تحت حكم وصيّ . . " (١) .

إذن فذلك الولاء للخلافة والسلطنة العثمانية ماهو إلا سياسة حكيمة وخطة لمجاهدة الاحتلال الجاثم على البلاد ، وذلك مايقتضيه الموقف آنذاك لما فيه من استخدام للتوازن الدولي وإفادة من تناقضات الدول في حل المسألة المصرية ، ثم إن الارتباط بتركيا له الكثير من المبررات التي يمكن بها معارضة الاستعمار الانجليزي الذي هو الداء العضال (٢) ، أمّا حين زوال هذا الداء فالاستقلال عن تركيا والاستغناء عن حكمها أمر سهل ميسور رغم أنها قبل ذلك الاحتلال لم تكن إلا ولاية شكلية لا فعلية في حقيقتها .

رأي مصطفى كامل بكل جلاء هو أن (مصر للمصريين) وهذا الشعار هو غايته ، ولم يكن شعار الجامعة الاسلامية عنده يعني العودة بمصر الى حظيرة الدولة العثمانية أبدا ، وانما هو التضامن والتحالف السياسي ضد الاستعمار الانجليزي (٣) ، وذلك هو معنى الجامعة الاسلامية الذي نراه عنده حسب تصويره لها ، وعندما نسمع ماقاله حين خطب في ذكرى تأسيس الدولة العثمانية (٤) وأنه " يستحيل علينا (يخاطب المصريين) أن يَطلب واحد منا مالكا أجنبيا عنا ، فنحن لا نود إلّا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ننصرها وتنصرنا ، ونعتز بها وتعتز بنا . ." حينئذ لا مراء أن الرجل داعية لاستقلال مصر التام ولم يكن تلبّسه بالجامعة الاسلامية يعني أنه يحطب في حبل العثمانيين أو يريد استبدال الانجليز بهم أبدا .

وأخيرا فشعار الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل وما صحبه من روح ديني عنده لم يكن مدعاة إلى الطائفية والتعصب الديني ، بل هو روح تسامح

---

(١) مصطفى كامل لرافعي ص ٤٤٠ .
(٢) انظر : المصدر السابق ص٣٤٦-٣٤٨ ، الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٧٠-٨٠ .
(٣) انظر : الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص٨٦-٩٠ .
(٤) مصطفى كامل للرافعي ص ٣٥٣ .

وتآلف ، وهو وان ركز على أهمية الدين فى التعليم وأكثر فى أقواله الحديث عن المسلمين لم يكن غافلا عن حقوق أرباب الملل الاخرى مع المسلمين ، والوطنية التى كان نضاله لبعثها لم تكن بمعزل عن الدين ، والدين لا ينافيها ، بل يرى أنهما توأمان متلازمان(١) ، وهو فى مقاله عن (رابطة الدين و الوطن) (٢) يوضّح كل ذلك فيقول :" نجد فى مصر أمة مشتركة ، جزء منها هو الاقباط وجزء عظيم هو المسلمون ، وعلينا واجبان عظيمان : واجب ديني وواجب وطني ، فالواجب الديني يُحتّم على الأقباط أن يُحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ، ويدافعوا عنها أقوى الدفاع ولا ملام عليهم إذا انعطفوا إلى إخوانهم فى الدين والعقيدة (ثم يذكر واجب المسلمين الدينى مثله) هذا واجبنا الديني نُصرّح به أمام الملأ ولا نخشى فى ذلك أحدا ، أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والاقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطنا لهم لخدمة هذه الديار العزيزة ، والسعي وراء استقلالها وحريّتها . ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا . بل إننا جاهرنا بأن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، وأن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمي مصر هو نفسه الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط ، وإلى هنا تنتهى الدعوة للاتحاد الجنسي والاتفاق الوطني ، وليس فى خدمة الاسلام أو الدعوة لاتحاد المسلمين شىء من التعصب الدينى أو من المخالفة للمبادىء الوطنية الحقيقية . بل إنّ التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن وحسبنا دليلا (حب الوطن من الايمان) " .

فى كل هذه الابعاد السياسية والدينية نخلص الى أنّ مصطفى كامل وقد احتفى بالوحدة الاسلامية ووعى الثمار التى تُغِلّها ، ورغم الروح الوطنية المهيمنة على جهاده وتحفزّه العظيم لها ، لم يدع الرابطة الدينية أو يتنكّر لها ، بل عرف لها قدرها ومكانتها وجهد كثيرا للاستعانة بها ، وقد مزج - فى رأيي - بين رابطة الدين ورابطة الوطنية دون أن يرى أى تعارض بينهما ، ولذلك جاءت عنده تلك الحفاوة بالدين الإسلامي والمسلمين والدولة العثمانية حاميا لجميع ، ومهما بلغ حماسه وجهاده واعتناقه لفكرة (الوطنية) كما رأينا قبل قليل ، فلا يمكن قبول بعض المبالغات التى تجعل أخذه بشعار الجامعة

---

(١) انظر مصطفى كامل لرافعى ص ١٤٦ ، ١٤٧ " من إحدى خطبه" .

(٢) اللواء ١٦ يناير ١٩٠٠م نقلا عن : أدب المقالة الصحفية فى مصر ٦/٥٩ ، ٦٠ .

الاسلامية انما هو وسيلة لتحقيق تلك العقيدة الوطنية [1] أو تكاد ، وإنّما هو جمع بينهما كما تشهد أقواله ، جمع بين عقيدته الدينية وعقيدته الوطنية جمعا ليس إلى إنكاره من سبيل ولم يرأيَّ تعارض بينهما، بل كل منهما يشدّ الآخر وذلك مايجب فهمه عن هذا الفتى الذى قاد (الحزب الوطنى) فكان لمنهجه هذا أعظم الأثر فى النكاية بالاحتلال والتنكّر لوجوده ومقاومته ، وهو نهج لو سارت عليه سياسة مصر بعده، واجتنبت تلك القومية المصرية الضيقة وذلك الحوار والمهادنة للمحتل لما كان له أن يمكث فى مصر قرابة سبعين عاما ولم يخرج إلا حين عادت تلك الروح الاسلامية وأذكت روح المقاومة ، فصفعت وجهه وضربت قفاه بالعرجون ، فولّى مدبرا بعدما أضاعت سياسة الحوار والمهادنة الفاشلة عشرات السنين، لم تحقق للأمة فيها خيرا ، بينما جنى فيها المحتل أعظم مآربه وزرع أكثر بذور الشر والفساد التى خلّفها تنخر كيان امتنا بعده .

---

(١) انظر : الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ص ٩١ ، ٩٣ .

(٤) مصطفى لطفى المنفلوطـى (١)

تأتى هذه الإشارة الى الكاتب الأديب المشهور مصطفى لطفي المنفلوطي لاسهامه الجليّ فى موضوع هذه الدراسة وإن لم ترد الإشارة إليها عند أكثر دارسيه الذين وقفت عليهم ، واذا كانت هذه الدراسة تسهم فى إبداء هذا الجانب المغمور فإنها لا تنكر الاعجاب ببعض الباحثين المتعمقين والمعاصرين للمنفلوطي الذين أكدوا وجوده ومشاركته فى الاهتمام بالجامعة الاسلامية كما سنرى هنا .

وإذا كان المنفلوطى كما هو معلوم من نشأته وسيرته قد رُبِّي تربية دينية ، حفظ القرآن الكريم صغيرا وتعلم فى الأزهر ، وكانت أسرته ذات دين ونسب شريف ، وأنه اتصل بالشيخ محمد عبده فى سنوات دراسته الأولى بالأزهر فإنّ كل هذه العوامل تحدونا أن نخالها ذات أثر كبير فى اتجاهه إلى معالجة شئون جامعة المسلمين واتحادهم ، ومع ذلك فيجوز أن يكون لعصره الذى كثُرت فيه مناقشة هذه الوحدة حافز للخوض فيها مجاراة لأحداث العصر ومواكبتها .

وحين يتجه النظر إلى أدب المنفلوطى الذى يُسعف على جريانه فى هذه الوحدة نجد عددا من الصور والمظاهر التى تؤكدها رغم سعة الأغراض

---

(١) ولد مصطفى المنفلوطى فى منفلوط التابعة لمديرية أسيوط بمصر سنة ١٢٨٩ من أسرة عُرفت بالعلم والتقى ، وتعلّم فى الأزهر صغيرا فشغف بالأدب وانصرف عن كتب الأزهر ، ولكنه بعد ما ترك الأزهر اتصل بمحمد عبده وتلاميذه ، وبدأ يكتب فى الصحف مقالات وقصائد حتى لمع اسمه وذاع صيته على صفحات المؤيد ، وذلك عند ما خرج على الناس بنظراته التى حملت أسلوبه العربى الرائع ، والذى تتلمذ عليه بعد ذلك أكثر شداة الأدب فى الوطن العربى ، وقد عمل محررا فى وزارة المعارف ثم وزارة الحقانيه حتى توفى سنة ١٣٤٣ وهو فى العقد الخامس من عمره .
انظر فى ترجمته :
النظرات (ج ١) المقدمة ، الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثه ٢٨٩ ، مصطفى لطفى المنفلوطى الكاتب ـ الدكتور محمد محمد ابو الانوار ـ رسالة ماجستير ـ ١٩٦٦م ـ كلية دار العلوم .

الكثيرة التى عالجها ، ذلك بفنه الذى استحوذ على معاصريه ولا يزال حيا ومُحببا إلى اليوم.

فالمدنية الغربية التى تأثر بها بعض معاصريه وتعدّوا ذلك إلى الافتتان بها والدّعوة إليها ، وقد كثرت الروافد التى تنقلها ، يلمح فيها المنفلوطي أمرا عظيما وشأنا خطيرا ، ومعالجة بعض الكُتّاب لها فى صورة عابثة تبعد عن الجد تجعله يؤكد رسالة الأديب التى يؤمن بها " إنّ فى أيدينا معشر الكُتّاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا كما أدّاها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة (١) ولا متآكله ، فإن فعلنا فذاك ، وإلا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكُتّاب الأمناء" (٢) .

فالأمة المسلمة ذات كيان متميز وشخصية مستقلة ، تنفرد عن الأمم الأخرى بأخلاقها وعاداتها وآدابها ، وهى حين تعصف بقوامها هذا لاتلوى البحث عن بديل تُقيم حياتها عليه ، فإذا انغمست فى الحضارة الغربية فبماذا تفترق عن أهلها ، وماذا يبقى لها من أصالتها ومدنيتها التى تقوم على أساس من دينها ؟

إنّ انجراف المسلمين إلى تقليد الأمم الأخرى يقطع كثيرا من أواصر الإخاء وعناصر التقارب والمشاركة مع إخوانهم فى الدين ، ويعمل على ضعضعة الشعور بالانجذاب إليهم ، بل إنّه يخلق الفجوات داخلهم إذا تمادوا فى تقليد غيرهم ، ويبعث على الغربة التى يحسها المرء حين ينتقل من أمته إلى أمة أخرى ، هذه الآثار البعيدة لارتماء المسلمين في الأخذ - بدون وعى - من الحضارة الغربية هو فى ظني ماحدا بالمنفلوطى أن يطالب ببقاء مصر فى عداد الأمة الاسلامية ، ويحذّرها من الميل - في تلك الفترة - إلى حضارة الغرب ويقول (٣) : " الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية ، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ماجرى نيلها فى أرضها ، وذهبت أهرامها فى سمائها حتى تُبدّل الأرضُ غير الأرض والسماوات .

---

(١) المأروضة : التى أكلتها الأَرَضَة .
(٢) النظرات ١ / ١٢٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه.

إنّ خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تُدنى إليه أجله ، وتُدنيه من مهوى سحيق يُقبر فيه قبرا لا حياة له من بعده إلي يوم يبعثون .

لا يستطيع المصرى وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلّا كالغربال من دقيق الخبز ، يمسك خُشارة ويفلت لبابه ، أو الراووق [1] من الخمر ، يحتفظ بعقاره ويستهين برحيقه ، فخير له أن يتجنبها جهده ، وأن يفرّ منها فرار السليم من الأجرب" .

بل إنه ليؤكد الدعوة إلى وعى حضارة الإسلام لأبناء أمته ليركنوا إليها ولا يتعلقوا بغيرها " إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك ، وإن دعوناهم إلى مكرمة فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة ، وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه لا آيات روسو وباكون و نيوتن وسبنسر ، وإن دعوناهم إلى حرب ، ففى تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ، مايغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون " .

هذا التنفير من المدنية الأوروبية الذى يحتدّ المنفلوطي فيه إلى هذا الحدّ ، يجب الاّ يُظنّ أنه رفض لكل جوانب هذه المدنية ، كلا ، فالرجل على وعي وبصيرة نيرة وهو يناقش موضوعه ، فهو - شأن المسلم اليَقظ - لا يُعارض الأخذ من جوانب الخير التى فيها ، بل يطالب بالأخذ النافع منها كما قال [2] "لا مانع من أن يعرّب لنا المعرّبون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كُتّابهم وشعرائهم ، على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية مُسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طربا متهوّرا ولا مانع من أن يَنقل إلينا الناقلون شيئا من عادات الغربيين ومصطلحاتهم فى مدنيتهم ، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط فى العلم والتوسع فى التجربة والاختبار ، لا على أن نتقلدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا فى استحسان مانستحسن من شئوننا ، واستهجان مانستجهن من عاداتنا " .

---

(١) أى المصفاة .

(٢) النظرات ١٢٣/١ .

أما ماوراء ذلك فمدنية الغرب لهم ومايجب على كُتّاب الأمة وقادتها تجاه ذلك " ألّا يخدعوا أمتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ولا يزينوا لها تلك المدنية تزيينا يرزؤها فى استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي" وليُعلم أنّه ليس من عادات القوم واخلاقهم الشخصية الخاصّة مايُحسَدون عليه .

وعندما تهجّم اللورد كرومر - مندوب الاستعمار الانجليزى بمصر - فى كتابه (مصر الحديثه) على الإسلام بكثير من التخرصات ، ومنها اتهامه بالجمود وعدم اتساعه للمدنية الإنسانية ، وأن الدين المسيحي يصلح لما لا يصلح له الإسلام ، مستدلاً على الإسلام بسوء حال المسلمين وما سوى ذلك، ترى المنفلوطى يتعجب من الذين يتعجبون ممّا أتى به هذا الكاتب، ذلك أنه مسيحيّ متمسك بيسوعيته التى تعتقد كما يعتقد بنوها أن الاسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربي أمي لم يتعلم فى حياته شيئا ، فلا محل للغرابة عندما يطعن هذا المسيحي فى عقائد الاسلام وشرائعه [1] ، وبعد إفاضة من المنفلوطي فى تبيين فضل الإسلام على العلم وتشجيع أهله ومباركته للمدنية والعمران وعدم تعارض ذلك مع روحه ، يُذكّر بفضله على النهضة فى أوروبا ، أمّا عندما يتهم كرومر المسلمين بالتعصب بسبب سعيهم فى قيام جامعتهم الإسلامية فالمنفلوطى يقرّ بما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، وما لحق بهم من الضعف والفتور، ولكن الاسلام ليس سبب ذلك أبدا ، بل إن المسيحية هى التى سعت بين ملوك الاسلام الضعفاء وأمرائه الجهلاء حتى أفسدوا عليهم عقائدهم ومذاهبهم وأوقعوا الفتنة بينهم حتى بعدوا عن روح الإسلام وتمزقوا ، ويختم ذلك كله بقوله [2] مخاطبا كرومر : " ايها الفيلسوف التاريخى ، لاتقل إنّنا متعصبون تعصبا دينيا فانك قد أسأت إلينا وإلى ديننا ، فلم نَربُدّا من الذب عنا وعنه بما تعلم أنّه حق وصواب ، على أنه لاعار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الدينى الا اتحاد المسلمين يدا واحدة على الذود عن انفسهم والدفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

---

(١) انظر : النظرات ١/ ١٦٢، ١٦٣

(٢) المصدر السابق ١/ ١٧١

إن كان رفضا حبُّ آلِ محمدٍ ∴ فليشهد الثقلانِ أنّي رافضُ"

وحين خُلِعَ السلطانُ عبد الحميد (١٣١٧/١٩٠٩م) يتأثر المنفلوطي لذلك الحدث الأليم الذى يرى فيه عبرة الدّهر ويشعر أن الأمة فقدت من كان ملاذا لاتحادها وقوتها ، ويسائل منذ هلا ذلك القصر العظيم الذى كان ينزله السلطان ، ثم يسائل السجن الجديد الذى رحل إليه ، ويستفهم الدهر مندهشا من دورانه وتقلبه ، ثم يخاطب الراحل المودّع معظّما شأنه ، متعظا بعبرة الدهر فيه [1] .

وعندما حضر المصلح الإسلامى (اسماعيل بك عصبر نسكى) [2] من بلاد الروس إلى مصر يدعو المسلمين إلى مؤتمر إسلامى عام ، يهش المنفلوطي للأمر ، ويعظم هذا الداعى فى نفسه وفى مقصده النبيل فهو يقول [3] : " سرّني منظر ذلك الرجل العظيم ، والداعى الكريم ، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخوم ويتخطى البلدان ، ويطوى الغبراء طي الكواكب الخضراء ، ويقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ، ونفس كبيرة وقلب مشيّع ، وفؤاد فى الأفئدة كالنسر فى الطيور ، يحلّق فى جو الإسلام تحليق مَن يحاول أن يظلله بجناحيه .

سرنى منظره ، وإن لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم ، ويؤلّف بين قلوبهم ، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوّة الأولى ، إلّا أن تلك عربيةتدعو الأعجميه وهذه أعجمية تدعو

---

(١) انظر فصل الجامعة الاسلامية (مدح السلطان) ، النظرات ٢/١٩ - ٢١

(٢) اسماعيل عصبر نسكى (١٨٥٩-١٩١٤م) من كبار رواد الدعوة والاصلاح الاسلامى فى العصر الحديث ، وفى شبه جزيرة القرم عاش وبث آرائه الاصلاحيه ، وكان يصدر جريدة (ترجمان) ١٨٨٣-١٩١٤ التى نالت مكانا ممتازا فى العالم الاسلامى ، وكان يقرؤها مسلموا القوقاز وقازان وسيبيريا وتركستان وبعض مسلمى الصين ، واعتنى بنشر التعليم الاسلامي ، وعمل بجدّ وإخلاص على تعارف المسلمين وتلاقيهم كي يتحدوا ويخرجوا من تخلفهم وضعفهم حتى مات ، وكان ذلك دافعه إلى زيارة حواضر العالم الاسلامى كالقسطنطينية والقاهرة وسواها ، ليلتقى بعلماء الاسلام ومفكريه ويدرسوا حال أمتهم .
انظر : تراجم الاعلام المعاصرين فى العالم الاسلامى - انور الجندى ٥٩ - ٦٨ .

(٣) النظرات ٣/١٣٠ .

العربية الفصحى " .

هذا الداعى إلى مؤتمر يعيد فيه المسلمين إلى تضامنهم ذهب بالمنفلوطى إلى أيام أمجاد أمته ، وتذكّر بعزيمة هذا الداعى أبطال الإسلام وقادته ، الذين جمعوا بجهادهم وحدة الأمة وشادوا عزّها ، وصانوها من الشتات والضياع ، ثم قاده بعد ذلك إلى ذكر حال الإسلام وقد ضربه الدهر ورماه بنكباته وسرت العلل فى اجزائه ، عندئذ انتابه الحزن كما يحزن الأشيبُ من ذكرى الشباب وقال (١) :"أمضنى مايمض العاشق المفارق إذا مر بالآثار وأطلال الديار ، فرأى النوءى والأحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ومجرّ الذيول ، فذكر ما كان ناسيا ، وهاج من وجده ماكان كامنا ، فبكى واستعبر" .

رأى المنفلوطى أن عصره يعيش جاهلية كالجاهلية الأولى ، والتى كانت متفرقة شعوبا وقبائل ، وجاهلية عصرة متفرقة منازل وبيوتا ، وآحاد أو أفرادا فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، وهذه الجاهلية المعاصرة كمايراها تأخذ مظاهرها فى أكثر شئون الحياة ، ويراها أضاعت الدين فيسأل عنه ويبحث عن موطنه كأنه لايراه ! ، فالأمر عنده أنّ هذه الجاهلية أحوج إلى الدعوة والاصلاح من الجاهلية الأولى .

أمّا حين يشارك فى إصلاح حال هذه الأمة كما رآها ، فانه يدعو إلى البدء بتهذيب العقائد الدينية ، إذ هى الأساس لكل إصلاح واتحاد ناجحين ، ويحث على تربية النشء تربية اسلامية لاتربية مادية ، وأن يؤتى إلى الاصلاح من باب الدين ، وليكن هو الزاجر والمؤدب ، ويحذّر من خطورة جعله تابعا للعقل ، أو أنّ العقل هو الحَكَم بينهم وبين دينهم ـ كما راجت هذه الدعوة فى عصره ـ فالخير أنْ يكون الدين حاكما والعقل مفسّرا أو مبيّنا ، ثم يقول (٢) :" فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناه ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شىء ، وتمّ للمسلمين مايريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية كما تم لهم ذلك فى العهد الأول " .

وحين يُتوفى الشيخ علي يوسف وهو صديق المنفلوطى الذى على

---

(١) النظرات ٣ / ١٣٢ .
(٢) السابق نفسه ٣ / ١٣٥ .

صفحات مؤيده الذائعة عرف الجمهور المنفلوطي كاتبا نابها، حينئذ يعتصره الحزن والأسى ، فتقرأ اللوعة والحُرقة فيما كتب في وفاء وحق ذلك الصديق ، إلا أنّ ما يعنينا هنا هو تذكيره بمضاء الشيخ علي يوسف في خدمة الجامعة الإسلامية قارنا بينه وبين الشيخ محمد عبده الذى أسهم هو الآخر بجهد لا يُنكر في سبيلها ، فهو يقول عنهما [1] :" ماكنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين . . فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكتافها ، يمسكها الأول (محمد عبده) أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها ، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحدا ، فويل للأمة في دينها ، وويل لها في جامعتها" .

بكل هذه الجهود في سبيل الوحدة كان المنفلوطي في نظرى أحد فرسان الوحدة الاسلامية ، وهذا ما رآه هاملتون جب [2] والعقاد مما يعزز ما نذهب إليه ، الا أن الاستاذ العقاد قال [3] " لكن انتسابه (أي المنفلوطى) إلى الشرف النبوي هو الذى قرّبه من شيخ الطرق الصوفيه ، وزج به في منازعات الخلافة ومناوراتها" .

---

(١) النظرات ٣ / ٤٣ .

(٢) دراسات في حضارة الاسلام ـ هاملتون جب ص ٣٤٢ ـ ترجمة د . احسان عباس ، د . محمد يوسف نجم .

(٣) رجال عرفتهم ص ١١ نقلا عن رسالة : النثر الفني المصرى في العصر الحديث ص ١٨٩ ، عبد الباظ احمد على حموده .

(٥) عمر بن قـدّور الجزائرى [1]

لا يخفى أن احتلال الفرنسيين للجزائر واستعمارها كان مبكرا وبخاصة إذا ما نظرنا إلى ما احتله بعدها ، لقد دخل الاحتلال الجزائر سنة (١٢٤٧ / ١٨٣٠م) بينما لم يقدم على احتلال تونس إلا بعد ذلك بنصف قرن من الزمان (١٢٩٨ / ١٨٨٠م) ، فى هذه الفترة المتقدمة من الاستعمار أدرك الفرنسيون أن الشعب الجزائري يناضلهم بروح دينية قوية [2] تربط الجزائر بأمتهم الاسلامية ، وأن وراء هذه الروح محاذر يجب التنبه لها حتى يسلس لهم القياد .

لقد حرصوا حين وجدوا هذه الروح على ضرب سور حديدي على الجزائر بغية عزلها عن العالم الإسلامي ، وعملوا على إقامة الحدود الاصطناعية الوهمية لعزلها عن جيرانها ، ومع أنّ هذه خطة الاستعمار المعادي للإسلام فى تمزيق الأمة الواحدة ، وهدف لضرب كل تعاون وتكاتف واقامة فجوات وعزلة بين كل متجاورين فضلا عن المتباعدين ، مع ذلك فقد كانت هذه الخطة تأتي بثمار عكسية لما يريده المستعمرون .

هذا الكاتب والصحفى عمر بن قدّور الجزائرى - رغم ضحالة المعلومات عنه - عاصر هذا الاستعمار ودافعه بما أُوتى ، إلا أنّ اهتمامه باتحاد الأمة

---

(١) عمر بن قدّور الجزائرى ، رائد من رواد الصحافة الوطنية فى الجزائر ، عاش فى الجزائر وعُدّ من شعرائها مناضلا للاستعمار كسائر مصلحي عصره ، وكانت حياته بين عامى ١٨٨٦-١٩٣٢م ، أصدر جريدة (الفاروق) ١٩١٣ ثم أصدرها فى مرة ثانية سنة ١٩٢٠م بعد توقّفها ، كان كثير الكتابة والمراسلة والاتصال بالصحف والمفكرين فى العالم الاسلامى ، ونشر ما كتبه فى خمسة عشر دوريه فى المشرق والمغرب .
انظر فى ترجمته : شعراء من الجزائر ، صالح خرفى ص٣٧-٥٥ - ط ١٩٦٩م معهد الدراسات العربية - القاهرة ، مجلة الأصالة (وزارة التعليم الاصلى والشئون الدينية بالجزائر) عدد (٥٨-٥٩) رجب وشعبان ١٣٩٨ - يوليه ١٩٧٨م ص ٥٥-٦٥ - مقال : عمر بن قدور الجزائرى الدكتور محمد ناصر .

(٢) انظر : الشعر الدينى الجزائرى الحديث - الدكتور عبد الله ركيبى ١٢-٤٢ .

الاسلامية كان قمة فكره ونضاله حتى جعله أحد الباحثين (رائد الدعوة إلى التضامن الاسلامى) (١) .

كان سعيه فى هذا المضمار عظيما ، وكان فيه سابقا لأهل موطنه ، وتجلى ذلك فى مقالاته التى حفلت بها جريدته (الفاروق) (٢) طوال عمرها ، وقبل ذلك بمقالاته التى كان يبعث بها إلى الجرائد الاسلامية فى الاستانة والقاهرة والمغرب .

ومع ذلك فهو يسعى جاهدا فى مهمته هذه التى أخلص لها ، فيقدّم للأمة الاسلامية (مشروعا عظيما) ليكون نواة للتعارف بين ابنائها بعد أن سألهم " هل فى الامكان تأليف جماعة من مفكري مسلمى الجزائر وتونس والمغرب الاقصى ، تُدْعَى " جماعة التعارف الاسلامي " ؟ .

لقد شعرنا باحساس شريف يسرى بين المفكرين فى هذه الأمة الاسلامية فى غضون مانفثته صدورهم ولذلك رأينا أن نهذب هذا الاحساس ونزيده طموحا . . . يُنصّب هذا المشروع العظيم أمام أعين اخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم . . . فليبذلوا كل نفيس لاعلاء التعارف بينهم . . . وإننا لننظر جواب كل فرد منهم على السؤال أعلاه ليتسنى لنا أن نسجله فى دفتر التعارف . . . وحصر كافة الانصار فى مشاهدة الائتلاف والاتحاد حيث يسهل العمل على الأثر . . . " (٣) .

ويمضى بعد هذا المشروع الذى تفتقده الأمة وتحتاجه ليدرس شأن الأمة دراسة شاملة ليرى مكمن الداء وشرّ البلاء ، فتفرق المسلمين وتضارب أهوائهم واختلافهم علّة عللهم كما يقول (٤) : " إنّ كل مسلمفي هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة ، بل هو تركى ، أو عربى أو بربرى بحسب العناصر ، أو مغربى أو جزائرى أو تونسى أو سورى أو مصرى . . . بحسب الأوطان ، وذلك التناقر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التى كانت تربط كل مسلم بأخيه وإن كان

---

(١) مجلة الاصالة (المرجع قبل السابق) .
(٢) أصدرها ١٩١٣م فى الجزائر وتوقفت سنة ١٩١٥م .
(٣) جريدة الفاروق عدد ٦٦ فى ٢٢ / ٦ / ١٩٠٤م نقلا عن مجلة الاصالة (المرجع السابق) ص ٥٩ .
(٤) المرجع السابق نفسه ص ٦٠

أحدهما بأقصى الشرق والاخر بأقصى الغرب ...".

هذا التفرق الذى لاتعدمعه الأمة غرور وعجب بنفسها وهى تشرف على الزوال أو تكاد جعله يُشَخِّص داء الأمة المودي بها فى عنوان إحدى مقالاته قائلا : قصور، ثم فتور، فريح الدبور، وسكنى القبور، فهل من نشور ؟.

وهو يزيد تشخيص داء الأمة عناية، فيرى أنّ الجهل وتسلّط الأجنبى من العوائق التى تصيب الأمة وتحول دون نهضتها واتحادها، فالجهل الذى توقعه خرافات المتصوفين (١) بالأمة تحجر على الدين مجاراة العصر ونهضته، وتَسلُّط المستعمر أنشأ طائفة من الشباب المتفرنج المغرم بالحضارة الغربية، فأغشى أبصارهم وأضلهم عن طريق الدين وفصلهم عن قوميتهم الإسلامية.

أمّا الدواء الناجع الذى يلح على المسلمين أن يأخذوه فهو كما يرى (٢)" إنّ المسلمين لايهمهم فى هذا العصر إلا إصلاح حالتهم الروحية وتنظيم هيأتهم الأخلاقية.

وهذه الغاية تهم المسلمين جميعا لأنهم إذا تمكّنوا منها تُشرق عليهم شمس القومية الاسلامية التى جاء بها المرسلون، وبشر بها النبيون، وهى لاتتوقف الا على إصلاحات اعتقاديه، وعملية تبرز بعدها إلى عالم الظهور ... ومن ثم يستأنف التاريخ فى تدوين دور جديد للقومية الاسلامية".

واذا كان عمر بن قدّور قد ذكر القومية الإسلامية فما هى هذه القومية عنده وما تصوّره لها ؟.

إنّه يحدد تصورها من نفس نظام الاسلام، ثم هىَ بعد ذلك ـ كما

(١) كانت الصوفيه بطرقها المتعددة منتشرة فى أكثر الزوايا المتعددة فى الشمال الافريقى ومنه الجزائر، وقد كان للصوفيه أثرسيء فى فهم الدين إن لم يكن ساعد الاستعمار على تثبيت اقدامه فقد عانى منه رجال الاصلاح ودعاته عندما نهضوا بدعوتهم للاصلاح ومحاربة الاستعمار، وادى الى صراع بين المصلحين وارباب الطرق كما ظهر فى ادب الجزائر الحديث انظر: الشعر الديني الجزائرى الحديث ٢٣، ٥٦١ ومابعدها.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦١.

قال(١) : " تنحصر فى قضيتين أو ثلاث الاولى الإخلاص لفالق الحب والنّوى فى السر والعلانية ، والثانية الاستقامة نحو هذا المجتمع الإنسانى . . . والثالثة هى اعتبار أنّ المسلمين إخوة قبل كلّ شيء . . . تلك الرابطة هى قوة روحية إذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يحن إلى أخيه حنوا لا يرى به عند أخيه عيبا يُنكره عليه أو شذوذا يخذله بسببه ، رابطة حث عليها الإسلام قبل أن يحث على الصلاة والصيام ، فأصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين، وقلوبهم صخور مرصوصة إلى بعضها ، يتألّف منهم سور ضخم لا تهزّه زوابع الشقاق ولا تمسّه أمواج التخاذل" .

بهذا الفهم للجامعة الاسلامية عند الكاتب ، والذى يسميها (القومية الاسلامية) يرى أنّ إخاء الإسلام وعقيدته هى الرابطة التى تجمع كافة المسلمين شرقا وغربا، فهم إخوة قبل كل شىء ، ولا عبرة بما بعدها من المذاهب أو الأجناس، وهم بهذا التضامن قوة تسند الأمة ضد الأعاصير التى تتقاذفها .

إنّ هذا الكاتب الذى تحمّس لهذه الدعوة ورسخ إيمانه بها لم يكن مندفعا وراء آماله العريضة وخيالاته المجنّحة ، ولم يكُ متجاهلا واقعه والعقبات التى تقف فى سبيل دعوته ، وهو مع ذلك لم يخر عزمه ولم يجبن أمام هذه الصعوبات ، مضى يمحض النصح ويُحذّر المسلمين مما سيواجههم فى سبيل تضامنهم من عقبات ، وما يلزمهم من صبر وحكمة فى معالجة واقعهم المرير ، وهو مع ذلك ذو روح متفائلة ، يبشر بسهولة تخطى الصعاب ، ولا ييأس من قيام تضامن إسلامى وسط ذلك الزمن العصيب ، بل يقول (٢) : " الباحث عن جرثومة تلك الصورة الاصلية (للقومية الاسلامية) يعثر عليها ساكنة تحت صور مدلهمة أحدثها تبدّل الزمان والناس وأخلاقهم ومحيطهم ، ولقد حصل لها ضير عظيم من جراء طلوع تلك الصور الحاضرة ، ولكنه ضرر غير مزمن أو مهلك ، ولذلك فليس من العسير علاجه لأن هذا الداء هو عبارة عن نسيان الناس لأهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل وتملك الاجنبى" .

بكل هذه الحفاوة بتضامن الأمة الاسلامية لا نعدم نزعة عثمانية

---

(١) انظر الشعر الدينى الجزائر الحديث ص ٦١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦٣ .

وولاء للخلافة لدى هذا الكاتب (١) ، فهو يثأر لاعتداء ايطاليا على طرابلس، ويستحث الهمم لمؤآزرة العثمانيين فيها ، كما أنه يؤكد على حياة الشعور الإسلامى فى الجزائر ، وحرص الجزائر على متابعة كل الحوادث المتعلقة بالسلطنة ، وماذا يدور ويصدر فى بلاط خليفة المسلمين ، ذلك رغم المضايقة الشديدة التى فرضها المستعمرون الفرنسيون على كل مايبعث على إذكاء هذه المشاعر أو يثيرها .

هكذا بكل هذه الإشارات ، وهذه النتف من كتابات عمر بن قدّور مضى بأسلوب سهل بسيط لا تكلف فيه ولا تعقيد يدعو إلى التضامن الإسلامى ويبشّر بقيامه ، وينبه على العوائق التى تعمل على إحباطه وضعفه ، وجاهد فيه بدأب وعزيمة لا تعرف الخوَر ولا تتنكر للجد والمثابرة ، وهو بكل هذا - كما يُلاحظ - بحق رائد من روّاد التضامن الإسلامى أو القومية الاسلامية كما كان يحلو له أن يسميه .

---

(١) انظر: المرجع السابق نفسه ص ٨٥، مجلة الثقافة (أصدرتها وزارة الاعلام والثقافة بالجزائر، العدد الاول (محرم ١٣٩١ / مارس ١٩٧١ م) ص ٨٥-٨٩ ، مقال : ليتقوا الله فى طرابلس، العدد السابع (محرم ١٣٩٢ / مارس ١٩٧٢ م) ص ١١٥-١١٨ ، مقال : الشعور الاسلامى فى الجزائر .

(٦) كتاب آخرون في العالم العربي :

بجانب تلك الكوكبة من الأدباء الذين أولو الجامعة الاسلامية والرابطة الدينية عناية عظيمة وحفاوة كبرى ، وكان إخلاصهم وحماسهم لها جليا في آثارهم وسيَر حياتهم كما مرّ بنا ، بجانب هؤلاء نجد ثُلة من الأدباء والكتاب والمفكرين الذين لايُنكر إسهامهم وعنايتهم بهذه الجامعة ومواكبة أحداثها وتطوراتها ، هذه الثُلة أكثر عددا من تلك الكوكبه الأولى وهي تتوزع - كما سنرى باذن الله - على أكثر أرجاء الأقطار العربية ، بيد أن الذى يجب مراعاته هنا - قبل أن نعرض لها - أنّ الإتيان بها في هذه المرتبة الثانية قد قادت إليه عدة أمور :

(١) إن حفاوتهم بهذه الوحدة كما تبين من آثارهم التى أمكن الاطلاع عليها أقل من حفاوة الادباء السابقين رغم اهتمامهم الواضح بها .

(٢) إنّ ماتوفر لهذه الدراسه من آثارهم ، والتى يمكن من خلالها رؤية جهد هم في هذا المضمار لم تتوفر عن عدد منهم ولم يُتَح الاطلاع عليها شأن أحد صعوبات هذا البحث .

(٣) إنّ بعض هؤلاء الأدباء من هذه الثلة أسهم في فترة من حياته بجهد واضح في مضمار هذه الوحده بيد أنه بعد ذلك أعرض عنها إمّا لعارض أو غيره، وإمّا لتطور في فكره بحيث أصبح يعالجها بصورة باهتة ، وهذا لايجعل من الإنصاف الادبي الإغضاء من جهودهم في هذا الاتجاه .

(٤) إنّ هذا الترتيب وإن اقتضته في رأيي طبيعة هذا الفصل وتنظيم البحث لايعني تقليل جهود هذه الثُلّه من الكتاب والادباء في الوحدة الاسلامية، بل ربما كان تطلعهم إليها لا يُقل عن تطلع الكوكبة الأولى إلى تحقيقها وأملهم الكبير فيها .

(٥) إنّ الوقفات البسيطه التى وقفها البحث مع الطائفة الأولى حسبها الإشارة التى تغني عن مثيلاتها عند الادباء الآخرين ، ذلك أنه لو وُقف مع هؤلاء الاخرين مثل سابقيهم لتعدى هذا الفصل حدّه الذى ينبغي مراعاته في حجم رسالة علمية ، ولذا فان البحث سيقنع - مضطرا - مع هذه الثلة الاخيرة باللمحة الموجزة العجلى دون خوض

فى تفصيل أو مناقشة .

وبعد هذا كله ينبغى التنبه إلى أنّ هناك كُتّابا وأُدَباء مزجوا بين تأييد الوحدة الإسلامية ومعارضتها ، مما يُمكن أن يُسمى التيار الوسط أو نطلق عليهم الكتاب المزدوجين ، مثل ابراهيم المويلحى [1] وغيره ، بل إننا نجد بعض مظاهر معارضة الوحدة التى سنأتى إليها ـ بحول الله ـ عند بعض كتاب هذا الفصل الذين وسمناهم بمؤيدى الوحدة وأنصارها ، لكن لما هو معروف من الغالب على أمرهم وفكرهم أنهم حريصون على تلك الوحدة جعلناهم فى هذا الفصل ، وأما حين نعرض لأى ظاهرة أو قضية فاننا سنستفيد ممن تعرض لها بأى وجه كان ، إذ المقصود عندئذ توضيح القضية المتناولة وتكاملها ، ولعل هذا يدفع وهما قد يعترض قارئ هذا البحث ، حين يجد كتابات فى القسم المعارض للوحدة من هذا البحث ، و هى من كُتّاب سبق أن ذُكِرَ أنّهم من أنصارها المخلصين .

أما حين نريد ذكر هؤلاء الكتاب الذين جعلناهم بعد طائفة سبقتهم فاننا نجد مايلى :

فى الجزائر :

هؤلاء الأدباء الذين تتوزعهم أكثر الاقطار العربية لو بدأنا بمن هم في الشمال الافريقي فإنا نجد فى الجزائر **الشيخ عبد الحميد بن باديس** [2] الذى

---

(١) ابراهيم بن عبد الخالق المويلحي (١٢٦٣/١٣٢٣) أديب مصرى وكاتب صحفى قوى الاسلوب اشتغل بالتجارة ، ثم أنشأ مطبعة عمل بها فى الصحافة ، وأنشأ جريدته (مصباح الشرق) سنة ١٣١٥ه فلاقت نجاحا كبيرا بين الخاصة فى مصر ، وعند ما خُلِع الخديوى اسماعيل (١٢٩٧) دعاه للاقامة فى اوروبا فلبث معه بضع سنين أصدر فيها بضع جرائد ، ثم زار القسطنطينيه (١٣٠٣) وبقى بها حوالى عشر سنوات عاد بعدها إلى مصر ليخرج على الناس مقالاته التى سماها (ماهنالك) فى وصف حال دار الخلافه وانتقاد سياسة السلطان ـ انظر : أدب المقالة الصحفيه ـ الدكتور عبد اللطيف حمزة ـ الجزء الثالث.

(٢) ابن باديس زعيم النهضة الفكرية فى الجزائر الحديثه ومؤسس جمعية العلماء بقسنطينة (١٣٠٧/١٨٨٩م) وتوفى (١٣٥٨/١٩٤٠) وهو من أشهر علماء الجزائر الذين قاوموا الاستعمار ونشر الإسلام وأحيا

يحرص على إحياء الشعور الاسلامي والرابطة الدينية ، ويجاهد المستعمر الذى حاول كبت هذه المشاعر فيقول [١] : " ان الاتحاد الإسلامى والوحدة العربية بالمعنى الروحي ، والمعنى الأخوى ، هما موجودان تزول الجبال ولا يزولان ، بل هما فى ازدياد دائم ، بقدر مايُشاهد الناس من عمل فى الغرب ضد العروبة والاسلام" .

وهو يُعْنَى بالرابطة العربية الإسلامية ويباركها فى فترة كان بعض القواد السياسيين لا يحفل بها ، فهو يقول فى احدى خطبه [٢] (١٣٥٥/١٩٣٧) مشيدا بالعروبة والعربية معا : " أمّا بعد فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيله ، حُورِبَتْ فيكم العروبة حتى ظُنّ أن قد مات منكم عرقها ، ومُسخ فيكم نُطقها ، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلُكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر ، وتَهدِر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل ، ويهز كُتابكم أقلامها فتصيب الكُلى والمفاصل" .

وإلى جانب ابن باديس وجمعيته التى جاهدت لحفظ الجزائر مسلمة من ذلك المكر والكيد الذى اتخذه المستعمر لسلخها عن أمتها الاسلامية نجد مناضلا آخر هو "**محمد السعيد الزاهري**" [٣] ، جسم الزاهري شاعر

اللغة العربية ، وكان خطيبا بارعا ومصلحا بارزا، ترك بعض تآليف أهمها تفسير القرآن الكريم . انظر : ترجمته وأخباره : ابن باديس حياته وآثاره . د / عمّار الطالبى .

(١) مجلة الثقافه (الجزائر) عدد ٧ محرم ١٣٩٢ مارس ١٩٧٢م ص ١١٦ .

(٢) ابن باديس حياته وآثاره ، د . عماره الطالبى ٣ / ٥٥ ، نقلا عن تطور النثر الجزائرى الحديث د . عبد الله ركيبى ص ٢٦ .

(٣) محمد السعيد الزاهرى ، أديب مناضل وشاعر وصحافى من الجزائر عاش بين سنتى ١٨٩٩-١٩٥٦م، اتسم بغزارة انتاجه ، ويميل كشأن مفكرى عصره إلى التربية والإصلاح والتى كان الاستعمار اعظم حافز لها .

انظر مجلة العربى (الكويت) عدد ٣٧٣ ديسمبر ١٩٨٩ م مقال : الزاهرى : اديب مناضل من المغرب العربى ص ٦٠-٦٣ ، ويلاحظ أن جميع الاقتباسات الوارده للزاهرى هنا من هذا المقال ، تطور النثر الجزائرى الحديث ١٣٨ .

الأخوة في ذلك الاتصال الذى جعله ينشر إنتاجه فى كبريات الدوريات العربية في الجزائر وتونس والقاهرة ودمشق ، ثم هو مع ذلك وإن احتفى ببلده الجزائر لايلبث أن يحلّق فى موضوع العروبة والإسلام ، فهو يحتضن المغرب العربى ويناديه بتأليف وحدة عربيه تكون دعامة فى بناء وحدة عربية كبرى، وذلك فى الثلاثينات من هذا القرن فهو يقول : " إنّ الشباب العربي الناهض، لافرق بين الجزائري منه والتونسي وبين أحد منهما والمراكشي ، بدأت عقليته فى اتجاه واحد ، وبدأ شعوره يكون شعورا مغربيا واحدا ، إذا تم ذلك - وسيتم إن شاء الله - سيكون كل مفكّر فى الجزائر أو في تونس أو فى مراكش يفكّر بالمغرب العربي ، لا بخصوص جهته " .

ويربط بين مغرب الوطن العربى ومشرقه حين يتحدث عن (مكانة مصر في المغرب العربى) حيث أنّ كل حركة دينية أو أدبيّة فى مصر لها صدى قويّ فى المغرب ، " إنّ تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبينات على أنّ المغرب العربي يرتبط بمصر ، منذ العصر الحجرى بكثير من روابط النسب والحضارة والدين .

وإنّ الذى هو مابيننا .. وما بين مصرٍ لمحضُ النسبْ
رباطُ العروبة يجمعنا .. ويجمعنا ديننا والحسبْ

وهذه العروبة المضمّخة بروح الدين هي التى جعلته ينسج تلك المقالات التى وسمها بعنوان " الاسلام فى حاجة إلى دعاية وتبشير" ويكتب دراسته المطوّله عن " عروبة البربر " (١) فى أسلوب قصصى وروائي شيّق .

فى تونس :

تجد **محمد بيرم التونسى** (٢) ، وقد رأى نكبة الاحتلال الفرنسى حلّت ببلاده (١٢٩٨ / ١٨٨٠م) ثم كشف المحتل عن أباطيله التى كان

---

(١) نشرت مقالاته الأولى فى مجلة الفتح فى أواخر العشرينات ، وكتب دراسته المطوله فى الثلاثينات الميلاديه فى المقتطف .

(٢) محمد (بيرم الخامس) بن مصطفى، عالم ومؤرخ تونسي ، عاش بتونس وعند ما احتلتها فرنسا (١٣٩٨ / ١٨٨٠م) خرج إلى الاستانة وبقى بها فترة ثم اتجه إلى مصر فأصدر بها (١٣٠٢) جريدة الاعلام وتوفى بها ١٣٠٧ .
انظر : ترجمة لنفسه فى ملحق بالجزء الخامس من كتابه : صفوة الاعتبار بمستودع الامصار .

يروجها لشرعية دخوله واستعماره، وحاول عزل تونس عن أمتها الاسلامية الكبرى التى تجمعها فانبرى الشيخ محمد بيرم يبحث قضية بلاده باستفاضة، ويبين ارتباط تونس بالسلطنة العثمانيه، وإنّ دخول الفرنسيين عدوان صارخ عليها، وفصّل ذلك فى قسمين ألحق أحدهما بالكلام على تاريخ تونس والآخر على تاريخ فرنسا [١]، وجاءت كتاباته لهذا الحدث كما قال أحد الباحثين[٢] "مثالا فريدا . . . من تاريخ الأدب التونسي لفنّ الرسائل، السياسية وكان له نفوذ عظيم على وضع أصول الاحتجاجات للنضال السياسي الذى طفح به تاريخ هذا القرن ".

فى مصر :

أمّا فى مصر حيث كانت حرية الفكر أرحب من غيرها، ومع تلك النهضة التى بدأت تفيد من مادية الغرب الحضارية والفكرية، وحيث ازدهرت الصحافة ودور النشر، وقد أقام فيها جمال الدين الافغاني بضع سنوات (١٢٨٩/ ١٢٩٧)، (١٨٧١/ ١٨٧٩م) ، والتفّ حوله كثير من مريديه وتاثروا بفكره وتحمسوا لارائه وحملوها من بعده .

والذى لا مراء فيه بعد التتبع والدراسة أن تلاميذ الافغانى فى مصر كانوا من أظهر من دعا إلى الجامعة الاسلامية بها، وتصوّرهم لها ولمفهومها قريب جدا من رؤية الافغاني لها .

فهذا هو **الشيخ محمد عبده** [٣] فى الفترة الأولى من حياته

---

(١) انظر صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار ـ محمد بيرم الخامس التونسى ١/ ١٣٢-١٥٦، ٣/ ١٣٠-١٣٨، ٥/ ٣١ .

(٢) الحركة الادبية الفكرية فى تونس ـ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص٣٤ .

(٣) محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣) من أشهر دعاة الاصلاح والتحرر من التقليد فى العصر الحديث، ولد فى محلة نصر بالبحيرة من ديار مصر، وتعلم بالأزهر فى صباه وتأثر بالتصوّف، وعمل فى التعليم والصحافة وشارك فى ثورة عرابى، فنُفي عن مصر مدة ثم عاد إليها فى عهد الاحتلال، فعين قاضيا فمستشارا فمفتيا للديار المصرية حتى وفاته.
انظر : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده (ثلاثة أجزاء) محمد رشيد رضا ، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، احمد أمين ٢٨٠ .

وقد نُفي إلى بيروت يقول (١) :"إنّ مَن له قلب من أهل الدين الاسلامى يرى أنّ المحافظة على الدولة العلية العثمانيه ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ، فإنّها لوحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلةّ ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان فى سواها . . . وإني على ضعفي والحمد لله مسلم العقيده ، عثماني المشرب ، وإن كنت عربى اللسان ، لا أجد فى فرائض الله بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله فرضا أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته ، والخضوع لجلالته ، وشحذ الهمّة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وعندي إنْ لم أقم على هذا الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني ، فإنّما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان ، فخاذلها محاد لله ورسوله ، ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون"

ثم هو يشترك مع أستاذه الأفغانى فى إصدار صحيفة "العروة الوثقى" التى احتفت بالوحدة الاسلامية كثيرا ، ويخشى من خلاف ينشب بين العرب والترك فيوهن قوة الفريقين مما يُسَهّل الأمر لدول أوروبا كي تثب على ديارهم فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته، لأن هذين الشعبين أقوى شعوب الاسلام آنذاك (٢). بكل هذه الإشارات وغيرها مما يشابهها (٣) لا يخامر المرء الشك فى حفاوة الشيخ محمد عبده بالجامعة الاسلامية ، الا أن المطالع لآثاره لا يعدم بعد ذلك إشارات أُخرى تُعارضها وتخالفها ، فهو بالمقابل كان قليل الثقة في تمكن الاتراك العثمانيين من القيام بتوثيق التضامن الاسلامي وتحقيقه (٤) ، وهو عندما خاف استغلال العثمانيين لحوادث (الثورة العرابية) لإعادة مصر إلى التبعية المباشرة للخلافة ينفى هذا الأمر ويعدّه وهما ، ويعتبر جميع المصريين يكرهون الأتراك ولا يريدون ذكرهم ، وأنهم ظلمة ولا يريدون رجعتهم التى ستحمل المصريين على مقاومتهم (٥) ، ثم يتعدى ذلك إلى التصريح بكراهته للسلطان عبد الحميد عدة

---

(١) الاعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ٣ / ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٧٣٥ (مقال: العرب والترك) .

(٣) انظر الاعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١ / ١٠٩ ، ١١٥ ، الاتجاهات الوطنيه فى الادب المعاصر ١ / ٣٢٩-٣٣٦ .

(٤) المصدر السابق ١ / ١١٠ .

(٥) الاعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١ / ٣٩٢ ، ٣٩٣ (مقال دفاع عن حكومة الثوره)

مرات ويصفه بالسلطان المستبد [١] .

أمّا حين استشاره الشيخ رشيد رضا عندما أراد إصدار (المنار) وليجعل من اهدافها تعريف الأمة بحقوق الإمام ، والإمام بحقوق الأمة قال له [٢]: " إنّ المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وإن الكلام في الإمامة مثار فتنة يُخشى ضرره ولا يُرجي نفعه الآن" وأخيرا فإن مفهومه للجامعة الاسلامية عندما رد على " هاناتو المستشرق الفرنسي ومستشار مستعمراتها الاسلامية" هو مفهوم التضامن الاسلامي في سبيل الإصلاح الديني والاستفادة من وجود الدولة العثمانية في دفع عجلة هذا الإصلاح إلى الأمام ، أمّا التوحيد السياسي فليس في خاطر أحد .

ومهما قيل عن وجود هذا التناقض في فكر الشيخ محمد عبده [٣] هذا فحسبنا هنا أنّ فكر الشيخ قد مال في آخر عمره إلى البعد عن المفهوم السياسي للجامعة الاسلامية ، وأنها فكرة تقوم على مُثُل عليا وعواطف يشترك فيها كل المسلمين على أساس من التعاليم والثقافة الإسلاميه ، وأنه أسهم بمشاركة لاتُنكر في هذه الوحده مهما تكن تغيرت أو تطورت في فكره ، فقد أسهم فيها بنصيب معلوم .

كما نجد بمصر **الشيخ عبد العزيز جاويش** [٤] الذى لايخفى تعلّقه بالجامعة الاسلامية كما يظهر في علاقته الوطنية" بالحزب الوطني ورئيسه (مصطفى كامل) والذى كان حريصا على حسن العلاقة بالدولة العلية والمحافظة عليها ، وعند وفاة مصطفى كامل (١٣١٦ / ١٩٠٨م) يولّيه الحزب رئاسة تحرير اللواء ، ويخرج على الناس بتلك المقالات الملتهبة" التى لاتُخفي تعلقه بالدعوة إلى الجامعة الاسلامية" وحَدَ به على شعوب أمته الاسلامية [٥] ،

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ١ / ٧٣٣ ، ٧٣٧ ، (مقال: حديث عن الدوله العلية) .

(٢) المصدر السابق ٧٣٤/١ ، (مقال الرد على هاناتو) ، ١ / ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١٠٤ - ١٠٥ ، الاتجاهات الوطنيه في الادب المعاصر ١ / ٣٢٩ ، مصر وحركة الجامعة الاسلاميه ٤٧ - ٥٣ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٤١ .

(٥) انظر عبد العزيز جاويش - أنور الجندى ص ٦٤ .

وحين قام الايطاليون بحرب طرابلس (١٣٢٧ / ١٩١١م) ينبرى جاويش لنصرة العثمانيين و موءازرتهم فيها ، ويحث على جمع التبرعات ويهاجم بعنف شديد صنائع الاستعمار الذى استنكروا المساعدة فى هذا الجهاد [١] .

لقد استمر منافحا عن دولة الخلافة حتى بعد ما خُلِع السلطان عبد الحميد وخشى أكثر العرب من سياسة الاتحاديين [٢] ، ونجده يهاجر إلى الأستانه (١٣٢٨ / ١٩١٢م) ويصدر بها مجلة (الهلال العثماني) والتي حاول فيها أن يقيم الألفة والاتحاد بين العرب والترك ، ولم يكن فى هذه الفترة من أنصار الانفصال عن الدولة العثمانية [٣] وإنّما كان على مثل رأي الأمير شكيب ارسلان ، الذى يهدف إلى معارضة الاتجاه الذى يرمي إلى تمزيق الدولة العثمانية ، لأنّ ذلك وسيلة للقضاء على قوة العالم الإسلامي .

وهناك **الشيخ علي يوسف** [٤] ، صاحب (الموءيد) الذى أولى الجامعة الاسلامية والرابطة العثمانيه عناية واضحه فى القول والكتابة والعمل [٥] فهو عندما زار الاستانة مع خديوى مصر وكتب عن هذه الرحله يَلحّ على تقوية رابطة الاتصال بين مصر ودار الخلافة العظمى ، ويكشف عن تضليل أوروبا وتآمر دولها على عداوتها ، ونظرا لحفاوته بالسلطان والجامعة العثمانية يُنعم عليه السلطان عبد الحميد بعدد من الألقاب والأوسمة العالية تقديرا لجهوده ومسلكه .

واعتقد علي يوسف أنّ التضامن بين الشعوب الاسلامية والدولة العثمانية أمر ضرورى لحفظ هذه الشعوب ، وهاجم المحاولات التى تجري فى البلاد العربيه للاستقلال عنها ، ذلك كله فضلا عن مواقفه الموءآزرة للسياسة العثمانية كما ظهرت فى كتاباته : فى أزمة العقبه (١٣٠٩ / ١٨٩٢م) والحرب التركية اليونانية (١٣١٤ / ١٨٩٧م) والحرب الطرابلسية (١٣٢٨ / ١٩١١م) -

---

(١) انظر فصل حوادث العالم الاسلامي من هذا البحث "الحرب الطرابلسية" .

(٢) انظر مجلة الهدايه" عبد العزيز جاويش" يناير ١٩١٠م ص ٦٦-٥٤ مقال "مدرسة التبشير الاسلامي" .

(٣) انظر : عبد العزيز جاويش ص ١١٢- ١١٣ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٠٨ .

(٥) انظر أدب المقاله الصحفيه ٤ / ٤٨-٦١ ، السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية ص ١٣٢-١٣٥ .

وغيرهـا .

وفى نهاية حياة علي يوسف نجد موقفه السابق يتغير ولم يعد ذلك المتحمس للجامعة العثمانية ودولتها ، وقد كان ذلك التغيّر مع بداية عصر الوفاق بين الخديوي عباس وسلطان الاحتلال الانجليزى بعد ما عُزِل اللورد كرومر، فقد كتب آنذاك [1] إن الجامعة الإسلامية كعقيدة سياسية غير موجودة ويفسر ذلك بأن "الجامعة الإسلاميه قسمان "دينية وسياسية" والدينية موجودة بوجود العقيدة الاسلامية ، والسياسية غير موجودة ولم توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الاسلامية . . وهي المصلحة . . ذلك أن المسلمين إذا أوجدوا جامعة اسلامية سياسية أوجد غيرُهم جامعة مسيحية وهكذا فتكون المضرة من ذلك عليهم" وفي هذا مايدل على ارتباط سياسة علي يوسف بالخديوى فى الفترة الاخيره من حياته وتقلبها بتغيراتها ، فهي وإن استندت على الخلافة - كما رأينا - فإنها فى حقيقتها كما انتهى بها الأمر لم تعد مرتبطة بالجامعة العثمانية .

و **ولي الدين يكن** [2] ، رغم قصائده ومقالاته اللاذعة فى انتقاد الحكومة العثمانية ، ورغم ما كان يوجه من ذم وطعن إلى السلطان عبد الحميد [3] فهو إنما يريد بذلك الإصلاح لا الخروج على الجامعة العثمانية، ويؤكد ذلك كونه من دعاة الجامعة الاسلامية فى أول أمره وكان يعنى بشئون تركيا أكثر من شئون مصر التى أُقام فيها، ويدعو لتأييدها ويدافع عن السلطان عبد الحميد ورجاله [4]، حتى إن السلطان غمره بعطفه وأنعم عليه بأحد الرتب .

ولقد بلغ حماس ولي الدين لنزعته العثمانية أنه كان يُنازع الوطنيين المصريين اتجاههم إلى حكم مصر بأنفسهم ويقول [5] : " إنما أُحدث بيننا الخلاف أنّه

---

(١) المؤيد عدد (٥١٠٨) سنة ١٩٠٧م نقلا عن ادب المقاله الصحفيه فى مصر ٤ / ٦٠ ، وانظر الصفحات ٦١ ، ٦٢ .

(٢) سبقت ترجمته ص ١٤٠ .

(٣) انظر نماذج منه فى : الصحائف السود ٧٢ - ٧٥ .

(٤) انظر فى الأدب الحديث ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ .

(٥) انظر : المصدر السابق ١ / ٤١٤ .

" يريد عبد الله النديم احد هؤلاء الوطنيين" كان عدوا للعثمانيين وهو قد ما ممن يقولون : " مصر للمصريين، ونحن نقول : مصر للعثمانيين " .

والأستاذ **أحمد حسن الزيات** (١) وإن لم تغلب المسائل الدينية على فكره النيّر، هو ركن مكين فى بناء الوحدة العربية ومدماك مرصوص لكيان الوحدة الاسلامية (٢)، كيف ولو لم يكن له الا " الرسالة " لكفاه نضالا فى هذا المجال فهي التى حملت العالم العربى فى قلبها ، والعالم الاسلامي بين جوانحها، وجمعت بين علماء الفكر والأدب والثقافة ، وقطعت المسافات إلى كل قطر ، وأفسحت صفحاتها للكتاب من كل مصر ، وردمت الفجوه التى أقامها الاستعمار وألاعيب السياسه بين أبناء العالم الإسلامي ، لو لم يكن له إلا " الرسالة " أم الأيادى البيضاء على الأدب والفكر، والتى قال فيها أحد رجال مصر وقد سافر إلى الشرق بعد احتجابها " لو أن الحكومة (المصرية) اغلقت سفاراتها فى الشرق وأبقت على الرساله لكان خيرا لها وأجدى عليها" (٣) .

لو لم يكن له إلا هذه (الرسالة) التى شرّقت وغرّبت فى سماء البلاد الإسلامية لكفاه فخرا أن يُعد من رجال الاتحاد والتضامن الفكري والادبي ، وهو اتحاد لا يُنكر مداه فى أيّ وحدة تكون ، قضية الوحدة فى الرسالة وحدة سياسية ووحدة فكريه معا ، وإذا كانت العروبة فى مناط هذه الوحده فالزيات يجلّى هذه الوحدة بأنها إسلامية ويقول (٤) " لا نطمع أن نجعل من الوطن العربي الذى قطّعه الغاصبون الآكلون دويلات أو لقيمات يسهل ازدرادها ، وحدة كاملة ، وذلك فوق الطاقة الآن ، لأنه عمل لم يقو عليه من قبل غير محمد صلى الله عليه وسلم ، ولن يقوى عليه من بعد غير رجل من رجال محمد صلى الله عليه

---

(١) أحمد حسن الزيات (١٣٠٢ / ١٣٨٨ م) أديب من كبار الكتاب المتفننين فى مصر، ولد وتعلم بمصر وعمل أكثر حياته فى التدريس فى مصر والعراق ، وكان من أعضاء مجمع اللغة العربية فى القاهرة ومجمع دمشق أيضا ، وأعظم اعماله اصداره مجلته الذائعة (الرسالة) سنة ١٣٥٣ واستمراره فى رئاسة تحريرها أكثر من عشرين عاما ، إضافة الى عدة مؤلفات ومترجمات اخرى .
انظر : الزيات والرسالة - محمد سيد محمد ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة مجلد ٢٤ ص ٢١٣ .

(٢) انظر الزيات والرساله . محمد سيد محمد الفصل الرابع قضايا الرساله .

(٣) المرجع السابق ٢٠٢ .

(٤) الرسالة العدد ٦٠١ - ٨ يناير ه ١٩٤ مقال " اذكرو يا زعماء العرب " .

وسلـم " .

ويؤكد الزيات نزعة التضامن فى كتاباته الخالدة التى دبّجها ، فهو يدعو أمة التوحيد لتتّحد [١] ، ويرى أنه لابد للمسلمين من مؤتمر يُعقد باستمرار [٢] ولا عذر لهم فيه ، وليكن لهم مثل جِدّ المبشرين والمستعمرين التى لا تنقطع اجتماعاتهم ، ثم تجده يُنفّر من الإقليمية الضيقة [٣] ، ويُحذّر من التعصب المؤدي إلى الفرقة [٤] ، فضلا عن عنايته بحال البلاد الإسلاميه وأحداثها ومتابعة شئونها وتقلباتها [٥] ، كل ذلك مع احتفاء بالأعياد الإسلامية والمناسبات الدينية [٦] ، والتى تنم عن روح متشربة بالاسلام ، واعتزاز بأنه النور والسعادة فى هذه الحياة .

ومصطفى صادق الرافعى [٧] بنشأته الدينية وثقافته الإسلامية العريقة لم يغفل عما يتعلق بقوة الأمة الاسلامية وتآلفها ، وأن لا تفوته تآمرات أعداء الإسلام التى عاصرها ونتائجها الوخيمة على أمته ، فالحرب العامة الأولى التى سمع أهوالها وجعلته بانسانية يقول [٨] : " وأنا يابُنيّ فى خاصة نفسى أكرها لحرب لأنّى أراها تُصَوِّر بكلّ ألوان الهلاك والخراب فكرةَ العدم المبهمة على قطعة من أديم الارض ، وأمقتها لانها تلوّث الحياة بدماء الرجال ثم لا تغسلها إلا بدموع النساء والاطفال ، وأبغضها لانها تدفن تاريخها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر الا تاريخها المشوه فى أعضاء الجرحى " ، هذه الحرب يراها بفلسفته إنها سبب فى رجوع الناس بعدها إلى الانسانية الخالصة ، وهى كذلك ضرورة اجتماعيه لن يخلو منها تاريخ الإنسانية إلا إذا رجع الناس أمة واحدة فى تركيب لا يقسمها على نفسها ، أما سبب هذه الحرب فهو

---

(١) انظر وحى الرسالة ـ احمد حسن الزيات ١ / ٤٩ ، ٢ / ١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٣٠٨ .
(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٤٥ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٤٩ (مقال : فرعونيون وعرب) .
(٤) المصدر السابق ٢ / ٢٦٦ (مقال : العصبيه داؤنا الموروث) .
(٥) المصدر السابق ١ / ٤٥ ، ٦٨ ، ٢٩٥ ، ٤٢٥ ، ١٩٩ ، ٤٦٢ .
(٦) المصدر السابق ١ / ٣٠ ، ١١٢ ، ١٨٠ ، ٧٢ ، ٤٠٣ ، ١٣٣ ، ٢١٠ ، ٤٨٥ .
(٧) مصطفي صادق الرافعى (١٢٩٨ / ١٣٥٦) أديب وكاتب وشاعر لامع ، عاش في مصر ، وأصيب بالصمم وكانت له نزعة اسلامية واضحة فيما يكتب ، وألف بعض كتب تدل علي تضلع علمي وقدرة فائقه له ديوان شعر ، وعديد من الكتابات الادبية التى امتازت باسلوبه العذب الرصين .
انظر : حياة الرافعي ـ محمد سعيد العريان ، الادب العربي المعاصر في مصر ـ شوقي ضيف ٢٤٢ .
(٨) المساكين مصطفي صادق الرافعي ص ٢٢٦

فساد الحضارة الغربية وضلالها ، وتحويلها روح الإنسانية إلى الحالة المتأزمة الساخطه تحب القتل والعدوان ، فكانت الحرب العظمى تنقيحا إلاهيا عنيفا لهذه الحضارة الزائغة (١) .

والرافعي فيما يبدو إنما يرمي إلى إظهار نزعة الإسلام الإنسانية والتى بها يتآلف البشر على وجه الارض ويتعارفون عليها شعوبا وقبائل ولا يختصمون ، ولعله يومئ من طرف خفيّ إلى روح الجهاد فى الاسلام والتى لا تتنكر للنزعة الانسانية وإنما تمضى فى سبيلها بخلاف مآرب الحروب المعاصرة وذلك مادفعه إلى التساؤل متى تكون الحرب حقا ومتى تكون الحرب باطلا ؟ (٢) وحين ألغى كمال اتاتورك الخلافة الاسلاميه رمز اتحاد الأمة ينبري الرافعى يفضح حقيقة أمره وتناقض سياسته وتلاعبه بالأمة وعواطفها ، ثم يؤكد تنكره للاسلام وعداءه له ، ولا يعدم الإشارات الرمزية إلى غرور مصطفى كمال وأنه صنيعة أعداء الإسلام ، والذين لا يريدون للامة قوة ولا اتحادا وإنما يسرّهم أن يتفرقوا أوزاعا وشيعا (٣) ، وإذا اتجه العرب إلى بديل يجمعهم بعد الخلافة حيث كانت المناداة إلى جامعة عربية تنهض بهم ، فالرافعى يؤكد أن أي نهضة واجتماع بدون أن يركن إلى الدين الاسلامي واللغة العربية لا قيمة له فلا غنى له ولا قوام بدونها ، والشرق العربى مادته الإسلام ، وما الإسلام فى حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمي إلى شدّ أزر المنتمين إليه من كل جهة (٤) .

وحين يتعرض لنكبة فلسطين باليهود يرى القضية قضية العرب والمسلمين جميعا ، والمسئولية فى ذلك عليهم وحدهم ، وتراه حينئذ يخاطب العرب لينهضوا بواجبهم ، ويذكّر شبابهم بالمكائد التى تُدار حولهم ، ويناشد المسلمين نصرة فلسطين ومساعدتها فهي محنتهم جميعا ، وأن يتبرعوا للجهاد

---

(١) انظر تحت راية القرآن مصطفى صادق الرافعى ص ٣٦٨ فصل (رأيى فى الحضارة الغربية) .

(٢) انظر مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الاسلاميه فى أدبه ص ٧٥ ، ٧٦

(٣) انظر وحى القلم الجزء ٢ / ٢٠٩ - ٢٢٩ .

(٤٠) المصدر السابق ٣ / ١٧٠ مقال :" نهضة الأقطار العربية "

فى سبيلها ، وليفرضوا على السياسة احترام مشاعر المسلمين ، فان المضطهدين هم اخوانهم والأرض المغتصبه من ديارهم [١] .

واخيرا فالرافعي بنزعته الاسلامية الصافيه التى اصطبغ بها أدبه ـ كما رآها دارسوه [٢] ، لو لم يكن له الا سفره العظيم "تحت راية القرآن" لكفى المرء أن يعده داعية تضامن إسلامي تحت شريعة الكتاب العزيز [٣]، نابذا لكل مذهب وتيار من الشرق أو الغرب يريد الهيمنة عليه ، ففي ظلال هذا القرآن قامت أعظم وأفضل وحده عرفها البشر،وليس غريبا أن تقوم هذه الوحده ويدعو إليها على مدى الزمن رجال أحسّوا عظم المسئوليةّ واستشعروا أمانة الكلمة فى الحياة .

فى بلاد الشام :

كُتاب آخرون نجد منهم **رفيق العظم** [٤] والذى سبق أن رأيناه ينافح عن الجامعة الاسلامية التى أظهر بعض مفكرى الغرب وزعمائه تخوفهم منها [٥] ، ورأى أن ما أوقع المسلمين في الحيرة " ووقف بهم عن السيرمع الأمم الراقية فى سبيل المدنية الصحيحة" ،وكشف مابينهم وبين الأمم المتمدنة فرموه بكل نقيصه ونالوهم بكل سوء إلا انفصام عروة وحدتهم الدينيه ،والخروج عن قانونها الجامع الذى يرمي إلى غرض الاجتماع الصحيح والمدنية" الفاضلة"، ويريد الشعوب على توحيد الكلمة لضرورة القيام على شئون الحياة المدنية ، وإنما يتحقق معنى الحياة فى قوم إذا أعزوا جانبهم ،وذادوا عن حوضهم ، وكانوا يدا على من ناوأهم ، وأقسطوا فى المعاملة إلى من عاداهم ،وهذا

---

(١) انظر : وحى القلم ٢ / ٢٤٠ - ٢٦٠ مقالات " ياشباب العرب" ، و "لو" و " الأيدى المتوضئة " و" أيها المسلمون " .

(٢) اشهرهم كاتبان
١) عبد الستار السطوحى فى كتابه : الجانب الإسلامى فى أدب مصطفى الرافعى .
٢) الدكتور على عبد الحليم محمود فى كتابه : مصطفى صادق الرافعى والاتجاه الاسلامى فى أدبه .

(٣) انظر تحت راية القرآن ص ٥٠ ، ٥١ .

(٤) سبقت ترجمته ص ١٢١ .

(٥) انظر فصل الجامعة الاسلاميه من هذا البحث ص ١٢١

مايريده الاسلام " (١) .

وبجانب قوله هذا نجده يُثني على السلطان عبد الحميد بالإضافة إلى كتابته العلمية عن فضل الاتحاد ونفعه للبلاد والعباد(٢) ، أمّا عندما يكتب في السيرة النبوية وتاريخ السياسة الاسلامية فهو يولي نظام السلطة في الاسلام ومقام الإمامة العظمى - الخلافة - اهتمامه الذي لايخفى . وهو حين تولى الاتحاديون سلطة الحكم في الدولة العثمانية وعملوا على بعث العصبية التركية ، وشاب الأمة العربية نفور من هذه السياسة يحرص على بقاء الجامعة العثمانيه(٣) ، ويحاول معرفة داء هذه النفرة والقلق واسباب سوء الظن بين الترك والعرب ، ويدعو ساسة الترك إلى الوفاق ، فالعرب - كما يرى - لا يتعصبون للجنسية ولا يسعون لإقامة خلافة عربية كما أشيع عنهم .

وفي الشام نجد أيضا الكاتب الأديب **بدر الدين النعساني**(٤) الذي مال إلى ماسار إليه كبار مصلحي عصره من الكتابة في إصلاح أمر المسلمين ورفعة شأن الثقافة والحضارة العربية والاسلامية(٥) ، ومع ذلك زار كثيرا من البلاد الإسلامية وعرف أحوالها ومنها عاصمة الخلافة ، ولعل أهم ما تتجلى

---

(١) مجموعة آثار رفيق بك المعظم" القسم الثاني" ص٥ ، جمعها شقيقه : عثمان العظم .

(٢) المصدر السابق ص١٣٢

(٣) المصدر السابق ص١١٨-١١٤ "رسالة الجامعة العثمانيه والعصبيه التركية"

(٤) ابو فراس محمد بن بدر الدين بن مصطفى رسلان النعساني من أهل حلب ، كاتب أديب ، تعلم بالأزهر ثمان سنوات فلم ترقه الدراسة فيه فمال الى حلقة الشيخ محمد عبده وتلامذته ، ثم زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامي وعاد الى حلب معلما للعربيه بها ، وفي الحرب العامة الاولى آزر الدولة العثمانيه بكتاباته ، فلما انتهت ترك السياسة وقضى حياته إلى آخرها بين التعليم والتأليف وكانت حياته بين سنتي (١٢٩٨/١٣٦٢) .
انظر : قدماء ومعاصرون : سامي الدهان ص٢٤٦-٢٦٣ ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد ١٩ ص ٤٧٠ .

(٥) انظر : قدماء ومعاصرون ، ٢٥٠ .

عنده ، تلك النزعة العثمانية التى مضى فيها إلى شوط بعيد من حياته حيث اشتغل بالتدريس فى المدرسة السلطانية التابعة للدولة بحلب ، وعندما قامت الحرب العامة الأولى واشتركت الدولة العثمانية فيها كانت بحاجة إلى دعاية وتبشير لها فى البلاد العربية ، فأُرسل النعساني إلى المدينة النبوية ليصدر فيها بأول هذه الحرب جريدة (الحجاز) ويحررها بقلمه [1] ويدعو فيها للسياسة العثمانية ، ويُنفّر ممن يخالفونها أو يريدون الخروج عليها فى البلاد الحجازية .

فى العراق :

كان المجتهد الشيعي **محمد الحسين آل كاشف** [2] **الغطا** أشهر من نهد للاتحاد الإسلامى بهذا القطر كما تدل على ذلك إحدى الدراسات المعاصرة ، وأنه كان متحمسا لهذه الوحدة حتى قيل عنه [3]: " إنه بلغ الذروة وقل من زعماء الدين من تبنى الوحدة الاسلامية بأسلوب عاش عقلية العصر . بدأها قبل نصف قرن بكتابه (الدين والاسلام) وقد لاقى من أجله المصاعب حتى اضطرت السلطات التركية إلى إتلافه ، وضيّقت الخِناق على مؤلّفه مما اضطر معها للسفر إلى البلاد العربية طلبا لحرية آرائه ومعتقداته " .

واذا كانت المراجع لم تسعف برؤية فكر الرجل وتصوّره للجامعة

---

(١) انظر : التراث الأدبى فى المملكة العربية السعودية - د . محمد عبد الرحمن الشامخ ص ٧٣ .

(٢) محمد حسين آل كاشف الغطا (١٢٩٥-١٣٧٣) أديب إمامى من أهل النجف ، كان كاتبا وشاعرا وانتهت إليه الرئاسة فى الفتوى ، وكان من زعماء الثورات والحركات الوطنية والتحريرية التى احتدمت فى العراق خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجرى ، ولم يعدم مكانه طيبة فى البحث والتأليف حيث اخرج بضعة عشر كتاب تركها وراءه ،
انظر : الادب العصرى - رفائيل بطى - الجزء الثانى - من قسم المنظوم ٧٢-٩٢ ، أساليب المقالة وتطورها فى الادب الحديث والصحافة العراقيه . ٣٦ ومابعدها .

(٣) شعراء الغرى - على الخاقانى ٨ / ١١٢-١١٣ نقلا عن : أساليب المقالة وتطورها فى الادب العراقى الحديث والصحافة العراقية . ٣٧ .

الاسلامية اضافة الى عدم توفر الكتاب المذكور، فالذى يظهر أنه لا يريد الجامعة الإسلامية تحت مظلة الحكم العثمانى، وإلّا تكون تحت لواء الخلافة، وإلا لما ضايقته السلطات العثمانية، فربما نزع بالجامعة الاسلامية منزعا عربيا على الصورة التى تريد الخليفة أن يكون عربيا على نحو ما كان يرى عبد الرحمن الكواكبي، أو أنه أراد بها مجرد التعاون والتضامن بين الشعوب الاسلامية دون خضوع مباشر لسلطان الخليفة، كما كان يرى ذلك بعض دعاة الجامعة الاسلامية ومنهم بعض تلامذة جمال الدين الأفغاني ..